الشعر العراقي

في القرن السادس الهجري

مزهر عبد السوداني

دار
الرشيد للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(٢١٥)

١٩٨٠

الشعر العراقي
في القرن السادس الهجري

مزهر عبد السوداني

المقدمة

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الادب العباسي، فان الباحث يجد ان الاكثرية المطلقة من الباحثين انصرفوا الى الفترات المتقدمة من العصر العباسي كالقرن الثاني والثالث والرابع، حتى اذا وصلنا الى اواخر القرن الخامس وما بعده فسوف تشح الابحاث وتندر، وهذا القليل النادر منها لا يتناول سوى بعض اعلام النحاة كابن الشجري وابن الخشاب.

ان صعوبة الوصول الى بعض مصادر الفترة الاخيرة من الدولة العباسية، وكذلك المستوى المتواضع الذي يغلب على شعرها، لا يبرران هذا الاهمال الذي لقيته من جمهور الدارسين والباحثين.

لقد حاولت في رسالتي هذه ان اصل ما انقطع من دراسات عباسية، فبذلت ما استطيع كي اعرف الناس على حال الشعر العربي العراقي قبل سقوط دولة بني العباس سنة ٦٥٦ هـ.

ان حدود العراق في القرن السادس تختلف عن حدوده في العصر الحديث وخاصة من ناحيتي الشمال والجنوب، فياقوت الحموي (المتوفى ٦٢٦ هـ) يحدد العراق في ايامه قائلا: «.. اول العراق في شرقي دجلة العلث[١].. وفي غربي دجلة حَرْبىَ[٢] ثم تمتد الى آخر اعمال البصرة من جزيرة عبادان.. ومن العُذَيْب بالقادسية[٣] الى حلوان[٤]...»[٥]، وابن الاثير (المتوفى ٦٣٠ هـ) يشير الى أن العراق هو المسافة الممتدة بين البصرة وتكريت[٦]، وهذا التحديد للعراق من الناحية الجغرافية يفهم ايضا من

(١) موقعها بين عُكْبَرا وسامراء. معجم البلدان ٦ / ٢٠٩

(٢) موقعها بين بغداد وتكريت

(٣) أي قادسية الكوفة لا قادسية سامرا. معجم البلدان ٧ / ٦.

(٤) موقعها في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

(٥) معجم البلدان ٥ / ١٥٩.

(٦) الكامل في التأريخ ٨ / ٣٠٥ (ط. الاستقامة)، وانظر ايضا حول هذا الموضوع: نصرة الفترة ٢٦١، الفخري ص ٣١٢ (ط. دار صادر).

تقسيمات العماد الكاتب (المتوفى ٥٩٧ هـ) في الخريدة، لأن القسم العراقي منها لا يحتوي على شعراء الموصل ونواحيها.

وبعد تحديد العراق لا بد من تحديد المراد بالشعر العراقي.

ان اعدادا غفيرة من الناس في الفترة التي ادرسها قضت فترات طوالا تطلب العلم في العراق، واستقر بعضها فيه بعد انتهاء مرحلة الدراسة، كذلك هجرت العراق، لاسباب كثيرة، طوائف من العلماء والادباء الى الاقطار المجاورة واستقرت فيها، فكيف نعرف الشاعر العراقي؟

لقد اخترت في هذا الموضوع المبدأ الذي التزم به العماد الاصفهاني في خريدته، وهو ان العراقي كل من ولد في العراق، وان ترك العراق بعد ذلك ومات في بلاد اخرى.

ان القرن السادس الهجري يبدأ من الناحية التاريخية سنة ٥٠٠ هـ، وينتهي سنة ٥٩٩ هـ. أما من الناحية الادبية فان الامر يختلف والآراء تتباين، على الرغم من الاجماع على ان الظواهر الادبية لا يمكن اخضاعها لاحداث التاريخ وسنواته. وقد اخترت مذهبا وسطا فبدأت سنة ٥١٦ هـ حتى اواخر سنة ٦١٦ هـ، ولم اتجاوز هذين التاريخين الا نادرا حين اجد ان التاريخ يكاد يخنق الفن.

اما منهج الدراسة فقد ساهمت في اختياره عدة اعتبارات منها طبيعة المادة الشعرية وتنوعها، ومنها ان الرسالة كتبت عن فترة تكاد تكون مجهولة المعالم غير واضحة السمات، ولذلك حاولت ان اجمع بين دراسة شخصيات الشعراء المختلفة والتيارات أو الاتجاهات الشعرية البارزة.

ومن اصول البحث العلمي ان تدرس الناحية التاريخية التي احاطت بنتاج الادباء. وقد يختصر بعضهم هذه المقدمة التاريخية اختصارا، وربما مال بعضهم الى اسقاطها وحذفها اذا كان العصر واضحا بينا قد كثرت الدراسات التي تناولته، وهو امر لا ينطبق بأية حال من الاحوال على القرن السادس.

فالفصل الأول ـ وهو ثلاثة اقسام ـ دراسة تاريخية للفترة ومحاولة لفهم الاحداث والظروف التي كانت سائدة يومذاك.

لقد درست في الناحية السياسية كيف استقل العراق عن السلطة السلجوقية بعد سنة ٥٤٧ هـ، بفضل جهود الخليفة المقتفي لامر الله (المتوفى ٥٥٥ هـ) ومساعدة وزيره عون الدين يحي بن هبيرة (المتوفى ٥٦٠ هـ).

وفي الناحية الاجتماعية درست اثر السياسة السلجوقية في افقار العراق، ومدى الدور الذي لعبه العيارون في نشر الفوضى بين صفوف الناس، وصلة القبائل العراقية بالخراب والدمار الذي اصاب المدن العراقية في تلك الفترة.

وفي ختام هذا القسم اشرت الى ما عرف به بعض القادة العباسيين من ظلم وجبروت كان له اثره في قصائد الشعراء ونفوس الناس.

وفي القسم الثقافي من الناحية التاريخية هذه درست اهم الظواهر الثقافية في القرن السادس، فدرست التعصب المذهبي والعلمي، وأوضحت التطور الكبير الذي اصاب حركة التأليف، ثم عرجت على انشاء المساجد والمدارس والدور الكبير الذي كان لها في الجانب الثقافي، على الرغم من التعصب المذهبي الذي وافق ذلك. وختم الفصل الاول بالاشارة الى الربط ومكانتها في الناحية الثقافية.

اما الفصل الثاني فهو استعراض عام لاشهر شعراء القرن السادس مع بيان الاتجاه العام لكل منهم.

ففي القسم الاول منه درست اشهر المحافظين من شعراء القرن السادس وهو الحيص بيص (المتوفى ٥٧٤ هـ) الذي يمثل رافدا شعريا فريدا في تلك الفترة.

وفي القسم الثاني درست شعراء «المحافظة الجديدة» كالابله البغدادي (المتوفى ٥٧٩ هـ) وابن المعلم الواسطي (المتوفى ٥٩٢ هـ).

وفي القسم الثالث من هذا الفصل حاولت الالمام باشهر من نظم الشعر من رجال الطبقة العليا العباسية كالخلفاء والوزراء وامراء بني مزيد وآل ابي الجبر.

اما القسم الرابع والاخير من الفصل الثاني فقد درست فيه شعر العلماء كالنحاة والمؤرخين والاطباء وعلماء الفلك، وقد وقفت عند المبالغات التي رددها المؤرخون عن شعر بعض العلماء من ناحيتي الجودة والكثرة.

ولا يخفى ان كبار القادة وكذلك العلماء ليسوا من الشعراء المحترفين ولكن اسقاطهم من بين شعراء الفترة يخل بالصورة العامة التي احاول ان ارسمها للحركة الشعرية في القرن السادس وفنونها المتباينة المختلفة.

وفي الفصل الثالث درست اشهر اغراض الشعر المحافظ وهي المدح والهجاء والغزل والرثاء.

ففي المدح وقفت عند العوامل التي أثرت في هذا الفن، ثم درست تطور هذا النوع

من الشعر في القرن السادس من ناحيتي الشكل والمضمون، وبينت اهم عيوب المدح في هذه المرحلة.

وحين درست الهجاء، نظرت في اقسام المهجوين وضروبهم اعتمادا على النصوص المتوفرة، ودرست اساليب الهجاء ومعانيه.

وفي دراسة الغزل وجدته على ضربين: الاول الغزل الذي اعتاد الشعراء ان يبدأوا به قصائد المدح، والثاني هو الغزل الذي ينظم ليغنى به. ومن خصائص الغزل التي وقفت عندها غلبة التقليد عليه ·وندرة التجديد.

وقد ختم هذا الفصل بدراسة الرثاء وهو فن قصر شعراء القر ن السادس فيه عن اسلافهم تقصيرا بينا.

وفي الفصلين الرابع والخامس درست اهم تيارين في الشعر المحافظ وهما التيار الديني والتيار المضاد له اعني شعر الخمر والمجون.

اما الاتجاه الديني فقد درسته من ثلاث نقاط هي السياسة، والفكر، والدين المجرد، وهذا القسم الاخير يشمل مدح الرسول ﷺ والتصوف.

وعندما درست شعر الخمر في الفصل الخامس اشرت الى دور التقليد والمحاكاة في احتلال بنت الحان لرقعة واسعة من ادب الفترة، ثم درست الخمر وكذلك الغزل بالمذكر من ناحيتين اثنتين هما مقدمات قصائد المدح، وتلك المقطوعات المستقلة عن المدح.

وفي خاتمة الفصل الخامس درست المجون واشرت الى ان المؤرخين ربما وصفوا بعض الشعراء بالمجون او السخف وغيرهم احق منهم بهذه الصفة، ثم لاحظت ان كثرة الشعراء الماجنين تقابلها شحة في النصوص المتوفرة.

اما الفصل السادس والأخير من الرسالة فهو الدراسة الفنية.

ولا بد من الاشارة الى انني افردت هذا الفصل الاخير للجوانب الفنية العامة التي لا تخص فنا او شعرا بذاته، وبعبارة اخرى ان الجوانب الفنية للفنون الشعرية مثل المدح والهجاء والغزل ذكرت عند دراسة هذه الفنون فلا موجب لتكرارها في نهاية الرسالة. وفي اعتقادي ان تأجيل الدراسة الفنية كلها الى نهاية الرسالة يساعد على تفكيك الموضوعات المتصلة ويجعل الموضوع الواحد اشلاء مبعثرة.

الفصل الأول

دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق في القرن السادس

(الحياة السياسية)

قبل دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق طوال القرن السادس الهجري، لا بد من الاشارة الى ان هذه الدراسة ستكون موجزة، سريعة، لا تستهدف التفاصيل، ولا تنشد الاحاطة والشمول، فلست من رجال التاريخ، وانما سأحاول الوقوف عند النواحي التاريخية التي كان لها اثر مباشر أو غير مباشر على الجوانب الأدبية، اذ لا يمكن ان نفهم الأدب بعيدا عن الحياة المحيطة به.

يمكن أن نلاحظ فترتين مختلفتين في التاريخ السياسي العباسي في المائة السادسة، هما الفترتان اللتان تفصل بينهما وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧ هـ، لقد كان خليفة بغداد قبل هذه السنة لا حول له ولا قوة، وانما كل شيء بيد السلطان السلجوقي. وقد حكم خلال فترة الضعف والتبعية هذه: المستظهر بالله «٤٨٧ـ ٥١٢ هـ»، وابنه المسترشد بالله «٥١٢ـ ٥٢٩»، والراشد بالله «٥٢٩ـ ٥٣٢»، ابن المسترشد بالله، ثم المقتفي لامر الله «٥٣٢ـ ٥٥٥»ـ الذي نهض العباسيون في اواخر عهده، واستطاعوا التخلص من السيطرة السلجوقية. اما فترة القوة والاستقلال، فقد تولى الخلافة فيهاـ باستثناء المقتفي لامر اللهـ ابنه المستنجد بالله «٥٥٥ـ ٥٦٦»، والمستضيء بأمر الله «٥٦٦ـ ٥٧٥»، ابن المستنجد بالله، ثم الناصر لدين الله «٥٧٥ـ ٦٢٢»، ابن المستضيء وقد بلغت السلطة العباسية غاية قوتها ايام الناصر، وبه ختم خلفاء بني العباس العظام.

وسأبدأ بدراسة الفترة الاولى «٤٨٧ ـ ٥٤٧»:

كان العراق طوال هذه الفترة اقليما تابعا للامبراطورية السلجوقية، وكان الخليفة العباسي موظفا يتلقى الأوامر من رئيسه الاعلى سلطان السلاجقة في ايران، وكان في بغداد سلطتان: سلطة الخليفة، وهي ضعيفة واهية، وسلطة نائب السلطان، وهي القوة الحقيقية المؤثرة.

اما العلاقة بين الخليفة والسلطان، فيمكن تصورها من قول العماد الإصفهاني: «وكان اهون ما عندهم ـ سلاطين السلاجقة ـ خلاف الخليفة وعناده، وتمردهم عليه بأن

يحصل مرادهم لمراده. . . ولهم مطالب من الديوان العزيز، لا يفي بها خواصه، ومغارم تلحقها منهم، يتعسر منها خلاصه، والحرم من جناياتهم خائف. . والرعية مروعة، والسعاية مسموعة، فلا الدين يزعهم، ولا العقل يردعهم، ولا الحياء يمنعهم، ولا القليل يقنعهم، ولا الكثير يشبعهم[١]».

وكان الخليفة لا يتحرج من الخطبة ببغداد لسلطانين سلجوقيين في وقت واحد[٢]، وعلى وزير الخليفة أن ينال رضى السلطان والاعزل، كما حدث لظهير الدين، ابي شجاع، محمد بن الحسين الهمذاني، وزير المقتدي. فقد طلب السلطان من الخليفة عزله، فخرج توقيع الخليفة بذلك، وانصرف الى داره، وهو ينشد:

تـولاهـا، ولـيس لـه عـدو　　وفارقها، وليس له صديقُ[٣]

وكما يعزل السلطان وزراء الخليفة متى شاء، كذلك له ان يأمر الخليفة باسناد وزارتا الى من يحب، كما حدث في استيزار احمد[٤] بن نظام الملك[٥].

ونتيجة لهذا كله، صار اصحاب السلطان هم المتنفذون، وليس لأحد أن يقف في وجوههم، وصارت اوامر الخلفاء حبرا على ورق، حتى قال أحد الحجاب:

خليفة الله، قد وقعت لي كرما　　بذلك الرسم[٦]، لكن من يسلمه؟
وكل من جئته بالصك، ينبذه　　نبذ الحصاة، كأن الصك يشتمه
فآه، ان كان هذا قد علمت به　　وآه، ان كان هذا لست تعلمه[٧]

ولكن رغم هذا كله، ظلت سلطة الخليفة المعنوية كبيرة، وخاصة على اولئك البعيدين عن بغداد، الذين لا زالوا ينظرون الى الخليفة باعتباره الرئيس الديني الاعلى[٨].

واذا تركنا بغداد الى منطقة الحلة، وجدنا اميرها صدقة بن منصور المزيدي المعروف

---

(١) نصرة الفترة: ٢٥٩
(٢) المنتظم ٩ / ٢١٦، شذرات الذهب ٤ / ٨٧
(٣) الفخري ص ٢٩٨ (ط. دار صادر).
(٤) وزر للمسترشد، فشكرت سيرته، ولم تطل ايامه فتوفي سنة ٥٤٤ هـ.
ابن الاثير: ١١ / ٦٠، الفخري ص ٢٧٣ (ط. الموسوعات).
(٥) المنتظم ٩ / ٢٣٤ - ٢٣٥
(٦) يشبه المرتب، ولكنه يدفع في كل سنة عادة.
(٧) الخريدة / نسخة ايران ١٨٤
(٨) المصدر السابق، وانظر الفخري ص ٣٢ (ط. دار صادر).

بسيف الدولة، قد عظم شأنه وعلا قدره، واستجار به كل خائف من خليفة او سلطان، وكان كثير العناية بأمور السلطان محمد والتقوية ليده ضد اخيه بركيارق، حتى انه جاهر هذا الاخير بالعداوة، فزاده السلطان محمد اقطاعا من جملته مدينة واسط، واذن له في أخذ البصرة. ولكن هذه العلاقة المتينة بين السلطان والامير ما لبثت ان تكدرت، فقامت الحرب بينهما بسبب ايواء صدقة لسرخاب الديلمي صاحب ساوه[1]وآبه،الذي استجار بالامير المزيدي، وقد قتل في تلك الحرب اكثر من ثلاثة آلاف، منهم الامير صدقة نفسه[2]. وكان من اثر هذه الحرب ان وزعت بلاد بني مزيد على الاكراد والاتراك، حتى اقطعوا اكثر مما يستحقونه، فقال خال[3] مهذب الدولة ساخرا:

فقد كثر الاقطاع، حتى اظنه ... سيقطع كلب بالجزيرة أو هر
سلام على مال العراق، فانه ... مضى حيث لا نفع لذاك ولا خسر
فشطر لا تراك، ومن دونها النهر ... وشطر لاكراد، ومن شانها الغدر
وشطر لكتاب، وما فيهم صدر ... وشطر لحجاب، وما بهم فخر
وشطر لصبيان اليتامى، ونسوة ... أيامى[4]، وما في بر اكثرهم أجر[5]

وقد عفا السلطان محمد عن دبيس بن صدقة، بعد ان وعده بالمحافظة على الهدوء وعدم الفساد. ولكن الامير المزيدي ما لبث ان هدد الخليفة المسترشد بالله انه سيخرب بغداد. فسار الخليفة لقتاله، ودارت الدائرة سنة ٥١٧هـ. على دبيس، ففر، بعد ان وقع عدد كبير من جنوده في الاسر[6]. ولم تطل فرحة الخليفة بانتصاره على دبيس، اذ وجد نفسه يتجهز لقتال السلطان مسعود ـ بعد ان قطع الخطبة له على منابر بغداد ـ لان هذا السلطان قد آوى دبيسا، عدو الخليفة اللدود، فالتقى الجيشان سنة ٥٢٩ هـ في معركة خسر فيها الخليفة، فحمل أسيرا مع السلطان الى مراغة[7]، حيث قتل، واشاع السلطان ان دبيسا هو

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان ٥/٢١: «ساوه مدينة حسنة بين الري وهمذان.. وبقربها مدينة يقال لها آوه، فساوه سنية شافعية وآوه اهلها شيعة امامية، وبينهما نحو فرسخين..» ومن نص ياقوت هذا لعل «آبه» مصحفة عن «آوه».

(٢) المنتظم ٩/١٥٦ ـ ١٥٧

(٣) هو الصارم مرجّى بن بتاه البطائحي، قال العماد يصفه: من فحول الشعراء، واعيان الفضلاء، غير انه كان هجاء.. الخريدة ٤/٥٣٢. اما مهذب الدولة فهو احمد بن محمد بن ابي الجبر، ملك البطيحة ـ وتقع بين واسط والبصرة ـ ترجم له العماد بايجاز شديد، ولم يذكر سنة وفاته. الخريدة ٤/٥٢٥ ـ ٥٢٨.

(٤) أيامى: لا أزواج لهن.

(٥) نصرة الفترة ١٠١ ـ ١٠٢، وانظر الخريدة ٤/٥٣٤ ـ ٥٣٥

(٦) المنتظم ٩/٢٤٢ ـ ٢٤٣، الكامل: ١٠/٢٣١

(٧) مراغه (وقد تعرف بأل): اعظم بلاد اذربيجان وأشهرها.. (معجم البلدان.. مراغه).

الذي قتله، ولكي يؤكد السلطان التهمة على دبيس، امر بقتله [١].

ولم يكتف السلطان مسعود بقتل الخليفة، بل «.. بعث فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال واثاث وذهب وفضة.. ولم يترك في اصطبل [٢] الخاص سوى أربعة أرؤس من الخيل، وثلاثة من البغال برسم الماء [٣]»..

وبعد مقتل المسترشد، بويع ابنه الراشد بالله سنة ٥٢٩ هـ، فحاول الأخذ بثأر أبيه، وجهز جيشا لمحاربة السلطان مسعود، فتوجه هذا الاخير الى بغداد ـ حين علم بنية الخليفة ـ فدخلها دون مقاومة، لان الخليفة تركها متوجها الى الموصل، فاحضر السلطان الفقهاء والقضاة وخوفهم وهددهم ان لم يخلعوا الراشد بالله، وكتب محضرا فيه: ان ابا جعفر بن المسترشد بدا من افعاله وقبح سيرته وسفكه الدماء المعصومة وفعل ما لا يجوز ان يكون معه اماما، فبويع المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ [٤].

وهكذا وجد خليفتان في آن واحد: احدهما الراشد بالله في الموصل، والآخر المقتفي لامر الله في بغداد. ولكن الاول ما لبث ان قتل في اصفهان سنة ٥٣٢ هـ، باشارة من السلطان مسعود، فخلا الجو للمقتفي لامر الله [٥].

وحين توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، بدأت المرحلة الجديدة في تاريخ الفترة التي ادرسها، وهي مرحلة الاستقلال عن السلطة السلجوقية. لقد نجح المقتفي لامر الله، بتأييد ومساندة من وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة، ان يتمرد على سلطان السلاجقة، فحكم العراق ـ لأول مرة ـ من اقصى الكوفة الى حلوان [٦]، ومن حد تكريت الى عبادان [٧].

وفي اواخر سنة ٥٤٩ هـ، انتصر جيش الخليفة ـ لأول مرة ـ على جيش السلاجقة في موقعة «باجزي»، على مرحلتين من بغداد، فاكتشف العراقيون ان الجيش السلجوقي يمكن أن يدحر [٨]، ولم تمض ايام حتى اجبر سليمان شاه السلجوقي على تقبيل عتبة «باب

---

(١) نصرة الفترة ٢٠٤ ـ ٢٠٥، وانظر الخريدة ١ / ٢٩ ـ ٣٠، المنتظم ١٠ / ٤٥
(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب (الاصطبل الخاص).
(٣) المنتظم ١٠ / ٦١
(٤) المنتظم ١٠ / ٦٠، ابن الاثير: ١١ / ١٧
(٥) وفيات الاعيان ٤ / ٢٨٨
(٦) موقعها في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. (معجم البلدان.. حلون).
(٧) نصرة الفترة ٢٦١، الفخري ص ٣١٢ (ط. دار صادر).
(٨) نصرة الفترة ٢٦٥ ـ ٢٦٧، ابن الاثير: ١١ / ٧٩

النوبي»[1] بدار الخلافة، فكان بذلك اول سلطان سلجوقي يفعل ذلك[2].

وفي سنة ٥٥٢ هـ زحفت جيوش السلطان محمد على بغداد، تؤيدها جيوش امير الموصل، في محاولة لارجاع العراق الى السلطة السلجوقية، واستمر الحصار مدة طويلة، حتى أن صلاة الجمعة لم تقم في جوامع بغداد ـ باستثناء جامع القصر ـ لمدة سبع جمع، وكان للوزير عون الدين بن هبيرة يد طولى في دفع المحاصرين عن بغداد، وتشجيع اهلها على القتال والصمود، حتى تفرقت الجموع وعاد السلطان خائبا[3].

وبعد وفاة المقتفي لأمر الله سنة ٥٥٥ هـ، بويع ابنه المستنجد بالله.

وكان الخليفة الجديد من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية، عادلا فيهم، كثير الرفق بهم، ازال كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا، وكان شديدا على اهل العبث والفساد[4]

وقد التفت المستنجد الى خطر قريب من بغداد طالما اقلق السلطة العباسية، وهم المزيديون اصحاب الحلة، الذين كانوا يستفيدون من ضعف الخليفة العباسي واعتماده على السلاجقة في الحصول على بعض المكاسب، فسار الجيش العباسي الى الحلة سنة ٥٥٨ هـ، واستطاع القضاء على المزيديين واجلاءهم، بعد ان قتل منهم نحوا من أربعة آلاف رجل، فما قامت لهم بعدها قائمة[5].

وفي سنة ٥٦٦ هـ قتل الخليفة المستنجد بالله، بسبب الصراع على السلطة بين المتنفذين في بلاط الخليفة، فبويع المستضيء بأمر الله[6].

ولم يختلف المستضيء عن والده في حسن السيرة والحلم وقلة المعاقبة على الذنوب والصفح عن المذنبين[7].

ولعل الخطبة للعباسيين وانتهاء خلافة الفاطميين في مصر سنة ٥٦٧ هـ هي ابرز الاحداث السياسية ايام المستضيء. فقد قطع صلاح الدين الايوبي الخطبة للعاضد[8]

---

(١) نسبة الى الحاجب سعيد النوبي المتوفى سنة ٣١٤ هـ. المنتظم ٦/٢٠٣

(٢) نصرة الفترة ٢٦٩

(٣) المصدر المتقدم ٣٠٨، المنتظم ١٠ /١٦٨ ـ ١٧٥

(٤) ابن الاثير: ١١ /١٤٦، الفخري ص ٣١٦ (ط . دار صادر).

(٥) ابن الاثير: ١١ /١١٩ ـ ١٢٠، شذرات الذهب ٤ /١٨١

(٦) ابن الاثير: ١١ /١٤٥، الفخري ص ٣١٨ (ط . دار صادر).

(٧) ابن الاثير: ١١ /١٨٧

(٨) هو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، والعاضد لقبه، واسمه عبد الله، توفي سنة ٥٦٧. وفيات الاعيان ٢ / ٢٩٤

الفاطمي وخطب للخليفة العباسي، فعمت البشائر بغداد، وغلقت اسواقها، وارسل الخليفة بالخلع الفائقة الرائقة لنور[1] الدين محمود بن زنكي ولنائبه صلاح الدين الايوبي[2].

ومن البديهيات ان يشارك المؤلفون والادباء في المناسبات المهمة، ولذلك الف ابن الجوزي في تلك المناسبة كتابه (النصر على مصر)[3]، ونظم ابن التعاويذي قصيدة طويلة:

قل للسحاب اذا مرتـــــه[4] يد الجنائب فارجَحَنَّ[5]
عج باللوى فاسمح بدمـــــعكَ للمعاهد والدمَنَّ[6]
يا منزلَ الانس الجميـــــع، وملعب الحي الاغنَّ[7]
سكنت بك الارام[8] من بعد الاحبة والسكن
اين استقلت بالحبيـــــب ركابه؟ ومتى ظَعَنَّ؟
... الخ[9]

وبعد وفاة المستضيء سنة ٥٧٥، بويع ابنه الناصر لدين الله.

وخلال فترة حكم الناصر لدين الله، كانت الدولة العباسية قد بلغت الغاية في القوة وسعة الرقعة، حتى ان الخليفة لم يقف عند حدود العراق المعروفة بل راحت جيوشه تستولي على مناطق جديدة، كما حدث خلال السنوات ٥٧٩[10]؛ ٥٨٥[11]؛ ٥٨٩[12].

وفي الوقت الذي كان العراقيون فيه يوسعون رقعة مملكتهم، كانت جيوش الايوبيين بقيادة صلاح الدين الايوبي تكيل الضربات للصليبيين وتنتزع منهم القلاع والمدن الواحدة بعد الاخرى، حتى كانت معركة «حطين» الفاصلة سنة ٥٨٣، فلم تقم للصليبيين بعدها

---

(١) هو ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، توفي سنة ٥٦٩ بدمشق، واخباره كثيرة في كتب التاريخ وخاصة كتاب الروضتين لابي شامة.
(٢) ابن الاثير: ١١ / ١٤٩ ـ ١٥٠
(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٧٠
(٤) مرته: استدرته.
(٥) ارجحن: مال.
(٦) الدمن: آثار الديار.
(٧) الحي الاغن: العامر.
(٨) الأرام: الظباء البيض.
(٩) وفيات الاعيان ٦ / ١٥٩ ـ ١٦٠، والقصيدة غير موجودة في الديوان المطبوع.
(١٠) كامل ابن الاثير: ١١ / ٢٠٣
(١١) نفسه: ١٢ / ١٨
(١٢) نفسه: ١٢ / ٤٣

قائمة، وبدأ ظلهم ينحسر عن الشرق تدريجيا[1]، وكان الخطيب الايوبي يدعو للخليفة الناصر لدين الله، ثم يتلوه باسم السلطان صلاح الدين، كلما اقيمت الصلاة في المناطق التي تم تحريرها[2].

وقد اختلف المؤرخون في الحكم على الناصر لدين الله، وهو اختلاف ساهمت فيه مذاهب هؤلاء المؤرخين الدينية، فالمؤرخون من السنة قالوا عنه: «كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه[3]، وقال مؤرخ سني آخر: «كان قبيح السيرة في رعيته ظالما، فخرب في ايامه العراق، وتفرق اهله في البلاد، وأخذ املاكهم واموالهم، كان يفعل الشيء وضده[4]. . .».

على حين نجد صاحب الفخري، وهو شيعي، يقول عن الناصر: «. . . كان من افاضل الخلفاء واعيانهم، بصيرا بالامور، مجربا، سائسا، مهيبا، مقداما. . . متوقد الذكاء والفطنة، بليغا، غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم[5]. . .»

وهكذا، بعد هذا العرض الموجز للحياة السياسية، يمكن أن يقال بأن عدم الاستقرار هو الطابع لتلك الحياة، فالمعارك لا تكاد تهدأ بين العباسيين والسلاجقة من جانب، حتى تستأنف بين العباسيين والمزيديين من جانب آخر، او بين المتنفذين من السلاجقة انفسهم، كذلك لم يتوقف الصراع من اجل السلطة بين رجال البلاط العباسي بعد أن رحل السلاجقة عن بغداد

(١) نفسه: ١١ / ٢١٧، وفيات الاعيان ٦ / ١٧٤
(٢) انظر: عند تحرير بيت المقدس، وفيات الاعيان ٣ / ٣٧٠
(٣) شذرات الذهب ٥ / ٩٨
(٤) كامل ابن الاثير: ١٢ / ١٨١
(٥) الفخري ص ٣٢٢ (ط. دار صادر).

(الحياة الاجتماعية)

ان الجانب الاجتماعي من حياة الناس شديد الصلة والتأثر بما يدور حولهم من احداث سياسية، ولذلك سنجد ان دراسة الحياة الاجتماعية ليست سوى انعكاسات السياسة ورجالها على حياة الناس اليومية. والجوانب التي تستحق الدراسة في هذا الموضوع هي:

١ ـ اثر السلاجقة:

ادرك السلاجقة ان الخليفة يتحين الفرص لاستعادة سلطاته والانتقام لكرامته، كما عرفوا ان العراقيين يبغضونهم بغضهم لكل محتل مستبد، يعتمد في تسلطه وجبروته على القوة العسكرية. ومن هذا الاساس عمل السلاجقة على نهب خيرات العراق، لتجويع الناس وبث الرعب في نفوسهم وحملهم على الاستسلام والخضوع، فوزير السلطان محمود، ابو طالب السميرمي[١]، اعاد المكوس بعد عشر سنين من ازالتها، وكان يقول: لقد سننت على اهل بغداد السنن الجائرة، وقد فرشت حصيرا في جهنم[٢]. وفي سنة ٥٣١ هـ، وبعد مقتل المسترشد واستيلاء السلاجقة على جميع ما معه من مال، ورد وزير السلطان مسعود يطلب مائة الف دينار، على الخليفة والناس جمعها بالتعاون فيما بينهم، فغضب الخليفة وكتب للسلطان: من اي وجه نقيم لك هذا المال؟، وما بقي الا ان نخرج من دار الخلافة ونسلمها لك..[٣].

وامعانا في الظلم واستهانة بكل حق، اخذ السلاجقة يبنون قصورهم عن طريق تخريب بيوت الناس وتشريد الابرياء من السكان، ولم يفرقوا في ذلك بين كبير وصغير ولا بين غني وفقير، فمن لم تهدم داره عليه ان يحمل انقاض دور ابناء جلدته كي يستعان بها على بناء دور اصحاب السلطان، وهكذا يشترك الناس جميعا في المصيبة.

فحين بنى ابو طالب السميرمي، الوزير السالف الذكر، دارا ببغداد، أخرب المحلة المعروفة بالتوثة[٤]، ونقل آلاتها الى عمارة داره، فاستغاث اليه اهل التوثة، فحبسهم ولم

(١) هو الكمال نظام الدين ابو طالب، علي بن أحمد، منسوب الى سميرم، بلدة بين اصبهان وشيراز، قتل ببغداد سنة ٥١٦. المنتظم ٩ / ٢٣٩، وفيات الأعيان ١ / ٤٤٢.

(٢) المنتظم ٩ / ٢٣٩ ـ ٢٤١

(٣) نفسه ١٠ / ٦٦

(٤) كانت تقع في غربي بغداد. قال ياقوت انها: عامرة الى الآن، لكنها مفردة شبيهة بالقرية. (معجم البلدان.. توثه).

يخرجهم الا بغرم[١]. وكان السلاطين عندما يزورون بغداد، يسكنون دارا انشئت لهذا الغرض في محلة المخرم[٢] تدعى «دار السلطنة»، بناها بهروز[٣] من انقاض بيوت الناس، واستعمل في عمارتها اهل بغداد حتى القضاة والاشراف والاعيان[٤]. اما جنود السلاجقة فليس لهم دور، ولذلك كانوا ينزلون في دور الناس كلما دخل السلطان بغداد[٥].

وعلى الرغم من كثرة خيرات العراق، فقد كانت الطبقات الفقيرة تشكو من غلاء اسعار المواد الغذائية وصعوبة الحصول عليها. واسباب ذلك عديدة: منهاالفيضانات المتكررة التي اغرقت المحاصيل الشتوية والصيفية، دون ان يستطيع السلاجقة التحكم في مياه دجلة والفرات ووضع نظام للري دقيق، حتى غرقت بغداد فتعرض الناس للمجاعة، وخربت البيوت والمحال سبع مرات في القرن السادس[٦].

ومن اسباب شحة المواد الغذائية وارتفاع اسعارها، الحروب الكثيرة بين السلاجقة انفسهم او بينهم وبين الخليفة، فتزحف الجيوش وتحاصر بغداد وتمنع عنها الغذاء، وكلما امتد اجل الحصار ازداد امل الغزاة بالنصر وازداد جشع التجار في الحصول على ما يريدون، وتعالت صيحات الناس مطالبة بالقوت. فاذا علمنا ان بغداد حوصرت اربع مرات في النصف الاول من القرن السادس، وان الحصار الاخير سنة «٥٥١ هـ» استمر حوالي شهرين، ادركنا الحالة السيئة التي كان عليها الناس[٧].

وكان لمركز بغداد الخاص ووجود الخليفة فيها أثره في حرص السلطان وأقاربه على الاحتفال بافراحهم ومسراتهم فيها، فكانت الاسواق تغلق ويجبر الناس على الانشغال باظهار معالم الفرح والزينة، ويكثر في هذه المناسبات العزف والقصف والزمر وشرب الخمر، مما يضايق الناس وخاصة المحافظين منهم. ففي سنة ٥٣٢ هـ نفذ السلطان مسعود الى البقش[٨] كاسا ليشربها، فامتنع خمسة اشهر ثم عزم على شربها، فتقدم الى الولاة بالمحال

---

(١) المنتظم ٩ / ٢٣٩

(٢) من محلات بغداد الشرقية. قال ياقوت: وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية.. (معجم البلدان.. مخرم).

(٣) هو بهروز بن عبد الله، ابو الحسن الخادم الابيض الغياثي، كان يلقب بمجاهد الدين، ولي العراق نيفا وثلاثين سنة.. توفي سنة ٥٤٠. المنتظم ١٠ / ١١٧، ابن الاثير: ١١ / ٤٣، المختصر المحتاج اليه ١ / ٢٦٥

(٤) مرآة الزمان ٨ / ٩٦

(٥) المنتظم ٩ / ٢٥٩، ١٠ / ١٠٥

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤١٠ - ٤١١

(٧) نفسه ص ٤٢١

(٨) لعله «البقش كون خر» المتوفى في رمضان سنة ٥٤٩ هـ، وكان من بين الذين حاربوا الخليفة المقتفي في موقعة باجمزي. المنتظم ١٠ / ١٥٩، وابن الاثير: ١١ / ٧٩ - ٨٠

والاسواق ان يشعلوا الشموع والقناديل والسرج في جميع المحال ليلا ونهارا ثلاثة أيام، وظهرت القينات والمعازف والنساء عليهن الثياب الملونات والمخانيث، الى ان شرب الكأس[١].

وفي التاسع من ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ نفذ السلطان مسعود كأسا لبهروز ليشربه، فشربه، وغلقت بغداد وعمل سماعا عظيما في دار البرسقي[٢] وحضر عنده جميع القيان واظهر الناس الطبول والزمور والفساد والخمور[٣]. وحين كان السلطان يتزوج أو يرزق بولد، فلا بد ان تغلق اسواق بغداد ويكلف العراقيون باظهار فرحهم، وربما استغلت امثال هذه المناسبات من قبل انصار السلطان فيبالغون في اظهار فرحهم فيفلت زمام الامور وتعم الفوضى[٤].

٢ ـ العيارون:

من نتائج ضعف الادارة السلجوقية وعدم قدرتها على حفظ الامن، تزايد نشاط العيارين بصورة ملحوظة خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري، حتى ان الباحث لا يكاد يجد لهم ذكرا حين اصبح زمام الامور بيد الخلفاء بعد سنة ٥٤٧ هـ.

ولم يكتف السلاجقة بالتسليم انهم غير قادرين على كبح جماح العيارين وتخليص الناس من عبثهم بالامن واستهانتهم بالارواح، وانما كبار رجالات الحكم يحمون العيارين في بيوتهم حين يشتد عليهم الطلب، او يشفعون لهم اذا ارادت السلطة معاقبتهم. قال ابن الجوزي عن العيارين: «وكانوا يجتمعون في دور الذين يحمونهم، في دار وزير السلطان ودار يرنقش[٥][٦]». وزادت الحالة سوءا، ولم يستطع رجال الامن ان يفعلوا شيئا، حين اكتشفوا ان ابن الوزير واخا زوجة السلطان يحتل مرتبة سامية بين صفوف العيارين[٧].

ولعل اشتراك كبار الشخصيات مع العيارين هو الذي جعل السلطان يصم اذنيه ولا

---

(١) المنتظم ١٠ / ٧٢

(٢) لعله ابو سعيد آق سنقر البرسقي، نسبة الى برسق من مماليك السلطان طغرلبك، ولاه السلطان محمد شحنة بغداد سنة ٤٩٨ هـ، قتل في الموصل سنة ٥٢٠ هـ. ابن الاثير: ١٠ / ٢٠١، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، وفيات الاعيان ١ / ٢١٨

(٣) المنتظم ١٠ / ٨٩

(٤) نفسه ١٠/٧٢، ١٠/٨٤ـ٨٥، ١٠٣

(٥) يغلب على الظن أنه «يرنقش الزكوي» المتوفي سنة ٥٤٠ هـ. قال ابن الاثير ١١ / ٤٣ ـ ٤٤ :«صاحب اصفهان، وكان ايضا شحنة بالعراق، وهو خادم ارمني لبعض التجار». وانظر: اخبار الدولة السلجوقية، فهرست الاعلام.

(٦) المنتظم ١٠ / ١٠٦

(٧) ابن الاثير: ١١ / ٣٩

يعبأ باستغاثة الناس من شرور العيارين، ففي سنة ٥٣٨ هـ ضرب العيارون رجلا بالسيف واخذوا دابة كان قد اشتراها بخمسة وعشرين دينارا، وعلى اثر ذلك نفر الناس وغلقوا دكاكينهم وغلقوا باب الجامع، وتلقوا السلطان في الميدان فاستغاثوا اليه فلم يجبهم، فعادوا مرارا وهو لا يلتفت[١].

وكان المفروض ان يرتدع العيارون، او تقل كبساتهم على الاقل، حين يكون السلطان في بغداد، ولكن النصوص التاريخية تؤكد العكس، ففي سنة ٥٣١ هـ جاء العيارون ليلا الى سفينة قد ملئت رجالا واموالا كثيرة لتنحدر الى واسط، فحلوا رباطها من تحت التاج[٢] واحدروها واخذوا ما فيها، وكان السلطان في بغداد[٣].

ويبدو ان البغض المتبادل وسوء الظن بين العراقيين وحكامهم من السلاجقة قد لعب دورا في تعقيد مشكلة العيارين وجعلها تدور في حلقة مفرغة، فحين يطلب شحنة[٤] بغداد العيارين لمعاقبتهم، يرفض السكان التعاون معه لانه لا يأخذ العيارين وانما يأخذ المستورين بحجة العيارين[٥]. وربما نهب اصحاب الشحنة اموال الناس، وهم يبحثون عن العيارين[٦].

ولست اشايع الذين يذهبون الى ان العيارين انما يمثلون ثورة الفقراء على الاغنياء، بدعوى ان كبساتهم وهجماتهم كانت موجهة ضد الطبقة العليا وحدها لانها استأثرت بكل شيء[٧]. فلم يكن العيارون يفرقون بين غني وفقير ولا بين نبيل وعامي، وشملت كبساتهم سكان المدينة وأهل الارياف. ففي سنة ٥٣٠ هـ دخل العيارون الى دكاكين البزازين يطالبونهم بالذهب ويتهددونهم بالقتل[٨]. وفي السنة ذاتها صلب اثنان من العيارين في درب[٩] الدواب لانهما جبيا الدرب[١٠]. وفي سنة ٥٣٦ أخذ العيارون يكبسون الدور

---

(١) المنتظم ١٠/١٠٦
(٢) اسم لدار مشهورة، جليلة المقدار، واسعة الاقطار ببغداد من دور الخلافة.. (معجم البلدان.. التاج).
(٣) المنتظم ١٠/٦٨
(٤) الشحنة: وظيفة جديدة في العهد السلجوقي، ويشرف صاحبها على ولاية بغداد، فهو يشبه المحافظ. تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٧٠
(٥) ابن الاثير: ١١/٢٥
(٦) نفسه: ١١/١٩
(٧) العامة في بغداد ص ٣٠٩
(٨) المنتظم ١٠/٥٨
(٩) لم يذكره ياقوت في «مادة درب» من معجم البلدان، على الرغم من ذكره لبعض دروب بغداد كدرب الزعفران.
(١٠) المنتظم ١٠/٥٨

بالشموع ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون الاثواب، وكان ابن الدجاجي[1] الواعظ جالسا ليلته بالحربية[2]، فكبسوها وأخذوا عمامته، ودخلوا الى خان بسوق[3] الثلاثاء بالنهار وقالوا: ان لم تعطونا احرقنا الخان، ولبس الناس السلاح لما زاد النهب.. وصاروا لا يظهرون من المغرب[4].

٣ ـ القبائل العراقية:

تكون القبائل العربية والكردية الغالبية العظمى من سكان العراق، وهذه القبائل لم تتعود على الحكم المركزي ولم تعرف الخضوع لخليفة أو سلطان، وكان قسم منهم يمتهن الزراعة حينا، فاذا شح المطر ونزر المحصول وضعفت سيطرة الحكومة، عادت تلك القبائل الى السلب والنهب وقطع الطرق واغارت على اطراف المدن، وخاصة تلك المدن الواقعة على اطراف الصحاري والبعيدة عن مراكز قوة الحكومة كالكوفة والانبار والبصرة وواسط. وكان في مقدمة الاسباب التي تشجع رجال القبائل على اشاعة الاضطراب وبث الفوضى والرعب عاملان اساسيان:

الاول: انشغال السلطان عنهم بالحروب الكثيرة المتصلة بين السلاجقة والخلفاء او بين السلاجقة انفسهم، وقد مرت الاشارة الى هذا العامل عند دراسة الحياة السياسية.

الثاني: وجود الصحراء المترامية الاطراف، وهي ملجأ الهاربين من الخليفة والسلطان معا.

اما أهم القبائل التي كان لها دور في الناحية الاجتماعية فهي:

أ ـ المزيديون:

وهم في مقدمة القبائل العربية ذات الاثر الكبير في حياة العراق الاجتماعية. والمزيديون من بني أسد، وكانت مناطق سكناهم تمتد بين بغداد والبصرة ونجد[5]. وكانت لبني مزيد امارة شغلت البويهيين والسلاجقة وخلفاء بني العباس، ولعبت دورا كبيرا في حياة

---

(١) هو سعد الله بن نصر.. ابو الحسن الواعظ.. توفي في شعبان سنة ٥٦٤ هـ. المختصر المحتاج اليه ٢/٧٧، وانظر هامش المحقق رقم ١٥٤

(٢) محلة كبيرة مشهورة ببغداد.. تنسب الى حرب بن عبد الله، احد قواد المنصور. (معجم البلدان.. الحربية).

(٣) من اسواق بغداد، وسمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق.. كل شهر مرة يوم الثلاثاء. (معجم البلدان.. سوق الثلاثاء)، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٣٤

(٤) المنتظم ١٠ / ٩٥

(٥) تاريخ ابن خلدون ٤ / ٥٩٠، معجم قبائل العرب ٣ / ١٠٨٢

الناس الاجتماعية في النصف الاول من القرن السادس.

ان الامير ابا الاغر دبيس بن صدقة المزيدي من زعماء القرن السادس الذين يشير المؤرخون الى دورهم الكبير في اشاعة الفوضى ونشر الخراب والدمار في ارجاء واسعة من العراق. لقد اشرت في دراسة[1] الحياة السياسية الى مقتل صدقة المزيدي، والد الامير دبيس، سنة ٥٠١ هـ في معركة مع السلطان السلجوقي ومنذ ذلك الحين كثرت غارات دبيس وهجماته على المدن والقرى.

ففي سنة ٥١٤ هـ ورد أهل نهر عيسى[2] ونهر الملك[3] مجفلين الى بغداد بأهاليهم ومواشيهم فزعا من دبيس لأنه بدأ بالنهب في أطرافهم[4]. وفي سنة ٥١٧ هـ اتفق دبيس مع قبائل المنتفق[5] على قصد البصرة وأخذها، فسار اليها، وكبس مشهد طلحة والزبير، وعزم على قطع النخل، فصانعه اصحابها عن كل رأس شيئاً معلوماً[6]..

ان الصورة التي يخرج بها الباحث من النصوص المتقدمة تختلف اختلافا كبيرا عن صورة الامير المزيدي دبيس كما رسمتها اقلام مؤرخين آخرين منهم ابن خلكان الذي قال عن دبيس: «.. كان جوادا كريما.. وهو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: «او الاسدي دبيس» لانه كان معاصره فرام التقرب اليه بذكره في مقاماته، وجلالة قدره ايضا». [7]

فأي الصورتين نصدق؟

وللاجابة عن هذا السؤال، لا بد من الاشارة الى أن الصورة القبيحة للامير المزيدي انما نقلها وصورها ابن الجوزي، صاحب المنتظم، كما يتضح من مراجعة مصدرها في هوامش هذه الرسالة. وابن الجوزي ليس محايدا أبدا في الصراع بين العباسيين والمزيديين، بل هو عباسي الهوى دون شك. فاذا عرفنا ان ابن الجوزي كان حنبلي[8] المذهب، وان

---

(١) انظر: الحياة السياسية.

(٢) هو عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس، ونهر عيسى كورة وقرى كثيرة وعمل واسع في غربي بغداد.. (معجم البلدان.. نهر عيسى).

(٣) كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى، يقال انه يشتمل على ٣٦٠ قرية على عدد ايام السنة.. (معجم البلدان.. نهر الملك).

(٤) المنتظم ٩ / ٢١٧

(٥) من القبائل العراقية، وسترد بعد المزيديين.

(٦) المنتظم: ٩ / ٢٤٥

(٧) وفيات الاعيان ٢ / ٣١ - ٣٢

(٨) وفيات الاعيان ٢ / ٣٢١

المزيديين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي[١]، ادركنا الى اي حد سيكون صاحب المنتظم منصفا في روايته لاخبار الامارة المزيدية.

ان اختلاف المزيديين عن العباسيين في المذهب الديني كان من بين العوامل المهمة التي استغلها كل من العباسيين والسلاجقة في حربهم ضد بني مزيد، فقد أخذ المسؤول السلجوقي ببغداد «فتاوى فيما يجب على من سب الصحابة، وكتب المحاضر فيما يجري في بلد ابن مزيد من ترك الصلوات، وانهم لا يعرفون الجمعة والجماعات، ويتظاهرون[٢] بالمحرمات. فاجاب الفقهاء بانه: لا يجوز الاغضاء عنهم، وان من قاتلهم فله اجر عظيم[٣]». وحين رجع الخليفة الى بغداد سنة ٥١٧ هـ، بعد انتصاره على دبيس، ارادت العامة الانتقام من الشيعة البغداديين، فنهبوا مشهد «باب التبن[٤]» وقلعوا ابوابه فأنكر الخليفة ذلك، وأمر نظرا[٥] امير الحاج بالركوب الى المشهد وتأديب من فعل ذلك وأخذ ما نهب، ففعل، واعاد البعض، وخفي الباقي عليه[٦]. وليس من المستبعد ان يكون السلاجقة الاتراك هم السبب الاول في اشاعة الفتن الطائفية بين سكان بغداد انفسهم او بين البغداديين وسكان الحلة، كي يضعفوا العرب من الجانبين، ويشغلوهم عن التفكير في الرابطة القومية، وهي قوة يحسب لها الدخلاء الف حساب.

ب ـ المنتفق:

وهذه القبائل كانت تسكن بين البصرة والكوفة[٧]، وقد مر بنا انها ساعدت دبيسا على غزو البصرة سنة ٥١٧ هـ، وكانت هي نفسها التي ساعدت الجيش العباسي سنة ٥٥٨ هـ في القضاء على المزيديين وابادتهم تحت قيادة زعيمهم ابن معروف، ولذلك سلمت بطائحهم[٨] وبلادهم اليه[٩]، وفي سنة ٥٨٨ هـ هاجم بنو عامر البصرة ونهبوا الخانات

---

(١) المنتظم ٩ / ١٥٩

(٢) يتظاهرون بالمحرمات: يظهرونها.

(٥) المنتظم ٩ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧

(٤) باب التبن: اسم محلة كبيرة كانت ببغداد. وهي الان خراب.. ويلصق هذا الموضع في مقابر قريش التي فيها قبر موسى الكاظم.. ويعرف قبره بمشهد باب التبن.. وهو الآن محلة عامرة ذات سور مفردة (معجم البلدان.. باب التبن).

(٥) هو نظر بن عبد الله الجيوشي، ابو الحسن، الخادم، له معروف كثير، وصدقات وافرة. توفي سنة ٥٤٤ هـ. المنتظم ١٠ / ١٤١، ابن الاثير: ١١ / ٦٠.

(٦) ابن الاثير: ١٠ ٢٣٢

(٧) معجم قبائل العرب ٣ / ١١٤٤

(٨) البطائح: مفردها بطيحة، ومنها بطائح واسط، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة، ولعلها المرادة هنا. انظر: معجم البلدان.. البطيحة.

(٩) ابن الاثير: ١١ / ١١٩ ـ ١٢٠

بالشاطىء وبعض محال البصرة، ولكن المهاجين فارقوا البلد بسرعة حين بلغهم ان قبائل خفاجة والمنتفق قد قاربوهم، فسار بنو عامر لقتال هاتين القبيلتين واستطاعوا الانتصار عليهما وغنموا اموال خفاجة والمنتفق، ثم عادوا ثانية الى البصرة فنهبوها ولم يستطع اهلها ـ ومن اجتمع معهم من اهل السواد[١] ـ الدفاع عن المدينة[٢].

وفي سنة ٦١٦ هـ كثر فساد عشائر المنتفق هذه واذا هم لما يقاربهم من القرى، وقطعوا الطريق وعاثوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف [٣]، فشكا أهل تلك البلاد الى الديوان منهم، فأمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً، متولي بلاد واسط، ان يسير اليهم، فتجهز وجمع معه من الرجالة من تكريت وهيت والحديثة والانبار والحالة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيراً، وسار اليهم، فكثر فيهم القتل والأسر والغرق وأخذت اموالهم، وحملت رؤوس كثيرة من القتلى الى بغداد في ذي الحجة [٤].

جـ ـ خفاجة:

وقد كان لهذه القبيلة دور بارز في تهديد ارواح الناس وبث الرعب ونشر الفوضى بسبب النزاع بينهم وبين المزيديين في بعض الاحيان[٥]، وفي احيان اخرى نجد الصراع بين بطون القبيلة نفسها على السلطة والزعامة يؤدي الى اراقة الدماء والاغارة على أهل السواد[٦] وتشريدهم، كما حدث سنة ٥٦٨ هـ حين اغار بنو حزن، من خفاجة، على سواد العراق لان الحماية كانت لهم عليه، ولكن صاحب الحلة اخذها منهم وجعلها لبني كعب، وهم من خفاجة ايضا[٧].

وقد يختلف المؤرخون في ذكر الاسباب التي تحمل خفاجة على السلب والنهب وقطع الطرق، فابن الجوزي يقول: ان خفاجة امتنعت سنة ٥٥٦ هـ عن دفع الاعشار ولذلك ارسل العسكر اليهم فنهب اموالهم[٨]. على حين يقول ابن الاثير: ان خفاجة طالبوا برسومهم من الطعام والتمر فمنعهم مقطع[٩] الكوفة ووافقه الامير قيصر شحنة الحلة،

---

(١) اراد سواد البصرة، وهو القرى والارياف المحيطة بالمدينة.

(٢) ابن الاثير ١٢ / ٣٤

(٣) نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة.. وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة. (معجم البلدان.. الغراف).

(٤) ابن الاثير ١٢ / ١٤٧

(٥) معجم قبائل العرب ١ / ٣٥١ ـ ٣٥٢

(٦) السواد: يراد به رستاق العراق وضياعها.. سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والاشجار.. (معجم البلدان. السواد).

(٧) ابن الاثير ١١ / ١٥٩

(٨) المنتظم ١٠ / ٢٠٠

(٩) اي أن الكوفة من اقطاعه، وقد مر في هامش ص ١٦ ـ ١٧ شرح معنى الشحنة.

وعندئذ افسدت خفاجة ونهبت سواد الكوفة والحلة، فاسرعت اليها العساكر من هاتين المدينتين، ولم ينفع القبيلة اعتذارها وطلبها الصلح، فدارت معركة ضارية ربحتها خفاجة، فقتل الامير قيصر وجرح صاحبه، مقطع الكوفة، واسرت جماعة اخرى، ومن نجا مات عطشا في البرية، وكثر النوح والبكاء على القتلى ببغداد، وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة في طلب خفاجة، فدخلوا البرية، ثم ارسلوا يعتذرون ويسألون العفو عنهم، فأجيبوا الى ذلك[1].

ولعل الابله البغدادي اراد هذه الحادثة، حين قال يمدح الوزير عون الدين. من قصيدة مطلعها:

بِعَوْدِكَ عادَتْ دولة الكرمِ الغَمْرِ[2] واصبح طيُّ الجود يؤذن بالنَشْرِ

قال فيها:

واقسمُ لو باكرت حي خفاجةٍ لَمَا صبحوا الابراغِية[3] البِكْرِ
ولكن حَمَتهم عن رماحِك والظبى[4] وان يهلكوا، ارجاء مهلكةٍ قَفْرِ
مضوا، فَطليق القومِ منك كأنّهُ يسير أسيراً للمخافةِ والذعرِ[5]

أما في السنوات التي تكاد تنعدم فيها سلطة الحكومة المركزية، فكانت خفاجة تأخذ القوافل في اطراف بغداد، وفي محلة الحربية مثلا، ولذلك لانعجب اذا سمعنا الابله البغدادي يطلب من احد ممدوحيه سيفا يحمي نفسه به، لان خفاجة في طريقه، قال من قصيدة:

وفي طرقي خفاجة وهو بطن حلال عندها أكل الحرام
فقلدني - مع الاحسان - غضبا[6] يُجلي[7] صبحه ليل القَتام[8]
كما اضطربت مياه في غدير او اضطرمت بروق في غمام
وها أنا اعزل، لولا لسان كعزمِك، غير مفلول كَهَامِ[9]
... الخ[10]

وربما كان ابن جبير على حق، حين اشار الى أن من اسباب استيلاء الخراب

---

(١) الكامل ١١/١١٢
(٢) الكرم الغمر: الكثير.
(٣) الراغية: الابل. البكر: الفتي. أراد: الضوضاء والاصوات الكثيرة لان الفتي من الابل يكون كثير الرغاء.
(٤) الظبي: السيوف.
(٥) ديوان الابله و٥٠ - ٥١
(٦) غضبا: سيفا قاطعا.
(٧) يجلي: بالاصل تجلى.
(٨) القتام: غبار الحرب.
(٩) كهام: كليل، ضعيف.
(١٠) ديوان الابله و٤٦

على اكثر الكوفة اواخر القرن السادس، قبيلة خفاجة المجاورة لها[١].

٤ ـ فساد الجهاز الاداري:

كان الناس يتوقعون ان تزول متاعبهم وآلامهم بزوال السيطرة السلجوقية، لان هؤلاء اجانب تحكموا في رقاب الناس بقوة السلاح. ولم يكن العراقيون يتوقعون ان تزداد الامور سوءا حين استعاد الخلفاء سيطرتهم، فقد ضج الناس بالشكوى وفقدوا الامن على ارواحهم واموالهم، ولعبت الوساطات والرشى دورا كبيرا في افساد الذمم وشراء الضمائر، حتى صار الفرد لا يدري متى تنهب داره، او تصادر امواله، او يلقى به في غياهب السجون، يستوي في ذلك الوزراء وعامة الناس.

لقد عرف بالظلم والتجبر من الوزراء ابو جعفر بن البلدي، وزير المستنجد بالله، فقتل سنة ٥٦٦ هـ، ثم القي في دجلة، بعد ان قطع[٢]. وفي هذا الوزير قال ابن التعاويذي:

يا قاصِدا بغداد، جز[٣] عن بلدةٍ ... للجور فيها زَخرة[٤] وعُبَابُ[٥]
ليست ـ وما بعد الزمانُ ـ كعهدها ... ايام يعمر ربعها الطلابُ

الى ان يقول:

والناس قد قامت قيامتهم، فَلا ... انسابُ بينهم ولا أسبابُ
والمرء يُسلمه أبوه وعرسِه[٦] ... ويخونه القرباء والأحبابُ
لا شافِعاً تغني شَفاعته، ولا ... جانٍ له مما جناهُ مَتابُ
شهدوا معادَهم، فعاد مُصدِّقاً ... مَن كان قَبْل بعثه يرتابُ

... الخ[٧]

كذلك عرف بالظلم وزير الناصر لدين الله، ناصر بن مهدي، حتى اضطر مظفر الدين سنقر، وهو من اكابر مماليك الخليفة، الى الهرب منه الى الشام سنة ٦٠٣، فلما قبض على الوزير سنة ٦٠٤ هـ، عاد الى بغداد[٨].

ومن هؤلاء قطب الدين قايماز، قائد جيش المستضيء، حتى اضطر الخليفة أن يستنجد بالعامة عليه قائلا: «مال قطب الدين لكم ودمه لي[٩]».

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٧ (ط. دار صادر).
(٢) ابن الاثير ١١ / ١٤٦
(٣) لعلها «حد» كما في وفيات الاعيان ٤ / ٩٣
(٤) زخرة: امتلاء.
(٥) العباب: ارتفاع السيل.
(٦) عِرسه: زوجه.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٧ ـ ٤٨
(٨) ابن الاثير ١٢ / ١١٥ ـ ١١٦
(٩) ابن الاثير: ١١ / ١٧٣

فاذا تركنا الوزراء ومن في منزلتهم الى الطبقة التي تلي هؤلاء، وجدنا الامر لا يختلف. فالقاضي يحيى بن سعيد بن المُرخم البغدادي، كان شديد البطش، ظالما، حتى عد ابن الاثير من حسنات المستنجد بالله، القبض على هذا القاضي واسترداد اموال الناس منه[١].

وفي ابن المُرخَم هذا، قال هِبَة الله بن الفَضْل:

يا ابنَ المرخم، صِرْتَ فينا قاضِياً — خَرِفَ الزمان تراه أم جنَّ الفَلَكْ؟
ان كنت تحكم بالنجوم، فربما — اما بشرع محمد، مِن اين لكْ[٢]؟

وفي سنة ٥٩٦ هـ مات في حبس الناصر لدين الله نائب الشرطة بباب النوبى[٣]، ويعرف بابن المرأة، لانه كان ظالما جبارا، وقد تولى التحقيق معه من خلفه في نيابة الشرطة بباب النوبى. وهذا الاخير كان مثل سابقه سيء الطريقة عاتيا، محبا للظلم، مؤثرا للأذى، وقد مات سنة ٦٠٠ هـ[٤].

وهكذا ضاعت حقوق الرعية بين مظلوم في الحبس وظالم يتولى التحقيق.

وكما عرف بعض المسؤولين الكبار بالظلم والقسوة، عرف آخرون بالسرقة وأخذ اموال الناس دون وجه حق، قال ابن الساعي عن افلح بن أفلح: «كان فيه جلادة وجرأة على اخذ الاموال لنفسه، وكان يؤخذ ويحبس ثم يخرج فيعود الى ما كان عليه اذا رتب في شغل». وحين سئل ابن افلح هذا عن عشرة آلاف دينار أخذها دون حق، قال للسائل: «هذا المال لي ولك وللكاتب وللمشرف والبراطيل[٥] ونفقة الحبس[٦]».

ولعل عيوب الطبقة المتنفذة التي ذكرت نماذج منها في الفقرات المتقدمة هي التي حملت أحد شعراء القرن السادس على ان يقول حين سقط الثلج فابيضت الأرض:

يا صدور الزمان ليس بوفر[٧] — ما رأيناه في نواحي العراقِ
انما عم ظُلْمُكم سائِرَ الأر — ض، فشابتْ ذَوائِبُ الآفاقِ[٨]

---

(١) نفسه ١١ / ١٤٦
(٢) وفيات الاعيان ٢ / ٣٠٩
(٣) من ابواب دار الخلافة، وقد مرت الاشارة الى صاحب هذه النسبة ص ٧
(٤) الجامع المختصر ٩ / ٤٠، ١٣٢
(٥) واحدها برطيل، وهو الرشوة (فارسية). الالفاظ الفارسية ص ٢٠
(٦) الجامع المختصر ٩ / ١٦
(٧) الوفر: الثلج المتساقط شتاء.
(٨) المنتظم ٩ / ٢٢٦ ـ ٢٢٧، معجم الادباء ٧ / ٢٤٢ ط. ماركليوث الاولى.

(الحياة الثقافية)

على الرغم من سوء الاحوال الاجتماعية والاضطراب السياسي، فقد كان العراق في القرن السادس يموج بحركة ثقافية لا حدود لها شغلت الجميع على اختلاف مذاهبهم واجناسهم واعمارهم ودياناتهم. لقد كانت المدارس والجوامع والمكتبات البغدادية تغص بطلاب العلم وعشاق المعرفة من الاقطار المجاورة والبعيدة على السواء، حتى ليندر ان نجد عالما اشتهر وذاع صيته في العالم الاسلامي يومذاك دون ان تكون بغداد صاحبة فضل عليه. ويكفي العراقيين فخرا أن المدرسة النظامية ببغداد كانت المعهد الذي يطمح كل عالم ان يدرس فيه[١]، وحسبك ان من بين مدرسيها كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانباري المتوفى سنة ٥٧٧[٢] هـ، ومن طلابها الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١[٣] هـ.

وكم وددت لو سلمت ثقافة القرن السادس من هنات لا تليق بهذا الطود الشامخ، ولست ادري كيف استطاع العراقيون الجمع بين سعة المعرفة ودقتها وهذا التعصب المقيت؟

ان الحيرة لتعقد لسان الباحث، وهو يجد خليفة كالمستنجد بالله، ازدهرت جنان المعارف في ايامه، ومع ذلك يأمر بازهاق نفس اديب لامع كابن حمدون[٤]، لانه وجد في كتاب له حكايات توهم غضاضة من الدولة[٥]. وكاد الشيخ عبد القادر[٦] الكيلاني يلقى مصرعه، لولا شعبية الشيخ وخوف الخليفة من الرأي العام، ولذلك اكتفى بلفت النظر[٧]. ان هاتين الحادثتين تدلان على ان جبروت بعض خلفاء القرن السادس قد اسكت اصواتا لو سمعناها لتغيرت صورة القرن كله.

وكان التعصب المذهبي هو الآخر مما يعكر على الباحث متعته، وهو يطوف بين

(١) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٨

(٢) وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

(٣) معجم الادباء ٥ / ١٤٠ ط. ماركليوث الثانية.

(٤) هو ابو المعالي محمد بن ابي سعد الحسن.. بن حمدون، الكاتب البغدادي كان فاضلا ذا معرفة تامة بالأدب والكتابة، والف كتاب التذكرة. توفي محبوسا سنة ٥٦٢ هـ. المنتظم ١٠ / ٢٢١، الخريدة ١ / ١٨٤، وفيات الاعيان ٤ / ١٥

(٥) الخريدة ١ / ١٨٤

(٦) هو مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار الزهاد. توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ. المنتظم ١٠/٢١٩، فوات الوفيات ٢ /٤، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٧١

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٩٢

حقول المعرفة. ان رجلا خطير المكانة كعبد الرحمن بن الجوزي يكتفي بالاشارة العابرة حين يترجم لغير الحنابلة في المنتظم[١]، ولكنه يقف «وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه» حين يذكر الحنابلة. ومع ذلك يتهم ابن الجوزي معاصره عبد الكريم بن السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ بالتعصب، ويستعيذ بالله منه[٢].

وفي سنة ٥٤٦ هـ سأل ابن[٣] العبادي ان يجلس في جامع المنصور، فقيل له: لا تفعل، فان اهل الجانب الغربي لا يمكنون الا الحنابلة، فلم يقبل.. فلما شرع في الكلام اخذته الصيحات من الجوانب، ونفر الناس وضربوا بالآجر، فتفرق الناس منهزمين كل قوم يطلبون جهة، واخذت عمائم الناس.. وتكلم ساعة ونزل، وارباب الدولة يحفظونه حتى انحدر، وقد طار لبه[٤]

ومن المآخذ على التيار الثقافي ايضا أن المنطق والفلسفة - او ما سمي بعلوم الاوائل - كانت من العلوم المحرمة التي اذا اتهم احد بالاطلاع عليها أو اقتناء كتبها، فلا بد أن يرمى برقة الدين ويؤدب ويضرب على يديه بشدة. فقد قيل: أن صَدَقَة بن الحَدّاد، الناسخ الحنبلي المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، حفظ القرآن وتفقه وافتى وناظر، لكنه قرأ الشفاء لابن سينا وكتب الفلاسفة، فغير اعتقاده، وكان يبدر من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته[٥].

وفي سنة ٦٠٣ هـ كبست دار عبد السلام[٦] بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، وأخرج منها كتب منها الشفاء لابن سينا والنجاة ورسائل اخوان[٧] الصفا وكتب الفلاسفة والمنطق، فاحرقت امام الناس ولعن عبد السلام وتعدى اللعن الى الشيخ عبد القادر واحمد بن حنبل[٨]، وحين قبض على ابن المرخم القاضي.. اخذت كتبه، فاحرق منها

---

(١) انظر - مثلا - عند ذكره ابن عساكر في وفيات سنة ٥٧١

(٢) المنتظم ١٠ / ١٦٣

(٣) هو المظفر بن اردشير، ابو منصور العبادي، كانت له فصاحة وحسن عبارة، وكان يترسل بين السلطان والخليفة، توفي بعسكر مكرم سنة ٥٤٧ هـ، ثم حمل الى بغداد. المنتظم ١٠/١٥٠، المختصر المحتاج اليه ١/١٥٨، والمستدرك عليه ص ٩ - ١٠

(٤) المنتظم ١٠ / ١٤٥

(٥) ذيل الروضتين ص ١٢، النجوم الزاهرة ٦ / ٨١

(٦) فقيه حنبلي من علماء بغداد، ولي عدّة ولايات. توفي ببغداد سنة ٦١١ هـ الكامل ١٢/١٢٦، مراة الزمان ٨/٥٧١، فوات الوفيات ١ / ٥٧١.

(٧) جماعة تألفت في القرن الرابع الهجري، ولم يعرف من اشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك، انظر مقدمة (رسائل اخوان الصفا) ١ / ٥ - ٢٠

(٨) ذيل الروضتين ص ٥٦

ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب[1] اخوان الصفا وما يشاكلهما[2].

ولعل من المضحك ان يتهم اديب ضرير يدعى كامل بن الفتح توفي سنة ٥٩٦ هـ بأنه كان يدخل على الخليفة الناصر لدين الله ويخلو معه، وانه علمه علم الاوائل وهون عليه علم الشرائع، وقد ادرك ياقوت الحموي سذاجة هذه الحكاية فرواها بتحفظ[3]، وكذلك رواها ابن شاكر[4].

وعندي ان منع جمهور المثقفين من الاطلاع على المنطق والفلسفة، قد أضر بالعقلية العربية الاسلامية، وجعل اولئك الذين لا يريدون ان تظل عقولهم تدور في فلك الدراسات الدينية وما يتصل بها من علوم اللغة العربية، يبالغون في هجومهم على رجال الدين قائلين: انهم جهال لا يعرفون العلوم العقلية ولا معاني الحديث الحقيقية بل هم مع اللفظ الظاهر[5]وذهب فريق آخر الى القول: بان قسما من علوم الاوائل هذه ـ والتي يبغضها رجال الدين ـ تساعد على الايمان وتخدم الدين[6].

حركة التأليف:

من ابرز مظاهر الحركة الثقافية الكبرى في القرن السادس الاقبال على التأليف والتصنيف، وهذا الغرام بالكتب والتسابق لاقتنائها، وبذل الاموال الطائلة في سبيل ذلك. فأبو محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشّاب والمتوفى سنة ٥٦٧ هـ، كان مولعا بالكتب حتى انه لم يمت احد من اهل العلم وأصحاب الحديث الا وكان يشتري كتبه كلها، بل انه باع داره ليشتري بثمنها كتبا حين وجد ان ما معه من نقود لا يكفي[7]. وحين غرقت كتب ابي محمد سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهّان المتوفى سنة ٥٦٩ هـ، اشاروا عليه ان يبخرها ويصلح ما يمكن منها، فبخرها باكثر من ثلاثين رطلا، فطلع الى رأسه وعينيه، فأحدث له العمى وكف بصره[8]. اما الطبيب النصراني مسيحي بن ابي البقاء المتوفي سنة ٦٠٨ هـ، فبلغ به حبه للكتب انه كان اذا وقعت في يده نسخة من كتاب، وخشى المزايدة

---

(١) كذا بالاصل، ولعل المراد: وكتب

(٢) ابن الاثير ١١ / ١٠٤

(٣) معجم الادباء ٦ / ٢٠٨ ط. ماركليوث الثانية.

(٤) فوات الوفيات ٢ / ٢٨٢

(٥) شذرات الذهب ٥ / ٤١

(٦) تاريخ الحكماء ص ١٥٤

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣١٩

(٨) وفيات الاعيان ٢ / ١٢٥

فيه، بخرمه لينقص قيمته ويبتاعه، واشتهر هذا عنه، ورموه بقلة الدين لاجل ذلك، وبهذه الطريقة استطاع ان يجمع كتبا ليس الى حصرها من سبيل[١].

وكان بيع الكتب وشراؤ ها ونسخها وتجليدها، يشغل حيزاً كبيرا من حياة الناس الاقتصادية والمعاشية، فقد كان للكتب سوق تباع فيه كما تباع بقية البضائع، ويقع سوق الكتب هذا بباب بدر[٢] ببغداد الشرقية[٣]. وعرف ابو المعالي سعد بن علي الحَظِيري[٤] المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بانه دلال الكتب في بغداد[٥]، وكان معاشه من الكتب[٦].

وقد اشتهر جماعة بجودة الخط والنسخ، وكان قسم من هؤلاء ممن يحرص الناس ان يحصلوا على كتب بخطوطهم لما عرفت به من الدقة والجمال، فقد عرف ابو الحسن علي بن عبد الرحيم المعروف بابن القَصَّار اللغوي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ بأنه: كتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب.. والناس يتنافسون في خطه ويغالوا به[٧]...، وكذلك اشتهر مَوْهُوب بن أحمد المعروف بابن الجَوَاليقِي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ بانه: مليح الخط كثير الضبط، صنف التصانيف وانتشرت عنه وشاع ذكره، ونقل بخطه الكثير[٨]. وكان صدقة ابن الحسين المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، يعرف بالناسخ، لانه كان يعيش من نسخ الكتب، وقد نسخ بخطه كثيرا للناس من سائر الفنون[٩]. ومن هؤلاء محدث بغداد عبد الوهاب بن المبارك الانماطي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، قال عنه ابن السمعاني: «.. لعله ما بقى جزء مروي الا وقد قرأه وحصل نسخته، ونسخ الكتب الكبار مثل الطبقات لابن سعد وتاريخ الخطيب[١٠]...»

ولست ارى فائدة في المزيد من الشواهد لانها كثيرة جدا، عرض الاستاذ الفاضل كوركيس عواد في كتابه «خزائن الكتب القديمة في العراق» جملة صالحة منها، فليرجع اليه من شاء.

---

(١) تاريخ الحكماء ص ٢١٨

(٢) ويسمى ايضا باب البدرية، نسبة الى بدر مملوك الخليفة المعتضد ٢٧٩ - ٢٨٩، انظر: دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

(٣) الخريدة ٢ / ٣٤٤، الوافي بالوفيات ٢ / ١١٩، وانظر: دليل خارطة بغداد ص ٨٦

(٤) نسبة الى الحَظيرة، وهي قرية كبيرة كانت من اعمال بغداد، من جهة تكريت، من ناحية دُجيل.. (معجم البلدان.. الحظيرة).

(٥) المنتظم ١٠ / ٢٤١، وفيات الاعيان ٢ / ١٠٩

(٦) المختصر المحتاج اليه ٢ / ٨١

(٧) وفيات الاعيان ٣ / ٢٥

(٨) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٠٥

(٩) نفسه ١ / ٣٣٩، ٣٤٠

(١٠) نفسه ١ / ٢٠٢

ويبدو ان مفكري القرن السادس ومثقفيه من مؤرخين ونحاة ولغويين وشعراء كانوا معجبين اشد الاعجاب باسلافهم من مفكري الفترات العباسية السابقة، وخاصة رجال القرنين الرابع والخامس، ولذلك نجدهم يكبون على آثارهم، يذيلون عليها ويشرحونها، وربما نقدوها وبينوا عيوبها ومآخذها، كما يفعل الطالب الذكي حين يشعر ان بامكانه الوقوف على قدميه، فيبدأ بمناقشة استاذه مناقشة فيها غرور الشباب واندفاعه وحكمة الشيوخ وخبرتهم. فقد دخل رجل على ابن الخشاب، وهو مريض، وعلى صدره كتاب ينظر فيه، فسأله عن الكتاب، فقال ابن الخشاب: ذكر ابن[١] جني مسألة في النحو، واجتهد ان يستشهد عليها ببيت من الشعر فلم يحضره، واني لاعرف على هذه المسألة سبعين بيتا من الشعر كل بيت من قصيدة تصلح ان يستشهد به عليها[٢]. وابن الخشاب هذا الف كتابا سماه «اغلاط الحريري في مقاماته»[٣].

وكما يحدث دائما، نجد بعض الشباب يستبد بهم الغرور، فلا يكتفون بنقد آراء الشيوخ ولا يحاولون ايجاد الاعذار لهم بل ينكرون جهود اسلافهم، مدعين انهم وحدهم العباقرة العلماء. ومن هذا الصنف في القرن السادس علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ، قال: ان الاوائل جمعوا اقوال غيرهم واشعارهم وبوبوها، أما أنا فكل ما عندي من نتائج افكاري، وكنت كلما رأيت الناس مجمعين على استحسان كتاب في نوع من الاداب استعملت فكري وانشأت من جنسه ما ادحض به المتقدم[٤].

ويعتبر كتاب «اللمع» لابن جني من اشهر الكتب التي اهتم بشرحها نحاة القرن السادس. فقد شرحه ابن الدهان، سعيد بن المبارك، في كتاب سماه «الغرة»، قال عنه ابن خلكان انه: «لم ير مثله مع كثرة شروح هذا الكتاب»[٥]، شرحه ايضا ابو البقاء العكبري[٦] المتوفى سنة ٦١٦ هـ[٧]، وابو محمد بن الخشاب[٨]، وشميم الحلي[٩]، وهبة الله بن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ[١٠]، ومحمد بن علي المعروف بابن حميدة النحوي المتوفى سنة ٥٥٠ هـ[١١].

---

(١) العالم اللغوي المشهور المتوفي سنة ٣٩٢ هـ.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣١٧
(٣) نفسه ١ / ٣١٨
(٤) معجم الادباء ٥ / ١٣٠ ط. ماركليوث الثانية.
(٥) وفيات الاعيان ٢ / ١٢٤
(٦) نسبة الى عكبرا، قال ياقوت انها: بليدة من نواحي دجيل.. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.. (معجم البلدان.. عكبرا).
(٧) وفيات الاعيان ٢ / ٢٨٦
(٨) نفسه ٢ / ٢٨٨
(٩) معجم الادباء ٥ / ١٣٨ ط. ماركليوث الثانية.
(١٠) وفيات الاعيان ٥ / ٩٦
(١١) معجم الادباء ٧ / ٤٠ ط. ماركليوث الاولى

وشرح ابن الجواليقي «ادب الكاتب» لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ[١]، وشرح ابو البقاء العكبري كتاب «الايضاح» لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ[٢]، وشرح ابن الخشاب كتاب «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ[٣].

اما التذييل على مؤلفات السابقين فمنه: ذيل «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي من تأليف هبة الله بن المبارك، المحدث الرحال المتوفى سنة ٥٠٩ هـ[٤]، وذيل «دمية القصر» للباخرزي[٥] من تأليف سعد بن علي الحظيري، المسمى «زينة الدهر[٦]».

أما مؤلفات رجال القرن السادس ـ غير ما تقدم ـ فكثيرة جدا شملت جميع فروع المعرفة، حتى لا يدري الباحث كيف يختار امثلة قليلة من هذا الحشد الهائل؟ وماذا كان يفعل هؤلاء الاسلاف لو قدر لهم ان يعيشوا في غير الظروف السيئة التي احاطت بهم؟

يعتبر ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، من اكثر الناس تأليفا في القرن السادس، حتى قال ابن خلكان عنه: ان كتبه اكثر من ان تعد[٧]. ومعظم كتب ابن الجوزي في القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ. ولأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري: «اعراب القرآن» و«اعراب الحديث» و«اعراب شعر الحماسة» وغيرها[٨]. ولهبة الله بن الشجري: «شرح التصريف الملوكي» وكتاب «ما اتفق لفظه واختلف معناه»[٩].

وفي البلاغة كتب سعد الحظيري «لمح الملح»، قال عنه صلاح الدين الصفدي انه: قد هذبه ونقحه وسماه «حرم المدح في تهذيب لمح الملح[١٠]». ولشميم الحلى «انس الجليس في التجنيس» وكتاب «انواع الرقاع في الاسجاع»[١١].

اما في الادب فقد الف ابن الشجري «الامالي» و«الحماسة»، وهذا الكتاب الثاني ضاهى به حماسة ابي تمام الطائي[١٢]، ولابن الدهان «الرسالة السعيدية[١٣] في المآخذ الكِنْدية[١٤]»، وهو يشتمل على سرقات المتنبي[١٥]، ولابي البركات عبد الرحمن بن محمد

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٠٥

(٢) وفيات الاعيان ٢ / ٢٨٦

(٣) نفسه ٢ / ٢٨٨

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١١٤

(٥) هو ابو الحسن علي بن الحسن، ينسب الى باخرز، احدى نواحي نيسابور، عرف بالفقه والحديث لكن الادب غلب عليه. قتل سنة ٤٦٧ هـ. معجم الادباء ١٣ / ٣٣ (ط. دار المأمون)، وفيات الاعيان ٣ / ٦٦، شذرات الذهب ٣ / ٣٢٧

(٦) وفيات الاعيان ٢ / ١٠٩

(٧) وفيات الاعيان ٢ / ٣٢١

(٨) نفسه ٢ / ٢٨٦

(٩) نفسه ٥ / ٩٦

(١٠) الوافي بالوفيات ٨ / ١٢٤ مصور.

(١١) معجم الادباء ٥ / ١٣٨ ط. ماركليوث الثانية.

(١٢) وفيات الاعيان ٥ / ٩٦

(١٣) نسبة الى سعيد بن المبارك، وهو ابن الدهان.

(١٤) نسبة الى كندة، محلة في الكوفة، منها ابو الطيب المتنبي.

(١٥) وفيات الاعيان ٢ / ١٢٤

الانباري كتاب في «طبقات الادباء» جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه[١]. ولعل هذا الكتاب هو المطبوع باسم «نزهة الالباء».

المدارس :

ان كثرة المدارس والانفاق عليها بسخاء وميل الناس ـ وخاصة الاثرياء ـ الى بناء مدارس جديدة او وقف دورهم وقصورهم لتكون مدارس، كل هذا يدل على نهضة ثقافية ووعي علمي لا شك فيها.

ولا بد من الاشارة هنا الى ان معلوماتنا عن المدارس العراقية خارج بغداد قليلة بسبب عدم الاشارة اليها في المصادر القديمة الا نادرا. فنحن ـ على سبيل المثال ـ لا نعرف من مدارس البصرة التي كانت قائمة في القرن السادس سوى مدرستين هما: مدرسة باتكين للحنابلة[٢]، والمدرسة النظامية[٣]. ولا نعرف من مدارس واسط سوى اربع مدارس هي: مدرسة ابي الفضل الغزنوي، محمود بن احمد المتوفى سنة ٥٦٣ هـ[٤]، ومدرسة ابن الكيال، نصر الله بن علي الواسطي المتوفى سنة ٥٨٦ هـ[٥]، ومدرسة خطلبرس[٦]، ومدرسة شرف الدولة، محمد بن ويوام[٧]. ولكن معلوماتنا عن المدارس البغدادية كافية لاعطاء فكرة عن الجانب المدرسي من الحياة الثقافية، وهو ما سأحاوله في الصفحات الآتية.

يمكن أن نجد نوعين من المدارس ـ من حيث القدم ـ في القرن السادس وهما:

١ ـ المدارس التي اسست قبل هذا القرن واستمرت تؤدي رسالتها الى القرن السادس، بل واستمرت بعده فترة طويلة، واشهر هذه المدارس اثنتان هما: المدرسة النظامية المشهورة التي اسسها الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، وافتتحت رسميا سنة ٤٥٩ هـ[٨]، والمدرسة الثانية هي مدرسة الامام ابي حنيفة، وقد افتتحت هي الاخرى سنة ٤٥٩ هـ[٩].

---

(١) نفسه ٢ / ٣٢٠

(٢) نشأة المدارس المستقلة ص ١١، ناجي معروف.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٦ / ١٧٥

(٤) الجواهر المضية ٢ / ١٥٤

(٥) نفسه ٢ / ١٩٨

(٦) مدارس واسط ص ١٦، وفي ابن الاثير ١١ / ١٣٠: يشير الى مقتل خطلوبرس مقطع واسط سنة ٥٦١ هـ. فلعله هو مؤسس المدرسة.

(٧) مدارس واسط ص ١٩

(٨) وفيات الاعيان ١ / ٣٩٦

(٩) ابن الاثير ١٠ / ٢٠، وانظر: اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٩

٢ ـ المدارس التي اسست في القرن السادس ومن اشهرها المدرسة الثقتية التي بناها ثقة الدولة، علي[١] بن محمد الانباري، وافتتحت للدراسة سنة ٥٤٠ هـ[٢]، وكانت للشافعية. ومن الذين درسوا فيها الكاتب المؤرخ عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ[٣]. ومدرسة الوزير عون الدين، يحيى بن محمد بن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠ هـ للحنابلة، وكانت بباب البصرة في الجانب الغربي من بغداد[٤]. ويبدو ان هذه المدرسة قد زالت من الوجود قبل سنة ٥٨٠ هـ، حين زار الرحالة ابن جبير بغداد[٥].

ويظهر الصراع المذهبي واضحا في تأسيس المدارس وفي الدراسة والتدريس بها. فلكل مذهب مدارسه التي يحاول عن طريقها نشر تعاليمه وتشجيع كبار العلماء على اعتناقها ليستطيعوا التدريس في مدارس المذهب الخاصة. فقد كانت المدارس النظامية ـ ومنها نظامية بغداد ـ من اسباب انتشار المذهب الشافعي، لان كل طالب لا يقبل فيها الا اذا كان شافعيا، وكذلك المدرس[٦]. قال ابو البقاء العكبري ـ وكان حنبلي المذهب ـ: جاء الي جماعة من الشافعية، فقالوا: انتقل الى مذهبنا ونعطيك تدريس النحو واللغة بالنظامية، فأقسمت وقلت: لو اقمتموني وصببتم علي الذهب حتى اتوارى، ما رجعت عن مذهبي[٧].

ولكن العلماء ليسوا كلهم في صلابة ابي البقاء، فقد انتقل ابو بكر المبارك بن المبارك الملقب بالوجيه النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ. من مذهب ابي حنيفة الى المذهب الشافعي ليتولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية، فقال فيه المؤيد بن زيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ:

ومن مبلغ عني الوجيهَ رسالةً	وان كان لا تجدي اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل	وذلك لما أعوزتك المآكل
اخترت قول الشافعي تدينا	ولكنما تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل انت ـ لا شك ـ صائر	الى مالك[٨]، فافطن لما انا قائل[٩]

وكذلك انتقل عماد الدين ابو بكر محمد بن يحيى السلامي، المعروف بابن الحبير،

---

(١) هو المعروف بابن الدريني، زوج فخر النساء الكاتبة العالمة شهدة بنت الابري، توفي ثقة الدولة سنة ٥٤٩ هـ. المنتظم ١٠ / ١٦٠، الخريدة ١ / ١٤٤، وفيات الاعيان ٢ / ١٧٣

(٢) المنتظم ١٠ / ١١٥ ـ ١١٦

(٣) الخريدة ١ / ١٤٤ ـ ١٤٥

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣٦٦

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

(٦) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤، ٢٢٧

(٧) ذيل طبقات الحنابلة ٢ / ١١٨

(٨) اراد مالكا خازن النار، لا الامام مالكا، وهو من التورية.

(٩) وفيات الاعيان ٣ / ٢٩٩

وكان من اعيان الفقهاء علما ودينا وصلاحا وعدالة وورعا، انتقل عن مذهب احمد الى مذهب الشافعي، وسلمت اليه المدرسة الاسبابذية[1] بين الدربين تدريسا ونظرا[2].

ان الاختلاف المذهبي بين اهل بغداد، هو الذي جعل مدارسها على ثلاثة أقسام:

١ ـ المدارس الشافعية: ومنها مدرستان سبقت الاشارة اليهما وهما: المدرسة النظامية ببغداد، والمدرسة الثقتية.

٢ ـ المدارس الحنبلية: ومنها مدرسة ابن هبيرة، وقد اشرنا اليها. ومن مدارس الحنابلة ايضا: مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني بباب الأزَج في بغداد الشرقية، وقد بناها القاضي ابو سعد المخرمي، قاضي باب الازج المتوفى سنة ٥١٣ هـ، ولكن الشيخ عبد القادر وسعها وسكن بها، فعرفت به[3].

ومن مدارس الحنابلة ايضا مدرسة ابن بكروس، و هو احمد بن محمد بن المبارك الدينوري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، وكانت بدرب[4] القيار ببغداد الشرقية[5].

٣ ـ مدارس الحنفية: وأشهرها مدرسة ابي حنيفة بباب الطاق من بغداد الشرقية، وقد سبقت الاشارة اليها. ومن مدارس الحنفية الاخرى: المدرسة التاجية[6] التي انشأها تاج الملك ابو الغنائم وزير السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢ هـ[7].

وحين زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ هـ، قال: «.. والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها.. ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير الى الفقهاء والمدرسين فيها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذا البلاد في امر هذه المدارس، والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد[8]».

المساجد والجوامع:

المسجد مدرسة المسلمين الاولى، وقد بقي كذلك في العصور العباسية المتعاقبة ومنها المائة السادسة، على الرغم من كثرة المدارس المستقلة عن المساجد.

---

(١) كانت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٢) الجامع المختصر ٩ / ٢١٩

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٦٦ ـ ١٦٧

(٤) من محلات بغداد التي لم تكن موجودة قبل العهد السلجوقي. تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٤٠٨

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣٣٨

(٦) كانت في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٤٧

(٧) الجواهر المضية ١ / ٣٤١، وانظر تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨١

(٨) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥ (ط. دار صادر).

وكان الاثرياء يتنافسون لانشاء المساجد ووقفها على الناس طلبا للثواب في اليوم الآخر، ولم تدخر الدولة في تشييد المساجد ومنافسة الافراد في هذا المجال.

ولعل اهتمام الدولة الشديد بالجوامع يبدو واضحا في بناء جامع(١) السلطان، فقد بدأ به السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ تحت اشراف قاضي القضاة، وجلبت اخشابه من سامراء، ولكن بناءه لم يتم الا سنة ٥٢٤ هـ على يدي بهروز الخادم(٢)

اما الافراد الذين عرفوا بتشييد الجوامع فمنهم السيدة زمرد أم الخليفة الناصر المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ، وقد شيدت مسجدا في الحظائر ببغداد الشرقية(٣). وكذلك شيدت بنت السيدة بنفشا مولاة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ مسجدا كبيرا بسوق الخبازين في الجانب الشرقي من بغداد(٤). واشترى ابو الحسن علي بن احمد العلوي الزيدي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ دارا بدرب(٥) دينار ببغداد الشرقية وبناها مسجدا، واشترى كتبا كثيرة اوقفها في المسجد لينتفع بها الناس(٦). وفي مسجد الزيدي هذا اوقف ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦(٧) هـ كتبه. وعندي ان حرمة المساجد وقدسيتها تتيح للدارسين وتوفر لهم جوا خاصا منعزلا عن صخب الحياة وضجيجها، ولذلك امتاز نتاج المسجدين بالكثرة والدقة واتسمت حياتهم بالخشونة والبساطة. ومن اشهر رجال القرن السادس الذين قامت شهرتهم على ملازمة المساجد والعكوف فيها اثنان:

الأول: عبد الله بن علي، المعروف بسبط الخياط المتوفى سنة ٥٤١ هـ، شيخ العراق ورأس اصحاب الامام احمد، كان طول عمره منفردا في مسجد(٨) أبي عبد الله بن جرده بنهر(٩) معلى ببغاد الشرقية، وكان أكابر العلماء وأهل بلده يقصدونه(١٠).

والثاني: صدقة بن الحسين الذي انقطع بمسجده بالبدرية(١١) شرقي بغداد، يـوم

(١) كان في محلة المخرم قرب دار السلطنة السلجوقية.. دليل خارطة بغداد ص ١٠١ هـ ٣

(٢) المنتظم ٩/ ٦٠

(٣) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

(٤) نساء الخلفاء ص ١١٣

(٥) نسبة الى دينار بن عبد الله، من موالي الرشيد وكان من أجل القواد في زمن المأمون. دليل خارطة بغداد ص ١١٩

(٦) مرآة الزمان ٨/ ٣٥٦، وانظر دليل خارطة بغداد ص ١٧٤ ـ ١٧٥

(٧) شذرات الذهب ٥/ ١٢٢

(٨) لم يذكر هذا الجامع بين جوامع بغداد التي ذكرها مؤلفا دليل خارطة بغداد، بل ذكرا «خربة ابن جردة» ص ١٦٤، فلعل الجامع كان فيها.

(٩) محلة ببغداد وفيها دار الخلافة.. تنسب الى المعلي بن طريف مولى المهدي وكان من كبار قواد الرشيد.. (معجم البلدان.. نهر المعلى).

(١٠) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٠٩

(١١) تسمى ايضا «باب بدر»، كما سبق أن اشرت في الهامش ص ٣٣.

الناس فيه وينسخ ويفتي ويتردد اليه الطلبة يقرأون عليه فنون العلم، وبقي على ذلك نحوا من سبعين سنة حتى توفى سنة ٥٧٣ هـ[١].

أما اشهر جوامع بغداد في اواخر القرن السادس فهي:

١ ـ في بغداد الغربية: جامع المنصور، وقد وصفه ابن جبير حين زار بغداد سنة ٥٨٠ هـ، بانه: «جامع كبير عتيق البنيان[٢]».

ومن الذين كانت لهم حلقة بجامع المنصور علي بن عبيد الله المعروف بابن الزاغوني[٣] البغدادي المتوفى سنة ٥٢٧ هـ، اذ كان يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة، ثم يعظ بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت ايضا"[٤]. وبعد وفاة ابن الزاغوني اخذ حلقته ابو علي الحسن بن محمد الفقيه الواعظ المتوفى سنة ٥٤٦ هـ، وطلبها ابن الجوزي فلم يعطها لصغر سنه[٥]. ومن النحاة العلماء الذين كانوا يجلسون في جامع المنصور هبة الله بن علي بن الشجري، وكان يجلس يوم الجمعة مكان ثعلب المتوفى سنة ٢٩١[٦] هـ.

٢ ـ في بغداد الشرقية: جامع القصر ويسمى ايضا جامع الخليفة، وهو الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنائز الاعيان والعلماء[٧]. . ، ومن مدرسي الحديث في هذا الجامع محمد بن عبد الباقي. . ابو بكر ويعرف بقاضي المارستان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ، قال عنه تلميذه ابن الجوزي: كان ثقة فهما ثبتا حجة متفننا في علوم كثيرة، منفردا في علم الفرائض[٨]. ومن ائمة اللغة الذين درسوا في هذا الجامع ابو منصور موهوب بن احمد. . الجواليقي البغدادي، صاحب «المعرب[٩]» وبعده كان ابنه اسماعيل المتوفى سنة ٥٧٥ هـ يدرس الأدب كل جمعة بجامع القصر نفسه[١٠].

الربط:

كان للربط دور بارز في حياة القرن السادس الثقافية، ففيها كان يلتقي العلماء والمفكرون للدراسة والبحث والمناظرة، وفي مكتباتها يجد عشاق الكتب وهواة المطالعة نفائس الآثار وروائع المصنفات، وفي الربط كان يقيم طلبة العلم المغتربون الذين كانوا يقصدون بغداد للدراسة، وكذلك كان ينزل في الربط كثير من العلماء عند مرورهم ببغداد

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣٣٩
(٢) الرحلة ص ٢٠١ (ط. دار صادر).
(٣) نسبة الى زاغوني، قال ياقوت: ما اظنها الا من قرى بغداد. (معجم البلدان. . زاغوني).
(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٨٠ ـ ١٨١
(٥) نفسه ١ / ٢٢٠
(٦) المنتظم ١٠ / ١٣٠
(٧) دليل خارطة بغداد ص ١٢٤ ـ ١٢٥
(٨) المنتظم ١٠ / ٩٤، ذيل طبقات الحنابلة ١ / ١٩٤
(٩) وفيات الاعيان ٤ / ٤٢٥
(١٠) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٣٤٧

وحين عودهم من الحج، فيلقون من شيوخها كل ترحاب وكرم وضيافة.

وقد وجد ببغداد في الفترة التي ادرسها نوعان من الربط:

١ ـ ربط خاصة بالنساء ومنها: رباط[١] فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن فضلويه الرازي، وقد سمع منها ابن الجوزي كتاب «ذم الغيبة» لابراهيم[٢] الحربي، وقال انها: كانت متعبدة واعظة توفيت سنة ٥٢١ [٣] هـ. ويرى الدكتور مصطفى جواد ان رباط فاطمة هذا هو اول رباط انشيء للنساء المسلمات[٤] ومن ربط النساء ايضا رباط دار الفلك بناه الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٦ هـ وخصصه بالنساء المتصوفات، وكان قريبا من دجلة[٥]. ومنها رباط السيدة بنفشة، وقد افتتح اول رجب سنة ٥٧٣ هـ، وكان قد افرد لاخت ابي بكر الصوفي شيخ راباط[٦] الزوزني[٧].

٢ ـ ربط خاصة بالرجال وهي كثيرة تزيد على الاربعين رباطا[٨]، ومن اسماء مؤسسي هذا الربط نعلم ان بعض المتنفذين الموسرين شيدوا أكثر من رباط، كما فعل بهروز [٩] وابن [١٠] رئيس الرؤساء [١١].

ومن أشهر هذا النوع من الربط رباط ناصر الدين محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الازجي[١٢] المتوفى سنة ٦٠٩ هـ، فقد كان هذا الرباط مجمعا للفقراء وأهل الدين والفقهاء.. وكان الاشتغال فيه بالعلم اكثر من الاشتغال في سائر المدارس[١٣].

ولا يكاد رباط من الربط البغدادية يخلو من مكتبة حافلة بنفائس المؤلفات.

---

(١) كان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢

(٢) هو ابراهيم بن اسحاق الحربي، محدث، فقيه، اديب، لغوي، اصله من مروومات ببغداد سنة ٢٨٥ هـ. تاريخ بغداد ٦ / ٢٧، المنتظم ٦ / ٣، فوات الوفيات ١ / ٥.

(٣) المنتظم ١٠ / ٧ ـ ٨.

(٤) مجلة سومر ٩٠ / ١٩٥٤، مقال بعنوان «الربط البغدادية».

(٥) المصدر السابق، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٣٨٩

(٦) نسبة الى ابي الحسن علي بن محمود الصوفي المتوفى سنة ٤٥١ هـ. وكان هذا الرباط مقابلا لجامع المنصور في الجانب الغربي من بغداد. المنتظم ٨ / ١٢٤، المختصر المحتاج اليه ١ / ٣٧

(٧) المنتظم ١٠ / ٢٧١

(٨) دليل خارطة بغداد ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣

(٩) نفسه ص ٢٥٠

(١٠) هو عضد الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله، كان استاذ الدار ايام المستنجد واستوزر في خلافة المستضيء. قتل سنة ٥٧٣ هـ. المنتظم ١٠ / ٢٨٠، ابن الاثير ١١ / ١٤٥

(١١) دليل خارطة بغداد ص ٢٥١

(١٢) نسبة الى باب الأزج، من محلات الجانب الشرقي من بغداد. (معجم البلدان.. باب الازج).

(١٣) شذرات الذهب ٥ / ٣٨

ففي سنة ٥٨٩ هـ فرغ من عمارة الرباط الذي امر بانشائه الخليفة الناصر بالحريم[١] الطاهري غربي بغداد على دجلة، وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتبا كثيرة من احسن الكتب[٢]. . وحين توفى ابن الخشاب ـ وقد سبقت الاشارة الى غرامه بالكتب ـ تفرقت مكتبته وبيع اكثرها ولم يبق الا عشرها، فتركت في رباط[٣] المأمونية وقفا[٤]. وكان ابو الحسن علي بن احمد المؤدب المقريء يتولى خزانة كتب رباط الزوزني[٥]. .

---

(١) كان اشبه بقصر ملكي، وينسب لطاهر بن الحسين بن مصعب، احد قواد المأمون المتوفى سنة ٢٥٧ هـ. دليل خارطة بغداد ص ٩٤

(٢) ابن الاثير ١٢ / ٤٣

(٣) هو رباط السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر، وكان في الجانب الشرقي من بغداد. دليل خارطة بغداد ص ٢٥٢

(٤) ذيل طبقات الحنابلة ١٠ / ٢١٩

(٥) مجلة سومر ٩٠ / ١٩٥٤

الفصل الثانى

شعراء محافظون

الاتجاه المحافظ

وقد يسمى ايضا بـ «الشعر التقليدي» او «الشعر القديم» أو «الشعر الكلاسيكي».

ان كون هذا الشعر محافظا لا يعني بداهة انه تقليد للشعر الجاهلي او للشعر الاسلامي او الاموي، واني يكون كذلك وبين العصرين اكثر من خمسة قرون قلبت كل شيء رأسا على عقب، فتغيرت الدنيا وتبدل المجتمع.

ان المحافظين في القرن السادس، وان ظلوا داخل الاطار العام للمحافظة من ناحية الشكل والاسلوب والخصائص العامة، استطاعوا أن يجددوا هنا وهناك بما لا يلحقهم بتيار التجديد كلية ولا يبعدهم عن التيار المحافظ بمعناه العام.

ان الاتجاه المحافظ يشمل شعراء كثيرين تفاوتت حظوظهم من الجودة كما اختلفت ثقافاتهم ومكانتهم الاجتماعية، فمنهم الاعيان كالوزراء وابنائهم واخوانهم، ومنهم الزعماء والقادة ورؤساء الطوائف الدينية وعلماء النحو واللغة والاطباء والفقهاء بالاضافة الى الشعراء المحترفين.

والاتجاه المحافظ في شعر العراق في القرن السادس من اكبر الاتجاهات الشعرية التي سادت تلك الحقبة، بل هو اكبرها على الاطلاق اذا اخذنا بكمية الشعر التي وصلتنا عن طريق خريدة القصر لعماد الدين الاصبهاني ودواوين اشهر الشعراء كالحيص بيص المتوفي ٥٧٤ هـ، وسبط بن التعاويذي المتوفى ٥٨٣ هـ، ومحمد المولد المعروف بالابله البغدادي المتوفى ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي المتوفي ٥٩٢ هـ.

ان معظم الشعر المحافظ الذي وصلنا، وكذلك معظم الشعر العراقي عامة كان لشعراء بغداديين او ممن اتصل بأهل بغداد بسبب من الاسباب. أما شعراء المناطق البعيدة عن العاصمة في جنوب العراق او شرقه وغربه، فان معرفتنا بهم تقف عند خريدة القصر وما استطاع صاحبها ان يدونه خلال عمله الرسمي في خدمة الدولة العباسية، وهو امر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة شعر الفترة وتقييمه.

ولعل ندرة شعر المرأة العراقية الذي وصلنا، وخاصة المرأة البعيدة عن بغداد، من الاسباب التي ترجح ان معلوماتنا عن هذه الفترة ليست دقيقة، وان مصادرنا اهتمت بشعر الرجال واهملت الشعر النسوي فلم تصلنا سوى قلة من اسماء[1] الشواعر من اشهرهن الشاعرة الفقيهة ام علي الرشيدة، وقد كانت حية ترزق ايام اقامة العماد الكاتب في البصرة سنة ٥٥٦ هـ. ومن شعرها مقطوعات اوردها صاحب الخريدة نقلا عن ولدها السيد علي العبدي مثل قولها:

دع سالف الاموات لا تبكهم ... وابكِ على نفسك يا جاهلُ
ما انتَ بالخالد مِن بعدهم ... انت على اثارهم راحلُ[2]

وقولها ترثي:

اقول - ولم ابلغ نهاية فضلها - ... : بكاك ويبكي الوالد المتندمُ
تشير، فلا يعيا الصواب برأيها ... يعزّ علينا كيف تنسى وتعدمُ
وانْ تكُ قد ماتت لنا اسوة بمن ... مضى قبلها فيما يظنُّ ويعلمُ
وفاطمة الزهراء بنت محمد ... - عليهاسلام الله - ماتت ومريمُ[3]

١ - شعراء محافظون:

اشرت قبل قليل الى كبر اتساع تيار الشعر المحافظ سواء من حيث عدد الشعراء ام كمية الشعر التي وصلتنا وكذلك الأغراض الشعرية التي طرقت، ولا سبيل الى دراسة هذا الركام الشعري الهائل الا عن طريق تجزئته، فكان ان صارت الأغراض الشعرية في جزء مستقل، وخصصت هذا الجزء لدراسة الشعراء المحافظين بعد ان وجدت ان هؤلاء يمكن ان يدرسوا على شكل مجموعات صغيرة تربط بينها صفة مشتركة، تتضح بين وحدات كل مجموعة، وبذلك اصبح الشعراء المحافظون اربع مجموعات كما يلي:

---

(١) في كتاب «نزهة الجلساء في اشعار النساء» للسيوطي، وردت اسماء ثلاث من شاعرات القرن السادس وشيء من شعرهن وهن:

أ - سلمى البغدادية ص ٥٨

ب - بدر التمام بنت الحسين بن عبد الوهاب البارع ص ٢٨

جـ - شهدة بنت الابري ص ٦١

(٢) خريدة القصر ٤ / ٦٨٩

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٦٩٠

أ ـ شيوخ المحافظين:

وأشهر هؤلاء اربعة شعراء هم: سعد بن محمد المعروف بالحيص بيص المتوفى سنة ٥٧٤ هـ، وطلحة بن محمد (وقيل احمد) النعماني[١] المتوفى سنة ٥٢٠ هـ، وابو فراس علي[٢] بن محمد بن غالب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ، ومفلح[٣] بن علي الانباري المتوفى سنة ٥٦١ هـ.

يمثل هؤلاء الشعراء رافدا فريدا من روافد الشعر المحافظ، لانهم لم يلتزموا بالمحافظة في شعرهم وحده، بل ان بعضهم[٤] كان محافظا في سلوكه وطريقة تصرفه بين الناس كذلك، فهم محافظون فطرة وسليقة، وحياة. فلا غرابة ان جاء شعرهم صورة صادقة لذواتهم، فكان يمثل اقصى ما بلغته المحافظة في القرن السادس، بحيث يخيل لك ـ وانت تطالع شعر الحيص بيص مثلا ـ انك تقرأ في ديوان احد شعراء الفترات المتقدمة كثيرا عن القرن السادس كالعصر الاموي او صدر الاسلام[٥].

ان الموازنة بين الحيص بيص وزملائه من الذين تطرفوا في المحافظة بين شعراء القرن السادس، تقنع الباحث ان هذا الشاعر خير من يدل على الشخصية الادبية المثالية في تعلقها بالقديم وتعمدها ـ ربما بدون قصد ـ الايغال في البعد عن عصرها وأهله حتى ليشعر الدارس ان الحيص بيص غريب بين شعراء القرن السادس وهي غربة حملت احد فضلاء الباحثين المحدثين على اتهام الشاعر بتهمة لم اجد في شعر الرجل واخباره ما يرجحها[٦].

وعلى الرغم من كوننا لا نملك شعر الحيص بيص كله، فان ما وصلنا من هذا الشعر، وكذلك كثرة الذين ترجموا له ونقلوا اخباره وقسما من شعره، كل ذلك ـ إذا قورن بما نعرف عن زملائه ـ يجعل الباحث يخطو على أرض صلبة ويصدر أحكامه وآراءه بعيداً عن الحدس والافتراض حين يتخذ الحيص بيص مثالا لشيوخ المحافظين.

وافضل طريقة يمكن بها تبيان مذهب الحيص بيص في الشعر هي ان نوازن بينه وبين

---

(١) منسوب الى «النعمانية» وهي بلدة بين بغداد وواسط. انظر ترجمته في: نزهة الالباء ص ٣٨٤، الخريدة ٢/٣ ـ ٥١، معجم الادباء ١٢ / ٢٦، ابناه الرواة ٢ / ٩٣، فوات الوفيات ١ / ٤١٦، بغية الوعاة ص ٢٧٣

(٢) انظر ترجمته في: الخريدة ٢ / ١٤١ ـ ١٧١، المستفاد و٥٩، فوات الوفيات ٢ / ١٦٢

(٣) انظر ترجمته في الخريدة ٤ / ٣٠١ ـ ٣١١

(٤) جاء في وفيات الاعيان ٢/١٠٦ ـ ١٠٧: «ان الحيص بيص كان لا يخاطب أحدا الا بالكلام العربي. وكان يلبس زي العرب ويتقلد سيفا. وفي الخريدة ٤ /٣٠٢: «ان مفلحا الانباري كان يتبادى في انشاده وايراده، ويسلك اسلوب العرب».

(٥) تكملة اكمال الاكمال ص ٣٧١ هـ ١، الغري: السنة ٦ عدد ١٤

(٦) الشعر العربي في العراق ٢ / ٦٤

احد كبار الشعراء من معاصريه وهو سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ، وبذلك نقف على الفرق الشاسع بين شعر القرن السادس كله وشعر الحيص بيص ومن تبعه في طريقته واسلوبه.

١ ـ ان الغالبية المطلقة من مدائح ابن التعاويذي تبدأ عادة بمقدمة غزلية يغلب عليها الطول حتى تزيد على الثلاثين بيتا، وهذه الصفة تكاد تشمل جميع مدائح القرن السادس[١]، اما الحيص بيص فعلى خلاف معاصريه يندر ان يبدأ مدائحه بالغزل الا اذا اصر الممدوح وتوسل الى الشاعر[٢]، ومن هذا النادر من مديحه الذي افتتح بالغزل قصيدته التي مطلعها:

عفا ضارج من آل ليلى فعاقلُ   وخفت باعباء القَطين الرَواحلُ

وهي التي بدأت بالغزل بناء على الحاح الممدوح.

ويبدو لي ان اسقاط الشاعر للمقدمة الغزلية قد اثار دهشة معاصريه، ولذلك احتاج الى تبرير هذه البدعة، فراح يزعم تارة ان ضيقة بمعاصريه وشكواه منهم، قد شغلت شعره وصرفته عن الغزل:

ضقت ذرعـا ببني اللؤم، فما   تَـرَكت شكـواي للشعـر غزلْ
وغـدا تـرتـيـل دمـي هـم   شاغل القول عن الثغر الرتلْ[٣]

وطورا يزعم انه لا يتغزل الا بالمجد والحرب والغارات وهذا هو الغزل الحقيقي في رأيه:

يقولون: جانبت النسيب، وانما   نسيبي ذكـرى غـارةٍ وتقحّـمِ
وفي غزل العلياء ـ لو تعلمونه ـ   شـفـاء غـرام وادكـار متيّـمِ
وكم مغرمٍ بالمجد عز سلوه   فاعرض لا يصغي الى قول لَومِ[٤]

وقال في مطلع قصيدة ثالثة:

خلّ التغـزل للمشـوق المغرمِ   فالمجدُ بـين مثقفٍ ومطهَّمِ

---

(١) انظر دراسة الغزل والمدح من هذه الرسالة.
(٢) الديوان المطبوع ١ /٣٦٦
(٣) الخريدة ١ / ٢٩٩، الثغر الرتل: المفلج الاسنان.
(٤) الديوان المطبوع ١ /١٠٧ ـ ١٠٨

رغبت بك العلياء عن خدَع الهوى   فارغب بنفسك عن مقام مُتيّمِ [(١)]

ولو عدنا الى سبط بن التعاويذي لرأيناه هو الآخر قد اسقط المقدمة الغزلية ولكن من قصائده الذاتية التي لم تنظم من اجل المدح، فهنا نجد الشاعر يرسل نفسه على سجيتها ويطرح عن كاهله التقاليد الموروثة معبرا عما يحس ويعاني مرسلا سهام نقده اللاذعات الى اولئك الذين وقفوا بينه وبين ما يريد[(٢)]، وهكذا نجد عند هذا الشاعر ضربين من الشعر: شعرا نظم للمدح فلا بد فيه من مراعاة التقاليد ومنها المقدمة الغزلية، وشعرا ذاتيا محضا يفهم منه ان شاعرية الأديب وفنه لا بد ان تصور مطامح الفرد وآماله وتشير الى عيوب المجتمع بهدف الاصلاح والتقويم.

اما الحيص بيص فقد اختلط شعر المدح عنده بشعره الذاتي. فهو يعبر عن مطامحه وآماله ويشير الى ما في مجتمعه من عيوب ونقائص من خلال قصائد المدح. اذ يندر جدا ان تقف في ديوانه على قصيدة ذاتية تحس من خلالها ان الشاعر قد خلا الى نفسه وأوقف بعض شعره عليها. وهنا يناقض الشاعر نفسه، فقد مر انه ترك الغزل لانشغاله بالمجد وطلبه، وفي الوقت نفسه اوقف معظم ديوانه على المال والجري وراء الممدوحين.

ان ما وصلنا من غزل الحيص بيص - وهو قليل - كقوله:

يا حرة الابَوَين إنّ صَبَابتي   عظمت، ومالي في وِصالك طائلُ
سَدُّ العفاف علي كلَّ ثنيةٍ   فالهجرُ عندِي للوصالِ مُماثِلُ[(٣)]

وقال في اول قصيدة مدح:

عفا الله عنها، هل يلم خيالُها؟   فيقضي على رغم الرقيبِ وصالُها
وما ملتقى الطيفِ الملم بناقِعٍ   غَليلاً، ولكن منية وضلالُها
تذكرتها، والحي للحي جِيرة،   يهون تلاقيها ويدنو مَنالُها
وقومي وقوم العامريةِ عصبةٌ   كذات البنان ما يُرام انفصالُها
رفاق ندىً لا يستقل نوالها   واحلاف روع لا يفل نِزالَها
وفي ألسن الواشين صمت عن الخَنا   اذا ارشقت بالقولِ طاشت نِبالها

---

(١) نفسه ١ / ٣٦٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٣ ق ١٤٧، ص ١٣٩، ٢٩٥، ٣٠٢

(٣) الخريدة ١ / ٢٩٥

فبت كأني شارب قَرقَفِيه[1] من الراح لم يفلل شباها زلالها
أبى حبها إلا غرامي، وأصبحت تقطع إلا من فراقي حبالها
... الخ[2].

ان هذه النماذج من غزل الرجل، اذا اضفنا اليها ما يقوله المؤرخون من أنه كان «فقيها شافعي المذهب.. وتكلم في الخلاف[3]..»[4] وانه كان «عالما لغويا خبيرا باشعار العرب[5]..» وانه سمع شيئا من الحديث[6]، اضف الى ذلك ما يشيع في ثنايا شعره وبين ابيات قصائده من ميل واضح الى الجد والصرامة والخشونة والصراع[7]، كل ذلك يرجح ان الحيص بيص لم يكن من ذوي الطباع التي تحسن الغزل وتجيد في حديث العواطف والصبابات، وقد عرف الرجل من نفسه هذه الخصلة ـ على ما ارجح ـ كذلك ادرك انه يجيد ويحسن اذا افتخر او وصف الحرب، ولذلك اضرب عن الغزل صفحا ومال الى الجانب الذي خلق له.

٢ ـ قصيدة المدح عند ابن التعاويذي وكذلك عند معاصريه عبارة عن وسيلة يستدر بها الشاعر كف الممدوح، ولذلك يحشد الشعراء لها كل ما يعرفون من اساليب. بحيث تميزت المدائح عن سواها من الشعر بخصائص منها: ان الشاعر لا يكف عن اطراء الممدوح والاشادة بكرمه وشجاعته وما عرف به من حميد الخصال، وقد يبالغ في ذلك ويخرج الى نعت ممدوحه بصفات تدل على فساد الذوق ورقة الدين[8]. كذلك من صفات المدائح عموما: ان ذات الشاعر وشخصيته لا وجود لها فالقصيدة وقف على الممدوح ومآثره وكل بيت منها له ثمن. وكلما اوغل الشاعر وظل يدور حول صفات الممدوح ويحاول استقصاءها كلما تضاعفت مكافأته.

ويلاحظ ان شاعر المدح وهو يطنب في وصف ممدوحه وما هو عليه من غنى وجاه وسلطة، لا ينسى ان يذكر حاجته وفقره وكثرة عياله وتكالب الزمن عليه، وان يد الممدوح هي التي انقذته من قبضة الفقر وانتزعته من مخالب الأقدار. وحين اراد شعراء المدح في القرن السادس ـ وفي مقدمتهم ابن التعاويذي ـ المبالغة في وصف كرم ممدوحيهم وشدة

---

(١) القرقف: الخمر التي يرعد شاربها. الشبا: مفردها شباة: طرف الشيء وحده.
(٢) الديوان المطبوع ١ / ٨٤
(٣) الخلاف: الموازنة بين المذاهب الفقهية.
(٤) وفيات الاعيان ٢ / ١٠٦
(٥) المختصر المحتاج اليه ٢ / ٨٣
(٦) المنتظم ١٠ / ٢٨٨
(٧) انظر الخريدة ١ / ٢٣٦، ٢٣٤، ٣٠٨، ٢٤٦، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٥٧، ٢١١ وغيرها.
(٨) انظر دراسة المدح من هذه الرسالة.

حاجتهم الى عطفهم، لجأوا الى كل ما في اللغة العربية من اساليب والفاظ وعبارات تدل على الذلة وهوان النفس وفقدان الكرامة[١]، حتى ارتضى الشعراء لانفسهم ان يقولوا لممدوحيهم بانهم عبيدهم الأقنان[٢]، وان الساعة التي قبل بها الشاعر كف سيده من ساعات السعادة المشهودة في حياته[٣].

اما مدائح الحيص بيص فعلى الرغم من كونها ـ مثل بقية شعر المدح ـ نظمت من اجل المال، والدليل على ذلك ان الشاعرـ وهو يقطن بغداد ـ كان يقصد بعض ممدوحيه الى اصقاع بعيدة جدا عن موطنه كمرو الشاهِجان[٤] وسرخس[٥] ونيسابور[٦] كذلك نجده يعاتب الخليفة المسترشد بالله لان المال الذي يعطاه اقل بكثير مما يستحق[٧]، اضف الى ذلك ان الشاعر يعترف بانه مدح من لا يستحق المدح من اجل المال:

كم اذلت المديح في حمدِ قومٍ   كان كفراً بالمجدِ ذاك الحمدُ
حَرَّج الجأ الصدوق الى الميـــــ   ـن وما من لوازم العيش بُدُّ[٨]

وبرغم هذا كله، يشعر الباحث، وهو يطالع معظم مدائح الحيص بيص، ان هذا الرجل ليس شاعرا محترفا متكسباً يقصد اصحاب الغنى والسلطة كما يفعل سواه طمعا في المال او الثراء، بل تشعر انك تقرأ لامير من الامراء أو سيد من السادات جارت عليه الأيام فأذهبت ما كان يملك من مال ورياش وعقارات، ولكنها لم تستطع ان تذهب عزة نفسه واعتداده بها، فهو يخاطب الملوك والوزراء وكبار شخصيات العصر مخاطبة الند للند، ويرسل نفسه على سجيتها، مفتخرا بنفسه وبقومه، حتى اذا شعر انه اخذ حصة الأسد من القصيدة، التفت الى الممدوح يجامله ويذكره بانه ليس شاعرا، وان ما قاله فيه قد بخل به على سواه. بل ان القليل الذي خص الحيص بيص به ممدوحه من اسلوب المدح ولغته التي تتردد على السن الشعراء. فلا شكوى ولا خنوع ولا توسل وتضرع واراقة ماء الوجه، فهو يخاطب السلطان مسعودا مثلا في آخر قصيدة له فيه قائلا:

اوفِ فَضلي حقوقه إنَّ فَضْلي   راح فَرداً وانتَ في الناسِ فَرْدُ[٩]

وقال لدبيس[١٠] بن صدقة:

(١) انظر خصائص المدح من هذه الرسالة.
(٢) الخريدة ٢ / ٢٦، العبد القن: الذي ملك هو وابواه.
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٩٣
(٤) الديوان المطبوع ١ / ١٨٤
(٥) نفسه ١ / ٢٢٨
(٦) نفسه ١ / ١٣٧
(٧) نفسه ١ / ٣٤٣
(٨) الديوان المطبوع ١ / ١٨٦
(٩) نفسه ١ / ١٨٧
(١٠) من الامراء المزيديين، وقد قتل سنة ٥٢٩ هـ. انظر الفصل الاول

حببتـك حُبي شَهيّ الحيـاةِ ... صَـفَـت وتـبـاعـدَ ادرانها
واسخطتُ فيك نفوسَ الملوكِ ... ومـا راع قـلبـي غـضـبـانهُا
وفـارقت اوطـاني المـونسـاتِ ... وعـيش الـبَـريـةِ أَوْطَـانهُا
انا المرء ـ إن كنت لي منصفاً ـ ... دليـل المعـالي وبـرهـانهُا[1]

بل نجد الحيص بيص يسمي مديحه لأحد الوزراء بانه «سخاء» من الشاعر قال:

سخوت له بـالمدح حبـا وقربـة ... فلا بالندى بلوى، ولا انا أكـذِبُ

تهنّ بـودِي، انـه لـك عـدة ... اعزّ من السيفِ الحُسامِ وارهَبُ[2]

وقال لامير الغراف[3] المظفر[4] بن حماد بن ابي الجبر:

يا ناصرَ الدينِ ادخرتُ من العلى ... كَنْـزاً، ومثـل مـودّتي لم تـذخـرِ
أُغنيكَ حمداً اذْ اقُولُ، وموسِـر ... لم اغنـه حمـداً، فليسَ بمـوسـرِ
ولئِنْ تَعـدّاني الحِمـامُ، فـربمّـا ... كنتُ الـذخيرةَ للجليـلِ الأخطرِ[5]

ويمكن تصور منزلة الممدوح وقومه (آل ابي الجبر) من قول صاحب الخريدة عنه «فكل من يخشى من الخليفة والسلطان يجد عنده المن والمنى والامان فلا يقدر عليه ولا يساء اليه[6]».

ولا شك ان شاعرية الحيص بيص، وترفّعه، واباءه هي الصفات التي جعلته ذا مكانة خاصة متميزة بين شعراء عصره فقال:

لا يحفظنك[7] حسـاد زَعـانِفَـةٌ ... صبرٌ على الضَيم ِ وَرّاد على الكَدَرِ
مدفّعـون عن الأبـوابِ تقـذفهمْ ... ايدي المراسم[8] قَذَفَ السَّهمِ بالوَتَرِ

---

(١) الديوان المطبوع ١ / ١٩٤
(٢) نفسه ١/١٩٧
(٣) انظر الفصل الاول ص ٢٢ هامش ٣
(٤) كان يلقب بـ «ناصر الدولة»، قال العماد عنه: . . ملك البطيحة في زماننا. قتل سنة ٥٥١ هـ. الخريدة ٤/٥٢٩، اخبار الدولة السلجوقية ص ١٣٧
(٥) الديوان المطبوع ١ / ٢٢١
(٦) الخريدة ٤ / ٥٢٩
(٧) لا يحفظنك: من الحفيظة وهي الغضب.
(٨) المراسم: اراد بهم الحجاب والحرس.

لهم الى النائلِ المنزور حقحقة[١] وفي طلابِ المعالي هَجْمة الحمرِ
ان شاركوني في قولٍ، فلا عَجَبٌ ما حالُ ابليسَ في التخليدِ كالخيرِ
انازِع الملك الطاغي وسادَتَهُ ويحجبون عن التسليمِ والنَظَرِ
كانني باذل ما جِئتُ اطلبهُ عندَ الملوكِ، لفرط العز والخطرِ[٢]

ولذلك صار ممدوحوه يشعرون بالزهو والخيلاء حتى ان بعضهم كان يدفع له الجائزة مقدما، ويوسط الوسطاء من اجل قصيدة مدح[٣]، والبعض الآخر كان يوافق على جميع شروط الشاعر ومنها: ان يجلس وقت الانشاد على كرسي من ذهب[٤]، واذا اخطأ الحاجب فلم يسمح للشاعر بالدخول وجب على سيده ان يعتذر[٥].

وهكذا عرف الحيص بيص بـ «ملك الشعراء»[٦]، وقد وصف نفسه بالملك، اكثر من مرة كقوله:

فلو لَحَظوا ـ عن أعين الحق ـ هِمتي رأوا ملكَ الآمالِ في زي شاعرِ[٧]

وقوله:

مَلَكٌ ثَوى بالجاهليةِ رَمْه فبعثته منى ببِركَةِ زَلْزلِ[٨]

وقوله:

إنّني مَلك، وانتم سوقَة فات وقت النيب تجليح الرِئالِ[٩]

٣ ـ ان دراسة ديوان الحيص بيص تقنع الباحث بأن من خصائص شعره التي ابعدته عن معاصريه والحقته بالقدماء ـ غير ما تقدم ـ خصلتان هما اسلوبه الشعري اي طريقته، ولغته.

---

(١) الحقحقة: السير الشديد.
(٢) الديوان المطبوع ١ / ١٣٢ ـ ١٣٣
(٣) نفسه ١ / ١٣٢
(٤) نفسه ١ / ٣٥٥
(٥) نفسه ١ / ٣٢٧
(٦) تعليقه ابن جماعة و١١٦
(٧) الديوان المطبوع ١ / ١٠٢
(٨) نفسه ١ / ٩٨، بركة زلزل: مكان ببغداد منسوب الى منصور زلزل الضارب المشهور (معجم البلدان ٢ / ١٥٢)
(٩) نفسه ١ / ١٤٨، النيب: النوق المسنة. التجليح: الاقدام والتصميم. الرئال: صغار النعام.

أ ـ أما اسلوبه فيتضح حين نجد الشاعر في قصائد المدح يخرج عن الفرض الأصلي للقصيدة الى الوصف ثم يعود ثانية الى المدح بعد أن تكلف جملة أبيات وصف بها ليلة باردة ريحها شديدة ليقول ان ممدوحه ـ وهو وزير ـ يطعم الناس في اشباه تلك الليلة قال ـ بعد ان ترك المدح ـ

واذا تَغبّرتِ الفِجَاج، وأعصفت ... هوج[1] تَراجم[2] بالقروم[3] البزَّلِ
وتَصادمت مِزَقَ البيوتِ كأنّها ... في الجوّ شغاغُ[4] الغَمام المُثقلِ
وتَشابه الوحش العزيبُ، ومَنْ هُمُ ... تحتَ الطرافِ بقرةٍ[5] وبأفكلِ
فمَجاسِدَ الفَتَيات[6] أهب كَوانِس[7] ... والمطفل الحسناء مثل المغزلِ[8]
حيث المواقد كالموارد قرة ... والعائم[9] الرعديد مثل المصطلي
من غير ما مطر ولكن لزبة[10] ... امهى[11] عوارقها عصوف[12] الشمألِ
آويت ثم قريتَ غير مسوف ... وكَففتَ من هم المسيفِ المُرَملِ[13]

وفي قصيدة ثانية نجد الشاعر ينتقل من المدح الى وصف السيل، ليقول بعد ذلك ان ممدوحه ـ وهو من الوزراء ـ اغزر كرما من هذا السيل:

وما مقبل من قنةِ[14] الطَوْدِ زاخِرٌ ... لَهُ صَحَبَاتُ الاسدِ عنْ مَصالها[15]
تَظَل له عصم[16] اليَفاعِ غَريقةٌ ... ويتبعها ضبُ الفَلا وَغَزالُها
اذا مرَّ بالوعاءِ[17]، وهو مُزَمجِرٌ، ... تدهدَى له كثبانُها ورمالها
ترى شجر[18] الغلانِ فيه كانها ... سفائن يم اسلمتها رجالها

... الخ[19] ثم يقول ان ممدوحه اكرم من هذا السيل ـ الذي مر وصفه ـ تماما كما فعل في القصيدة السابقة.

وعلى الرغم من وجود هذا الاسلوب الشعري عند بعض معاصري الحيص بيص كالابله البغدادي مثلا[20] فان هذا الاخير موجز جدا في هذه الطريقة يعرج عليها مسرعا

---

(١) الهوج: الرياح العاصفة
(٢) تراجم: تقاذف.
(٣) القروم البزل: فحول الابل التي بلغت التاسعة.
(٤) شغاغ: متفرق.
(٥) القرة والافكل: الرعدة من البرد.
(٦) اهب: جلود.
(٧) كوانس: ظباء.
(٨) المغزل: التي لها غزال.
(٩) العائم الرعديد: السابح في الفلاة المرتجف من البرد.
(١٠) لزبة: قحط.
(١١) امهى عوارقها: زادها حدة.
(١٢) عصوف: عاصف، شديد.
(١٣) الديوان المطبوع ١ / ٢٧٨ ـ ٢٧٩. السيف المرمل: الفقير الجائع.
(١٤) قنة الطود: اعلى الجبل.
(١٥) المصال: الصيال، العراك والصراع.
(١٦) عصم اليفاع: الوعول التي تسكن المرتفعات.
(١٧) الوعاء: رابية من رمل.
(١٨) الغلان: منابت السلم والطلح.
(١٩) الديوان المطبوع ١ / ٨٦
(٢٠) ديوان الابله و٥٠، و١٧ وغيرهما.

ثم يعود الى الغرض الاصلي من القصيدة دون اطالة ولا عناية بالتفاصيل، على عكس الحيص بيص اذ يتفنن في عرض الصور ويختار الفاظها المناسبة المعبرة ولا يعود الى المدح الا بعد ان يتأكد انه وفى الموضوع حقه وزيادة، حتى ليخطر على البال ان الشاعر يتعمد الايغال في الوصف ورصد اجزاء الموصوف بهدف اظهار البراعة في نعت ما لم يره الشاعر.

ان البحث عن شبيه لطريقة الحيص بيص هذه في العصر العباسي كله لن يسفر عن شيء ـ بحسب علمي ـ ولكنها موجودة في العصر الجاهلي حيث نجد الشعراء ينتقلون من المدح الى الوصف ثم يعودون ثانية الى المدح ـ مثل الحيص بيص في القرن السادس ـ كقول النابغة الذبياني في قصيدته: «يا دار مية بالعلياء فالسند»:

فما الفراتُ اذا جاشت غواربه [1] ... تَرمي أواذِيه [2] العبرين [3] بالزَّبَدِ

يمدهُ كل وادٍ مزبدٍ لجبٍ ... فيه حطام من الينبوتِ [4] والخضد [5]

يَظل من خوفهِ الملاّحُ معتصماً ... بالخيزرانة [6]، بعد الأين والنجد [7]

يوماً بأجودَ منه سيب نافلةٍ ... ولا يحول عطاء اليومِ دون غد [8]

كذلك نجد الانتقال من الوصف الى الغزل عند أعشى قيس في قصيدته:

ودع هريرة، ان الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً ايها الرَّجلُ [9]؟

وما دام شاعرنا الحيص بيص قد رضي لنفسه ان يتابع الشعراء الجاهليين في اساليبهم، لذلك عمد الى عادة عربية عرفت ايام الجاهلية وهي ايقاد النيران على المرتفعات كي يهتدي بها المسافرون الى حيث يوجد القرى وكرم الضيافة فراح يصف نيران ممدوحيه من وزراء القرن السادس وقادته، قال يمدح امير البطائح [10]:

واذا خبت نار اليفاعِ، فنارهُ ... تهدي ركاب الخابطِ المتنورِ

نار تكاد من المكارمِ والنَّدى ... تخبو، فلولا الباسُ لم تتسَعرِ

رفعت لابلجَ من كنانةَ، دابه ... ضربُ الجماجمِ تحت ظل العِثيرَ [11]

وقال في مدح ملك العرب دبيس:

طليق الوجهِ، اغلب، مزيدي ... مضيء النارِ، مرفوع العِمادِ [12]

---

(١) الغوارب: ما علا منه.
(٢) الاواذي: الامواج.
(٣) العبران: الشطان.
(٤) الينبوت: ضرب من النبت.
(٥) الخضد: ماثنى وكسر من النبت.
(٦) الخيزرانة: المردى.
(٧) النجد: العرق من الكرب.
(٨) شرح القصائد العشر ص ٤٠٨ ـ ٩
(٩) شرح القصائد العشر ص ٣٧٣ ـ ٧٤
(١٠) انظر الفصل الاول ص ٢١ هامش ٥
(١١) الخريدة ١ / ٢٤٨ ـ ٤٩. العثير: الغبار.
(١٢) نفسه ١ / ٢٤٠

وقال من قصيدة في مدح سلطان السلاجقة طغرل بن محمد مفتخرا بقومه:

اذا اخمدَ النيرانَ قد[1] مراوِحٌ باهداب[2] رجافِ العشيّةِ مرعدِ
ولم يطق العجلان في قبْسِ ضَرمةٍ حفاظًا لما يعروه من رعشةِ اليَدِ
ولاذَت بفرثِ[3] الموديات مع الدُّجى من القر رعيان العَزيب المبدّدِ
رأيتَ ضيوفَ الدارميين هجَعاً لدى خير مثوى من رجالٍ ومَوقِدِ[4]

ولست ادرى كيف يدرك رجل تركي هذه الصور وهذه اللغة ليجيز الشاعر عليهما؟

ولعل من الأمور التي تثير الفضول وتدعو الى الحيرة أن يحدثنا التاريخ أن الفيلسوف الكِندي[5] احتج على ابي تمام لقوله يمدح احمد بن المعتصم:

اقدام عمروٍ[6] في سَماحة حاتِمٍ[7] في حِلم احنفا[8] في ذكاء إياسِ[9] [10]

فلم يرض الفيلسوف لشاعر القرن الثالث ان يمدح ابن الخليفة بصفات لم تعد تناسب العصر. ولم اقف على أية اشارة تدل على ان معاصري الحيص بيص قالوا له ـ ولو تلميحا ـ بان شعره من حقه ان ينظم قبل اكثر من خمسة قرون.

ب ـ من اهم خصائص لغة الشعر في القرن السادس اثنتان: الوضوح الشديد والاكثار من المحسنات البديعية وخاصة الجناس[11].

وفي سبيل الخاصية الاولى قل ان تجد في شعر الفترة بصورة عامة كلمة تحتاج ان تراجع من

---

(١) القر: برد الشتاء.

(٢) اراد بالعجز كله: السحاب المتدلي المثقل بالماء.

(٣) الفرث: فضلات الحيوان.

(٤) الخريدة ١ / ٢٣٢

(٥) هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق، واحد دهره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويعرف بـ «فيلسوف العرب» توفي سنة ٢٥٥ هـ. الفهرست ص ٣٧١ (ط. مصر)، تاريخ الحكماء ص ٣٦٦ (ط. اوربا).

(٦) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي، الشاعر الفارسي المشهور، توفي سنة ٢١ هـ. الشعر والشعراء ٣٧٢/١ (تحقيق احمد محمد شاكر)، الاغاني ١٤ / ٢٥ ـ ٤١ (ط. بولاق)، الاصابة: الترجمة رقم ٥٩٦٥، مقدمة ديوانه.

(٧) هو حاتم بن عبد الله الطائي، الفارس الشاعر الجواد المشهور، يضرب بجوده المثل. توفي سنة ٤٦ ق.هـ. الشعر والشعراء ١ / ٢٤١ (تحقيق احمد محمد شاكر)، مجمع الامثال ١ / ١٢٣، الاعلام ٢ /١٥١

(٨) هو الأحنف بن قيس، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء. توفي سنة ٧٢ هـ. طبقات ابن سعد ٩٣/٧، وفيات الاعيان ١ / ٢٢٣، ميزان الاعتدال ١ / ١٣١، الاعلام ١ / ٣٧٦

(٩) هو اياس بن معاوية المزني، قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، توفي بواسطة سنة ١٢٢٠ هـ. وفيات الأعيان ١ / ٢٢٣، ميزان الاعتدال ١ / ١٣١، الاعلام ١ / ٣٧٦.

(١٠) ديوان ابي تمام شرح الخطيب التبريزي ٢ / ٢٥٠، وانظر وفيات الاعيان ١ / ٣٣٧

(١١) انظر الدراسة الفنية من هذه الرسالة.

اجلها معجما: فقد ابتعد القوم من لغة المعجمات بسبب هبوط المستوى اللغوي للجمهور عامة، حتى صارت الألفاظ والتعابير العامية والدخيلة تحتل حيزا لا بأس به من لغة العصر. وعندي ان شعر ابن التعاويذي يجسد الخصائص اللغوية لشعر الفترة، اقرأ له قوله مادحا:

١ ـ حان اسفار الصباحِ ودعـا داعـي الـفَـلاحِ
٢ ـ وَسَرَتْ تَحمِلُ نَشرَ الـ روض انفـاسُ الـريَـاحِ
٣ ـ وتغنَّتْ هـاتِفـاتُ الـ ورق[1]، والعجم الفصاحِ
٤ ـ فَاشْفِ بالكاسِ غَليلي وَاطْفِ بـالـرّاحِ التيـاحِي
٥ ـ مـن كميتٍ[2] وَرْدَةٍ ذاتِ شَبـابٍ وجِـمـاحِ
٦ ـ اوطأتْ فارسَها صَهْـ وَةَ لَهْـوٍ وَمُـزَاحِ
٧ ـ مِنْ يَدَيْ مَهْضومةِ[3] الكَشْـ حـينِ بـيضـاءَ، رَداحِ[4]
٨ ـ غَـادَة تمزج لي مِنْ ريـقـهـا الـراحَ بـرَاحِ
٩ ـ فَتَـرتْ ـ إذ فترتْ الحاظُها ـ سـوقُ المِلاحِ
١٠ ـ انا شاكٍ في هوى مَنْ طـرفـه شـاكي السلاحِ
١١ ـ ظالِمٍ يَبْلغ اقصى الـ جـد مِـني بـالـمـزاحِ
١٢ ـ استُرُ الوَجْدَ ويأبى حـسنـه الا افـتضـاحـي
١٣ ـ ما على العاذل فيه مِنْ فَسـادِي وصَـلاحـي
. . . الخ[5].

ان الأبيات واضحة جدا لا تحتاج الى تأمل، وربما كانت قريبة من لغة التخاطب اليومية، وفيها لين وهلهلة نسج يبعدها عما الفناه عند شعراء القرون السابقة من متانة وجزالة. وواضح ان البديع قد غزا العديد من ابياتها: كما في البيت الرابع (اشف واطف) والعجم والفصاح في البيت الثالث، وفي الثامن الراح (الخمر) والراح (راحة اليد)، وفي العاشر (شاك من الهوى والطرف الشاكي السلاح)، وفي الحادي عشر (الجد والمزاح).. الخ. وتلاحظ العامية مع الجناس في البيت التاسع، فقد جانس الشاعر بيت فتور الالحاظ

(١) الورق: الحمائم.
(٢) الكميت: من اسماء الخمر لما فيها من سواد وحمرة.
(٣) مهضومة الكشحين: خمصاء البطن.
(٤) رداح: ضخمة العجز.
(٥) الديوان ص ٨٢ ـ ٨٣

وفتور السوق (كسادها)، وهذا التعبير الاخير من تعابير العامة الباقية حتى اليوم في بغداد. ويمكن القول ـ اجمالا ـ ان الابيات تعكس مثالا للشعر السائد في القرن السادس.

أما شعر الحيص بيص فيمكن التمثيل له بقوله مادحا:

١ ـ لِمَن الخيلُ كامثالِ السَّعالي[١] عــاديــاتِ تَـتَـمـطى بالرِّجــالِ
٢ ـ ماعِجات[٢] بِغَطاريفَ[٣] وَغىً جَلَبـوا المـوتَ بــاطـرافِ العَـوالي
٣ ـ حَـظَر الغِمرُ[٤] عليهم دَعَـةً فـأَبـاحُـوا غـارةَ الحيِّ الحِــلالِ[٥]
٤ ـ لِغُـلامٍ هَتَـفَ المجـدُ بــه فَهفَـا يَفـرع غــايـاتِ القِــلالِ[٦]
٥ ـ حـالفَ الدهـرَ بايمـانِ العُـلى لَـيـلفــنَّ رِعــالاً[٧] بِــرِعَــالِ
٦ ـ ويُعيــدُ الصُبحَ ليــلا بمثارٍ من عَجاجٍ، ونجـوم من نِصَـالِ
٧ ـ فــاتقــوا وثبــةَ ليثٍ خَــادرٍ اكله المــوتُ، اذا يُـدعى نـزالِ
٨ ـ فَفُؤادِي مـن اذى مِضْــركـمُ شـارة اودى بهــا كــرُ الـنـبّــالِ
٩ ـ كلّما أوسعت حِلمي جـاهـلا أوسـع الجهـل لــه فحشَ المقالِ
١٠ـ كل يوم حسن صفحٍ مطمعٍ يشمت الفتــكَ بلينِ الاحـتمــالِ
١١ ـ يا بنيَ الأشعار كفـوا سفَهاً واقصِـروا، انّ بِنـا مجـدِيَ عـالِ
١٢ ـ فــالقـوا في لكم مسـتـرزقٌ ومــطايــا نــحــوَ المــعــالي
١٣ ـ لكم البلغــة من مكسبهـــا ولي الحــالان مــن مجــدٍ ومــالِ
... الخ[٨].

ان الموازنة بين هذا الشعر وشعر ابن التعاويذي في الصفحة السابقة تقنع الباحث اننا ازاء اسلوبين ولغتين بينهما بون ليس بالقليل: ففي هذا الشعر من التماسك وشدة الاسر والمتانة ما ليس في شعر ابن التعاويذي، وهو يدل على أن الأسلوب الرفيع في النظم والنفس

---

(١) السعالى: مفردها سعلاة، وهي انثى الغول او الغول.
(٢) مسرعات.
(٣) الغطاريف: السادة.
(٤) الغمر: (بكسر الغين) الحقد.
(٥) الحلال: (بكسر الحاء) النزول.
(٦) القلال: (بكسر القاف) رؤوس الجبال.
(٧) الرعال: واحدها رعيل: القطعة المتقدمة من خيل ورجال.
(٨) الديوان المطبوع ١ / ١٤٧ ـ ١٤٨

القوى البعيد عن الركة والضعف لما يزل موجودا، برغم موجة العامية والاسفاف التي بدأت تغزو ميادين الأدب الفصيح. لقد استطاع الحيص بيص - بما يملك من علم بلغة العرب - ان يحلق فوق عصره ويعيد للفصحى سيادتها، فهو يختار الألفاظ الفصيحة المعبرة دون ان يجهد نفسه في البحث عن البديع أو بمحاولة النزول الى مستوى الناس - لانهم بعدوا عن الفصاحة - ولذلك راح يعمد حتى إلى الألفاظ التي لا يعرفها الا خاصة العلماء مثل ها هوابه [١] والبعاع [٢] والخشاشة [٣] والخشفات [٤] والشاحية [٥] وغيرها برغم احتجاج ابن قتيبة - منذ القرن الثالث - على ان هذه الألفاظ قد مضى زمنها [٦].

ان الباحث المحايد - وان اختلف مع الحيص بيص حول مجمل طريقته في الشعر - لا بد ان يعترف بان هذا الشاعر وأنصاره يمثلون امتدادا لمذهب الشريف الرضي والمتنبي في القرنين الخامس والرابع وكذلك مذهب البحتري في القرن الثالث، وهؤلاء جميعاً يرون - كما يدل شعرهم - على ان خير الشعر ما كان شبيها بشعر الاوائل: متانة في الأسلوب وجزالة في اللفظ والبعد عن البديع الا ما جاء عفوا. وهو مذهب على النقيض من مذهب الصنعة أو البديع أو مذهب ابي تمام.

ان اتباع الحيص بيص - برغم قلتهم في القرن السادس - استطاعوا ان يقفوا بوجه التدهور والانحطاط الذي بدأ يسيطر على لغة الشعر: فكان لهم الفضل في تعويق المد البديعي وطوفان الزخارف اللفظية الذي بدأ على يد الحريري المتوفى سنة ٥١٥ هـ، ثم استشرى على يد القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ، وتلاميذه وانتهى عند أصحاب البديعيات.

ب - محافظون مجددون:

وأشهر هؤلاء ثلاثة هم: سِبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ومحمد بن بَخْتِيار المعروف بالابلَه البغدادي المتوفى سنة ٥٧٩ هـ ومحمد بن علي ويعرف بابن المعلم الواسطي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ.

ان الشعر المحافظ عند هؤلاء يبرز ويتضح - وخاصة عند ابن التعاويذي - في المدح

---

(١) معناها: صاحوا به. الديوان المطبوع ١ / ١٤٩

(٢) معناها: ثقل السحاب من المطر. الديوان المطبوع ١ / ٢٨٥

(٣) معناها: الغضب. الديوان المطبوع ١ / ٢٧١

(٤) معناها: السيوف. الديوان المطبوع ١ / ٢٧١

(٥) معناها: الفاتحة فاها. الديوان المطبوع ١ / ١٤٩

(٦) الشعر والشعراء ص ٤٥ (ط. دار الثقافة الثانية).

عامة، وفي مدح الخلفاء على وجه الخصوص. ولكن الباحث لا يستطيع ـ حتى في مدح الخلفاء ـ ان يزعم ان مدح ابن التعاويذي هذا يشبه مدح الحيص بيص وجماعته على الرغم من الطريقة المحافظة التقليدية التي تجمع بينهما: ان ابن التعاويذي محافظ ـ في مدح الخلفاء ـ ولكنه يعيش في القرن السادس، وهو ليس عالما متزمتا من علماء اللغة العربية ـ كالحيص بيص ـ ولذلك راح هذا الشاعر يتصرف ضمن اطار المحافظة الواسع فبعد عن الخيال البدوي واللغة الموغلة في القدم، وتجنب الأساليب التي لم تعد تلائم متحضري القرن السادس، وبذلك استطاع ابن التعاويذي ان ينظم مدحا محافظا تلوح عليه سيماء العصور العباسية المتأخرة.

وهؤلاء الشعراء أبعد صيتا، وأنبه ذكرا من سابقيهم ـ باستثناء الحيص بيص ـ لان لهم تراجم مصحوبة بنماذج من شعرهم قد تكثر وتطول في بعض الاحيان، كما ان دواوين هؤلاء الشعراء هي الأخرى متوفرة، وان كان معظمها مثل ديوان الابله وابن المعلم لا تزال مخطوطة. وكل ذلك مما يساعد الباحث ويجعل دراسته غير قائمة على الافتراض والظن.

ان شهرة هؤلاء الشعراء وكثرة معلوماتنا عنهم وحفظ دواوينهم من الضياع كل ذلك يمكن ان يعود الى عاملين كبيرين هما:

أ ـ اتصالهم بكبار رجال العصر وقادته الذين شغلت اخبارهم صفحات بارزة من كتب التاريخ بنوعيه العام وكذلك تاريخ الأدب. فقد نص صاحب مرآة(١) الزمان على أن الابله البغدادي: «كان يصحب حاجب الباب ابن الدوامي ويمدحه». ويقول ابن التعاويذي ـ في مقدمة(٢) ديوانه ـ انه افرد مدائحه في بني المظفر بن رئيس الرؤساء لكثرتها ولأنه نشأ فيهم واتصل بهم وصحبهم هو وجده لامه. . وبنو المظفر هؤلاء كان منهم الوزير محمد(٣) ابن رئيس الرؤساء الذي استوزر سنة ٥٦٦ هـ، وكان استاذ(٤) الدار في ايام الخليفة المستنجد بالله(٥).

ب ـ وجودهم واقامتهم في بغداد وقد كانت مركز الحياة العربية الاسلامية في هذه

---

(١) مرآة الزمان ٨ / ٣٧٩

(٢) ص ١٣

(٣) انظر: الفصل الاول ص ٤٧ هامش ٢

(٤) في عمل استاذ الدار قال ابن جبير: «وللخليفة قيم على جميع الديار العباسية وامين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وابيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار، هذا لقبه ويدعى له أثر الدعاء للخليفة». . الرحلة ص ٢١٣ (دار مصر للطباعة)، وانظر صبح الاعشى ٤ / ٢٠

(٥) المختصر المحتاج اليه ١ / ٥٥ ـ ٥٨

العصور. ان أثر بغداد في القاء الأضواء على حياة الأدباء يتضح حين نعلم ان شاعرا من كبار شعراء العراق في القرن السادس وهو مجد العرب العامري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ قد اغفلت ذكره امهات كتب التراجم ومنها وفيات الأعيان. وحين حاول صاحب الفوات الاستدراك على ابن خلكان جعل شاعرنا من رجال القرن الثامن، وقال انه مات سنة ٧٥٣ هـ[١]. وفي الوقت نفسه نجد صاحب الخريدة يترجم لأحد الأشخاص من عامة بغداد[٢]، ولآخر من عقلاء المجانين[٣] بها، راويا للأول بيتين من الشعر وللثاني اربعة.

ويبدو ان وجود ابن التعاويذي وزميليه في بغداد متجاورين متعاصرين قد أوجد بينهم نوعا من التنافس[٤] والتحاسد ـ ربما ساهم معاصروهم في اذكاء ناره ـ وقد كانت هذه المنافسة خيرا على الشعر لأنها حملت هؤلاء الشعراء على تجويد شعرهم خوفا من المعجبين بشعر خصومهم. ففي ديوان[٥] ابن التعاويذي ان بعض الاكابر كان يقدم محمدا المولد المعروف بالابله ويفضله على غيره ويجيزه ويحرم سماع شعر غيره، ولذلك قال ابن التعاويذي يهجوه:

قـل لابي النقصِ والمَخـازي ... يـا حَـرجَ الصّـدرِ والفِنـاءِ
بـأيِّ رأيٍ؟ وأيِّ فَـهـمٍ؟ ... يـا مُـدّعي الفَهمِ والـذّكـاءِ
قَـدّمتَ مستـأثِـرا علينـا ... أحـقـر قـدراً مـن الهَبـاءِ
ابـله قـد مـا يـرى ويـربى ... عـليـه في قـلّةِ الحيـاءِ
لـه فـم كـالكـنيفِ يـلقى ... وجـهـك منـه ببيـتِ مـاءِ
وحـاشَـى للهِ ان مـدحـاً ... يـأتـيـكَ الا مـن الـخَـلاءِ
لـه عـلى زعـمـهِ مَـديـحٌ ... اقبـح عنـدي من الهجـاءِ
... الخ[٦].

وابن المعلم هو الأخر لم يسلم من لسان ابن التعاويذي اذ قال يهجوه:

يـا ابـن الـمـعـلّمِ مـا لِـدا ... ئـكَ في الحماقةِ من مُعالِـجْ
يـا حـائـكـاً ادمـى انـا ... مـل كَفّـه كف الصَّهـارجْ[٣]

(١) فوات الوفيات ٢ / ١٦٢
(٢) الخريدة ٢ / ٣٢٣
(٣) نفسه ٢ / ٣٢٤
(٤) وفيات الاعيان ٤ / ٩٨
(٥) ص ١٥
(٦) نفسه.
(٧) الصهارج والصهاريج: هي كالحياض يجتمع فيها الماء.

إن لم تـكـن بـزر الـيـهـو   د، فـانت من نَسلِ الخَوارجْ
فـأصِـخ لِسُفـعٍ في هِـجـا   ئـكَ قد مـلأتُ بـه المَـدارجْ[1]
يـرمـيـكَ شـيـطانُ الـقَـوا   في مـن لَـوافـحـهِ بمَـارِجْ[2]
يـحـلـو هِـجـاؤك لـي وأنـ   ت أمرّ من حَبّ الايارِج[3]

ولا شك ان الشاعرين قد اجابا ابن التعاويذي وكالا له الصاع صاعين وخاصة الابله فقد كان معروفا بالهجاء ذا شهرة فيه[4]. ولكن رد الشاعرين لم يصلنا لحسن حظ ابن التعاويذي.

ومما يدل على المنافسة بين الشعراء الثلاثة - غير ما تقدم - قول ابن خلكان: انهم وقفوا على قصيدة صردر[5] التي اولها:

اكـذا يُجـازى ودُّ كـلّ قـرينِ   ام هذه شِيمُ الظّباءِ العِينِ[6]؟

فقرروا أن يعارضوها، ثم يورد نموذجين من هذه المعارضات، ويضيف: ان قصيدة ابن التعاويذي احسن الجميع[7].

يمثل ابن التعاويذي وصاحباه رافدا آخر من روافد الشعر المحافظ، وهو رافد يختلف عن ذلك الذي ينتمي اليه الحيص بيص وجماعته: ان هؤلاء يمثلون شعر القرن السادس اصدق تمثيل وهو شعر اختلط فيه القديم بالجديد فبدت المعاني القديمة في لباس لغوي محدث.

ان ابن التعاويذي وصحبه حاولوا التوفيق بين ميلهم الفطري الى الجديد المبتكر وبين رغبات الممدوحين - وجلهم من علية القوم - الذين يثيرهم القديم فيهتزون له ويطربون، وبمقدار هذا الاهتزاز والطرب تكون الجائزة التي من اجلها - دون سواها - نظم الشاعر ما نظم وقال ما قال.

ان ميل هؤلاء الى الجديد المعاصر لهم، جعل المحافظة عندهم يغلب عليها التكلف

(١) المدارج: الطرق.   (٢) المارج: نار لا دخان لها.
(٣) الديوان ص ٧٥. الايارج: دواء، معرب.
(٤) الخريدة ١٦٠ نسخة ايران.
(٥) علي بن الحسن احد شعراء القرن الخامس المتوفى سنة ٤٦٥ هـ. قال ابن خلكان: له ديوان شعر صغير. الوفيات ٣/ ٦٥، شذرات الذهب ٣/ ٣٢٢، ٣٢٣، معجم المؤلفين ٧/ ٦٦
(٦) العين: الواحدة عيناء وهي الحسنة العين.
(٧) وفيات الاعيان ٤/ ٩٩، ٤/ ٢٢٥

والافتعال، ويبدو الشاعر برما متضايقا من هذه القيود التي فرضت عليه فرضا. ولذلك ما ان يجد فرصة سانحة حتى يهرب منها: كما يلاحظ عند مدح غير الخلفاء ممن يعرف الشاعر اذواقهم وحقيقة موقفهم من هذه التركة الثقيلة. فمثلا نجد ابن التعاويذي يفتتح احدى مدائحه في محمد بن رئيس الرؤساء قائلا:

ومميل العِطْفَين اغيد[1] غَضّ الصبي بضّ المجرّدْ
كالحِقفِ[2] اهيلَ وَالقَضيـ ـب مُهَفْهفاً والظبي اجيَدْ[3]
نادمتُه، والبدر محـ ـتجب وطرف النّجم ارمدْ
بِمُدامةٍ صِرفٍ كَأ نَّ بكاسها ناراً توقّدْ
... الخ[4].

ففي هذا الشعر وأمثاله[5] لا نجد ذكرا لأعلام بلاد العرب مثل حزوى وشراف واللوى والجزع، ولا للنسوة اللائي اعتاد الشعراء التغزل بهن كليلى وسعاد ونوار وبثينة، كذلك ليس في هذا الشعر ذكر للهودج ورحلة الصحراء ووقوف الشاعر على ديار احبابه بعد ان رحلوا عنها. . كل ذلك هجره الشاعر وأعرض عنه لسببين: الأول معرفته بالممدوح، والثاني: ان هذا القديم ليس مما يميل اليه الشاعر ولذلك فر منه الى الغلاميات ومجالس الخمر وسواهما مما شاع في عصره. ان موقف هؤلاء الشعراء من القديم والجديد قد يتضح اذا عرفنا الأسباب والدوافع والروافد التي كونت شخصياتهم الأدبية والفنية.

ان ابن التعاويذي رجل من الموالي فابوه يدعى «نشتكين[6]» واسم والد الابله «بختيار» ليس عربيا هو الآخر على الأرجح، ولذلك لا نجد عند الشاعرين اي حماس للأنساب والافتخار والمباهاة بها، على عكس الحيص بيص[7] لأن هذا الأخير تميمي النسب[8]. والحيص بيص - كما سبق - كان من العلماء بلغة العرب وكذلك زميله طلحة ابن محمد النعماني[9]، ولذلك يعذر الرجلان لغرامهما بالقديم وولعهما به وصدهما عن

(١) اغيد: من الغيد (بفتحتين) وهو طول العنق في لين.
(٢) الحقف: المعوج من الرمل.
(٣) اجيد: جميل الجيد وهو العنق.
(٤) الديوان ص ١٢٣ - ٢٤
(٥) انظر: ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، ٨٢، ٧١، ٢٧، ديوان الابله و٧٨، ٧٣، ٦٢، ٦١ وغيرها.
(٦) وفيات الاعيان ٤ / ٩٠
(٧) ديوانه ص ٨٥، ٨٨، ٩٢، ٩٥، ١٠٨ وغيرها.
(٨) وفيات الاعيان ٢ / ١٠٦
(٩) نزهة الالباء ص ٣٨٤، معجم الأدباء ١٢ / ٢٦، انباه الرواة ٢ / ٩٣

الجديد واعراضهما عنه، على الضد من ابن التعاويذي وصاحبيه: فهم ليسوا من علماء اللغة، فقد كان ابن التعاويذي كاتبا بديوان المقاطعات[1]، وكان زميلاه من الشعراء المحترفين كما يقول ابن خلكان[2].

ان احتراف ابن التعاويذي وزميليه لنظم الشعر وارتزاقهم مما تجود به اكف الممدوحين يجعلهم اقل مرتبة من الناحية الاجتماعية من جماعة الحيص بيص: فقد مر ان اثنين منهم كانا من العلماء، وينص العماد الكاتب على ان العامري كان من الامراء[3]، وكان مفلح بن علي الانباري عامل منثر[4] الوزير ابن هبيرة[5]، اي انه كان مديرا عاما بلغة اليوم.

ان جميع العوامل والاسباب والمؤثرات التي ذكرتها فرضت على ابن التعاويذي وزميليه: ان يميلوا الى الجديد المعاصر لهم وان يعرجوا على القديم كلما شعروا ان الجائزة توشك ان تفلت من ايديهم.

ان الشعراء الثلاثة: ابن التعاويذي والابله وابن المعلم على الرغم من انتمائهم الى ما يمكن ان يسمى بـ «المحافظة الجديدة»، كذلك فان دراسة دواوينهم تثبت ان معظم شعرهم هو المدح، اضف الى ذلك ان الموازنة بينهم ترجح كفة ابن التعاويذي على زميليه وهو الرأي الذي قال به ابن خلكان قديما[6]، ولكن هذا لا يسوغ للباحث ان يدرس ابن التعاويذي ويهمل صاحبيه، لان هذين الشاعرين استطاعا ان يبرزا ويشتهرا بنوعين من الشعر لم يستطع ابن التعاويذي ان يجاريهما فيهما، على الرغم من طاقته الشعرية الكبرى وموهبته الفذة.

اما الابله فان دراسة ديوانه تثبت خبرته وطول باعه في موسيقى الالفاظ. فقد وهب ـ على ما يبدو ـ اذنا مرهفة وذوقا فنيا بالغ الدقة، فراح يحشد لقصائده اكبر قدر مستطاع من الحروف والكلمات، ويلجأ الى جميع ما عرفه الشعر العربي من مؤثرات لفظية وصوتية حتى استطاع ان يحيل طائفة من قصائده ـ وهي التي شاعت وذاعت ـ الى الحان خالصة يطرب لها السامع والقارىء. فاذا زالت نشوة الموسيقى، وحاولت ان تبحث في زوايا الأبيات وبين الكلمات عن شاعرية صاحبها وفنه لم تجد شيئا سوى الفاظ وحروف اجيد اختيارها، ثم رتبت ووزعت بحيث تحدث ـ عند الانشاد ـ اكبر ما فيها من اصوات وانغام تطرب السامع وتهزه.

(١) وفيات الاعيان ٤ / ٩٠
(٢) نفسه ٤ / ٨٧، ٩٨
(٣) الخريدة ٢ / ١٤١
(٤) المنثر: مخزن الحبوب.
(٥) الخريدة ٤ / ٣٠٢
(٦) وفيات الاعيان ٤ / ٩٠

ان الابله يجيد ـ اولا ـ انتقاء الحروف التي تبنى عليها القوافي ،ثم يعمد الى التصريع في مطالع القصائد، وقد يضيف اليه الجناس بحيث ينسجم مع حروف المطلع المصرع من ناحية وحرف القافية من ناحية اخرى، فاذا تم له كل ذلك راح يكرر بعض الحروف ويوزعها بين شطري المطلع، فاذا عجز ان يجمع بين التصريع والجناس والتكرار في بيت واحد ـ وهو يركز ويؤكد عادة على مطلع القصيدة ـ فانه يعمد الى طرق التأثير الاخرى مثل الطباق والتصوير واستعمال الجمل الاعتراضية والقوافي الداخلية للابيات، وهكذا حتى تصبح القصيدة اشبه بالقطعة الموسيقية.

ان الوزير ابن هبيرة يحتل مكانة بارزة بين ممدوحي شاعرنا الابله، ويقول صاحب وفيات الاعيان[١]: ان القصيدة الآتية هي خير ما قاله الشاعر في الوزير الكبير:

١ ـ وَلَعُ النسيمِ وبانَةُ الجَرْعا[٢]	وَصَفَاكِ إلاّ الحَلْيَ والرَدَعا[٣]
٢ ـ يا دُميةً ضاقت خَلاخِلُها	عنها، وضِقت بحبها ذَرعا
٣ ـ قد كنتُ ذا دمعٍ وذا جَلَدٍ	فبقيت لا جَلَدا ولا دَمعا
٤ ـ صيَّرت جسمي للضَنى سكناً	وَسَكَنَتِ (بعدَ)[٤] تَبالةَ الجزعا[٥]
٥ ـ يا من رأى ادماء سانحةً	قلبي لها لا المنحنى مرعا؟
٦ ـ لاثَت بمثلِ الدِعْصِ[٦] مئزرَها	وَجَلَتْ بعود اراكةٍ طلعا
٧ ـ واذا تُراجعكَ الكلامَ فلا	تعدم لأيّام الصِّبى رَجْعا
٨ ـ ولقد سَعتْ بالراحِ تُصبحني	سَكْرى اللواحظ وَعثة[٧] المَسعى
٩ ـ في مستنيرِ الزهر ما صنعتْ	ابراده[٨] عَدْنٌ، ولا صَنعا
١٠ ـ باكَرتُ مُفْترعاً ثراه، وما	رَكِبَ الحمامُ لبانةٍ فَرْعا
١١ ـ سَلَّت عليه البارقات ظُبىً	لَبس الغدير لخوفها دِرْعا
١٢ ـ يا عاذلي إنْ شِئْتَ تسمعني	عَذْلاً فشقَّ لصخرةٍ سَمْعا
١٣ ـ طبعاً جبِلْت على الغرام كما	جبِلَ الوزيرُ على النَّدى طَبْعا
١٤ ـ ملكٌ رزينُ الحلمِ منتقم	غير ان طيع مجتنى المَرْعى

---

(١) وفيات الاعيان ٥ / ٢٨٠
(٢) الجرعا: اراد الجرعاء وهي ارض مرتفعة فيها رمل.
(٣) الردع: (بسكون الدال) اثر الطيب.
(٤) زيادة من الوفيات يقتضيها الوزن.
(٥) الجزع: منقطع الوادي.
(٦) الدعص: كثيب الرمل.
(٧) وعثة المسعى: ربما اراد انها تجد صعوبة في المشي لكبر اعضائها.
(٨) الابراد: واحدها البرد: كساء اسود مربع فيه صغر.

١٥ ـ لِطَرِيرِه[١] ونَـزِيلِه قسمت خـلقـاه ذا ضـرًا وذا نَـفْـعـا
١٦ ـ سامي النّدى يلقى العِدى أبداً وتـرا[٢] ويـلقى جـودَه شَـفـعـا[٣]
١٧ ـ هـام تَدُرُّ عليـه أنعمـه عَفـواً ولم يبس[٤] لها ضِـرعـا
١٨ ـ لُمّا صَنعتُ له المديحَ رأى حسنـا، فـاحسن عنـده الصُنعـا
١٩ ـ ما زلت تحت الخفض مستتراً حـتىّ رأيـتُ بمـدْحـهِ الـرفْـعـا
٢٠ ـ قَسَمًا بمن حجّ الحَجيجُ له والمـازمـينِ[٥] ومـن اتى جمَـعـا
٢١ ـ تسعى بـه فتلاء[٦] تحسبهـا في نسـعِهـا[٧] من دِقّـةٍ نِسـعـا
٢٢ ـ ما زال سير الخمس ينحلها حـتىّ اطـفـن بمكـةٍ سَـبْـعـا
٢٣ ـ إنّ الـوزيـر، فتى هبيـرةَ لم يـرثِ السمـاحـة والنّدى بـدعـا
٢٤ ـ الواصلَ المعروفَ حينَ رأى لِـسـواه في إيـثـارهِ قَـطْـعـا
٢٥ ـ لو قيل: زِدْ وسْعاً على كرمٍ تـأتيـه طبعـاً، لم يجـد وسعـا
٢٦ ـ تغنيـه يومَ الـروعِ سطوتـه عـن أنْ يخـوضَ لمـازقٍ نَـقـعـا
٢٧ ـ وبكفـه قـلم يصـول بـه يغنى الفقير ويشعب[٨] الصَدعـا[٩]
٢٨ ـ فيـهِ حيـاة للوليّ وللغِمـ ـر[١٠] المُـعـادى حَـيّـةٌ تـسـعـى
٢٩ ـ فَفِداء عَونِ الـدينِ كلّ فتىً يَقـلى[١١] السُّمـاحَ ويعشق المنعـا
٣٠ ـ مِنْ معشرٍ ليسوا ـ اذا نُسبوا ـ في الجـود لا غَـرَبـاً[١٢] ولا نَبعا
٣١ ـ بيضُ الوجوهِ فان هُم سئلوا رفـداً رأيت وجـوههم سفعـا[١٣]
٣٢ ـ وافيتَ يـا تاجَ الملوكِ عـلى وضـع يخالف ذلـك الـوَضعـا
٣٣ ـ لما رأيتَ البُخْـلَ شَـرْعهمُ ارسلت تَنْسـخ ذلـكَ الشَـرعـا
٣٤ ـ يا ابنَ الاولى وطأوا على عنفٍ من حـاسـديهم انفـا جـدعـا[١٤]

---

(١) الطرير: السنان المحدد.
(٢) الوتر: الفرد.
(٣) الشفع: الزوج من العدد.
(٤) يبس: من الابساس وهو المسح والتسكين بالاصل، واستعملت هنا مجازا.
(٥) المازمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وبين عرفة (معجم البلدان ٧ / ٣٦٢).
(٦) فتلاء: ناقة قوية كأنها فتلت فتلا.
(٧) النسع: الجلد.
(٨) يشعب: يصلح.
(٩) الصدع: الشق.
(١٠) الغمر: الحقود.
(١١) يقلي: يبغض.
(١٢) الغرب: شجر ضعيف. النبع: شجر صلب: أي ان هؤلاء ليس لهم من الجود شيء.
(١٣) سفع: سود.
(١٤) جدع: مقطوعة.

٣٥ - غـرمـا مـيـح ذوو لسـن | مشحـوذةٍ لا تعرف القَـذعـا[١]
٣٦ - بـك يدفـع النكباتِ نـازلـةً | من سـاورتـه فلم يـطق دَفـعـا
٣٧ - فلَكم سَـدَدْتَ لاملٍ خَللًا | وَلَكم مَـدَدْتَ لِخَامـلٍ ضَبْعـا[٢]
٣٨ - لو كُنتَ في زمن الكليم[٣] لَمَا | دخـلَ المـرا آيـاتـهِ التِـسـعـا
٣٩ - اعدَدْتَ للحَدَثانِ[٤] كلَّ فتىً | لَبّى الكـريهـة قبـلَ ان يـدعى
٤٠ - ومهنـداً ما اهتز يومَ وَغىً | الا رأيـت لـبـارق لَمـعـا
٤١ - ومشـرفـاً نهداً مـراكله[٥] | جَـذَعـا[٦] تخال بليته[٧] جـذعـا
٤٢ - يجري على الغـايات فـارسه | خَبَبـاً فتحسب طـرفـه سـمعـا
٤٣ - احييتَ يا يحيى الرجـاءَ كما | احـيـا وليّ الـديمـةِ الـزرْعـا
٤٤ - انـا ناظم الـدرِّ الثميـن اذا | وافـاكَ غيـري نـاظِمًا جَـزْعـا[٨]
٤٥ - فَتَهَنَّ شهـرَ اللهِ، وابقَ على | مـر الـشـهـور مهنئـا جمـعـا
٤٦ - ما ناوحَ الدوحَ النسيم، وما | طَـرب الحَمامُ فرجَّعَ السَجعا[٩]

لقد تعمد الشاعر ان يختار العين المفتوحة للقافية والكلمات الثلاثية المفتوحة الاول غالبا: للتوفيق بينها وبين عين القافية المفتوحة ثم بدأ يؤكد على موسيقى الألفاظ ويحشد اكبر قدر مستطاع من الكلمات التي فيها حرف العين،لان القافية عينيه،ففي المطلع: ولعا، الجرعا، والردعا، وفي البيت الثاني: عنها الذرعا، وفي الثالث كرر الدمع من اجل العين، كذلك عمد الى التكرار اللفظي في البيت ١٣ والبيت ٢١، ٢٥، ٣٢، ٣٣، ٤١، والشاعر اذا اعوزه التكرار من اجل الحرف المطلوب عمد الى المفعول المطلق المشتق من لفظ الفعل: كما فعل في البيت ١٨ (صنـع الصنع) والبيت ٣٦ يدفع دفعا. . .

وبذلك استطاع ان يحشد ٩٠ كلمة يدخل في نطقها وصوتها حرف العين اي ان كل بيت فيه كلمتان من هذا الصوت.

---

(١) القذع: الافحاش في القول، وهي بالاصل بالدال (القدع).
(٢) مددت لخامل ضبعا: اي نوهت باسمه فصار معروفا.
(٣) الكليم: النبي موسى عليه السلام، وآياته التسع ذكرت مرتين في القرآن الكريم، في الآية ١٠١ (سورة الاسراء)، وكذلك في الآية ١٢ (سورة النمل)، قال تعالى في سورة الاسراء: ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بَيّنات فاسأل بني اسرائيل إذْ جَاءَهم فَقَال لَه فِرعون إني لاظنّك يا مُوسى مسحورا. وفي شرح الآيتين الكريمتين تنظر تفاسير القرآن الكريم مثل الكشاف للزمخشري ١/ ٤٦٤، وروح المعاني للآلوسي ٦/ ٢٦١ - ٢٦٢
(٤) الحدثان: احداث الزمان.
(٥) نهد المراكل: اي عال مرتفع.
(٦) جذع: حدث السن، فتى.
(٧) الليت: صفحة العنق.
(٨) الجزع: الخرز اليماني الذي فيه بياض وسواد.
(٩) الديوان و٣٥ - ٣٦

ثم راح الشاعر يوفر لقصيدته مؤثرات صوتية وموسيقية اخرى: فهناك التصريع في المطلع، ومعه جناس ناقص بين الجرعا والردعا: لان الخلاف بين الكلمتين في الجيم والدال فقط، كذلك بينهما توافق في الحركات فكلاهما مفتوحة الاول ساكنة الوسط، وفي المطلع هذا - كما في كثير من أبيات هذه القصيدة - يعمد الشاعر الى ربط الكلمات المتجاورة برباط موسيقي دقيق: عن طريق تكرار بعض الحروف المشتركة بين الكلمتين المتجاورتين: ففي صدر المطلع نجد هاتين الكلمتين المتجاورتين: النسيم وبانه وقد تكرر حرف النون فيهما، وفي البيت السادس تكررت الثاء: لاثت بمثل، وفي التاسع الراء: مستنير والزهر وفي العاشر تكررت الراء ايضا: باكرت ومفترعا، وفي الثالث عشر الباء: طبعا وجبلت، وفي الخامس عشر الياء: طريره ونزيله، وفي التاسع عشر التاء: ما زلت وتحت،وفي العشرين الجيم: حج الحجيج، وفي السادس والعشرين القاف - في العجز -: مازق ونقع، وفي السابع والعشرين العين: في العجز ايضا: يشعب والصدع، والراء في عجز البيت ٣١: رفدا ورأيت، وهكذا في بقية الفاظ وحروف الأبيات الأخرى: وافيت يا تاج، ارسلت تنسخ، اعددت للحدثان...

ويلاحظ ان الشاعر يكرر بعض الحروف بكثرة في طائفة من الأبيات كي يحدث التأثير الموسيقي المطلوب :ففي البيت الثالث تكررت الدال اربع مرات، وتكررت السين ثلاث مرات في الرابع، وكذلك تكررت الجيم ثلاث مرات في السابع، وفي التاسع تكررت النون اربع مرات، وفي العاشر تكررت الراء خمس مرات، وفي الرابع عشر تكرر الميم ست مرات.. وهكذا.

وفي القصيدة اكثر من طباق: الضر والنفع في البيت ١٥، والوتر والشفع في السادس عشر، والرفع والخفض في التاسع عشر، والوصل والقطع في الرابع والعشرين، وفي التاسع والعشرين: يقلي ويعشق، والسماح والمنع والغرب والنبع في الثلاثين. وفي القصيدة طباق دقيق بين المعاني المتضادة على طرفي طائفة من الأبيات، وهو اصعب وأعمق من الطباق اللفظي الساذج: ففي البيت الثالث عشر - وقد أحسن الانتقال من الغزل الى المدح - نجد تناقضا طريفا: فالشاعر مجبول مطبوع على الغرام، على حين جبل الوزير وطبع على الندى، وشتان بينهما، وفي البيت الثامن والعشرين نجد قلم الوزير ذا اثرين متضادين متباينين: ففيه حياة للولي والصديق، ولكنه حية تسعى للعدو، وفي الأبيات: ٢٩، ٣٠، ٣١ يوازن الشاعر بين الوزير ومعاصريه من الزعماء فاذا هما على طرفي نقيض. وآخر ما عمد اليه الابله لتحسين الموسيقى اللفظية في قصيدته هو الازدواج او الموازنة كما يسميه ابن

الاثير[١]: ففي البيت الخامس عشر نجد الطرير والنزيل على وزن واحد، وفي السادس عشر: الندى والعدى ـ وهو جناس في الوقت نفسه ـ وفي الخامس والعشرين: وسعا وطبعا، وفي السابع والعشرين يغني ويشعب، والغرب والنبع في البيت الثلاثين ـ وهو طباق في الوقت نفسه ـ وفي السابع والثلاثين نجد: سددت ومددت وحامل وامل ـ وفيهما جناس ايضا ـ وفي الحادي والأربعين نجد: نهدا وجذعا . . . وهكذا استطاع الابله ان يوفر كثيرا من القيم الصوتية في هذه القصيدة مما يذكرنا بسينية البحتري[٢].

ولم يعرف القدماء هذه الميزة في شعر الابله، ولكن العماد الاصفهاني يخبرنا ان المغنين: «يتهافتون على نظم الابله المطرب تهافت الطير الحوم على عذب المشرب[٣]» . وهذا التهافت على غناء وتلحين شعر الابله سببه ايغال الشاعر في الموسيقى اللفظية مما جعل طائفة من شعره تتميز بصلاحيتها للغناء[٤].

واما ابن المعلم الواسطي فقد اشتهر وذاع صيته في الغزل، على الرغم من كون غزله ـ مثل غزل زميليه ابن التعاويذي والابله هو مقدمات لقصائده في المدح . ان اهتمام القدماء وتأكيدهم على غزل ابن المعلم يكاد يحمل الباحث على اخراج هذا الشاعر وابعاده عن دائرة شعراء المدح واضافته الى شعراء الغزل المعروفين كجميل بثينة والعباس بن الأحنف، لولا النصوص الكثيرة المتواتره على ان ابن المعلم شاعر مداح: قال ابن الدبيثي: ـ وقد سمع منه اكثر شعره ـ هو أحد من سار شعره وانتشر ذكره ونبه بالشعر قدره وحسن به حاله وأمره. . اكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد[٥]. .وقالسبط ابنالجوزيعنه: «مدح الامراء والرؤساء والاعيان[٦]» .

ومن المشهور المعروف: ان الغزل ـ في قصائد المدح ـ ليس سوى مقدمة وتمهيد ينتقل بعده الشاعر الى المدح، غرض القصيدة الاصلي، ولكن هذه الحقيقة انعكست عند ابن المعلم: فصار الغزل هو الاصل والمهم، وبات المدح ثانويا تابعا للغزل، حتى ان العماد الكاتب ـ وكان صديقا لابن المعلم ـ اورد له في خريدته[٧] خمس قصائد :اربعمنها مقدمات غزلية، وواحدة فقط ذكر منها المدح الى جانب الغزل. بل ان ديوان ابن المعلم المخطوط في مكتبة الامام الحكيم في النجف ـ ومنه نسخة مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد ـ لم

---

(١) المثل السائر ١ / ٣٧٩ (ط. نهضة مصر).
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٨٦
(٣) الخريدة: نسخة ايران ١٦٠
(٤) دلالة الالفاظ ص ١٩٩
(٥) تاريخ ابن الدبيثي ١ / ٩٩ (المصور).
(٦) مرآة الزمان: ٨ / ٤٥١، وانظر ذيل الروضتين ص ١١
(٧) الخريدة ٤ / ٤٣٠ ـ ٤٤٩.

يثبت فيه ناسخه ـ وهو الشيخ محمد السماوي ـ سوى الغزل وبعض الابيات التي تدل على نهاية الغزل وبداية المدح[1]،وكذلك الأمر في قطعة من ديوان ابن المعلم مخطوطة في مكتبة الدراسات الاسلامية العليا ببغداد[2].

اعجب القدماء اعجابا شديدا بغزل ابن المعلم، وكالو ا للشاعر النعوت والالقاب والصفات التي تدل على ذلك: فقد فضله صاحب الخريدة ـ وهو الأديب الكاتب الشاعر المشهور ـ على مهيار الديلمي[3]، وكذلك على ابن هاني الاندلسي[4]. وقال الصلاح الصفدي عنه: انتهت اليه رياسة الشعر في زمانه[5]. وقال صاحب الوفيات ان شعر ابن المعلم «لا يسمعه من عنده ادنى هوى الا افتتن وهاج غرامه[6]».

ان شهرة ابن المعلم الواسطي يمكن ارجاعها الى ثلاثة عوامل: متصلة متشابكة لا يمكن الفصل بينها الا لغرض الدراسة وهي: عوامل تتصل بالشاعر اولا، وبشعره ثانيا، وبعصره وبيئته ثالثا.

أما الشاعر: فان طول عمره ساهم في اشاعة ذكره وتداول شعره، فقد ولد سنة ٥٠١ هـ، وتوفي سنة ٥٩٢ هـ أي انه عاش اكثر من تسعين سنة[7]. وأما غزل ابن المعلم فأهم ميزاته: العفة التامة في اللفظ والمعنى، وكذلك الوضوح الشديد: حتى أن عامة الناس لا تجد صعوبة في فهمه، وبذلك انتشر بين اوسع طبقات المجتمع «ولطف مكانه عند اكثرالناس، ومالوا اليه وتحفظوه، وتداولوه بينهم، واستشهد به الوعاظ، واستحلاه السامعون[8]. قال:

يا منزلاً بدواعي البين منتهياً[9]	وما البَليـة الا مِن دواعيهِ
وقفت اشكو اشتياقي والسّحابُ به	فانهل دمعي، وما انهلت غَواليهِ
والنار من زَفَراتي، لا بَوارِقـهِ	والماء من عَبراتي، لا غواديهِ[10]

(١) انظر و٦٣، ٦٤، ٥٩.
(٢) رقمها ٢٩٢
(٣) هومهيار بن مرزويه، الكاتب الشاعر، كان مجوسيا فاسلم على يد الشريف الرضى، وعليه تخرج في نظم الشعر، وهو شيخه توفي سنة ٤٢٨ هـ. المنتظم ٨ / ٩٤، ٩٥، وفيات الاعيان ٤ / ٤٤١، النجوم الزاهرة ٥ / ٢٦، ٢٧.
(٤) هو محمد بن هاني، الازدي، الاندلسي. قال ابن خلكان: هو اشعر المغاربة. توفي سنة ٣٦٢ هـ. معجم الادباء ١٩/ ٩٢، وفيات الاعيان ٤ / ٤٩، النجوم الزاهرة ٤ / ٦٧، ٦٨
(٥) الوافي بالوفيات ٤ / ١٦٥
(٦) وفيات الأعيان ٤ / ٩٨
(٧) ابن الدبيثي ١ / ٩٩ (المصور)، وفيات الأعيان ٤ / ٩٨، الوافي بالوفيات ٤ / ١٦٥، البداية والنهاية ١٣ / ١٣
(٨) ابن الدبيثى ١ / ٩٨ (المصور).
(٩) بالاصل بالرفع (منتهب)، ولعله سهو من الناسخ.
(١٠) الغوادي: مفردها غادية، وهي السحابة تنشأ ـ غدوة.

ومودع القَلب ـ إذْ ودعته ـ لَهَبا / حاشاه حاشاهُ من قلبي وما فيهِ
يوهي قوى جَلَدي من لا ابوح بهِ / وَيستبيح دَمي مَنْ لا اسمّيهِ
لم ادر حين بدا، والكاسُ في يده / من كاسه السكر، ام عينيهِ، ام فيهِ
وما المدامةُ الا من ثنيتهِ / ولا الظلامة الا من تثنّيهِ
لو لم يَطِل عصره فخراً، وتاه به / عجباً، لَما اهتزّ عطفاه من التيهِ
حَكَت جَواهرَه ايامه، فَصَفت / وحدّثت عن لآليه لياليهِ
... الخ[1].

في هذه الأبيات وصف للشوق والصبابة، وفيها عتاب رقيق، وشكوى وألم دفين عرف الشاعر كيف يلمح دون ان يصرح به، وفيها موسيقى حزينة ساهمت في بثها الفاظ خاصة عرف الشاعر كيف ينشرها بين الأبيات مثل: الزفرات والدمع والعبرات ويوهي ويستبيح والذل والقتل. كذلك ساعدت هذه القافية المكسورة المسبوقة بالياء في الجو الحزين، اضافة الى البحر البسيط الذي اختاره فجاءت عواطفه هادئة ولكنها محسوسة بينه وأفكاره ومعانيه واضحة لا غموض فيها ولا مجون ولا كلمة مما يخدش الحياء أو يسيء الى الذوق السليم، والأبيات لا تحتاج الى شرح او ايضاح: فليس فيها فلسفة ولا تعقيد. انها حديث في الحب يفهمه ويرتاح له كل الناس.

ان الحزن والألم أو النوح ـ كما يقول ابن خلكان[2] ـ هو العاطفة التي تشيع وتنتشر في غزل ابن المعلم كله، ولذلك تجده كثير الترديد والتكرار للالفاظ والمعاني التي تشع وتشيع هذه العاطفة مثل: البكاء والنحول والفراق والبعاد والنوى والسقام ونفاد الصبر والبلوى والمصيبة وسواها، حتى قال الصلاح الصفدي: ان شعره ينفع الوعاظ[3].

ويغلب على الظن ان المعاني والألفاظ البدوية وخاصة الحجازية منها ـ التي يكثر ابن المعلم من ذكرها وايرادها في شعره ـ قد ساعدت على اشاعة الجو الحزين الذي يغلف قصائده[4]، ومنحتها مسحة خاصة حببتها الى المتصوفة، فراحوا يتواجدون على انغامها[5]:

قد كنت خلي فاطرحـ / ـتَك واتخذتُ النجمَ خِلا
وعزيزُ دمعِ العينِ يو / مَ دعا الخَليطَ البينُ ذَلّا

(١) الديوان و٢٠ (نسخة النجف).
(٢) وفيات الاعيان ٤ / ٩٨
(٣) الوافي بالوفيات ٤ / ١٦٦
(٤) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١
(٥) وفيات الأعيان ٤ / ٩٨

وكـذاك جيشُ الصبر مـنـذ حمـلَ الفـراقُ عليـه ولّى
قِفْ بي على الوادي الـذى اقـوى رُبـىً، وعـفـا مَـحلاّ
اشـكـو بـلايَ اليـهِ والـ مشكـوَ من شـاكيـهِ أبـلى
وعـلى مَـراراتِ الـهـوى مـا اعذبَ الشّكوى واحلى
هـو مـنـزل الّلذات لـو لم يلقِ فيه الـدهـر رَحلا
ولـقـد وجـدت الـدار دا راً لـو وجدتُ الاهـل أهـلا
وسَـلِ «العَقيق» وحـيّ مِنْ شجـر «اللوى» بانـاً وأثلا[1]

أما اثر البيئة في شعر ابن المعلم فيتضح حين نعرف ان هذا الشاعر هو الوحيد بين شعراء القرن السادس الذي لم يستطع احد أن يعثر له على بيت تشم منه رائحة المجون أو الغلمان أو الخروج على مبادىء الخلق الكريم، على الرغم من أن شهرته قائمة على الغزل، وهو فن يندر ان يستطيع الشاعر فيه التوفيق بين الجودة والمحافظة على الأخلاق.

ان ديوان ابن المعلم وثيقة تدمغ اولئك الذين ينادون بضرورة «التسامح» مع الشعراء والفنانين اذا اردنا ان تزدهر الفنون، بدعوى ان الفن الرفيع والخلق الرفيع لا يتفقان.

ان بيئة الشاعر: الزمانية والمكانية، كانت السبب الأساسي في ثلاث صفات لها أثر كبير في رواج شعره وهي: خلوه من فاحشي القول وساقطه، وتلك العناية الظاهرة في حسن اختيار الألفاظ والبحور الشعرية، حتى بدا الديوان وكأنه قد صفي وغربل قبل ان يخرج للناس، وهناك - اخيرا - عاطفة الحزن والمرارة التي تنبعث من بين سطور الديوان فتقرب بينه وبين مشاعر المحرومين الحزانى.

ان ابن المعلم رجل قروي الأصل: فقد ولد ومات في قرية من قرى واسط تعرف بـ «الُهرث»[2] وأهل القرى، حتى اليوم، اعف لسانا، وأكثر ميلا الى مكارم الأخلاق من اهل المدن، اضف الى ذلك ان غزله - كما مر - هو مقدمات لقصائد مدح، قيلت في صفوة رجال المجتمع العباسي وقادته، فليس من المعقول ان يتماجن الشاعر في تلك المجالس الحاشدة المشهودة.

عاصر ابن المعلم، من ناحية الزمان والمكان، شيخ الطريقة الرفاعية في التصوف، الشيخ احمد الرفاعي ت ٥٧٨[3]، بل ان صاحب الوفيات قال: سمعت جماعة من مشايخ

(١) الديوان و٦٦ (نسخة النجف).
(٢) الخريدة ٤ / ٤٣١، ابن الدبيثي ١ / ٩٨ (المصور).
(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٥٤

البطائح[1] يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلم الا انه كان اذا نظم قصيدة، حفظها القراء المنتسبون الى الشيخ احمد بن الرفاعي، وغنوا بها وطابوا عليها، فعادت عليه بركة انفاسهم، ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقادا لا شك عندهم فيه[2]. والواقع أن هذه «اللطافة» التي يشير اليها ابن خلكان، أو «الرقة» كما سماها غيره من القدماء[3]، أو «الحلاوة» كما قال فريق ثالث[4]، من صفات شعر ابن المعلم، التي عرفها القدماء، ولكنهم لم يهتدوا الى سببها، فظلوا حيارى.

من المستحيل ان يعيش شاعر تسعين عاما ـ كما عاش ابن المعلم ـ في وسط يضج بالتصوف والمتصوفين، ثم لا يظهر أثر ذلك في شعره.

ان الألفاظ الدالة على التصوف نادرة الوجود في شعر ابن المعلم، مثل «حلبة الذكر» في قوله:

وَعد بحديثِ الرملِ قلباً تبيحه اعنة نسيان الأسى حَلبة الذِكرِ[5]

و«كشف الغطاء» في قوله:

كشِف الغطاء فكلُّ ناهٍ عاذر وبدا الخفاء فكلّ باكٍ مُعوِلُ[6]

و«الحقيقة» في بيته:

فاذا اقشعرّ فـانَ ذاكَ حقيقةٌ واذا اطمأن فانَّ ذاكَ تَعملُ[7]

ولست استبعد أن يكون ما في شعر ابن المعلم من حنين او ألم او تواجد ـ كما يسميه الدكتور شوقي ضيف[8] ـ سببه الوسط الصوفي الذي عاش فيه الشاعر قرابة قرن من الزمان، اذا تناسينا ان الفرد العراقي بطبعه ـ وخاصة ابناء الأرياف ـ يميل الى الحزن، ويجد لذة في الغناء الحزين، والصوت الشجي المكتوم الالم والعاطفة، المعبر عن امال ضاعت، او حبيب ليس الى لقائه من سبيل.

اما رقة الألفاظ، وحسن اختيار البحور، فلعل الشاعر استفاد فيهما من حلقات

---

(١) موقعها بين واسط والبصرة في جنوب العراق. (٢) وفيات الأعيان ٤ / ٩٨
(٣) الخريدة ٤ / ٤٣١، مستدرك المختصر المحتاج اليه ص ٢٧ ـ ٢٨
(٤) ابن الدبيثي ١ / ٩٨ (المصور)، المختصر المحتاج اليه ١ / ٩٦
(٥) الديوان و١٧ (نسخة النحل)
(٦) نفسه و٣٦ وانظر الرسالة القشيرية ص ٥١.
(٧) نفسه و٣٧ وانظر الرسالة القشيريه ص ٥٦ (٨) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧١

الذكر والسماع[١] التي عرف بها المتصوفة، اذا اغفلنا الموهبة الذاتية.

جـ - شعر الطبقة الحاكمة:

ويراد بهؤلاء من وصلنا شعره ممن عرف بنظم الشعر من الطبقة العليا في المجتمع العباسي وتشمل:

١ - خلفاء بني العباس:

وأشهر من نظم الشعر منهم الخليفة المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦[٢] هـ، أما اقلهم شعرا فالخليفة الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢ هـ، اذ لم أعثر له الا على بيت واحد[٣].

٢ - وزراء العباسيين واخوانهم وابناؤهم:

وعلى الرغم من رواية العماد الكاتب لبعض اشعار الوزراء[٤]، فانَ اشهر من يستحق الذكر ها هنا ابنا الوزير ابن هبيرة: عز الدين محمّد المتوفى سنة ٥٦١[٥] هـ، وله شعر كثير - كما يقول العماد - ولكنه فقد لاسباب سأشير اليها بعد قليل، والابن الثاني هو شَرَفُ الدين ظفر (وقيل المظفّر) المتوفى سنة ٥٦٢[٦] هـ وهو اكثر الجميع شعرا، اذا اعتمدنا على خريدة القصر.

٣ - المزيديون:

وقد اشرت في الفصل الأول من هذه الرسالة الى ان سلطانهم السياسي انتهى سنة ٥٥٨ هـ، فتفرقوا في البلاد، وقال عنهم صاحب الخريدة انهم: «ما كانوا يعتمدون قول الشعر الا لحادثة على سبيل الندرة[٧]. «وقول العماد هذا يجب ان يؤخذ بحذر كما سيتضح بعد قليل. وأشهر من عرف بقول الشعر من زعماء بني مزيد هم: دبيس بن صدقة المتوفى سنة ٥٢٩ هـ[٨]، وبدران بن صدقة المتوفى سنة ٥٣٠ هـ بمصر[٩]، ومزيد بن صفوان بن الحسن، توفي في بلدة مصياف بالشام سنة ٥٨٤ هـ، وله ديوان شعر، لا يزال مخطوطا[١٠].

---

(١) من الالحان الباقية الى اليوم لحن السماعي وانما هو لحن من الحان الصوفية في اثناء اقامة السماع في ربطهم. تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٤٢

(٢) الخريدة ١ / ١٨
(٣) فوات الوفيات ١ / ٦٢
(٤) الخريدة ١ / ٩٥، ٩٦
(٥) نفسه ١ / ١٠٠
(٦) نفسه ١ / ١٠١
(٧) نفسه ٤ / ١٥٦
(٨) نفسه ٤ / ١٧٠
(٩) نفسه ٤ / ١٧٧
(١٠) الشعر العربي في العراق ٢ / ٧٤

٤ ـ بنو أبي الجبر:

ملوك البطائح وأعيانها[١]، وتقع ديارهم هذه بين واسط والبصرة، في جنوب العراق، وكانت ملاذا لكل خائف، من الخليفة أو من السلطان[٢]، ولكن العماد يقول عنهم، بعد هذا الكلام بقليل: وملوك البطائح لم يزالوا يملكون بالقتل والفتك[٣]. وقد ضرب ابن التعاويذي بهم المثل في الظلم والتجبر، قال من قصيدة يصف واليا:

غـادرت الأعمـال اعمـالـهُ   خـالـيـةً كـالبلدِ القَـفـر
تجبّـراً لم يَـرِمْ أهل القُرى   بـمـثـلـهِ آل ابـي الـجـبـرِ[٤]

وأشهر من يستحق الوقوف عنده من آل ابي الجبر الشعراء: الامير احمد بن ابي الفتوح المتوفى سنة ٥٤٧ هـ[٥].

بعد هذه المقدمة السريعة، يمكن أن ندرس شعر الطبقة الحاكمة ـ آخذين ما يلي بنظر الاعتبار ـ: ان شعر هؤلاء قليل معظمه مقطوعات او نتف: بسبب طبيعة حياتهم، وصعوبة الوصول الى بعضهم لتدوين شعرهم، وقد نص العماد انه كان: «يهاب سديد[٦] الدولة ابن الانباري، ويكبره ان يستنشده[٧]. . » فكيف بمن هو اعلى مرتبة، وأعظم شأنا من ابن الانباري؟، ومع ذلك استطاع صاحب الخريدة أن ينقل لنا قصائد طويلة لبعضهم، كما فعل مع شرف الدين ابن الوزير يحيى بن هبيرة[٨]، وكذلك اثبت قصائد طويلة للامير احمد بن ابي الفتوح[٩]. ولا شك ان لمكانة العماد الاجتماعية، وعلاقاته الشخصية اثرا في حصوله على شعر، أو وقوفه على معلومات، يصعب على غيره حتى ان يسمع بها. ولا شك ان هناك عوامل أخرى، كان لها اثر غير قليل في قلة شعر طبقة الحكام هذه: ومن تلك العوامل: الصراع بين الخلفاء والمزيديين من جهة، وبين الوزراء وانصارهم وأقاربهم، بعضهم مع البعض الآخر، من جهة اخرى، فعلى سبيل المثال: ينص العماد انه حذف من احدى القصائد أبياتا كثيرة، لان الشاعر تعرض للخليفة بما لا يليق[١٠]، فكيف يمكن الوثوق بالذي ينقله العماد من شعر المزيديين، وهم في حرب لا تكاد

---

(١) الخريدة ٤ / ٥٢٣
(٢) نفسه ٤ / ٥٢٩
(٣) نفسه ٤ / ٥٣١
(٤) الديوان ص ١٩٥
(٥) الخريدة ٤ / ٥٤٧
(٦) هو ابو عبد الله، محمد بن عبد الكريم الانباري، منشيء ديوان الخلافة، وشيخ الدولة المتوفي سنة ٥٥٨ هـ الخريدة ١/ ١٤٠
(٧) الخريدة ١ / ١٤٢
(٨) نفسه ١ / ١٠٢ ـ ١٢٠
(٩) نفسه ٤ / ٥٤٩ ـ ٥٧١
(١٠) الخريدة ٢ / ٨٤

تهدأ مع خلفاء بني العباس[١]. واذا كان موت الوزير ـ ابن هبيرة ـ يدفع بعض الكبراء ـ كما ينص العماد[١] ـ الى ان يأخذ جميع الاشعار التي قيلت فيه ويغسلها، فكيف نصدق ان كل ما نظمه الوزير وابناه ـ وقد قتلا بعد موته بمدة وجيزة ـ هو هذه الاشعار التي روتها الخريدة؟

ان الأدب صورة من النشاط الاجتماعي، فهو يعكس عقلية الفرد والجماعة، ويترجم عما تحس به وتشعر، ويصور آلام لناس وآمالهم، وينقل لنا كيف يفكر هذا الفرد أو هذه الجماعة، وما يسيطر على حياتها من خير أو شر، ومن فقر أو غنى، وكفر أو ايمان. وقد كانت حياة الطبقة العليا في المجتمع العباسي، مزيجا من متناقضات، تبعا للظروف والأحوال: ففيها الترف والغنى والفراغ، من ناحية، وفيها التشرد والنفي والسجن، من ناحية اخرى، وفيها الحقد والدسائس والدجل والخداع، من ناحية ثالثة. وقد صور الشعر كل ذلك، ورسم اولئك الناس ـ باقلامهم ـ حياتهم العجيبة الغريبة،وتجاربهم التي ربما انفردوا بها، دون أن تخطر لسواهم ببال.

١ ـ الفراغ:

وهو عامل مهم، وتجربة يندر ان يجربها عامة الناس ولكن الطبقة العليا مبتلاة بهذا الوحش الذي لا سبيل الى القضاء عليه، ولذلك مال قسم من الحكام الى الشعر ينفقون في نظمه اوقاتهم ويبددون سأمهم، وضيقهم، فاولع قسم منهم بالوصف، فوصفوا مما يحيط بهم: الشمعة[٣]، والأترج[٤]، والفرس[٥]، والسوط[٦]، والتفاح[٧]، والسكين[٨]، والقمر[٩] وغيرها.

على حين اولع قوم بالمعارضات الشعرية، لا لشيء سوى تزجية اوقات الفراغ وقتل الوقت، كما كان يفعل شرف الدين ابن الوزير: فقد عارض قصيدتين لمهيار[١٠] احداهما ميميه،والأخرى قافية[١١]، وعارض ايضا قصيدة للأبيوردي[١٢] ولم ينص العماد على الغرض الذي نظم من اجله هذا الشعر سوى المعارضة. ومال فريق ثالث من هؤلاء

---

(١) انظر دراسة الحياة السياسية في الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) الخريدة ١ / ٩٨

(٣) نفسه ١ / ١٨، ١٥٤

(٤) نفسه ١ / ١٥٣

(٥) نفسه ١ / ١٥٢

(٦) نفسه.

(٧) نفسه ١ / ١٥٣

(٨) نفسه.

(٩) نفسه ١ / ١٢١

(١٠) مرت ترجمته في ص ٨٥

(١١) الخريدة ١ / ١٠٩، ١١٧

(١٢) هو ابو المظفر محمد بن ابي العباس احمد، الاموي، الشاعر، كان متبحرا في الأدب، خبيرا بعلم النسب. توفي سنة ٥٠٧ هـ، لا سنة ٥٥٧ هـ كما زعم ابن خلكان. المنتظم ٩/١٧٦، معجم الادباء ١٧/٢٣٤، وفيات الاعيان ٤/٧١، الوافي بالوفيات ٢ / ٩١

المترفين الى الأحاجي، والالغاز، والمعميات ينظمونها او يتبارون في حلها، ونال بعضهم شهرة في هذا المجال: فقد نص العماد على ان تاج الدين، شقيق الوزير عضد الدين، كان.. اكثر ميله الى اللغز والمعمى والأحاجي[1]، وقال صاحب الفوات: ان سعد الدين، الحسين بن شبيب الطيبي[2]، كان مقداما في حل الالغاز[3].

وعندي ان افراط هؤلاء الزعماء في ادعاء الغرام، وشكواهم من فرط الجوى، ووصفهم لما يعانون من سهاد وارق في غزلهم، لا يمكن فهمه الا على افتراض انه نظم قتلا للوقت، ودفعا لساعات ثقال لا تريد ان تتزحزح، والا فكيف نصدق شقيق الخليفة، حين يزعم انه يموت اسفا على حبيب نأى:

قد جَدّد الدهر في الوَرى مِحَناً	واودَعَ الدهر في الحَشا حَزَنا
لو كانَ شخص يموتُ من أسفٍ	على حَبيبٍ ناى، لكنت أنا[4]

٢ ـ السجن والاعتقال:

من الغريب ان ينفرد اثير الدين ابن عم الوزير عضد الدين بذكر السجن، ووصف ما كان يعانيه فيه، رغم ان السجن والاعتقال لم يكن من نصيب اثير الدين هذا وحده: فقد سجن كل من بهاء الدين بن حمدون الكاتب، صاحب ديوان الزمام، ايام المستنجد، ومات في الحبس سنة ٥٦٢ هـ[5]، كذلك سجن شاعر ابن هبيرة، مفلح بن علي الانباري، ومات في الحبس سنة ٥٦١ هـ[6]، كذلك نجد ان ولدي الوزير ابن هبيرة، قد سجنا بعد موت والدهما سنة ٥٦٠ هـ، وماتا في السجن، وهؤلاء كلهم من الشعراء، وكلهم من الطبقة العليا في المجتمع فاين شعرهم في السجن؟ ارجح ان شعر اثير الدين قد وصلنا، دون سواه، لانه قد خلا من اية اشارة الى اسباب سجنه، ولم يتعرض الى أحد ممن سجنه، على حين كان موت الآخرين في السجن، من اسباب اتلاف شعرهم: لان الغضب على فرد، في ذلك الزمن، قد يؤدي الى اتلاف جميع شعره[7].

---

(١) الخريدة ١ / ١٧٧

(٢) نسبة الى الطيب، بلدة كانت تقع بين واسط وخوزستان، وابن شبيب هذا كان بمنزلة النديم للخليفة المستنجد بالله، وولاه اشراف المخزن، توفي سنة ٥٨٠ هـ. الخريدة ١ / ١٨٧، فوات الوفيات ١ / ٢٧٦

(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٧٦

(٤) الخريدة ١ / ٣٦، وانظر ص ٩٩، ١٥٧: ابيات ابن عم الوزير: تجري دموعي...

(٥) نفسه ١ / ١٨٤

(٦) نفسه ٤ / ٣٠٢

(٧) الخريدة ٢ / ٥٤

ان شعرائير الدين في السجن، شعر دون المتوسط، من الناحية الفنية، ولكن اهميته تكمن في دلالته الاجتماعية، مثل معظم شعر الاغنياء المترفين، ومنه قول اثير الدين:

افـادني السجنُ منه عَقْـلاً ... لـعـقـلِه سـمـى اعـتـقـالا
لـكـنـه شَـفَّـنـي بِـغَـم ... غـادرني بـالضـنى خَـيـالا
يُضيء للعقـلِ كـلَّ شـيءٍ ... اذْ صرت من دقتي هِلالا[1]

٣ ـ التغرب والحنين الى الوطن:

عرف اثنان من امراء بني مزيد هما: الامير بدران بن صدقة المتوفى بمصر سنة ٥٣٠ هـ[2] والامير مزيد بن صفوان بن الحسن، المتوفى في الشام سنة ٥٨٤هـ[3]، عرف هذان الاميران بالحنين والتشوق الى موطن الاباء والاجداد في الحلة، بعد ان اضطرا الى مغادرة العراق قبيل نهاية سلطانهم السياسي سنة ٥٥٨ هـ، لاسباب اشرت اليها في مقدمة هذه الرسالة، قال بدران:

الا قُلْ لمنصـور، وقُـلْ لمسيّبٍ ... وقـلْ لِـدبيـسٍ إنّـني لَـغَـريـبُ
هَنيئـاً لكم مـاء الفـرات وطيبـهُ ... إذا لم يكن لي في الفرات نصيبُ[4]

وقال ايضا:

يـا راكـبـيـنَ مـن الـشّـآ ... مِ الى الـعـراق تَحسّـبـا لِي
إن جئتـمـا حـللَ[5] الـكـرا ... مِ ومركـزَ الأسَـلِ[6] الـطِّوالِ
قُـولا لـهـا، بـعـد الـسَّـلا ... مِ، وقَبـلَ تَصفيفِ الرِّحـالِ
مـالـي ارى الـسَّـعـدي عـن ... جيش الفتى المضـري خـالِ
والـقـبـة الـبـيـضـاء فـي ... نـقـصٍ، وكـانت فـي كَمـالِ
يـا صـدق، لـو صَـدَقـوا رجـا ... لـك مثل صـدقكَ في القتـالِ
أو يَـحـمِـلونَ عـلى الـيَـمـيـ ... ـن، كما حَملتَ على الشمْالِ

---

(١) نفسه ١ / ١٥٦
(٢) نفسه ٤ / ١٧٧
(٣) الشعر العربي في العراق ٢ / ٧٤
(٤) الخريدة ٤ / ١٧٢ ـ ١٧٣
(٥) الحلل: المنازل.
(٦) الاسل: الرماح.

دامـت لـهـم بـك دولـةٌ تسعى لها هِممُ الـرِّجالِ
عـربـيـة، بـدويـة تسمـو عـلى طـول اللّيـالـي
لـكـنـهـم لَـمـا رأوا يـومَ الـوَغى وَقـعَ العَـوالي[1]
فَـرُّوا، ومـا كَـرُّوا فَـتـبْـيـاً: لِـلعبـيـدِ ولِلمَـوالـي[2]

وقال مزيد:

فيـا دَهرُ، هـل بعدَ التفـرقِ رَجعةٌ؟ فَيَهتفَ بي للوصـلِ يا دهـرُ هـاتفُ
وتُسعـدني بـالقُـربِ بـين احـبَّتي وَتَجمعُني[3] «بـالجـامِعينَ» مَعَـارفُ

وبالرغم من شدة تعلق العراقيين، حتى اليوم، ببلادهم، حتى ان النازحين منهم الى الاقطار الاخرى قلة اذا قورنوا باخوانهم العرب الاخرين، ولكن مع وجود هذه الحقيقة، فان فكرة الوطن عند الاميرين المزيديين ـ كما تدل قطعة بدران الثانية ـ ارتبطت بالمجد والامال والمطامح، التي تلاشت كلها في ديار الغِربة، حتى ظهر على بدران اثر الفقر ـ كما نص[4] العماد ـ بعد ان كان اميرا ذا شأن.

د ـ شعراء العلماء:

ويمثل هؤلاء الطبقة المثقفة في المجتمع العباسي، فبينهم الطبيب، مثل هِبَة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ[5]، والنحوي المقرىء، مثل الحسين بن محمد المنعوت بالبارع المتوفى سنة ٥٢٤ هـ[6]، والعلامة الذي يجمع بين النحو، واللغة، وقراءة القرآن الكريم، ورواية الحديث الشريف مثل ابي اليمن زيد بن الحسن الكِندي الملقب تاج الدين المتوفى سنة ٦١٣ هـ[7]، والمؤرخ الواعظ، المحدث، ابو الفرج عبد الرحمن بن الجَوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ[8]، والعالم بالطب، والرياضيات، والهيئة، والنجوم،

(١) العوالي: الرماح.
(٢) الخريدة ٤ / ١٧٩ ـ ١٨٠
(٣) احدى مناطق مدينة الحلة مدينة الحلة الباقية حتى اليوم.
(٤) الشعر العربي في العراق ٢ / ٧٤
(٥) الخريدة ٤ / ١٧٧
(٦) تاريخ الحكماء ص ٢٢٢ (ط. السعادة)، عيون الانباء ٢ / ٣٠٦، وفيات الاعيان ٥ / ١١٩
(٧) المنتظم: ١٠ / ١٦ ـ ١٩، الخريدة ٢٣٠ نسخة ايران، معجم الادباء ١٠ / ١٤٧، وفيات الاعيان ١ / ٤٣٥
(٨) معجم الادباء ١١ / ١٧٢، وفيات الاعيان ٢ / ٨٧، غاية النهاية ١ / ٢٩٨
(٩) مرآة الزمان ٨ / ٤٨١، ذيل الروضتين ص ٢١ ـ ٢٧، وفيات الاعيان ٢ / ٣٢١، البداية والنهاية ١٢ / ٢٩

والرصد مثل هِبَة الله بن الحسين المعروف، بالبديع الاسطرلابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ[١]، وغير هؤلاء كثيرون.

وعلى الرغم من النص على ان بعض العلماء، عرفوا بقلة الشعر او ندرته، كأبي محمد عبد الله بن احمد، المعروف بابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ[٢]، وهبة الله بن علي، ابو السعادات، العلوي النحوي الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ هـ[٣]، اقول برغم ذلك، عرف بعض علماء هذه الحقبة بكثرة الشعر، حتى قيل ان شعر ابن الجوزي يصل الى عشر مجلدات[٤]، وكان لطائفة منهم دواوين، ومن هؤلاء: البديع الاصطرلابي، ومحمد بن مَواهِب الخُراساني[٥] المتوفي سنة ٥٧٦ هـ. وتاج الدين الكندي[٦]، والبارع[٧]. وجمع ابو الحسن، علي بن الحسن المعروف بـ (شميم الحلى) المتوفى سنة ٦٠١ هـ، من نظمه كتابا سماه الحماسة، ضاهى به حماسة ابي تمام الطائي[٨]، والف الطبيب البصري يحيى بن سعيد بن ماري المتوفى سنة ٥٨٩ هـ، ستين مقامة، ضاهى بها مقامات الحريري، احسن فيها واجاد، كما يقول صاحب معجم الادباء[٩].

ولا بد ان الباحث المؤرخ سيفرح، ويمني نفسه بالكثير، حين يطالع النصوص السابقة عن كثرة شعر العلماء ووفرته، ولكن تلك الفرحة سرعان ما تختفي، ويصدم المرء، حين يجد ان اكثرية شعر العلماء قد ضاعت، وان تلك الاكداس، والمجاميع الشعرية، لم تبق منها الا صبابة لا تبل الريق، ولا تزيد الظمآن الا عطشا، ولعل مما يضاعف حسرة المرء، ويزيد في تعاسته، ان يجد المؤرخين القدماء ـ سامحهم الله ـ ينعتون طائفة من العلماء بغزارة الشعر، وطول الباع في ميدان النظم، حتى اذا جئت الى الادلة والشواهد، والامثلة التي تسند تلك الاقوال، لم تجد الا سرابا، فعلى سبيل المثال، قال ابن كثير عن ابي بكر، المبارك بن سعيد الواسطي الملقب بالوجيه النحوي المتوفى سنة ٦١٢ هـ: له مدائح حسنة،

(١) معجم الادباء ٧ / ٢٤١ ط. ماركليوث الاولى، عيون الانباء ٢ / ٣٠١، وفيات الاعيان ٥ / ١٠١

(٢) الخريدة / نسخة ايران ٢٢٤، وفيات الاعيان ٢ / ٢٨٨

(٣) المستفاد و٧٧

(٤) مرآة الزمان ٨ / ٤٩٩، ذيل الروضتين ص ٢٤

(٥) معجم الأدباء ٧ / ٢٤٢ ط. ماركليوث الأولى.

(٦) ذيل الردختين ص ٩٧

(٧) وفيات الأعيان ١ / ٤٣٥

(٨) نفسه ٣ / ٢٦

(٩) معجم الادباء ٧/٢٩٦ ط. ماركليوث الاولى، وانظر: تاريخ الحكماء ص ٢٣٦ ط. السعادة، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٤، وقد وهم ابن تغري بردى اذ جعله بغداديا وهو بصري، ومقاماته الستون قد اعدها للطبع الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري، كما اشار في تعليقاته على الخريدة / قسم العراق. وفيات الأعيان ١ / ٤٣٥.

واشعار رائقة، ومعان فائقة، وربما عارض شعر البحتري بما يقاربه ويدانيه[1].. ثم لا يورد بعد هذا الكلام سوى خمسة أبيات لا تبل الغليل، وقال ابن الفوطي عن ابن الخراساني، السالف الذكر: علامة الزمان، في الادب والنحو، له خاطر كالماء الجاري، يقدر على نظم ما شاء في ساعة واحدة، وديوانه خمس عشرة مجلدة[2]، ثم لا يورد، من هذه المجلدات، سوى بيتين، وهكذا الامر في بقية من اشتهر بقول الشعر من العلماء.

ان بعض الاسباب، التي يوردها المؤرخون للتدليل على اسقاطهم لطائفة كبيرة من شعر بعض العلماء، قد تكون مقبولة، فمثلاً: لم يسلم من لسان هِبَة الله بن الفَضل، المعروف بابن القَطَّان المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، احد من الكبراء، ومنهم الخليفة نفسه[3]، ولذلك قال العماد عنه، له شعر كثير لم يدون[4]، وقال ابن خلكان عن البديع الاسطرلابي: وكان كثير الخلاعة، يستعمل المجون في اشعاره، حتى يفضي به الى الفحش، في الالفاظ، فلهذا اقتصرت له على هذه النبذة، مع كثرة شعره[5]. ولكن الباحث المحايد لا يلبث ان يجد طائفة من العلماء، لم ينص احد على انهم تعرضوا لذي منصب كبير، ولا انهم من الماجنين، ومع ذلك لا نجد من شعرهم الا اقل القليل، ومن هؤلاء: الوجيه النحوي، وابن الخراساني، السالفا الذكر، وكذلك ابن الجوزي، الواعظ الحنبلي المعروف.

وأرجح ان اشتهار العلماء، وانصرافهم الى علومهم التي عرفوا بها، كالطب، والفلك، والرياضيات، والنحو، واللغة، اضف الى ذلك ما شاع وذاع من ضعف وركة، قيل ان شعر العلماء لا يكاد يخلو منها، وهي المقولة التي رددها ابن قتيبة في القرن الثالث[6]، وتبعه القفطي[7] في القرن السابع، كل ذلك حمل النقاد والمؤرخين على الاهتمام بكتب العلماء وآرائهم في حقول اختصاصاتهم المختلفة، اما شعرهم وأدبهم، فكانوا يمرون به مرورا سريعا، مكتفين بالبيت او البيتين، على سبيل الطرافة والتفكه، وهكذا طويت عنا دواوين، وحجب في زوايا الغيب ادب، ربما كان في نشره واذاعته ما يغير كثيرا من المفاهيم، التي تتردد عن شعر العلماء.

ان الذي يهمنا من شعر العلماء، هو نفسه الذي اهمنا من شعر الطبقة العليا: لان الجماعتين ليستا من رجال الشعر المعروفين، الذين وقفوا حياتهم على تدبيج القصائد، وتجويد القول. ان شعر العلماء يصور حياة الطبقة المثقفة آنذاك، ويعبر عما كانوا يعانون

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٦٩

(٢) تلخيص معجم الالقاب: ق ٤ ج٣ ص ٣٧٣

(٣) وفيات الاعيان ٥ / ١٠٤

(٤) الخريدة ٢ / ٢٧٠

(٥) وفيات الاعيان ٥ / ١٠١

(٦) الشعر والشعراء ص ١٦ (ط. دار الثقافة الاولى).

(٧) انباه الرواة ٣ / ٢٦٧

ويكابدون، ! وكيف كان المجتمع ينظر الى العالم، وما نوع العلاقة بين العلماء وكبار رجال الدولة، ان علاقة بعضهم بكبار الحكام، كالخلفاء والوزراء، وترددهم المستمر على دار الخلافة، ومنازل علية القوم، قد يكشف لنا عن صحة او بطلان الصور الزاهية للحياة يومذاك، كما وصفها الشعراء المحترفون.

١ ـ **نقد الحكام وتعريتهم**: ان من يطالع دواوين شعراء الفترة المحترفين، ومنهم ابن التعاويذي، والابله البغدادي، ويقف على قصائدهم الطنانة، وتلك الصفات، والصور التي صوروا بها ممدوحيهم من رجال السياسة والادارة، كالخلفاء والوزراء، اقول ان من يقف على صورة رجال الحكم، كما ترسمها الاقلام المرتزقة، وتقدمها للناس في مثالية عجيبة، ثم يقرأ تلك النتف، والابيات القصار، التي يسددها العلماء الى اولئك الحكام، فيصفونهم على حقيقتهم، بعيدا عن الدجل، والتلفيق، وشراء الذمم، ان من يوازن بين الصورتين، يأخذه العجب مما تفعله الدراهم، فعلى سبيل المثال: نظم الابله اكثر من خمس عشرة قصيدة في مدح ابن هبيرة الوزير، ونظم معاصروه من الشعراء اكداسا من لشعر، كلها تكبر السيد الوزير، وتشيد بمآثره، واياديه الجسام، وما ناله الناس في ايامه من خير وبر، ولكن صورة هذا الوزير، ما تلبث ان تهتز في اذهاننا، إاذا وقفنا على ابيات البديع لاصطرلابي فيه:

قُصْوَى أمانيكَ الرُّجو ع الى المَساحي والنِّيَرْ(١)
مُتَرَبِّعاً وسطَ المَزا بل، وسطَ دور بَني أقَرْ(٢)
أو قائدا جَمَلَ الزُّبيـ ـدي(٣) اللعين الى سَقَرْ(٤)

وهذا الذي فعله البديع الاصطرلابي، يشبه ما فعله هبة الله ابن الفضل حين قال يهجو «خلقا من الاكابر» بينهم الخليفة نفسه، في قصيدة منها هذا البيت الساخر:

تكريت تُعجِزُنا، ونحن بجهلنا نَمضي لنأخذَ ترمذاً من سنجرِ(٥)

---

(١) النّيَرَ: واحدها: نِير وهو الخشبة التي تجمع بين ثورين عند الحراثة.

(٢) في وفيات الاعيان ٥ / ٢٧٤.

ان الوزير يحي بن هبيرة من قرية بني أوقر من اعمال دجيل.

(٣) لعله استاذ ابن هبيرة وهو ابو عبد الله محمد بن يحيى. الزبيدي الواعظ اذ ينص ابن خلكان انه كان يصحبه. والوفيات ٥/٢٧٤، وقال ابن خلكان: ان الشيخ الزبيدي كان كبير القدر وما انتفع الوزير الا بصحبته، وقد توفي سنة ٥٥٥. الوفيات ٥/ ٢٨٦

(٤) معجم البلدان: ٤ / ٩٨

(٥) وفيات الاعيان: ٥ / ١٠٩

٢ ـ كثرة التعليل، وذكر الاسباب: يخضع العلماء شعرهم لنظام دقيق من ربط المقدمات بالنتائج، والظواهر باسبابها، وهو صدى لتفكيرهم العلمي، وحياتهم القائمة على ان لكل شيء سببا، ولذلك نراهم، في شعرهم، يسارعون الى البرهنة على صحة ما يذهبون اليه من رأي، او فكرة، وكأنهم يتوقعون ان يناقشهم السامعون فمن ذلك قول هبة الله بن التلميذ الطبيب:

إذا وجدَ الشّيخُ في نفسه ... نَشاطاً، فذلكَ موتٌ خَفيْ
ألستَ ترى ان ضوءَ السراجِ ... له لهيبٌ قبلَ أنْ يَنْطَفِي؟[١]

فابن التلميذ ـ وهو الطبيب الخبير المجرب ـ يحذر الشيوخ من النشاط المفاجىء بانه ليس علامة صحة، بل بالعكس، وفي سبيل البرهنة على صحة هذه الدعوى عمد الى لهب السراج قبل ان ينطفي. وقال سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ:

قِيلَ لي: جاءكَ نجلُ ... ولد شَهمٌ وَسيمُ
قُلْتُ عَزّوه بِفقدي ... ولدُ الشّيخِ يَتيمُ[٢]

٣ ـ استعمال الالفاظ والاصطلاحات العلمية: قال صلاح الدين الصفدي: وكل من عاني النظم، وغلب عليه فن من الفنون، مال به الى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها في مقاصده الشعرية، وتخيلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن، واحكامه، الا ترى الى ابي الفتح البستي[٣]، ومقاطيعه المشهورة في الاداب، والحكم، كيف يغلب عليها الفاظ المنجمين[٤]. وقبل الصفدي اشار القفطي[٥] الى شيء من هذا الذي فصله صلاح الدين بعد ذلك. والمهم هنا: ان ألفاظ واصطلاحات العلوم المختلفة واصطلاحاتها، تكسب الشعر طرافة وجمالا، فيعذب ويحلو، ويخف على القلوب والاسماع، قال البديع الاصطرلابي، وكان عالما بالفلك ـ كما مر ـ

(١) معجم الادباء ٧/٢٤٦ (ط. ماركليوث الاولى)، عيون الانباء ٢/٢٨١، وانظر أيضا ٢/٢٨٣، وفيات الاعيان ٢/١٢٥.

(٢) الوافي بالوفيات ٨/١٤٣ «مصور».

(٣) هو علي بن محمد، الكاتب، الشاعر، المشهور، قال ابن خلكان انه: صاحب الطريقة الانيقة، والتجنيس البديع التأسيس. توفي ببخاري سنة ٤٠٠ هـ وقيل سنة ٤٠١ هـ. يتيمة الدهر ٤/٢٨٤ (مط. الصاوي)، وفيات الاعيان ٣/٥٨، النجوم الزاهرة ٤/٢٢٨، شذرات الذهب ٣/١٥٩

(٤) الغيث المسجم ١/١٨٩

(٥) انباه الرواة ٣/١٩١

كُنْ كيفَ شِئتَ، فإنّني قد صُغتُ قلباً من حَديدِ
وَقَعَدْت انتظر الكسو ف، وليسَ ذلكَ من بَعيدِ[1]

وقال:

تَقسّم قلبي في مَحبةِ معشرٍ بكلِّ فتىً منهم، هَوايَ مَنوطُ
كأنَّ فؤادي مركزٌ، وهُم لهُ مُحيط، واهوائي اليه خُطوطُ[2]

وقال ايضا:

وذو هيئةٍ، يزهو بخالٍ مهندَسٍ اموتُ به في كلِّ وقتٍ وأُبعَثُ
محيط بأوصافِ المَلاحةِ وَجهه كأنَّ به إقليدس يتحدّثُ
فَعارِضُهُ خطُّ استواءٍ، وخالُهُ به نقطة، والخدُّ شَكلٌ مثلثُ[3]

ان الفاظ: الكسوف، والمركز، والمحيط، واقليدس، والنقطة، وخط الاستواء، والشكل المثلث، تظهر بوضوح مهنة البديع الاصطرلابي، فلم يستطع ان ينساها، حتى وهو يتغزل.

وقال الطبيب هِبَة الله بن التلميذ:

اذا كنتَ مَحموداً فانَّكَ مرمِدٌ عُيونَ الوَرى، فاكحلهم بالتواضعِ[4]

٤ ـ **الغربة والحنين الى الوطن**: اضطر قسم من العلماء الى ترك بلادهم، والنزوح الى الاقطار المجاورة، بسبب الاوضاع الاجتماعية، والسياسية السيئة التي اشرت اليها في مقدمة هذه الرسالة، وكان العالم العراقي ـ آنذاك ـ يمثل عملة نادرة، ولذلك كان العراقيون، يقابلون بالاكبار اينما حلوا، قال صاحب الروضتين يصف مكانة تاج الدين الكندي في دمشق: ان اولاد الملوك، كانوا من طلابه، وخدامه، وكان يحضر مجلسه للقراءة والسماع منه في داره: جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين. كأبي الحسن السخاوي[5]، ويحيى[6] بن مَعْطي[7]. اما ابو المظفر، محمد بن اسعد الحنفي البغدادي

---

(١) عيون الانباء ٢ / ٣٠٢
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢ / ٣٠١
(٤) نفسه ٢ / ٢٨٣

(٥) هو ابو الحسن علي بن محمد، المصري، المقري، النحوي، الملقب عَلمَ الدين، قال ابن خلكان: رأيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع لاجل القراءة، ولا يصح لواحد منهم نوبة الا بعد زمان. توفي سنة ٦٤٣ هـ بدمشق. وفيات الاعيان ٣/ ٢٧، بغية الوعاة ص ٣٤٩، معجم المؤلفين ٧ / ٢٠٩.

(٦) هو ابو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور، الملقب زين الدين: كان احد أئمة عصره في النحو واللغة. توفي بالقاهرة سنة ٦٢٨ هـ. وفيات الاعيان ٥/ ٢٤٣، بغية الوعاة ص ٤١٦، شذرات الذهب ٥/ ١٢٩، معجم المؤلفين ١٣/ ٢٠٩.

(٧) ذيل الروضتين ص ٩٥

الواعظ المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، فقد بنى له صاحب دمشق مدرسة ليعظ بها[١]. ومن الطبيعي ان يشتاق هؤلاء العلماء الى بلادهم مهما كانت الظروف المحيطة بهم، وقد صور شعرهم هذا الشوق، ورسم تعلق العراقيين ببلادهم، وحنينهم الى ايام الصبا، ومرابع الحداثة.

قال الفقيه ابو علي محمد بن عبد الله البغدادي، المتوفى ببلخ سنة ٥٤٨ هـ يشتاق الى جَرْجَرايا[٢]:

على تلك العِراصِ بِجَرْجَرايا ... من الانواءِ انواع التحايا
دِيارٌ كنت آلفُها، وأغشى ... بها هيفاءَ، واضِحه الثَنايا
فَغَيَّر آيَها صَرفُ اللَّيالي ... وَبَدَّلَ اهلَها بالقُرب نايا
غَدَتْ ايّامُها سوداً، وكانَتْ ... لَيالينا بها بيضاً وِضَايا[٣]

وقال عبد الرحيم بن الاخوة، البغدادي، المتوفى بشيراز سنة ٥٤٨ هـ:

أخَويّ بالزَوراءِ، جادَكُم الحَيا ... هَلِ الملتقى بعدَ النأي مُتَدانِ؟
وهَلْ بعدَ أن شَطّتْ بنا غُربةُ النَّوى ... تلاقٍ، وهَل بعد الجَفاءِ تَجانِ؟
تَرَحّلت عنكمْ، والشَّبابُ بمائهِ ... فَشَيَّبني هِجْرانكُمْ، وَحَناني
وَقيّدني عنكم أصاغِرُ صِبْيةٍ ... توزَّع قَلبي شانهُم وَعناني
اذا هَزّني عَزْمي اليكُم أهابَ بي ... تعهّدهم، فاعتاقني وثَناني
فانشد نفسي قولَ صخر[٤]، وانطوى ... على كَمَدٍ، يحكي شَباةَ[٥] سِنانِ
«اهمُّ بامر الحزمِ ـ لو أستطيعُه ـ ... وقد حِيلَ بين العِيرِ والنَّزَوانِ»[٦]

٥ ـ **الاحاجي، والالغاز، والمعارضات**: كما شغفت الطبقة العليا بالاحاجي والالغاز، ومعارضة قصائد مشهورة ـ كما اشرت قبل صفحات ـ قتلا للوقت، وترفيها عن النفس، وربما ايضا اثباتا للقدرة على نظم الشعر، كذلك فتن العلماء بهذه «الالعاب» بسبب صلتهم برجال الطبقة العليا، ! وحرصهم على مجاراة السادة الكبار فيما يحبون، ويولعون اذ يبدو ان الغرام بالاحاجي، والشعر المعمى، اصبح دليلا على ان ناظمه

(١) الوافي بالوفيات ٢ / ٢٠٣
(٢) من نواحي واسط، كما في معجم البلدان ٣ / ٨٠
(٣) الخريدة / نسخة ايران ١٨١
(٤) صخر: لم اتوصل الى معرفته، وكذلك لم اقف على بيته الذي ضمنه ابن الاخوة.
(٥) الشباة: طَرفَ السنان.
(٦) الخريدة / نسخة ايران ٢٠١، العير: الحمار. النزوان: الوثب.

يواكب كل مستطرف في عالم الشعر. وقد تكون مقامات الحريري ـ وقد نالت لمدة نيفت على سبعة قرون تقديرا يلي القرآن الكريم[١] ـ هي السبب في تسابق الكثيرين نحو الاحاجي والالغاز، لاحتوائها على الغاز في النحو[٢]، والغاز في الفقه[٣]، والغاز في غير هذين الميدانين. وهكذا رويت الغاز للبارع[٤]، ولابن الخشاب[٥]، وللطبيب هبة الله بن التلميذ[٦]، ولابي الفرج بن التلميذ[٧]، اما الطبيب محفوظ بن المسيحي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ، فقال العماد انه كان «لهجا بالالغاز، ولما يسمعه من ذلك شديد الاهتزاز. .»، ثم ذكر له الغازا في العقل، والرمانة، وكيزان الفخار، والناي[٨].

وكان ابو نزار ـ المعروف بـ ملك النحاة ـ مولعا بالمعارضات كي يثبت انه متفوق على مشاهير القدماء، حتى روي انه قال: هل سيبويه الا من رعيتي، وحاشيتي، ولو عاش ابن جني لم يسعه الا حمل غاشيتي[٩]. وقد وضع ابو نزار مقامات على غرار مقامات الحريري، قال عنها: «مقاماتي جد، وصدق، ومقامات الحريري هزل، وكذب»[١٠]، وقد عارض ابو نزار ميمية مهيار التي فيها يقول:

فـابعَثـوا اشبـاحَكم لي في الكَـرى ... انْ أرَدْتُمْ لِجفوني أنْ تَـنـامـا[١١]

كما عارض حائية ذي الرمّة بقصيدة، يقول فيها:

واين من الهِيفِ النّـواعمِ مـا هَفَتْ ... إليـه جِهاتٌ من فؤادِكَ تَـطْمحُ؟
سَقى الجزْعَ ما روّى رُباهُ مُجَلْجِلٌ[١٢] ... هَتونُ الغَوادي[١٣] بـرقُهُ يَتوضَّحُ[١٤]

---

(١) المدخل في الادب العربي ص ١٢٠
(٢) انظر: المقامة القطيعية والنحوية.
(٣) انظر: المقامة الطيبية او الحربية.
(٤) الاعجاز للحظيري ص ١٢٢
(٥) معجم الادباء ١٢ / ٥٢
(٦) الاعجاز ص ٣١
(٧) نفسه ص ٤٤
(٨) الخريدة ٤ / ٤٩٨ـ ٥٠١
(٩) بغية الوعاة ص ٢٢٠، الغاشية: غطاء السرج.
(١٠) انباه الرواة ١ / ٣٠٩ حاشية «١».
(١١) في الديوان ٣ / ٣٢٨ (وابعثوا. . . إن اذنتم. .).
(١٢) مجلجل: اي سحاب راعد.
(١٣) الغوادي: واحدتها الغادية: السحابة التي تنشأ صباحا.
(١٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٤٠ـ ٢٤١

الفصل الثالث

الشعرُ المحَافظ .. أشهَرأغراضُه

١ ـ المدح:

لا يختلف القرن السادس عن القرون السابقة من ناحية كثرة شعر المدح، قياسا الى الاغراض الشعرية الأخرى، كذلك وجد في هذا القرن ـ كما هو الحال في الماضي ـ بعض الشخصيات التي عرفت بتشجيعها للشعراء، وبذلها الاموال بسخاء من اجل الذكر الحسن، والقصائد الطنانة ولذلك استقطب هؤلاء قصائد الشعراء، وقيلت فيهم معظم قصائد المدح المشهورة.

ومن الطبيعي ان يكون الخلفاء في طليعة مشجعي الشعراء، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله، والوزير يحيى بن هبيرة، ثم صلاح الدين الايوبي، ووزيره القاضي الفاضل، وكذلك وزير الموصل محمد بن علي المتوفى سنة ٥٥٨ هـ، وهو المعروف بالجواد ـ كما يقول ابن خلكان[١].

ولعل وجود طائفة من الشعراء يسمون «شعراء الديوان»[٢] خاصين بديوان الخلافة، مما يدل على اهتمام الخلفاء بالشعر والشعراء، اضافة الى الاخبار والروايات الكثيرة التي تدل على اكرام الخلفاء للشعراء، ومنها: ان المستضيء اعطى الحيص بيص ٣٠٠ دينار وخلعة ودارا، واقطعه ضيعة من اجل أبيات لا تزيد على خمسة مدحه بها[٣]، واعطى هذا الخليفة نفسه للنحوي المعروف بابن الخشاب مائتي دينار من اجل بيتين من الشعر، وقال: «لو زادنا زدناه»[٤]، أما الوزير ابن هبيرة فقد قال عنه العماد انه: «رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه احد، وأجاز عليه، وقد جمعت القصائد التي مدح بها فزادت على مائتي الف بيت[٥]». وقال ابن خلكان عن صلاح الدين الايوبي: «ومدحه جميع شعراء عصره،

---

(١) وفيات الأعيان ٤ / ٢٢٨.
(٢) ابن الدبيثي و ٥٤، ٢٦٤، الجامع المختصر ٩ / ٦٩، الوافي ٢ / ١٠١، ٢ / ١١٩، نكت الهميان ١٢٤.
(٣) الخريدة ١ / ٣٣٠.
(٤) شذرات الذهب ٤ / ٢٢١.
(٥) الخريدة ١ / ٩٨

وانتجعوه من البلاد[1]. . » وكان ابن التعاويذي يسير قصائده اليه من بغداد، فتصل الى القاضي الفاضل، ومعها مديح للفاضل، وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين[2].

عوامل أثرت في المدح:

يذهب الدكتور شوقي ضيف الى ان البواعث والحوادث الهامة، مما يدفع الشاعر الى التجويد والابداع، ويعطي شعره حدة أو قوة[3]. وهذا الذي يقوله الاستاذ الكريم، هو الذي اضفى على طائفة من المدح في القرن السادس مسحة من الجدة، وبث فيه حياة وقوة، تحمل الباحث على الوقوف والتأمل والاعجاب، اذ وجد الشعراء في اشخاص بعض الممدوحين والأحداث المحيطة بهم، حوافز كبيرة ألهمتهم افكارا وصورا، كان يظن ان لا سبيل اليها بعد ان شاخ شعر المدح وهرم.

١ - كانت الحروب الصليبية والصراع بين الفرنج والعرب، أو بين الاسلام والمسيحية، وموقف الخليفة من الحرب التي كان يقودها صلاح الدين، كل ذلك ترك اثره في مدح ابن التعاويذي لصلاح الدين، حين قال:

ونَهضت للاسلام نهضة صادق الـــــــ عزمات، ترأب[4] من ثآه[5] وتشعبُ[6]
وَغَضبت للدينِ الحَنيفِ، ولم تـزَلْ في اللهِ تَرضى، منذُ كنت، وتَغضبُ
غـادَرتَ اهـلَ البغي، بينَ مُجـدَّلٍ لَقِي الـحِمـامَ، وخـائفٍ يَتـرقَّـبُ
او هـارب ضاقت عليه بِرَحبها الـ أرض الفضاء، واين منك المهرَبُ؟
فاصبحْ بلادَ الرومِ منـكَ بغـارةٍ لـلنصـرِ فـيهـا رائـد لا يـكـذبُ
وانكـح صَوارمَـك الثغـور، يَـزورُها - في كل يوم من جيوشكَ - مِقنبُ[7]
. . . الخ[8].

وقد حذف منها جامع الديوان الأبيات التالية:

وارم ِ الكنائسَ من شظاك بِمـارجٍ[9] مُـتـأجّـجٍ، نيـرانـهُ تـتـلهَّـبُ
وارفـع بـهـا للمسلميـنَ مَـنـابـراً باسم الخليفةِ، ثم باسمكَ يُخطَبُ

(١) وفيات الأعيان ٦ / ٢١٠.
(٢) نفسه ٦ / ١٦٢.
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٧٤.
(٤) تراب: تصلح.
(٥) ثآه: الثأي: أراد بها الجانب أو الكنف.
(٦) تشعب: تصلح.
(٧) المقنب: الجماعة من الخيل.
(٨) الديوان ص ٢٥
(٩) المارج: الشعلة ذات اللهب الشديد المختلط بسواد النار.

واسق الجيادَ من الخَليج ، فَوِرْدُهُ		يدنو عليك - اذا عَزَمْتَ - وَيقْربُ
مَلحتْ مواردُهُ، واقسِمْ أنَّها		من نيل مِصر، في مَذاقِكَ، أعذبُ
واقرعْ بحَيّ على الفَلاحِ مَسامعاً		تَصبو، اذا ذُكِرَ الصليبُ، فتطربُ
لا تُبقِ زنَّاراً. يشدُّ بها على		عِلجٍ، ولا ناقوسَ دَيرٍ يضربُ
واصمد لحربِ المشركينَ، مهذِّباً		بالسيفِ مَنْ بسواهُ لا يَتَهذَّبُ[1]

ان عاطفة الشاعر الدينية، واعجابه بموقف صلاح الدين في الدفاع عن الاسلام هي التي اكسبت القصيدة قوة، وبثت في ابياتها روحا، حتى كدنا ننسى ان هذا الشعر قد غبرت عليه قرون.. وقد كرر الشاعر فكرة الدفاع عن الاسلام والذود عن حماه في اكثر من قصيدة من مدائحه لصلاح الدين: فقال من قصيدة نص الديوان انه نظمها سنة ٥٧٤ هـ:

حامي ثغور الاسلامِ بالهندوا[2]		نيّاتِ والضمرِ السَراحِيبِ[3]

ومنها:

رَأبْتَ شِعَبَ[4] الدنيا، وكانَ ثأي الـ		اسلامِ لَولاكَ غير مَشْعوب[5]

وقال من قصيدة اخرى:

جهادُ مَنْ لم يَبقَ يوماً له		في نَصْرِ دينِ اللهِ، مجهودُ
ومَنْ تبقّاهُ الرّدى منهمُ		في الاسرِ مكْبولٌ ومصفودُ[6]

ويلاحظ ان جامع الديوان ومحققه، يشير هنا الى انه قد ترك خمسة أبيات «لعدم المنفعة فيها»، وكذلك فعل في مكان آخر من الديوان[7].

ومن حسن الحظ ان الأبيات المحذوفة في هذا المكان الثاني، قد اثبتها صاحب «مضمار الحقائق»، وفيها يهاجم الشاعر المسيحية، ويحرض صلاح الدين على هدم الكنائس، والقضاء على اصحاب الزُنّار والصليب. وبذلك يتضح ان حذف تلك الأبيات، لم يكن لعدم المنفعة - كما يقول ماركليوث - وان اصول التحقيق والحياد العلمي، لا يقران هذا الصنيع.

---

(١) مضمار الحقائق: ص ١٩٤.
(٢) الهندوانيات: السيوف.
(٣) السراحيب: الخيول الطويلة.
(٤) الشعب: الصدع أو الشق.
(٥) الديوان ص ١٩، ٢١، غير مشعوب: لا مصلح له.
(٦) الديوان ص ١١١.
(٧) ص ٢٥.

٢ ـ والحدث الهام الثاني الذي ساعد على تجديد المدح وتنوعه، هو عودة الخطبة للعباسيين بمصر، بعد انقطاع ايام الفاطميين دام اكثر من مائتي سنة، وهو حدث عظيم الأهمية ايام المستضيء، واعتبر من مناقب هذا الخليفة وانجازاته، ومن اكبر ما قدمه صلاح الدين للخلافة العباسية، قال ابن خلكان: «ولما خطب للمستضيء بامر الله بمصر، ارسل نور الدين[١] اليه يعرفه ذلك، فحل عنده اعظم محل، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صَنْدَل[٢] المُقْتفوي، اكراما له، لان عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك ايضا سير خلعا لصلاح الدين.. وسيرت الاعلام السود[٣] لتنصب على المنابر[٤]» وقد مر بنا ان ابن الجوزي الف في هذا الموضوع كتابا سماه «النصر على مصر»[٥].

واكثر الشعراء من نظمه والاشارة اليه عند مدح الخليفة المستضيء، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، أذكر هنا قصيدة لعماد الدين الاصفهاني[٦] واخرى لأبي عبد الله الحسين بن شبيب[٧]، وثالثة للأبله البغدادي[٨] اما ابن التعاويذي، فقد ذكر الحادث في اكثر من اربع قصائد من مدائحه للمستضيء، وراح يعيده ويكرره ويدور حوله ويتناوله من زوايا متعددة وفي مناسبات مختلفة، حتى يخيل للقارىء ان عودة الخطبة للعباسيين أهم من انتصار صلاح الدين على الصليبيين، وتحرير الأرض المقدسة، ففي اولى قصائد الديوان قال:

وأطاعَتْكَ أَرْضُ مصر، ومِصرٌ   حِينَ تُدعَى، وَحْشِيَّةٌ عَصْماءُ[٩]
واستقادَتْ ـ بَعْد الشَّماس[١٠] ـ وقدأسـ   ـمَعَهَا بالعِراقِ منكَ النِّداءُ
واغتَدَتْ خِطَّةُ الصَّعيدِ، تُذيبُ الـ   ـصخرَ أنفاسُ اهلِها الصُّعَداءُ
انكحتها بيضَ الصَّوارمِ غارا   تُكَ، وهي العَقيلةُ العَذْراءُ
ذَخَرتَها لكَ اللَّيالي، وكَمْ حا   مَتْ عَليها من قَبلكَ الخُلفاءُ
مَلَّكَتْها يَداكَ، واللهُ يُؤتي   مُلْكَهُ مِنْ عِبادِهِ مَنْ يَشاءُ[١١]

وفي قصيدة ثانية قال:

---

(١) نور الدين محمود.. بن زنكي: انظر الفصل الأول ص ٩ هامش ٢.
(٢) عماد الدين صنْدل المقتفوي: نسبة الى سيده الخليفة المقتفي لأمر الله. كان استاذ دار الخليفة المستضيء، توفي سنة ٥٩٣ هـ. دليل خارطة بغداد ١٩٥ـ ١٩٦.
(٣) هي اعلام العباسيين.
(٤) وفيات الأعيان ٦ / ١٥٨.
(٥) أنظر: الفصل الأول ص ٩.
(٦) الخريدة ١ / ١٣ـ ١٤.
(٧) نفسه ١ / ١٨٩، وقد مرت ترجمة ابن شبيب ص ٩٦ هامش ٢.
(٨) ديوان الأبله و ٧.
(٩) عصماء: يصعب الوصول اليها.
(١٠) الشماس: الصدود والامتناع.
(١١) الديوان ص ١ـ ٢.

ولـولا الامـامُ المستضيء، ورأيـهُ تَداعَتْ قوى الاسلام وانثغر الثَغْـرُ
بـه ايَّـدَ اللهُ الخـلافـةَ، بَعْــدَمَـا تفاقَمَ داءُ البَغي، واستفحلَ الشَّرُ
فَمَن مُبلغ تحت التراب ابنَ هانىءٍ[1] وقبرَ المُعزِّ[2]، إنْ اصاخَ[3] له القبرُ
بأنَّ الحقوقَ استرجعتْ في زمانِـهِ ـ على رغم من ناواه ـ وافتتحتْ مصرُ
وانَّ الليالي الدهم[4] بالجَور اشرَقتْ على إثرها بالعَدْلِ، ايامُه الغرُّ[5]

ان من يطالع هذه المقاطع من قصائد ابن التعاويذي في الخليفة، يخيل له ان المستضيء قد جهز الجيوش، واعد الخطط، وخاض المعارك حتى اذعنت له مصر، بعد ان عجز عنها من سبقه من الخفاء رغم محاولاتهم المستمرة.

والواقع ان الخليفة لم يبذل اي جهد لاسترداد مصر، ولكن صلاح الدين هو الذي قرر الخطبة لبني العباس في مصر، بغضا منه للفاطميين، والشاعر يعرف هذا جيدا، ومع ذلك ـ ارضاء للخليفة وتملقا له ـ راح يزعم ويردد بان صلاح الدين لم يكن سوى عامل من عمال الخليفة او قائد من قواده كلف بمهمة فأنجزها. قال مشيرا الى خلع الخليفة التي ارسلها الى صلاح الدين:

مِمـا تَخيّـرهُ الخليفــةُ مِنحَــةً لكَ فاصطفاهُ، كفاءُ ما تستوجبُ
ألفـاكَ خيرَ مَن ارتضـاه لِمُلكهِ يقظانَ، تَسهرُ في رِضاه، وتَدأبُ
وَرآكَ اســرَعهم الـى الاعــداء اقداماً، وغَيركَ محجم،مُتَهيِّبُ[6]

وقال من قصيدة أخرى:

سَيف اميـرِ المؤمنينَ الـذي لـواؤه بـالـنصـر مَـعقـود
مَلَّكـه الـدنيـا، ففي كفِّـهِ ـ نِيـابـةً عنـه ـ المَقـاليـدُ
نِيـابـة في راحتيـه بهـا عـهـد من اللهِ وتَـقـليـدُ[7]

---

(١) ابن هاني: مرت ترجمته في الفصل الثاني ص ٨٥ هامش ٦.
(٢) هو المعز لدين الله الفاطمي، واسمه معد. توفي في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ. المنتظم ٨٢/٧، تاريخ ابن الاثير: ٢٣٩/٨، وفيات الأعيان ٤ / ٣١٢، شذرات الذهب ٣ / ٥٢، الأعلام ٨ / ١٧٩.
(٣) أصاخ: أصغى.
(٤) الدهم: السود.
(٥) الديوان ص ١٧٦، وانظر الوفيات ٦ / ١٦٠.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦.
(٧) نفسه ص ١١٠.

وهكذا استطاع الشاعر ان يجدد ويطور في مدح الخليفة، عن طريق استخدام ثقافته وخياله، ولم يقف عند معاني المدح القديمة المعروفة: من ان الخليفة امل العفاة، وابن عم الرسول ﷺ، والشجاع الذي يلوذ به الفرسان.

٣ ـ والعامل الثالث الذي كان له أثره في شعر المدح هو «تحزب الشعراء لرجال السياسة».

ان اثر هذا العامل يبدو واضحا عند دراسة دواوين شعراء المدح الكبار ومنهم ابن التعاويذي والابله البغدادي. ان ديوان الشاعر الاول، ليس فيه سوى قصيدة واحدة في مدح الوزير يحيى بن هبيرة، وقد نص[١] فيه على انه لم ينشدها اياه، وهو امر يلفت النظر، ويدعو الى الدهشة: لان ابن هبيرةهو اشهروزراء القرن السادس، وبقي في الوزارة اكثر من ست عشرة سنة، وقد مر بنا قول العماد عنه انه: رزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد[٢]، فلماذا كاد ديوان ابن التعاويذي ان يخلو من مدح الوزير الشهير، وهو الذي مدح حتى اصحاب الحمامات[٣]؟ اما ديوان الابله فهو حافل بمدائح ابن هبيرة.

ان الباحث لا بد ان يلاحظ العداء الشديد بين ابن هبيرة، وابن رئيس الرؤساء، وقد امتد ذلك الى انصارهما من الشعراء، ويؤيد هذا الابيات التي هجا بها ابن عم الوزير عضد الدين عدوه ابن هبيرة[٤]، كما أن ابن التعاويذي «اهين وظن الناس به الظنون»، كما ينص الديوان[٥]، لاتصاله وعلاقته بابن رئيس الرؤساء. وقد وصف الشاعر ما أصابه بعد نكبة الوزير، فقال:

وَقائلةٍ: ما لي رأيتـك مُعْدَمـاً؟ ... ومِثْلكَ لا تَخْشى الكَسَادَ بَضائعهْ
فَقلت: الذي كنا نعيشُ بفضلهِ ... ونحنُ مَوالي جودهِ، وصَنائعهْ
رَمتـه الليالي عن ذَخـائِر مـالـهِ ... يفادح خَطبٍ، مسلَم مَن يقارعهْ
فَلاَ تَعْجَبي من سوءِ حالي، فانّهُ ... اذا غاضَ[٦] ماءُ البحرِ ماتَتْ ضَفادِعُهْ[٧]

ومن الطبيعي ان يمتد اثر تحزب الشعراء لرجال السياسة الى الاغراض المتصلة بالمدح كالعتاب والاعتذار. ففي سنة ٥٧٠ هـ حدث خصام بين بيت رئيس الرؤساء ـ وهم حماة الشاعر ابن التعاويذي ومواليه ـ ومتنفذ كبير في بلاط الخليفة هو قطب الدين

---

(١) ص ٣٤٤.
(٢) الخريدة ١ / ٩٨.
(٣) الديوان ص ٤٤٩.
(٤) الخريدة ١ / ١٥٦.
(٥) الديوان ص ٣١٩.
(٦) غاض الماء: نقص أو نضب.
(٧) الديوان ص ٢٦٨ـ ٢٦٩

قايماز[١]، فرجحت كفة هذا الاخير، واضطر جماعة الشاعر الى الهرب من بيوتهم. ولكن الشاعر لم يشارك مواليه في شدتهم كما شاركهم ايام السعادة، ولذلك كتب الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين يعتذر، قائلا: انه شاعر يصلح للرخاء، لا لايام الشدائد:

يا عِمادَ الدينِ، يا يا اكـــ ... رم مَنْ تَحْتَ السَّمـاءِ
يـا اجـلَّ النـاسِ قَـدْراً ... وابـنَ خـيـرِ الـوُزَراءِ
إنْ تَـأخـرْتُ، فَقَـدْ قَـد ... ـدمت في الليـلِ دُعـائي
أو تَـثـاقلت عـنِ السيـ ... ـرِ، فَقَـدْ سـارَ ثَنـائي
انـا لا اصـلح لـلشـد ... دَةِ، لـكـنْ لـلرَّخـاءِ
انـا لا أحـضـر إلاّ ... فـي مَـواقـيتِ الـهَـنـاءِ
حـالـة دلَّتْ على ضعـ ... ـفِ قـلوبِ الشُّعَـراءِ[٢]

وينص[٣] الديوان أنه في سنة ٥٧١ هـ مدح الشاعر بعض الاكابر ممن بينه وبين الوزير مباينة، فوجد عليه وانقبض عنه فاعتذر اليه في هذه القصيدة:

ابـثكـم أني مَـشـوقٌ بكـم صبٌّ ... وان فؤادي لـلأسى بَعـدكُمْ نهْبُ
تَنـاسَيتُمْ عَهـدي كـأني مـذنِبٌ ... ومـا كـانَ لي لـولا مَـلالُكُم ذَنبُ
وقد كنتُ أرجو ان تكونوا على النَّوى ... كمـا كُنْتُمْ ايـامَ يَجْمَعُنَـا القُـرْبُ

... الخ.

وفي الديوان اكثر من مقطوعة وقصيدة يعاتب فيها الشاعر مواليه آل عضد الدين اكتفي بالاشارة الى بعضها[٤].

المدح بين التطور والجمود:

قبل دراسة المدح في القرن السادس، لا بد من اشارة الى ان هذا الفن لم يعد مقصورا على الشعراء المحترفين المشهورين كابن التعاويذي والابله والحيص بيص، بل نجد في هذه الحقبة مدحا ينظمه ابناء الوزراء[٥]، والامراء[٦]، كذلك نظم العلماء

---

(١) كان قائد الجيش في خلافة المستضيء. أنظر: الفصل الأول ص ٢٦.
(٢) الديوان ص ١٣.
(٣) نفسه ص ٣٠.
(٤) نفسه ص ١٣، ٤٣، ٤٤.
(٥) الخريدة ١ / ١٠٢.
(٦) نفسه ٤ / ٥٤٨.

شعرا في المدح كما فعل ابن الشَّجري[1]، والبارع[2]، وعبد الرَّحيم بن الاخوة البغدادي[3].

ويلاحظ ان الذين ينظم فيهم شعر المدح ليسوا رجال السياسة الكبار كالخلفاء والوزراء وحدهم، بل نجد في هذه الحقبة مديحا نظم في النساء[4]، ومديحا نظم في العلماء[5]، ومديحا نظم في صاحب حمام[6].

وغني عن البيان ان هذه الدراسة تعنى بشعر المدح الذي نظمه الشعراء المحترفون الكبار، للحصول على الجزاء المادي من كبار رجال العصر وقادته.

ظل شعر المديح في هذ الحقبة، بصورة عامة، محافظا على تقاليد هذا الفن الموروثة من ناحيتي الشكل والمضمون، وكذلك في البناء العام لقصيدة المدح.

فمن الناحية الشكلية:

بقيت المقدمة الطلليه تتصدر معظم قصائد المدح، وخاصة مدح الخلفاء، بعد ان مال الشعراء فيها الى سهولة اللغة ولينها، واسقطوا الحوشي والغريب من الالفاظ. على ان الشاعر قد يحذف هذه المقدمة ويبدأ بالغرض الاصلي مباشرة، خاصة اذا كانت المدحة قد نظمت اثر حادث كبير مهم، ولكن هذا ليس قاعدة مطردة، فقد مر[7] ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالغزل في مدح المستضيء بعد عودة الخطبة للعباسيين في مصر، وهو من اكبر الاحداث كما اشرت.

وكان ذوق العصر يميل الى تطويل المدائح، ولعل الابله البغدادي من بين شعراء المدح الكبار الذين تتصف مدائحهم بالاعتدال في الطول، اذ يتراوح عدد ابيات قصيدته بين ٣٠ و٣٥ بيتا، ويندر ان تتجاوز الاربعين. اما ابن التعاويذي والحيص بيص فالطول هو الغالب على مدائحهما، وخاصة الاول اذ تصل بعض مدائحه الى اكثر من مائة بيت[8].

وفي سبيل الوصول بقصيدة المدح الى الطول المطلوب، راح كل من الشاعرين يلجأ على طريقته او طرقه الخاصة. فالحيص بيص يطيل في مقدمات مدائحه من فخره بنفسه وبقومه، حتى يصل ـ احيانا ـ بهذه المقدمة الى حوالي ٢٥ بيتا، ثم يبدأ

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٩٨.
(٢) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٣.
(٣) نفسه ٢٤٤.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦، الخريدة ١ / ١٥٨.
(٥) أنباه الرواة ٢ / ٣٢٦.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٩.
(٧) الفصل الأول ص ٩.
(٨) تنظر القصيدة الأولى في الديوان، ص ٣٠، ١٩٠، ٢٦٤، ٢٨٤، ٣٠٩

بالمدح[1]، واحيانا يعتمد على الوصف للوصول الى الطول الذي يريده لقصيدته: كأن يصف السيل وكيف يندفع ويكتسح كل من يقف في طريقه، زاعما ان الممدوح يشبه هذا السيل في كرمه وجوده[2]. اما ابن التعاويذي فطرقه لاطالة المدائح تختلف عن طرق زميله: فهو يطيل في المقدمة الغزلية حتى يصل بها الى ٣٠ بيتا أو اكثر[3]، واحيانا يلجأ الى القسم لتوكيد ما يزعمه للممدوح من صفات، ويفصل بين القسم وجوابه بعدة ابيات قد تزيد على عشر. فمثلا قال يمدح الناصر لدين الله من قصيدة، مطلعها:

يـا عَلْوَ أغْرَيتِ السُّهـاد بِنـاظِري   وَرَقَدْتِ عن ليلِ المُحبِّ السَّـاهِرِ

قال ـ بعد أن بدأ بالمدح ـ:

أوَ مـا وأمثـالِ القِسِّي لَـواعبِ[4]   مِنْ فَـوْقِ أمثالِ السِّهـامِ ضَوامِـرِ
هَجَروا ضِلالَ العَيشِ في أوطانِهِمْ   وَتَعَـرَّضوا لِسَمـائمٍ[5] وَهَـواجِـرِ[6]
مِنْ كُلِّ اشعثَ في الرِحَالةِ[7] مُخْلصٍ   للهِ أوّابِ الـيـهِ مُـهـاجِـرِ
ظمآن يَقْـذِفُ نفسَـهُ، مُسْتَشْعِـراً   خوفَ القيامةِ في الهَجيرِ الواغِرِ[8]
يَـرمي بهِمْ أهْـوالَ كـلِّ تَنـوفَـةٍ[9]   عِيسى[10] كَخَيْطانِ[11] النَّعامِ النَّافِرِ
مِنْ كُـلِّ والعـةٍ[12] بِحِـرّتِها[13] إذا   ظَمئتْ تُعلّل بـالسَّراب السـاحِرِ[14]
وَجْناء[15] تحمل مِنْ هِضاب يلملم   رُكْنـاً، وتنـظُرُ مِنْ قَلِيبٍ[16] غـائِـرِ
يَـرْجُونَ مَـوقِفَ رَحْمَـةٍ تُلْقى بهـا   أعـبـاءُ أوزارٍ لَـهُـمْ وكـبـائِـرِ
والبُدْنُ خاضِعَةُ الرِّقـابِ دَوامِي الـ   لَّبَاتِ[17] تَفْحَصُ[18] في النَّجيعِ[19] المائرِ[20]
أخذتْ مَصارعَها الجَنوبُ، فَأسلَمتْ   منهـا النَّحـورَ الى شِفـارِ الجـازِرِ

---

(١) الديوان المصور: و ٢١، ٧.
(٢) الخريدة ١ / ٢٩١، وأنظر ايضاً: ١ /٢٦٨، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥١، ٢٨٢.
(٣) الديوان: ص ٦٣، ٣٠٩.
(٤) كذا بالأصل ولعل الصواب بالغين (لَواغِبُ)، وهي المُتْعَبة.
(٥) السمائم: الرياح الحارة.
(٦) الهواجر: مفردها هاجرة: نصف النهار في القيظ.
(٧) الرحالة: السرج من جلود لا خشب فيه.
(٨) الواغر: الشديد الحر.
(٩) تنوفة: بَرّيّة لا ماء فيها ولا أنيس.
(١٠) العيس: الابل البيض، يخالط بياضها سواد خفيف.
(١١) خيطان: جماعات.
(١٢) والعة: كاذبة.
(١٣) الحرة: العطش.
(١٤) الساحر: كذا بالأصل، ولعلها بالجيم (الساجر) اي الساخن.
(١٥) الوجناء: الناقة القوية.
(١٦) القليب: البئر.
(١٧) اللبات: الواحدة لبة: موضع القلادة في العنق.
(١٨) تفحص: تبحث بأرجلها.
(١٩) النجيع: الدم.
(٢٠) المائر: الجاري.

وَشَعائِرِ اللهِ التي عَظمت، وما ضَمنَتْهُ مكّةُ من صَفاً وَمشاعِرِ
والبيتِ والحرمِ المُطيفِ بِهِ، وما واراهُ مِنْ حُجبٍ لَه وسَتائِرِ
إنَّ الخَليفةَ خَيرُ مَنْ وَطِىءِ الحَصا مِنْ خَيرِ بادٍ في الأنامِ وَحاضِرِ[١]

ويبدو لي ان ابن التعاويذي، قد ضاق ذرعا بجميع المقدمات الجاهزة لقصائد المدح، ورآها بعيدة عن روح العصر. فكيف يصف رامة، ويقطع فيافي نجد، ويصف غزلان وجرة، وهو البغدادي المترف الذي لم تخطر العيس بباله الا حين يمدح خليفة أو وزيرا؟ ولذلك قرر ان يغامر فيبدأ احدى مدائحه بمقدمة «بغدادية» يصف فيها تجربة عرفها كثير من اهل بغداد، مسرحها انهار بغداد، ومنها الصَّراة[٢]، وقد تم اللقاء فيها على ظهر زورق، لا جمل، وصاحبته بغدادية منعمة «غير الهَبيْد[٣] طعامها»، كما يقول، في قصيدة، منها:

وَبالقَصْرِ مِنْ بَغدادَ خَوْدٌ[٤] اذا رَنَتْ[٥] لَواحِظُها، لَمْ يَنجُ مِنْ كَيدِها قَلْبُ
كَعابٌ كَخُوْطِ البانِ، لا أرضُها الحِمى ولا دارُها سَلْع، ولا قومُها كَعْبُ
مُنعَّمةٌ غيرُ الهَبيدِ طَعامُها ومِنْ غير البانِ اللِّقاحِ[٦] لها شُرْبُ
لا دونها بِيْدٌ يُخاضُ غِمارُها قِفارٌ، ولا طَعنٌ يُخافُ ولا ضَربُ
مَحَلَّتُها أعلى الصَّراةِ، ودارُها على الكَرْخِ، لا أعلامُ سَلْعٍ ولا الهضبُ
.. وَلمّا تلاقتْ بالصَّراةِ ركابُنا وَرَقَّ لنا مِنْ حرِّ انفاسنا الرَّكْبُ
على الجانبِ الغَرْبيِّ، والجوّ مَوهِناً[٧] رَقيقُ الحَواشي، والنَّسيمُ بها رَطْبُ
... الخ[٨].

ان هذه المقدمة الحديثة، برغم رقتها وبعدها عن التكلف، وهذا الجو البغدادي الاخاذ الذي رسمه الشاعر بدقة متناهية، اقول برغم هذا كله لم تنجح التجربة، وظل القوم يميلون الى المقدمات التي تتحدث عن نجد وسلع، والدليل ان الشاعر لم يكرر التجربة، وبقيت وحيدة في ديوانه.

---

(١) الديوان: ص ١٦٩ـ ١٧٠، وأنظر ص ٨١، ٢٥٣.
(٢) الصَّراة: أسم لنهرين كانا ببغداد، هما الصَّراة العظمى والصَّراة الصغرى. دليل خارطة بغداد: ص ٦.
(٣) الهبيد: الحنظل أو حَبّه.
(٤) خود: امرأة شابة.
(٥) رنت: من الرنوّ، وهو أدامة النظر مع سكون الطَّرْف.
(٦) اللِّقاح: واحدتها لَقوح. الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٧) مَوْهِناً: نحو منتصف الليل أو بعد ساعة منه.
(٨) الديوان: ص ٣١.

ولعل ميل الابله الغدادي وعشقهللغلمان[1]، هو الذي دفعه الى أن يبدأ طائفة من مدائحه بالتغزل بهم. والغريب ان الوزير الحنبلي يحيى بن هبيرة، كان من بين الذين افتتح الابله مدائحهم بذكر الغلمان، قال يمدحه:

ذَنْبُ العَواذلِ لَيسَ يُغْفَرْ ... والرفقُ بالعُشّاقِ أجدَرْ
أقصِرْ مِنَ العَذْلِ الطَّويـ ... ـل، فانّ عُمرَ الوَصْلِ أقْصَرْ
مَنْ لي بأسمرَ قَدُّهُ ... ـ عند التثنّي ـ قَدُّ أسمرْ[2]
خالي الضلوعِ مِنَ الغرا ... مِ، يَنامُ عن لَيلي، وأسْهَرْ

... الخ[3].

وقد افتتح الابله عددا غير قليل من مدائحه بهذا النوع من الغزل[4].

ولا بد من اشارة ـ في ختام هذه الالمامة باشهر، مقدمات المدائح ـ الى ان اردأ تلك المقدمات وأسوأها، واقلها نصيبا من الشاعرية، هي مقدمات الابله البغدادي لطائفة من مدائحه، اذ بدأها بالدعاء، مستعملا الفاظ وعبارات نسوة بغداد من العوام احيانا. وبذلك اخل هذا الشاعر بشرط مهم من شروط نجاح القصيدة.

وهو الذي سماه النقاد «براعة الاستهلال». قال ابن رشيق: «انه اول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عند الشاعر من اول وهلة[5]».

قال الابله يمدح ابن الصاحب ـ وكان استاذ [6] الدار: ـ

يا رَبِّ مَسِّى الصاحبَ ابنَ الصاحبِ ... بِعُلوِّ مَرتبةٍ، وسَعْدٍ راتِبِ
واحْفَظْهُ، ما حَدَرَ الصَّباحُ لِثامَهُ ... لِمُلثَّمٍ بالقُرِّ أغبرَ، شاحِبِ[7]

وقال يهنيء آخر بولد ذكر:

يا ربِّ يمِّنْ طَلْعةَ المَوْلودِ ... واحفَظْ أَباهُ أخا النَّدى والجودِ
سَمَحتْ بهِ الايّامُ أبيضَ تَنْجَلي ... عَنّا به ظُلَمُ الخطوبِ السودِ[8]

---

(١) الوافي بالوفيات: ٢ / ٢٤٥.
(٢) أسمر: أي رمح
(٣) ديوان الابله: و٦٢.
(٤) نفسه: و٧٣، ٧٠، ٧٨، ١٤٨، ١٥٤.
(٥) العمدة: ١ / ٢١٧.
(٦) انظر: الفصل الثاني ص ٧٢ هامش ٢
(٧) ديوان الأبله: و١٦٢.
(٨) نفسه: و٨٦.

وقال في ابن الصاحب:

صَبِّحِ اللهمَّ مجدَ الـدْ ... دينِ بـالسَّعْـدِ المُقيمِ
واحْبُهُ ما رَنَّحَ الغُصْـ ... ـنَ ضُحىً مرُّ نَسيمِ
فَـهـو سـارٍ مِنْ ثَـراهُ ... فـي طريقٍ مُستقيمِ[١]

ولست استبعد ان يحبس أحد الممدوحين الشاعر من اجل قصيدة من هذا النوع، كما يشير ديوان[٢] ابن التعاويذي.

ومهما يكن، فقد قال ابن رشيق في القرن الخامس: «ان طريق العرب القدماء في كثير من الشعر، قد خولفت الى ما هو اليق بالوقت، واشكل باهله[٣]».

اما من حيث المضمون او المعاني والافكار:

فقد ظل الشعراء عيالا على اسلافهم ممن اشتهر بالمدح كالبُحتُري وابي تَمّام والمُتنبِّي: يدورون في فلكهم، ويلوكون افكارهم، ويعيدون صورهم ومعانيهم. فقد بقيت الفكرة القائلة بوجوب التمييز بين مدح الخليفة ومدح الوزير ومدح القاضي والقائد، على الرغم من متطلبات العصر وكر السنين وتباين الأمزجة والاهواء، فصرنا لا نجد فرقا ولا نحس اختلافا بين مدح الناصر لدين الله في أواخر القرن السادس، ومدح آبائه واجداده من خلفاء القرنين الثالث والرابع، لانهم جميعا - في قصائد المدح - من بيت الرسول ﷺ، وهم ملجأ الخائفين، واملِ العفاة البائسين المرملين، مع ملاحظة ان الشعراء السابقين تناولوا معاني اسلافهم فطوروها، واضافوا اليها من تجاربهم وثقافتهم، واستطاعوا ان يحتفظوا بمتانة اللغة ونصاعتها، وقوة الاسلوب وبعده عن الركة والعامية والهلهلة. اما شعراء القرن السادس - الا القليل النادر - فقد لانت اساليبهم، وضعفت لغتهم، وغزتهم العامية، وظلوا يرددون المعاني القديمة كالببغاوات. وحين حاول بعضهم الخروج من دائرة القديم، سقط سقوطا يثير الضحك ويدعو الى الرثاء.

فعلى سبيل المثال: اخذ طلحة بن محمد النعماني بيت ابي تمام:

تَكـادُ عَـطايـاهُ يجنُّ جُنـونُـهـا ... إذا لَمْ يُعـوذْهـا بنغمـةِ طـالِبِ[٤]

فقال:

(١) نفسه: و ١٧٩، وانظر و ١٦٦، ١٨٢، ١٧٦
(٢) ص ٢٤٣.
(٣) العمدة: ١ / ٣٠١.
(٤) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٢١١

أعيذُ عَطاياهُ مِنَ المَسِّ، إنَّما مَدائحُنا سُخْبٌ عَليها وأحرازُ[1]

فقصر عن شاعر القرن الثالث في اللفظ والمعنى جميعا.

واراد ابن التعاويذي ان ينقل معنى بيت مشهور للشَّريف الرَّضي من الغزل الى المدح. قال الشريف:

سَهْمٌ أصابَ، وراميهِ بِذي سَلَمٍ مَنْ بالعراقِ، لَقَدْ أبعدْتِ مَرْماكِ[2]

فقال ابن التعاويذي يمدح صلاح الدين:

لَبّى دُعائي مِنَ العراقِ، وَقَدْ أسمعهُ بالصَّعيدِ تَثْويبي[3]

فلم يستطع ان يوضح ما يريد، وكل الذي فعله ان اتى في صدر البيت بـ «العراق» وبـ «الصعيد» في العجز، وترك السامع في حيرة، علما بأن معنى «التثويب» التلويح بثوب ونحوه، وابن التعاويذي يقول: ان تثويبه يسمع، على خلاف قواميس اللغة.

وقال منصور[4] النَّمري يمدح الرشيد:

إنْ اخلفَ القَطرُ لم تُخْلفْ مَخايلهُ[5] او ضاقَ امرٌ ذَكَرْناهُ فَيتَّسعُ[6]

فجاراه ابن التعاويذي في بيتين، فقال مرة:

نَهيبُ بِهِ في لَيلِ خَطْبٍ فَينجلي ونَدعوهُ في كَرْبٍ فينفرجُ الكَرْبُ[7]

فلم يفسد بيت النمري، ولكنه اراد ان يصارع سلفه عسى ان يفوز، فقال:

ومَنْ اذا ضاقَ بِنا أمرٌ ذَكَرْنا فانْفَسَحْ[8]

فخسر شاعرنا وسقط. تأمل عجز البيت، فـ «ذكرنا» هذه اراد بها «ذكرناه» فحذف

---

(١) الخريدة: ٢ / ١٤، والسخب والاحراز: التمائم والعوذ.

(٢) ديوان الشريف الرضى: ٢ / ٥٩٣.

(٣) الديوان: ص ٢٢.

(٤) هو منصور بن الزبرقان.. النمري أبو القاسم، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية، كان يظهر للرشيد أنه عباسي منافر للشيعة العلوية، توفي نحو سنة ١٩٠ هـ. الشعر والشعراء/تحقيق احمد محمد شاكر ص ٨٥٩-٨٦٢، الأغاني (ط. دار الكتب) ١٣ / ١٤٠-١٥٧، تاريخ بغداد ١٣ / ٦٥-٦٩، نهاية الأرب ٣ / ٨٢، الأعلام ٨ / ٢٣٨.

(٥) المخايل: العلامات والدلائل.

(٦) طبقات الشعراء: ص ٢٤٢.

(٧) الديوان: ص ٣٢.

(٨) نفسه: ص ١٠١.

المفعول به لسبب يتصل بالوزن، وهو غير مقبول من شاعر كبير.

وقد اشرت قبل صفحات الى ان ابن التعاويذي من اطول شعراء العصر قصيدة مديح، ولذلك يكثر عنده التكرار في اللفظ والمعنى، كما نجده يبسط عبارته ويمدها ويوسع جمله وأبياته، حتى ان المعنى الذي يعبر عنه شاعر كالمتنبي في نصف بيت، لا يستطيع ابن التعاويذي الا ان يقصر عنه بعد ثلاثة أبيات اتعب نفسه في نظمها، ولذلك نجد طائفة من شعره خالية من التركيز باهتة عديمة الطعم واللون والرائحة. فمثلا قال يمدح صلاح الدين:

تكسوهُ حَمْداً تبقى مَلابسه والحَمدُ كاسيهِ غير مَسْلوبِ[1]

وعلى الرغم من رداءة لفظة «ملابس» فقد كررها عدة مرات: فقال مرة يمدح الناصر لدين الله:

مَدْحاً لَكُمْ خِيطتْ ملابسهُ فما يَعتامُ غير بيوتِكمْ أبياتهُ[2]

وقال يمدح أحد الوزراء:

وَلِمجدكمْ خِيطتْ مَلابسُ فَخرِها فَبِغير نِعمة طِيبكمْ لا تَعْبقُ[3]

وكررها مرة رابعة فقال في الرثاء:

وَمَلَابساً مِنْ غِبطةٍ أَلبَسْتَني جُدداً، عَلام أعدتَها أسْمالا؟

وتأمل قول ابن التعاويذي يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة لبني العباس في مصر:

خَبرٌ طَبَّقتْ بَشائرهُ الارْ ضَ، فمنهُ السَّراءُ والضَّراءُ
فهوَ في الرومِ والكنائسِ رُزءٌ وَهوَ في الشامِ والعراقِ هَناءُ
وَتَراهُ في سَمْعِ قَوْمٍ نَعِيّاً وَهوَ في سَمعِ آخرينَ غِناءُ[5]

ان البيتين الثاني والثالث هما تكرار لمعنى السراء والضراء في البيت الاول، لأن الشاعر يريد لقصيدته ان تطول. ومعنى الابيات الثلاثة من نصف بيت مشهور لابي الطيب المتنبي هو قوله: «مَصائبُ قَومٍ عند قَومٍ فَوائدُ».

(١) الديوان: ص ٢٢.
(٢) نفسه: ص ٦٧.
(٣) نفسه: ص ٢٩٧.
(٤) ديوان ابن التعاويذي: ص ٣٥٣.
(٥) نفسه: ص ٣-٤.

عيوب المدح:

ويمكن اجمال اهم عيوب المدح في القرن السادس بما يلي:

١ ـ شدة التوسل والتضرع للممدوحين:

بالغ قسم من شعراء المديح في المسألة والالحاح في استدرار الاكف، حتى يخيل للباحث ان هؤلاء فقدوا كرامتهم، ولم يتركوا كلمة ولا معنى يدل على الاستجداء الا تسابقوا اليه. ان هذه الظاهرة الجديدة على الشعراء العرب ـ كما اظن ـ لا يتحمل المجتمع وحده وزرها بسبب بعد القوم عن الروح العربية، وتغلغل الاعاجم والدخلاء في أوساط الناس، وسيطرتهم على كثير من مرافق الحياة، بل ان شيوعها عند بعض الشعراء سببه شخصيات هؤلاء الادباء ونفسياتهم ـ ربما بسبب انحدارهم من اصول غير عربية.. ولعل مكانة الحيص بيص وشهرته، وموقفه من ممدوحيه ـ وقد مرت[1] الاشارة اليه ـ تقف دليلا يدحض ادعاءات الذين يحاولون القاء جميع التبعات على المجتمع.

ومن الشعر الذي يدل على ان بعض شعراء القرن السادس فقدوا عزة انفسهم قول طلحة بن محمد النعماني يمدح المستظهر بالله:

وَمديحُ مجدكَ في الكِتابِ مُرَتَّلٌ ... جارٍ مع الأعشارِ والأخْماسِ
انا عَبدُكَ[2] القِنُّ الذي مُذْ لم أزَلْ ... أسطو على أعدائك الأرْجاسِ[3]
ما جالَ الّا في مَديحِكَ خاطِري ... وَبغير وصْفكَ ما جَرتْ أنفاسي
وَبِذَيْلِ مَجدكَ قد عَلقتُ فلا تدع ... ظَنّي يَعودُ مُلازِماً لليأسِ[4]

وقال ابن التعاويذي:

عَبدُ شُكرٍ، وَحَرٍ أنْ ... يَشْكُرَ الروضُ السَّماءا[5]

وقال:

خَدَمٌ تَحمِلُ في أوْ ... عِيَةِ الشُّكرِ الهَناءا[6]

وقال من قصيدة في القاضي الفاضل:

دَعوة عانٍ، وَعَداكَ الأذى ... يَسمعُها مَنْ كانَ ذا وَقْرِ

---

(١) أنظر: دراسة الحيص بيص في الفصل الثاني ص ٥٨ ـ ٦٠.
(٢) القن: العبد إذا ملك هو وأبواه.
(٣) الأرجاس: من الرجس، وهو العمل القبيح.
(٤) الخريدة ٢ / ٢٦.
(٥) ديوان ابن التعاويذي: ص ١٢.
(٦) نفسه.

ألستُ عَبداً لأياديكَ مَـؤْ قوفاً على التَقْريظِ والذِّكْرِ
كَمْ حُرمةٍ اكدها الفَضْلُ بِي وَخِدْمةٍ قَدَّمَهَا شعْري
مَلَكْتَ رقى، وأبو خالدٍ في واسطٍ بَعْدُ على المَجْرِ[1]

وقال الابله:

انا عبدٌ لكَ استرقَّني الاحـ ـسانُ، فَلْتَشْهدِ العُدولُ الشهودُ[2]

٢ ـ المبالغة في صفات الممدوحين:

اطلق الشعراء لالسنتهم العنان فراحوا يكيلون الصفات كيلا لممدوحيهم، غير عابئين او ملتفتين الى وازع من دين او فن او خلق. ولم اجد احدا من هؤلاء الممدوحين اعترض على شاعر وصفه بصفات لا تليق الا بالخالق سبحانه، فكأن هذا السكوت تشجيع للقوم على الجري في هذا الميدان الى نهايته. وربما قلد هؤلاء الشعراء المتنبي، فقد اولع بالمبالغات ولج بها[3]، ولكن فاتهم ان مبالغات المتنبي كانت من بين عيوبه، فليتهم قلدوه في محاسنه.

ان شيوع المبالغات في الصفات التي يخلعها الشعراء على افراد الطبقة الحاكمة من المجتمع العباسي، وارتياح هؤلاء الافراد لما يقال فيهم، بل وتشجيعهم لاصحابه قد يدل على شعور الحاكمين بانهم لا يملكون شيئا مما يدور حولهم، وان سلطانهم واهن ضعيف لا يزيد على مجموعة من الاكاذيب يطلقها شاعر مداح في ساعة طمع.

فمن مبالغات القرن السادس قول طلحة بن محمد النعماني:

وَلَو كانَ مِنْ بَعدِ النبيِّ محمدٍ أتى مُرْسَلٌ خِلْنَاكَ بالجودِ مُرْسَلا[4]

وقال:

لا يَرزقُ الرَّحمنُ مَنْ لم تُعْطهِ وكَذاكَ ليسَ بمانعٍ مَنْ ترزقُ[5]

وقال ابن التعاويذي:

مَدْحكَ لا يَستطيعهُ البَشَرُ أنىّ، وَقَدْ أُنزلَتْ به السُّورُ

---

(١) نفسه: ص ١٩٥.
(٢) ديوان الأبله: و ٢٤، وأنظر الخريدة ١/١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ٢٠٠.
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٢٩١، ٣٢٣.
(٤) الخريدة: ٢/٤٧.
(٥) نفسه: ٢/٤٠.

أغنتْكَ عن مدحِ مادحيكَ من السـ ــبعِ[1] المَثاني ياسينُ والزّمرُ[2]

وقال الحيص بيص:

سألنا اللهَ يُعطينا إماما ... نُسرُّ به فأعطانا نبيّنا

بلغْنا فوقَ ما كُنّا نُرجّي ... هَنِيّاً يا بني الدنيا هَنِيّاً[3]

وهاذان البيتان الاخيران من خمسة أبيات، كانت جائزتها من المستضيء ٣٠٠ دينار وخلعة ودارا وضيعة كبيرة.

وبعد «فلست اشك ان الشعر حين يفضي الى هذا النوع من المبالغة لا يعبر عن احساس او وجدان، وانما يعبر عن نوع من السقوط الفني. اذ يذهب الشعراء بعيدا في تصوراتهم وافكارهم، وكأنهم يجنحون الى كل افراط في الشعر[4]..»

٣ ـ النثرية والركة:

ان من يطالع ديوان ابن التعاويذي والابله البغدادي، وخاصة ديوان هذا الثاني، يجد ان مديحه ـ ومعظم ديوانه مدح ـ تشيع في طائفة منه ركة غير قليلة، ونثرية نعجب معها كيف عد من مشاهير شعراء القرن السادس. ان جملة من قصائد هذا الشاعر بدت، وكأنها مجرد الفاظ مرصوصة، فلا عاطفة ولا خيال ولا تعبير متماسك. انها اجمالا ليست من الشعر لولا الوزن والقافية. تأمل ـ مثلا ـ قصيدته:

لا تَعذلنَّ فلستُ أقبَلْ ... لَوماً على العَذب المُقبّلْ

وأقِلَّ عَذْلَكَ في هَوى ... مَنْ للتصبّر عنهُ قَلّلْ

جَذلانُ حَرّمَ وَصْلَهُ ... عَمْداً، وَللهجْران حَلّلْ

كالغُصنِ أهيفَ حينَ يَخْـ ... ـطو ماشِياً، والدِّعْص أهْيَلْ[5]

بذوائِبٍ مثلِ الدُّجى ... وتَرائبٍ مِثْلِ السَّجَنْجَلْ[6]

يَرنو اليّ بِمُقلَتي ... ظَبيٍ غَضيضِ الطَّرْفِ أكْحَلْ

وَيَزيدُ تِيهاً بالجَما ... لِ، وَرِفْقُهُ بالصَّبِّ أجمَلْ

---

(١) السبع المثاني: القرآن الكريم.

(٢) الديوان: ص ١٥٨.

(٣) الخريدة: ١ / ٣٣٦.

(٤) الفن ومذاهبه في الشعر: ص ٢٩٤.

(٥) الدعص: كثيب الرمل.

(٦) السجنجل: المرآة.

(٧) ديوان الأبله: و١٧ ـ ١٨.

انها ليست شعرا من الناحية الفنية، بل مجرد الفاظ مرصوصة، قد حشيت بالطباق الباهت والجناس الفج، وقد غزت العامية والاسفاف الفاظها من كل جانب تأمل مثلا هذه الطباقات: حرم وحلل، والوصل والهجران، وتتوج وتسربل، طال وقصر. وهذه الجناسات: اقبل والمقبل، واقل وقلل، واهيف واهيل. وتأمل قوله فيها: «بدر تتوج بالندى»، اراد ان يبالغ في وصف الممدوح بالكرم، فجعله يلبس الندى تاجا، وهو تاج غريب وصورة مضحكة. وتلاحظ العامية في قوله: «لست اقبل»، و«على سماحته توكل»، و«للتصبر قلل».

وهذه قصيدة ثانية، ينص الديوان «انه مدح بها الناصر لدين الله سنة ٥٧٧ هـ»، اي قبل وفاة الشاعر بسنتين:

حُييتَ مِنْ طَلَلٍ وَمَعْهدْ ... قَدْ حَالَ عَمّا كُنتُ أعْهَدْ
وَتَلاعَبتْ بِرسومِهِ ... أيدي البلى، حَتّى تَأَبَّدْ[1]
فَلَئِن عَفا، وَتَجَنَّبتْ ... فيهِ البروق بِراقَ تُهمدْ
فَلَكَمْ رَبعتُ بِربْعِهِ ... وَجمعتُ شَمْلَ هَوىً مُبدَّدْ
أيّامَ اغصانِ الشَّبيـ ... ـبةِ في رياضِ اللّهوِ مُيّدْ
وَالوصْلِ مُنتَبِهِ الجُفُو ... نِ، وأعينِ الرُّقباءِ هُجَّدْ
مَعْ كُلِّ أحْوَى أحْوَرٍ ... ومهفهفِ الكَشحَيْنِ أغْيَدْ[2]

... الخ[3]

ان هذه القصيدة لا تختلف عن سابقتها، على الرغم من ان الممدوح هو الخليفة نفسه، وفي هذه الحالة يفترض ان يقدم الشاعر احسن ما عنده. ومن يدري؟ فربما قيل عن هذه القصيدة في ايام الشاعر: انها عصماء او يتيمة الدهر، لان المقاييس والاذواق تختلف، ولكل عصر احكامه، والابله نفسه كثير الزهو والتيه بجودة شعره، حتى انه كثيرا ما يذكّر ممدوحيه ـ قبل ان يختتم قصائده ـ بان ما انشده نادر الوجود، عديم النظير، وان

---

(١) تأبد: اقفر ودرس.

(٢) ديوان الابله: و ١٧ـ ١٨

(٣) الديوان: و ٩ـ ١٠، وأنظر و ٩٨، ٩٧، ١٤٦، و ١٤٥، ١٤٩.

دهاقنة المديح من الشعراء السابقين لو بعثوا لأطنبوا في الثناء عليه.

قال في نهاية احدى قصائده:

فاسعَدْ بِها، واسمعْ بها رائيةً   غـرّاءُ يَخْلِبُ[1] لَفظُها السّحّار
لـو أنّهـا سَبقتْ زَمـانيَ لادّعى   أبيـاتَها الحَكَميُّ[2] او بَشّـار[3]

وقال:

فَخُذْها كما رَقَّ النسيمُ، وَغازلَتْ   دموعُ الغَمامِ المُستهلِّ[4] الاقاحِيا
إذا فَضَّها في القوم راوٍ حَسبتهُ   يفضُّ على الاسماعِ سَبْعاً[5] مثانِيا

وقال:

واسْـمَـعْ بِـهـا فَـكـأنَّـهـا   سِلْكٌ وَهيْ مِـنْ كَفِّ نـاظِـمْ
أضـحـى الـمُـولّـدُ[6] رَبّـهـا   فَمنِ الـوليدُ[7]، ومَنْ كُشاجِمْ[8]
غـرّاء لا مـثـلٌ لَـهـا   فَبقيتَ مُمتثلَ الـمَـراسِمْ[9]

اما ابن التعاويذي، فطاقة شعرية كبيرة، لا تقارن بشاعرية الابله المتواضعة وعندي ان ضعف وركة طائفة من مدائح ابن التعاويذي، سببه ان الشاعر مطيل ـ وقد اشرت الى ان بعض مدائحه زادت على المائة بيت ـ كذلك تعددت الاغراض الشعرية التي طرقها ـ بينما اقتصر الابله على المديح في الغالب ـ فكان لا بد ان يجيد احيانا، وان يضعف ويسقط احيانا اخرى. ان معظم شعر ابن التعاويذي الركيك في المدح، وليس ذلك غريبا على الشعر والشعراء، فقد كان البحتري ـ مثلا ـ مشهورا بجودة مديحه، ولكنه لا يحسن الهجاء[10].

ومن مدائح ابن التعاويذي الركيكة قصيدته:

خَجِلتْ مِنْ عَطائكَ الأنـواءُ   وَتجَلّتْ بنـورِكَ الـظَّلماءُ

---

(1) بالأصل (تخلب)، وهو مخالف للفاعل (لفظها).
(2) الحكمي: هو أبو نواس، الشاعر المشهور.
(3) الديوان: و ١٤.
(4) المستهل: المطر.
(5) السبع المثاني: القرآن الكريم.
(6) المولد: هو الشاعر الأبله نفسه.
(7) الوليد: هو البحتري الشاعر العباسي المشهور.
(8) كشاجم: هو محمود بن حسين (وقيل ابن محمد بن الحسين) شاعر، متفنن، أديب، توفي سنة ٣٦٠ هـ. الفهرست ٢٠٠ ط. مصر، الديارات ٢٥٩، ٢٦٠، شذرات الذهب ٣/٣٧، الأعلام ٨/٤٣، معجم المؤلفين ١٢/١٥٩.
(9) الديوان: و ٨٤، وأنظر و ٦٢، ٤٧، ٤٣.
(10) الموشح ص ٣٣٨.

واسْتجابَتْ لكَ المَمالكُ إذعانـاً، وفيها على سِواكَ إباءُ
أصبحت[1] في يَديكَ، واتّفقتْ طَوعاً عَليكَ القلوبُ والاهواءُ
نَسخَ[2] العَدلُ في ايالتكَ الجَورَ كما يَنسخُ الظَّلامَ الضياءُ
وأهنتَ المالَ العزيزَ على غيرِك، حتىّ استوى الثّرى والثَّراءُ
... الخ[3].

وتستمر القصيدة على هذا المستوى من رخاوة الاسلوب، وشحوب العاطفة، ورتابة الافكار وتناقضها، حتى تزيد على الثمانين بيتا، على الرغم من ان فتح مصر، او اعادة الخطبة للعباسيين فيها ـ وهو سبب نظم القصيدة ـ كان حدثا مدويا هز العالم الاسلامي آنذاك، وكان جديرا بتحريك وجدان الشاعر والهاب حماسه ومشاعره، كما حدث فعلا في قصائد اخرى اشرت اليها في مكان آخر من هذه الدراسة[4].

ونطالع قصيدته الاخرى في مدح صلاح الدين الايوبي، والتي مطلعها:

سِرْبُ مَهاً أم دُمى محَاريبِ ام فَتياتُ الحيّ الأعاريبِ[5]

وهي لا تختلف عن سابقتها، لا تربطها بالشعر سوى رابطة الوزن والقافية وحتى هذه خان ابن التعاويذي فيها طبعه، وحكمت عليه المقادير أن يختار لها كلمات ليست شعرية ابدا، مثل «مربوب» في بيته:

شِعري رَبُّ الأشعارِ قاطِبةً وهَلْ يُسوّي رَبٌّ بمَربوبِ؟

و «مخطوبي» في قوله:

أمستْ مُلوكُ الافاقِ تخَطبهُ وأنت دونَ الانامِ مخَطوبي

و«مقروب» اي في القراب:

رَبُّ المَذاكي[6] الجيادِ مقربةً[7] والنَّصلُ عُريان غيُر مَقروبِ

وقد يكون سبب سقوط ابن التعاويذي في هذه القصيدة انه حاول مجاراة المتنبي ومصاولته في قصيدته:

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (أصحبت) اي خضعت وانقادت.
(٢) نسخ: أزال أو أبطل. (٣) الديوان: ص ١.
(٤) أنظر: العوامل المؤثرة في المدح ص ١١٣. (٥) الديوان: ص ١٩.
(٦) المذاكي: الخيول التي تمت أسنانها.
(٧) مقربة: هي الخيول التي تقرّب مرابطها ومعالفها لكرامتها.

مَـن الجَـآذرُ في زيِّ الأعـاريـبِ حمرُ الحلى والَمطايا والجَلابيبِ[1]

بدليل تشابه قافيتي القصيدتين، وان بعض ابيات ابن التعاويذي تغلغها معاني قصيدة ابي الطيب. فقول ابن التعاويذي:

هَبْ لي بَقـايـا شبيبَتي، وارْتِجـعْ مـا اكسبتني أيـدي التَجـاريـبِ
مـا انـا راضٍ عَـمـّا سَلبتَ بمـا أُفـدتُ مِـنْ حُـنْـكَـةٍ وَتَجْـريـبِ

هما محاولة للتعلق بقول ابي الطيب:

لَيتَ الَحوادثَ باعَتني الذي اَخذَتْ مِنيّ بحلْمي الذي أعطتْ وَتجريبي

٢ ـ الهجاء:

هذا فن شعري شديد العلاقة بالمدح منذ القدم، فمعظم الشعراء الذين نظموا شعر المدح كان لهم هجاء ايضا، كذلك نجد طائفة كبيرة من كبار الرجال الذين قصدهم الشعراء بمدحهم تعرضوا كذلك للهجاء. ولعل الخلفاء هم وحدهم الذين وصلنا مديح فيهم يفوق كثيرا ما وصلنا من هجاء لهم، بل انني لم اعثر الا على ستة أبيات في هجاء خلفاء القرن السادس[2]، على حين تجد مدائحهم تغص بها الكتب، ودواوين الشعراء. ولعل من اهم اسباب هذه الظاهرة، سببان:

الاول:

انَ الخليفة له مركزه الديني المقدس، لذلك كان التعرض له في الشعر قد يعنِي الانسلاخ عن الاسلام، ولم اقف الا على نص وحيد يشير الى ان هِبَة الله بن الفَضْل لم يسلم من لسانه حتى الخليفة[3].

الثاني:

ان الخلفاء عامة عرفوا بعدم التساهل مع الذين يحاولون النيل من مكانتهم وهيبتهم ـ وربما كانوا معذورين احيانا ـ. وكان من العقوبات التي عرفوا بها: النفي، وعرفت «المشان» بالبصرة بكونها منفى[4]، كما نَفي بعضهم الى واسط، والزم ان يقيم بها الى ان مت[5] وعوقب آخرون بهدم دورهم[6]، او حتى اعدامهم[7] ولذلك قال صاحب الفخري عن

---

(١) شرح ديوان المتنبي ١ / ٢٨٨.
(٢) الخريدة: ٤ / ١١٣.
(٣) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٤.
(٤) المنتظم ١٠ / ٢٥٩، معجم البلدان: المشان.
(٥) الجامع المختصر ٩ / ٩٤.
(٦) المنتظم ١٠ / ٥٩
(٧) المنتظم ٩ / ١٧١، الجامع المختصر ٩ / ٤٤، شذرات الذهب ٤ / ٢٠٦.

بعض الخلفاء: «فكم من نعمة ازالوها عن اربابها، ونفس ازهقوها بسبب كلمة منقولة او حكاية مقولة[1]».

وكما اشتهرت طائفة من الشعراء بالمديح، اشتهرت طائفة اخرى بالهجاء. والذين اشتهروا بالهجاء من شعراء القرن السادس هم: هبة الله بن الفضل، المعروف، بابن القطّان[2]، وعلي بن افلح الكاتب ت ٥٣٥ هـ[3]، والحسن بن احمد، المعروف بابن حكينا المتوفى سنة ٥٢٨ هـ[4]، وعلي بن احمد، المعروف، بـ «قبلة الادب» المتوفى سنة ٥٧٠ هـ[5]، واحمد بن علي بن عيسى ابو جعفر الهاشمي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ[6]، والابله البغدادي[7]، والمؤيد الآلوسي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ[8]، والمؤيد التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ[9].

وهذه الوفرة في عدد شعراء الهجاء المشهورين، قد توحي بأن ما وصلنا من الهجاء اكثر مما وصلنا من المدح، لان شعراء المدح المشهورين لم يزيدوا على اربعة، كما اشرت، ولكن الواقع على النقيض تماما، فقد ضاع معظم الهجاء وبقي اكثر المديح.

ولست استبعد ان يتعمد المؤرخون والرواة اسقاط كثير من الهجاء وعدم روايته وتدوينه، لاسباب دينية وخلقية، لان الهجاء لا يخلوا عادة من سباب وافحاش، لذلك نقل صاحب العمدة انِ الرسول ﷺ قال: «مَنْ قالَ في الاسلام هِجاء مُقْذِعاً فَلسانهُ هَدْرٌ»[10]. وهناك اسباب اخرى ادت الى هذه الشحة الواضحة في شعر الهجاء منها: ان طائفة من الشعراء حين يتقدم بها العمر، وتوشك على مغادرة هذه الدنيا، تندم على ما فرط منها وتحاول التوبة، فتتلف هجاءها او تغسله، كما فعل ابو جعفر الهاشمي، السالف الذكر[11]. وبعضهم لم يدون هجاءه اصلا، فلا بد ان يضيع بمرور الزمن[12]، وبعضهم اتلف شعرهم بامر من الخليفة، عقابا لهم، كما حدث لعلي بن افلح[13]. وهكذا ضاعت دواوين كل من: هبة الله بن الفضل[14]، وعلي بن افلح[15]، والمؤيد الالوسي[16].

---

(١) الفخري ص ٦١ (ط. دار صادر).
(٢) المنتظم ١٠ / ٢٠٧، وفيات الأعيان ٥ / ١٠٤، عيون الأنباء ٢ / ٣٠٤.
(٣) المنتظم ١٠ / ٨٠، الخريدة ٢ / ٥٢، وفيات الأعيان ٣ / ٦٨.
(٤) الخريدة ٢ / ٢٣٠، المختصر المحتاج اليه ١ / ٢٧٥، فوات الوفيات ١ / ٢٢٨.
(٥) تلخيص معجم الالقاب ق ٤ ج ٣ ص ٥٧٢، وانظر الهامش (١)
(٦) ابن الأثير: ١٢ / ١١، المختصر المحتاج اليه ١ / ١٩٧، الوافي بالوفيات ٦ / ٩٠ مصور.
(٧) الخريدة / نسخة ايران ١٦٠، الروضتين ٢ / ٥٤.
(٨) الخريدة ٢ / ١٧٢، معجم البلدان: الوس، الوفيات ٤ / ٤٢٨.
(٩) الجامع المختصر ٩ / ١٠٧، الوافي بالوفيات ٢ / ١١٥.
(١٠) العمدة ٢ / ١٢٠.
(١١) الوافي بالوفيات ٦ / ٩٠ مصور.
(١٢) الخريدة ٢ / ٢٧٠.
(١٣) ـــه ٢ / ٥٤.
(١٤) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٤.
(١٥) نفسه ٣ / ٦٨.
(١٦) نفسه ٤ / ٤٢٨.

ضروب المهجوّين:

لو حاولنا ان نصنف المهجوين في القرن السادس، او لو استعرضنا اشهر انواع الهجاء، لوجدنا ما يلي:

١ - كبار موظفي الدولة: ومنهم الوزير[١]، والقاضي[٢]، وقاضي القضاة[٣]، والحاجب[٤]، والعامل[٥]، وكتاب الديوان[٦]، وجميع رجال الدولة دون تعيين[٧]. واحيانا لا ينص على وظيفة المهجو، ولكن الشعر يدل على انه موظف كبير، كقول هبة الله بن الفضل:

كَـمْ تـرددت مِـراراً وَتَـجَـوَّعْـتُ مَـرارَهْ
ثـمَّ لـمَّـا وَفَّـقَ الـمـلاهُ، وَوقَّـعـتَ بـكـارَهْ[٨]
لَمْ يكنْ فيهـا مِنَ الحِنْـطَةِ مـا تَقْـرِضُ فـارَهْ[٩]

وقول علي بن أفلح:

سَـألتَـك التـوقيـعَ في قِصَّتي فـاحتطْتَ لِـلآجـلِ بـالعـاجـلِ
وخِفتَ ان تُجـريَ في قـابـلٍ وَقِّع، فما تَبْقى الى قـابِلِ[١٠]

ويلاحظ ان هجاء الموظفين: يؤكد فيه على ابراز وتجسيم الصفات التي لا تتفق ووظيفة ذلك الموظف، بحيث يبدو غير اهل للمنصب الكبير الذي يتولاه. فمما هجي به الوزراء - على سبيل المثال - التسويف والمماطلة:

قَدْ جِئتُ بابني - فاعرفوا وَجْهَهُ - لِيـأخـذَ النـائـلَ مِنْ بَعْـدي
فَليسَ في التَقْـديـرِ أني أرى قَبْـلَ مَمَـاتي سـاعـةَ الـرِّفْـدِ[١١]

وقد اتخذ الشاعر اسلوب السخرية والتهكم للتعبير عن مماطلة الوزير وعدم وفائه بما يقول.

كما هجي الوزراء بالجبروت وشدة الرهبة:

---

(١) الخريدة ١ / ١٨١، ٢ / ٦٦، ٢٢٨، ٢٤٥، ٢٧٧، ٤ / ٣٩٣.
(٢) نفسه ٢ / ٢٣٣.
(٣) وفيات الأعيان ٣ / ١٥١.
(٤) الخريدة ١ / ١٨١.
(٥) نفسه ٤ / ٤٥٤ والعامل في الفترة التي ادرسها هو المحافظ في العصر الحاضر.
(٨). نفسه ٢ / ٢٥٢.
(٧) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٩.
(٨) الكاره: مقدار معلوم من الطعام أو الحنطة.
(٩) عيون الأنباء ٢ / ٣١٢.
(١٠) الخريدة ٢ / ٦٥.
(١١)نفسه ٢ / ٢٤٥.

يـا مَعْشَرَ النـاسِ النفير النَّفيـرْ   قَدْ جَلَسَ الهِرْدَبُ[١] فوقَ السَّريرْ
وَصَـارَ فيـنـا آمِـراً نـاهِيـاً   وكُنتُ أرجـو أنَّـهُ لا يَـصيـرْ
وكُلَّمـا قـالـوا: غَـداً تَنْجلِي   وظُلمـة عمـا قـليـلٍ تُنيـرْ
فَتَحتُ عَيني، فـاذا الدولـةُ الـ   ـدولةُ، والشّيخُ الوزيرُ الوزيرْ[٢]

وقد استعمل الشاعر التكرار اللفظي في توكيد المعنى الذي يريده، خاصة في هذا البيت الاخير حيث اجاد الافصاح عن تبرمه وسأمه وحنقه.

وهجي القضاة بالسرقة وعدم الامانة، وهما صفتان لا تليقان بالقاضي:

وَبـاردِ التَنْميس[٣] بَينَ الـوَرى   يَفْعـلُ مـا لا يَـفْعـلُ الـلصُّ
يَصـطادُ امـوالَ الـوَرى كُلَّهـا   بـطَرْحـةٍ[٤] مِنْ تَحتِهـا شِصُّ[٥]

وقد استعان الشاعر هنا بطريقة التصوير لابراز فكرته وتوضيحها: فالقاضي صياد، وهو يصيد اموال الناس، وما طرحته سوى غطاء يخفي تحته الشص.

وفي القرن السادس - كما في القرون التي سبقته - عرف بعض الشعراء بهجاء كبار موظفي الدولة في قصيدة واحدة، ونبز كل واحد منهم بشيء. ان اقدم نص لهذا النوع من الهجاء يرجع الى القرن الثالث للهجرة. قال القفطي عن محمد ابن الدقيقي (ويقال احمد) ابو نعامة: «كوفي يكنى ابا جعفر، شاعر، خبيث اللسان، هجاء، وله قصيدة مزدوجة[٦] ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في ايام المتوكل من اهل «سر من رأى» وبغداد، ورماهم بالقبائح.. المتوفى سنة ٢٦٠ هـ[٧]»، وفي القرن الرابع عرف علي بن محمد ابن نصر، المعروف بابن[٨] بَسّام المتوفى سنة ٣٠٢ هـ بقصيدة، قال في ختامها:

فَـخَـلِّ الـزمـانَ لأوغـادِهِ   الـى لَعـنـةِ اللهِ، والـهـاوِيَـهْ
فيـا ربّ قـد رَكِبَ الأرْذلـونَ   وَرِجْلي مِنْ رِجْلِهِمْ عـالِيَـهْ[٩]

---

(١) الهردب: العجوز. الجبان.
(٢) تمام المتون ص ٧٦.
(٣) التنميس: الاحتيال والافساد.
(٤) الطرحة: لباس القضاة، الطيلسان.
(٥) الخريدة ٢ / ٢٣٣.
(٦) هي القصيدة التي تكون جميع أبياتها مصرعة، وأميز ما يكون ذلك في الاراجيز. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٢٨٨.
(٧) المحمدون ص ٣٢١.
(٨) شاعر هجاء، حسن البديهة، استفرغ شعره في هجاء والده، وهجاء جماعة من الوزراء. الفهرست ص ١٥٠ ط. أوربا، معجم الأدباء ١٤ / ١٣٩، وفيات الأعيان ٣ / ٤٦، فوات الوفيات ٢ / ١٦٧.
(٩) المشهور في رواية عجز البيت (ورجلي من بينهم حافية).

فـان كـنت حـامـلنَـا مِثْلهمْ والآ فـارجـلْ[١] بَني الـزانية

وفي هذا الشعر ـ كما قال صاحب مروج الذهب ـ جمع جميع رؤساء أهل الدولة في ذلك العصر[٢]».

وفي القرن الخامس عرفت قصيدة ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٥[٣] هـ في هجو ارباب الدولة الجَلالية[٤] الملكشاهية:

لَـو أنَّ لي نَفْسـاً صَبرتُ لِمـا ألقى، ولـكنْ لَـيسَ لي نَـفْسُ
مـا لي أقيمُ لَـدى زَعـانِفَـةٍ[٥] شُمِّ القُـرونِ أنـوفهُمْ فُـطْسُ
لـي مَـأتَمٌ مِـنْ سـوءِ فِعـلهم ولَهم بحسنِ مَـدائحي عُـرْسُ
وَلقَـدْ غَـرستُ المَـدحَ عِـنـدهمُ طَمَعـاً، فَحنظلَ ذلـكَ الغَـرْسُ

... الخ[٦].

وفي القرن السادس عرف هبة الله بن الفضل بانه صاحب القصيدة الرائية المشهورة ـ كما يقول ابن خلكان ـ التي جمع فيها خلقا من الاكابر ونبز كل واحد منهم بشيء وفيها يقول:

تكريتُ تُعجِزُنـا، ونحنُ بجهلِنا نمضي لِنأخذَ ترمذاً مِنْ سنجـرِ

ومنها البيت السائر:

نَسَبٌ الى العَبَّاسِ، ليس شَبهَهُ في الضَّعفِ غيرُ الباقلّاءِ الاخضرِ[٧]

ولا يمكن ـ بالطبع ـ ان يجهل شاعر القرن السادس قصائد الذين سبقوه في

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب (فارجل) بالجيم.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٩٨.

(٣) هو محمد بن محمد. ابو يَعْلَى البغدادي، كان شاعراً مجيداً، خبيث اللسان. الخريدة ٢ / ٧٠، شذرات الذهب ٤ / ٢٤، أعيان الشيعة ٤٥ / ٣٢٦، ٣٢٧، معجم المؤلفين ١١ / ٢٢٥.

(٤) نسبة إلى ملكشاه بن ألب أرسلان، الملقب جلال الدولة. قال آبن خلكان: «كان أحسن الملوك سيرة، حتى كان يلقب بالسلطان العادل».. المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ببغداد. وفيات الأعيان ٤ / ٣٧٠.

(٥) زعانفة: أراذل الناس.

(٦) الخريدة ٢ / ٨١ـ ٨٤.

(٧) وفيات الأعيان ١٠٩/٥. وفي نصرة الفترة ٢٠٢ـ٢٠٣، أورد العماد ٣٦ بيتا من هذه القصيدة. وعن الباقلاء الأخضر، قال العماد: «ينادي في بغداد على الباقلاء الأخضر بـ العَبّاسي». الخريدة ٢ / ٢٧٦.

الموضوع ذاته، فهل نظم قصيدته لمجرد التشبه بالاسلاف؟ انني استبعد هذا الاحتمال، لان الموضوع خطير، قد يكلف الشاعر حياته، ولعلّ الاقرب الى الصواب ان الشاعر ـ وكان طبيب العسكر ـ قد خسر بعض الاستيازات ايام المسترشد ـ وقد نظمت القصيدة في خروجه لقتال السلطان مسعود[١] ـ بدليل ان الشاعر قال في آخرها ـ بعد ان ذكر امتيازات جماعة كانوا معه بصحبة الخليفة: ـ

لَهُمْ مَعَـايشهُمْ، ومـالـي بَيـنهـمْ   مـا كانَ لي في دَولـةِ المُسْتَظهِـرِ
وَولائي في الحِرْمانِ ليسَ بناقصٍ   وَثَنَـاي غَضّ لَيسَ بـالمُتغيِّـرِ[٢]

اذن فقد نظم الشاعر هذه القصيدة، لانه خسر ما كان له في دولةالمستظهر.

ان هجاء الموظفين ـ وقد مرت نماذج منه ـ يقل فيه التعرض لشكل المهجو، او تصوير ملامحه الخارجية، كما يندر ان يتعرض الشاعر لاصل المهجو او يفحش في ذكر نسائه ومحارمه. ويبدو ان الشعراء وجدوا ان نعت المهجو بالدمامة والقبح، والتعرض للنساء وذكر العورات مما لا يكفل لهجائهم الذيوع والسيرورة والانتشار، كما اكد النقاد ان ابلغ الهجاء واجوده «ان يسلب الانسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض[٣]..»

ومع ذلك تعرض علي بن افلح لخلقة احد الوزراء، حين قال يهجوه:

لَـولا الـسَّـوادُ[٤] وَذَقْـنُـهُ   مـا بـانَ فـي وَقْـتِ الـسَّـلامِ
كَـزُرَيـقِ[٥] دجـلَةَ، كُـلُه   ريشٌ، وبـاقـيـهِ عِـظامِ[٦]

وقال آخر يهجو عاملا ظلمه:

وَجْـهٌ يمتُّ بسـوءِ منـظرهِ الـى   شَخصٍ تَقاربَ بعضُه مِنْ بَعضِـهِ
وَنَحـافةٌ مـوصـولـةٌ بِـدَمـامـةٍ   تَقْضي على كُلِّ الأنامِ بِبُغْضِـهِ[٧]

---

(١) أنظر: الفصل الأول ص ٦
(٢) نصرة الفترة: ٢٠٣.
(٣) العمدة ٢ / ١٧٤.
(٤) السواد: أي الثياب السود التي كان وزراء العباسيين يرتدونها.
(٥) زريق دجلة: لعله ما يعرف الآن باسم «نعيج الماء» وهو طائر أكثره بياض، يرى في دجلة في أيام الربيع.
(٦) الخريدة ٢ / ٦٨، وأنظر الهامش.
(٧) الخريدة: ٤ / ٤٥٤.

٢ - هجاء اصحاب الحرف:

ومن هؤلاء: الشاعر[١]، والواعظ[٢]، والمغني[٣]، والحلاق[٤]، وصاحب الحَمّام[٥]، والفاصِد[٦]، والمُنجِّم[٧]، والطبيب[٨].

وهجاء هؤلاء يؤكد ويبالغ في رميهم بكل ما يبعد الناس وينفرهم، ويجعلهم غير صالحين للحرف التي يرتزقون منها. فمثلا المغني: يفترض ان يساعد الناس على الفرح ونسيان الهموم، فاذا كان بارد الغناء، حصل العكس، قال ابن جارية[٩] القَصَّار يهجو مغنيا:

يا بُدَيْويُّ[١٠] قدْ نَشا لَكَ في العو ... دِ أخٌ يَستغيثُ منهُ العودُ
انتَ تَدري أنَّ الشتاءَ على الاشـ ... ـجارِ صعبٌ - اذا أطلَّ - شَديدُ
لَو أرادَ الالهُ بالارضِ خِصْباً ... ما تَغنّى مِنْ فَوقِها محمودُ[١١]
كُلَّما انبتت يَسيراً من العُشْـ ... ـبِ، وَغنّى، غطّى عليه الجَليدُ[١٢]

اما الواعظ فلا بد ان يجدد ويطور في وعظه، حتى لا يمل السامعون، فاذا عرف احد الوعاظ بانه يعيد ويكرر فيما يقول، انصرف عنه الناس. قال ابن حِكّينا يهجو واعظا:

يُعيدُ ما قالَ أمسِ في غَدِهِ ... بلا اختلافِ المعنى ولا اللفْظِ
حَضرتُ بعضَ الأيامِ مَجلسَهُ ... فكُلّ ما قالهُ على حِفْظي[١٣]

ويعد الحيص بيص اشهر من هجي من شعراء القرن السادس، وكان يزعم انه من تميم، وتغلب على طباعه اخلاق اهل البادية، فقال زميلة هبة الله بن الفضل يهجوه:

كَمْ تَبادَى[١٤]؟، وكَمْ تُطوِّلْ طُرْطُو ... رَكَ؟!، ما فيكَ شَعْرةٌ من تَميمِ

---

(١) عيون الأنباء ٢ / ٣١٢، وفيات الأعيان ٥ / ١٠٥.
(٢) الخريدة ٢ / ٢٤٥، الوفيات ٣ / ٣٦٣.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٧، الخريدة ٢ / ٢٥١، ٢٦١
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٧.
(٥) نفسه ص ٣٢١، ٥٤٠.
(٦) مجلة المجمع العلمي العربي مج ٤٢ ص ٢٢٤-٢٢٥.
(٧) تاريخ الحكماء، ص ٢٧٨ (ط. السعادة)، الروضتين ٢ / ٧٣.
(٨) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ١٧٣.
(٩) هو محمد بن المبارك، أبو عبد الله، نسب إلى أمه، وكانت عوّادة محسنة. توفي بعد سنة ٥٤٠ هـ. الخريدة ٢ / ٢٥٠-٥
(١٠) قال العماد انه: «البديوي العَوّاد» الخريدة ٢ / ٢٥١.
(١١) محمود: شقيق البديوي العواد.
(١٢) الخريدة ٢ / ٢٥١.
(١٣) نفسه ٢ / ٢٤٥.
(١٤) تبادي: أراد تتبادى، اي تتشبه بأهل البادية.
(١٥) الطُرْطُور: القلنسوة الدقيقة الطويلة.

فَكلِ الضَّبَّ، واقرطِ الحَنْظَلَ اليا   بسَ،واشربْ ـ ما شئت ـ بولَ الظليم [١]
لَيسَ ذا وجهَ مَنْ يضيفُ، ولا يقـ   ـري ولا يدْفعُ الاذى عَنْ حَريمِ [٢]

٣ ـ هجاء المدن:

من المدن التي هجيت بغداد[٣]، واصفهان[٤]، وسنجار[٥]، وواسط[٦]، وهيت[٧] واربل[٨]، ودمشق[٩].

وهذا الهجاء قد ينظم للتسلية والمزاح، يقطع به المسافرون طرقهم الطويلة، وقد يجد فيه بعض الشعراء متنفسا عما اصابهم من احدى المدن او من اهلها.

وليس هجاء المدن على اسلوب واحد، فمنهم من يذم اهل المدينة بانهم معرضون عن شعره:

يَتمنّـون أنْ تحـلَّ المسـامـ   ـرُ بأسْماعِهمْ، ولا الشعر مِنّي [١٠]

ومن الشعراء من يزعم ان المدينة كئيبة، حزينة، لا تشرح قلب المسافر، ولذلك هجاها:

تَبّـاً لِشيـطاني، ومـا سَـوَّلا   لأنّـهُ أنـزلـنـي إرْبِـلا
نَـزلْتُها في يـومِ نَحْسٍ، فمـا   شَـكَكْـتُ أنّي نـازلُ كَـرْبَـلا [١١]

وقال ياقوت عن هذه القصيدة بأنها «مشهورة سلك فيها الشاعر ـ وهو المعروف بشَيْطان العراق[١٢] ـ طريق الهَزْل، راكبا سنن الفكاهة، موردا الفاظ البغداديين والاكراد»..

اما بغداد فقد هجيت بانها مدينة الاغنياء المترفين، والمفلس فيها غريب مهمل «كأنه مصحف في بيت زنديق».

بَغـدادُ دارٌ لاهـلِ المـالِ طَيِّبَـةٌ   ولِلمفَـاليسِ دارُ الضَّـنـكِ والضِّيقِ
ظَللتُ حَيـرانَ أمشي في أزقَّتِهـا   كَأنّني مُصحَفٌفي بيتِ زِنْديقِ [١٣]

---

(١) الظّليم: ذَكَر النَّعام.
(٢) وفيات الأعيان ٢ / ١٠٧.
(٣) المنتظم ١٠ / ٩٤.
(٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٠٠، معجم البلدان: جي.
(٥) معجم البلدان. سنجار.
(٦) الخريدة ١ / ١٨٢.
(٧) نفسه ٤ / ٢٩٤، معجم البلدان: هيت.
(٨) معجم البلدان: اربل، نكت الهميان ص ١٢٢.
(٩) الخريدة / نسخة ايران ٢٤٠.
(١٠) معجم البلدان: هيت.
(١١) معجم البلدان: اربل.
(١٢) اسمه أنو شروان، وكان ضريراً، والغالب على شعره الخلاعة والمجون والهَزْل والفحش. نكت الهميان ص ١٢٢
(١٣) المنتظم ١٠ / ٩٤.

وهجيت سنجار بالصغر والضيق:

زادَ أمينُ الدينِ في وَصْفهِ سِنجارَ، حَتّى جئتُ سِنجارا
فَعاينَتْ عَيْنايَ - إذْ جئتُها - مَصْيدةً قد مُلِئتْ فارا(١)

٤ - هجاء المجتمع باسره:

الشعراء جماعة من الناس تختلف عنهم في الاحاسيس والمشاعر والعواطف فهم ارق احساسا من سائر الناس، لذلك تراهم يغضبون ويثورون لامور يراها سواهم لا تستحق الاهتمام، وقد يكلفون ويولعون بما لا يلفت نظر الآخرين. ان الشاعر - في بعض الاحيان - لا يستطيع الوقوف بوجه الطغاة المتجبرين من بني البشر، لا يقدر ان يقول كلمة الحق ويجهر بها امام اناس اعتادوا الكذب والدجل والخداع، ولذلك يضطر الشعراء الى مهاجمة الزمن وصب غضبهم عليه، وهم يعلمون ان اهل الزمن او حكامه هم اساس البلاء:

إنّي رأيتُ الدهرَ في صَرْفهِ يَمنحُ حَظَّ العاقلِ الجاهلا
فَما رآني نائلاً ثروةً أظنُّهُ يَحسبُني عاقِلا(٢)

وقد توهم بعض الشعراء - وهم في غمرة الانفعال - ان الساقطين من الناس هم المتقدمون:

قالوا: ابن صُعْلوكٍ(٣) بهِ أُبْنَةٌ فقلتُ: كلا وعليٍّ(٤) الرِّضا
مَنزلةٌ ما خِلتُهُ نالَها ولو سَعى بينَ يَديهِ القضا(٥)

ويرى ابن التعاويذي ان بعض المتنفذين لا يستحقون المديح، ولذلك ينصح زملاءه من الشعراء ان يتجهوا الى الهجاء فهو اجدى واصدق:

يا قالَةَ الشِّعرِ أما فيكمْ فَتىً ذو مَحْمِيَهْ؟
يَأنفُ أنْ يَغْشى مَقا ماتِ السُّؤالِ المُخْزِيَهْ
إلى مَتى جفونكُمْ عَلى قَذاها(٦) مُغْضِيَهْ؟

---

(١) معجم البلدان: سنجار.
(٢) الخريدة ٢ / ٣٣١.
(٣) هو يحيى بن صعلوك، قال العماد عنه: «شاب من أولاد حجاب الديوان العزيز، وتعاطى نظم الشعر مُدَيْدَة». الخريدة ٢ / ٢٢٨.
(٤) هو ابو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم. أحد الأئمة الإثني عشر عند الأمامية. توفي سنة ٢٠٢، وقيل ٢٠٣. تاريخ ابن الأثير: ٦ / ١٣٠، وفيات الأعيان ٢ / ٤٣٢، الأعلام ٥ / ١٧٨.
(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٨.
(٦) القذى: الجسم الغريب في العين.

وَكَمْ تَموتونَ بِأدْ واءِ الهمومِ المُدْوِيَهْ[1]؟
دَعوا المَديحَ، وابردوا صُدورَكُمْ بالاهْجِيَهْ
فَذمُّ اولادِ الزِّنا ءِ فيه بعضُ التَسْلِيَهْ

... الخ[2].

ان هجاء المجتمع، او الطبقة العليا منه، صورة من صور الواقع التي يحاول المجتمع طمسها وعدم الاعتراف بها والتستر عليها في كل زمان ومكان، ولكن الشعراء يأبون الا ان يذكّروا بالحقيقة ويشيروا الى مواطن الضعف في البيئة الاجتماعية. وعلى مر العصور وتعاقب الدول والناس، ظل الشعراء يهجون ويصرخون، وظل المجتمع لا يأبه بهم، بدعوى انهم مثاليون لا امل في اصلاحهم وتحطيم بروجهم العاجية.

الهجاء بين اللفظ والمعنى:

من البديهي ان يستفيد شعراء القرن السادس من تجارب اسلافهم من شعراء القرون السابقة، فادرجوا الغرض الذي ينظم من اجله الهجاء، وعرفوا انه لا بد ان يصل الى اعماق المجتمع، والى اكبر عدد من افراده، كما عرفوا المعاني والاساليب التي تؤثر في الناس وتثيرهم، وقال لهم النقاد: «ان جميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود، وترك الفحش فيه اصوب الا جَريرا.. وسلك طريقته في الهجاء سوى علي بن العَبَّاس الرومي، فانه كان يطيل ويفحش[3]..»

ومن شعراء الهجاء ـ غير جرير وابن الرومي ـ عرف ابو نواس والمتنبي، وقد لاحظ النقاد ان هجاء هذين الاخيرين يختلف تبعا لاختلاف مراتب المهجوين[4] وقد استوعب شعراء القرن السادس هذا كله، وفي الوقت نفسه ادركوا نفسية ومزاج معاصريهم، فشاع في اهاجيهم القصر، ومالوا الى تركيز اهاجيهم في اقل عدد من الابيات، وهو ما عرف باللمحة الدالة، فجاءت معظم اهاجيهم قليلة الابيات والالفاظ، ولكنها مركزة المعاني، دقيقة الافكار، خالية من فضول الكلام، وهجين المعاني وفاحشها. على ان هذا لا يعني ان هجاء العصر خلا من القصائد الطوال، او سلم من البذاء والسباب، ان هبة الله بن الفضل من الشعراء الذين نظموا اطول قصائد الهجاء في القرن السادس، وقصيدته في قاضي القضاة:

---

(١) المُدْوِيَة: المرضة.
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦١
(٣) العمدة ٢ / ١٧٢.
(٤) نفسه ٢ / ١٧٣

يـا أخي الشـرطُ املكُ لـسـتُ لـلـثَّـلْب أتـركُ

قال ابن خلكان: «انها ١٢٨ بيتاً»[١]. ويذكر العماد[٢] شخصا يسميه (جنون البصري) له قصيدة طويلة في بَغَاء، فيها افحاش، وقال العماد: انها سائرة. وعلى الرغم من ميل اكثرية الهجاء الى ذكر صفات المهجوين المعيبة والمبالغة فيها: كالتكبر والبخل والقسوة، ولكننا نجدهم احيانا يهجون بلؤم الاصل وخسة الجدود، كقول سَعْد بن علي الحَظيري:

كَـمْ تَـدَّعـي كـرم الـجـدو د، وأنـتَ تحـرمُ مَنْ شَـكَـرْ؟!
وَعَـلَى فَـسـادِ الاصـلِ مِـنْـ ـكَ يَـدلُّني عَـدمُ الـشَّـمـرْ[٣]

وقول هبة الله بن الفضل في بعض الهاشميين:

يُكْنى أبـا العَبّاسِ، وهـوَ بصـورةٍ حَكَمتْ عليه وأُسجلتْ[٤] بمُغَمَّرِ[٥]
في كَفٍّ والـدهِ، وفي أَقـدامـهِ آثارُ نيلٍ[٦] لا يَـزالُ، وعُصْفُرِ[٧]
واذا رَأى البركيلَ[٨]، يخفِقُ خِيفةً ذي الهـاشميّة أصلُهـا مِنْ خَيْبَرِ[٩]

واحيانا يكون الهجاء برقّة الدين والخروج على تعاليم الاسلام:

يـا حـاكمـاً، مـا مُسلمٌ واحـدٌ يَسلمُ مـن احكـامـهِ الـجـائـرَهْ
احـتَلْتَ لـلدنيـا فَـحـصَّلْتَـهـا، والـرأيُ أنْ تَحتـالَ لـلآخِـرَهْ[١٠]

وقال ابن حِكِّينا:

ومُنتقـلٍ بـالاثمِ أَرْسـاهُ جُـرْمـهُ فَلَمْ يَقـدِروا مِنْ ثِقْـلهِ أنْ يُقِـلّوهُ
رَأى اهـلُهُ إبعـادَهُ مَـغْـنـمـاً لَهُـمْ وكـانَ كثيـراً عنـدهمْ، فـاستقلّوهُ
ولم يَسمَـعِ الحَفّـارُ سـاعـةَ دفنِـهِ وَتَـوسيدهِ، الآ: «خُـذُوهُ[١١] فَغُلّوهُ»

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ١٥١.
(٢) الخريدة ٤ / ٧٥٩.
(٣) الخريدة ٤ / ٥١.
(٤) أسجلت: ملئت.
(٥) مغمر: من الغُمْرَة، وهي الزعفران: يصفه بالعبوسة والصفرة.
(٦) النيل: صبغ أزرق.
(٧) العُصْفُر: نبات يستخرج منه صبغ أحمر.
(٨) البركيل أو البرقيل: القوس الذي يرمي به الصبيان البندق.
(٩) الخريدة ٢ / ٢٧٦، خيبر: ناحية مشهورة في الحجاز، كانت مساكن اليهود: يصفه بالجبن، وانه من أصل يهودي
(١٠) الخريدة ٢ / ١٦٦.
(١١) الخريدة ٢ / ٢٣٨، والاقتباس من الآية ٣٠ (الحاقّة).

ووجدت المذاهب الاسلامية طريقها الى معاني الهجاء، كقول المؤيد الالوسي:

وأعورٍ رافضيٍّ[1] لله ثم لشِعْري
يَدعونهُ بابنِ زيدٍ، وهو ابنُ زيدٍ وعمرو[2]

وقال سَعد بن علي الحَظِيْري:

يا فَتحُ، يا اشهر كُلِّ الوَرى بالِلؤم والخِسَّة والكِذْب
كَمْ تَدَّعي شِيعةَ آلِ النَّبي؟ اسمُك يُنبيني عَن النَصْب[3]

وكما تعددت معاني الهجاء، تُعددت كذلك اساليب الشعراء في توكيد الهجاء، وضمان انتشاره وذيوعه بين الجماهير. فقد عمد الشعراء الى الاساليب البسيطة، السهلة، الشعبية، التي تقرب من لغة العامة وطرقها في التعبير، كقول هبة الله بن الفضل:

يا حَزينة، الطُمي الطُمي قد وَلى (ابنُ المُرَخَّم[4]).
وَي[5] على الشَّرعِ والقَضا وَيْ على كُلِّ مُسْلم
أترى صاحبُ الشَّريـ ـعةِ قد جُنَّ او عَمِي[6]؟!

وقوله:

يا (كمال الدينِ) الذي هو شَخصٌ مُشخَصُ
والرئيس الذي بِهِ ذَنبُ دهري يُمحَّصُ
خُذْ حَديثي، فأنَّهُ نَبأٌ سوفَ يرخصُ
كُلَّما قلتُ قَد تَبغْـ ـدَدَ قَومي تَحمْصَصُوا[7]
وَغَواشٍ[8] على الرؤو سِ عَليها المُقَرْنصُ[9]
... الخ[10].

(١) رافضي: منسوب الى جماعة المسلمين التي ترفض خلافة أبي بكر وعمر (رضي).
(٢) معجم البلدان: آلوس.
(٣) تمام المتون ص ٢٤٧، النصب: بغض آل النبي (ص).
(٤) هو القاضي يحيى بن سعيد بن المرخم، وقد مرت الاشارة إليه في الفصل الأول ص ٢٦.
(٥) وي: إسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.
(٦) المنتظم ١٠/ ٢٠٧.
(٧) تحمصصوا: صاروا من أهل حمص.
(٨) الغواشي: الواحدة غاشية، وهي الغطاء.
(٩) المقرنص والمقرنس: سقف عمل على هيئة السلّم.
(١٠) وفيات الأعيان ٥/ ١٠٨- ١٠٩.

كما عمدوا الى الالفاظ القرآنية، يقتبسون منها ما يلائم شعرهم، فبدا الهجاء طريفا وقد اكد وزين بآيات الكتاب الكريم. ولكن هذا الاقتباس قد يخرج الآيات عن معناها ـ احيانا ـ مما يغضب رجال الدين، وان اشبع عاطفة الشاعر الحانق الغاضب.

فمن الاقتباس قول هِبَة الله بن الفضل يهجو (كَثِير[١] بن شَمالِيْق):

(ابنُ شَمالِيق) لَيسَ فيهِ نفعُ صَغيرٍ ولا كَبيرِ
فَكيفَ أُثني عَليهِ يوماً بِمَنْطِقِ الحامدِ الشَّكورِ؟!
واللهُ قَدْ قالَ فيهِ قَبْلي يَهْجوهُ: «لا خَيرَ في كَثيرِ[٢]»

وقال آخر:

أتحسبُني أفدْتُ إليكَ نَفْسي وَلي بكَ، أو بما تَأتيهِ، عِلْمُ؟
ظَننتُ بكَ الجميلَ، فَخابَ ظَنيِّ وَقالَ اللهُ: «بَعْض الظَّنِّ إثمُ[٣]»

والاقتباس من القرآن الكريم ليس جديدا على الشعراء، فقد اورد صاحب مروج الذهب مجموعة من اهاجي عليٍّ[٤] بن محمد بن نَصْر، وفي بعضها اقتباس من القرآن الكريم، كقوله:

عُبَيْدُ[٥] اللهِ لَيسَ له مَعادُ وَلا عَقلٌ، وَليسَ لَهُ سَدادُ
رُدِدْتَ الى الحَياةِ، فَعُدْتَ عنها لِقولِ اللهِ: «لَوْ رُدُّوا لَعادُوا[٦]»

كذلك ضمن الشعراء اهاجيهم شيئا من شعر اسلافهم، وهذا التضمين نادر في هجاء هذه الفترة، لم اقف له الا على شاهد واحد، اورده صاحب الوفيات[٧] لشدة اعجابه به، وهو قول هبة الله بن الفضل:

---

(١) لم اقف على ترجمة له. وانظر الخريدة ٢ / ٢٧٥ هامش المحقق رقم ٥.

(٢) الخريدة ٢ / ٢٧٥، والاقتباس من الآية ١١٤ (النساء): لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إلَّا مَنْ أمر بِصَدَقَةٍ أومَعْروفٍ أو إصلاحٍ بَين النّاس.

(٣) الخريدة ٢ / ٣٢٧، والاقتباس من الآية ١٢ (الحجرات): يا أيُّها الذين آمَنوا اجْتَنِبوا كَثيراً مِنَ الظَنِّ، إنَّ بَعضَ الظنِّ إثْمٌ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكم بَعْضاً.

(٤) مرت ترجمته ص ١٤٦ هامش ٣.

(٥) هو عبيد الله بن سليمان بن وهب، وزير المعتضد، توفي سنة ٢٨٨، ابن الأثير ٧/ ١٨٢، وفيات الأعيان ٢ / ٣٠٦، فوات الوفيات ٣ / ٥٨، الأعلام ٤ / ٣٤٩.

(٦) مروج الذهب ٤ / ٣٠٠، والاقتباس من الآية ٢٨ (الأنعام): وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهوا عَنهُ، وَإنَّهُمْ لَكاذِبون.

(٧) وفيات الأعيان ٥ / ١٠٥

يا أهلَ بَغدادَ، إنَّ الحَيْصَ بيصَ أتى بِفعْلةٍ أكْسبتْهُ الخِزيَ في البَلَدِ
هو الجبانُ الذي أبدَى تَشاجُعَهُ على جُرَيٍّ ضعيفِ البَطْش والجَلَدِ
وَليسَ في يَدِهِ مالٌ يَديهِ[١] بهِ وَلَمْ يكنْ ببواءٍ[٢] عنهُ في القَودِ[٣]
فَأنشَدتْ جَعْدَةٌ[٤] ـ مِنْ بَعدِ ما احْتَسَبتْ دَمَ الأُبَيْلِقِ عندَ الواحدِ الصَّمَدِ ـ
(أقولُ للنفْسِ تَأساءً وَتعْزِيَةً : إحْدَى يَدَيَّ أصَابتْني، وَلم تُرِدِ
كِلاهُما خَلَفٌ مِنْ فَقدِ صاحِبهِ هذا اخي ـ حينَ أدعوهُ ـ وذَا وَلَدي[٥])

ان شعراء القرن السادس لم يقفوا عند حدود الطرق السالفة في محاولاتهم المستمرة لتطوير فن الهجاء، والاخذ بأكثر الاساليب والوسائل اتفاقا وتمشيا مع روح العصر وطباع اهله، ولذلك حاولوا ان يطوروا اهاجيهم ويحوروها ـ لفظا ومعنى ـ تبعا لمراتب المهجوين ومنزلتهم الاجتماعية، فصار الهجاء انواعا وضروبا: فمن لا يجدي فيه التلويح والاشارة اتخذ له سلاح التصريح والعبارة الجارحة المؤلمة[٦]، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك، فقد عمد هبة الله بن الفضل الى اللغة الفارسية، وراح يدس بين ابياته كلمات وتعابير فارسية، حين اضطر الى ان يهجو رجلا يكره العرب ويفضل عليهم الفرس.

ففي الوقت الذي نجد فيه شعراء القرن السادس يهجون افرادا. بمثل قولهم:

شَخصٌ يَعِزُّ على الكَلْـ ـبِ أنْ يُقاسَ بِكَلْبِ[٧]

وقولهم:

وهجوي لا أُعرِّضُهُ لِقردٍ مخافةَ انْ تدنسه القرود[٨]

وقولهم:

لِلؤمِ شَرْعٌ، وَهمُ رُسْلهُ وعَنْهُمُ جاءَ بِمِنْهاجِ[٩]

اقول في ذلك العصر نفسه، نجد شعراء الهجاء وقد أعدوا هجاء آخر يختلف عن هذه الشتائم، لافراد آخرين تؤلمهم الكلمة النابية، وقد لا يصدقها الناس، وربما سخروا

---

(١) يَديه: من الدِيَة، وهي ما يعطى من المال بدَل القتيل.
(٢) بواء: مُساوٍ له.
(٣) القود: القصاص وقتل القاتل بدل القتيل.
(٤) جَعْدَة: اراد بها هنا الكلبة، وأبو جعدة: كنية الذئب.
(٥) البيتان المضمّنان لأعرابي قتل أخوه ابنا له. شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ٢٠٧.
(٦) العمدة ٢ / ١٧٣.
(٧) الخريدة ٤ / ٣٨٤.
(٨) الخريدة ٤ / ٣٨٤.
(٩) نفسه ٤ / ٣٨٥.

من الشاعر لانه افترى وكذب على اشخاص عرفوا بين جميع الناس بخلاف ما ادعاه الشاعر. ومن هنا لا بد من تخير الهجاء المناسب للرجل المناسب، تأمل - مثلا - كيف هجا ابن حِكِّينا الشريف هبة الله بن الشَّجَري - وكان من فضلاء عصره - :

يا سَيِّدي، والذي يُعيذُكَ مِنْ ... نَظمِ قَريضٍ، يَصْدا بهِ الفكْرُ
ما فيكَ مِنْ جَدِّكَ النبيِّ سِوى ... أنَّك ما يَنبغي لكَ الشِّعْرُ[1]

فيحار الباحث: فماذا يسمى هذا الشعر؟ انه مديح قريب من الهجاء، أم هجاء كأنه مدح. ولست اشك ان معاصري الشاعر تداولوا هذين البيتين زمنا لبراعة الشاعر في الجمع بين المدح والهجاء.

وقال ابن حَمْدون[2] الكاتب:

وَحَاشَا مَعاليكَ أنْ تُسْتَزَادَ ... وَحاشَا نَوالكَ أنْ يُقْتَضى
ولكنَّما أستزيدُ الحُظوظَ ... وإنْ أمَرتْني النهى بالرِّضى[3]

وقال ابن حِكِّينا:

ما بالُ أشْعاري - وقد ضُمِّنَتْ ... مَدحكمُ - تَرجعُ بالدَّلْق[4]؟
ما فيكُم بخلٌ، وما بي غِنىً ... عَنْ نائلٍ، والنُّجحُ في الصِّدق
وَلستُ أستبطي، ولكنَّني ... يَنقطعُ الغيثُ فاسْتَسْقى[5]

ومن استعمال اللغة الفارسية، قول هبة الله بن الفضل للواعظ الغَزْنَوي[6]، وكان يذكره ويتعرض به:

وأنتَ تنهى النَّاسَ عن غيبةٍ ... في مِثلِها تأمرُ بالردِّ
امَّا بتخويفٍ من النَّارِ، أو ... بنوعِ تَشْويقٍ الى الخُلْدِ
وبَعدَ ذا تفعلُ بي هكذا؟ ... زنْهارْ مِنْ سالوسِكَ السَّرْدِ!

---

(١) نفسه ٢/٢٣٥، وقد ألمح في عجز البيت الثاني إلى قوله تعالى: وَما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وَما يَنْبَغي لَه. الآية ٦٩ (سورة يس).

(٢) هو أبو المعالي بن حمدون: مرت ترجمته في الفصل الأول ص ٢٩ هامش ٤.

(٣) وفيات الأعيان ٤/١٦.

(٤) الدلق: خروج الشيء من مخرجه بسرعة، وأراد بها هنا أن شعره لا فائدة منه.

(٥) الخريدة ٢/٢٣٧.

(٦) هو علي بن الحسين، الملقب بالبُرْهان، كان مفوهاً فصيحاً، يدل بمحبة الأعاجم ولا يعظم بيت الخلافة، توفي سنة ٥٥١ المنتظم ١٠/١٦٦، الكامل: ١١/٨٨، البداية والنهاية ١٢/٢٣٤، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٣.

وهــذه العُجمــةُ، مِنْ عنــدكَ اقــ تبستُهــا، مــا هــي مِنْ عِنْــدي
لا تُـصلحِ الـفــاســدَ مِنيِّ بمــا يخَــرجُ مــن خــردٍ الى شــدَ[1]
وَدَرْدِسَــرْ، يــا نــورَ عيني، مُكنْ لِـضـيِّـقِ الأنـفــاسِ بــالــدَّرْدِ
... الخ[2].

فعبارة: «زنهار من سالوسك السرد»، معناها: حذار من كلامك المخادع البارد. وعبارة: «درد سر مكن» تعني: لا توجع رأسك. والدَرْد: الغم بالفارسية[3]، ولا زالت شائعة على السنة العامة من العراقيين حتى اليوم.

٣ ـ الغزل والنسيب:

هذا غرض يكاد يساوي المديح من حيث كثرة الشعر وغزارة المقطوعات والقصائد التي قيلت فيه، وحسبك ان جميع الناظمين من شعراء محترفين او غير محترفين قلما خلت ترجمة احدهم من ابيات في الغزل.

ان معظم غزل القرن السادس هو مقدمات لقصائد المديح، ولذلك صار قسم كبير من غزل هذه الحقبة من الغزل التقليدي الذي اعتاد الشعراء العرب ان يفتتحوا به قصائد المديح، كذالك صرنا ـ ربما لاول مرة في تاريخ الشعر العربي ـ نجد طائفة من كبار شعراء المديح هم انفسهم من شعراء الغزل المعروفين.

ان طول المقدمة الغزلية عند شعراء ليسوا غزلين هو من الظواهر الأدبية التي يحسن ان اقف عندها، وخاصة عند الحسُين بن عبد الوهّاب المعروف بالبارع والمتوفى سنة ٥٢٤ هـ، وكذلك مقدمات بعض قصائد ابن التعاويذي.

ان قصيدة البارع التي مطلعها:
ذَكَــرَ الأحــبــابَ والــوطَــنــا والـصِّبـى والألْـفَ والـسَّـكَـنـا[4]

زادت مقدمتها الغزلية على اربعين بيتا، وكذلك قصيدته التي مطلعها:

طَـربتُ وهـاجَ لَي البـرقُ .وَهْنـا[5] تَبــاريــحَ وَجْــدٍ قَــديمٍ بلُبنى[6]

---

(١) خرد إلى شد: كذا بالأصل، وهو غير واضح المعنى، وآنظر الخريدة ٢ / ٢٨٤ هامش «٤».
(٢) الخريدة ٢ / ٢٨٤ـ ٢٨٥.
(٣) الألفاظ الفارسية ص ٦١.
(٤) الخريدة / نسخة ايران ٢٣٥.
(٥) وَهْناً: الوَهْن: منتصف الليل أو بعد ساعة منه.
(٦) الخريده / نسخة ايران ٢٣١.

وبعض مقدمات ابن التعاويذي زادت على الثلاثين بيتا كقصيدته التي مطلعها:

ابـثّكـم أنيَ مَشـوقٌ بـكـمْ صَـبُّ وأنَّ فؤادي للأسى بَعدكم نَهبُ[1]

وقصيدته:

عَصْـرُ الشَّبـابِ تَصـرَّمتْ أوقـاتـهُ وَتَبَسَّمتْ عن فَجـرِهـا لَيـلاتُـهُ[2].

ان الشاعرين يعيدان ويكرران، ويشققان القول، ولا يكاد الواحد منهما يترك لفظة غزل، ولا عبارة نسيب، أو فكرة أو صورة يمكن ان تدل على صبابة أو وجد الا استعملها في مقدمات المدائح، كل ذلك حتى يصل بها الى الطول المطلوب، وحتى لا يملك الباحث الا ان يتساءل متعجبا من اين يأتي هذان الشاعران بكل هذه الابيات؟ ومن اين لهما بهذه الالفاظ والمعاني، وهذا النفس الشعري الذي لا ينضب ولا يضعف حتى تصل القصيدة احيانا الى اكثر من مائة بيت؟

لقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة[3] الى ان الطول هو الصفة الغالبة على قصائد المدح، ولا شك ان طول المقدمة الغزلية هو احدى طرق اطالة القصيدة بصورة عامة. وعندي ان سبب هذا الطول يرجع الى عاملين اساسيين:

الأول:

شاعرية الشاعر أو طاقته على النظم، فان الشاعر المحدود القابلية يختصر مقدمته اختصارا كي يسرع الى الهدف الاصلي من القصيدة، قبل ان يدركه الاعياء، اما كبار الشعراء فان رصيدهم لا ينفد، وربما تفتحت قرائحهم وظهرت مواهبهم كلما طال الشعر. وليس من المستبعد ان يطيل الشاعر في الغزل لانه مجيد في هذا الميدان، وهو يعرف ذلك جيدا. اما الذين اسقطوا المقدمة الغزلية من معظم مدائحهم ـ وأشهرهم الحيص بيص ـ، فربما عمدوا الى ذلك لانهم لا يجيدون التغزل ـ وان تعللوا بعلل اخرى.

الثاني:

ثقافة الشاعر، وخاصة في اللغة، اذ بدونها لا يستطيع ان يأتي بكل هذه المفردات التي يقيم بها شعره، وقد اشار ابن خلكان الى ان البارع كان نحويا لغوية مقرئا. . افاد خلقا كثيرا خصوصا باقراء القرآن الكريم[4].

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠.
(٢) الديوان ص ٦٣.
(٣) أنظر دراسة المدح في أول هذا الفصل الثالث.
(٤) وفيات الأعيان ١ / ٤٣٥.

ان ارتباط قسم كبير من غزل هذه الفترة بالمديح، وخاصة مدح الخلفاء وكبار شخصيات العصر، جعل الشعراء في موقف دقيق خاص، اذ لا بد أن يكون شعر هذه المناسبات الحاشدة الرسمية جديرا بسمعة الشاعر وهيبة الموقف، فلا مجال لاطلاق العنان والاسراف في الغزل وأحاديث الصبابة وغير الصبابة، على حساب الوقار والتقى والورع التي يجب أن يتصف بها الخليفة، كما لا يصح ان يكون غزل الشاعر باردا متكلفا وهو يفتتح مديحه امام سمع وبصر حشد من كبار العلماء والأدباء والنقاد، فكل كلمة أو عبارة أو صورة، يجب أن توزن بدقة. ولذلك بذل الشعراء جهودا جبارة، وحاولوا المستحيل، وسودوا عشرات الصفحات حتى استطاعوا ان يوفقوا بين الغزل ومدح الخلفاء. فكان من ذلك قصائد وأبيات كانت مثالا يحتذى في العصور التالية، مثل قصيدة ابن التعاويذي في مدح القاضي الفاضل:

مَـرّتْ بِجمـعٍ لـيلةَ الـنَـفْـرِ[1] تجـمـعُ بـيـنَ الاثـمِ والأجْــرِ[2]

فقد قال الشيخ ابن دقيق[3] العيد: انه لو مدح بها لاجاز عليها بالف دينار[4] وقصيدة ابن المُعلّم:

تَنَبّهي يـا عَـذَبـاتِ[5] الـرّنـد كَمْ ذا الكَرى؟ هَبَّ نسيمُ نَجْدِ[6]

عارضها شاعران هما حَمّاد الخَرّاط[7]، وفِتْيان الشّاغوري[8]. ولا زال بيت الأبله البغدادي:

لا يَعـرفُ الشّوقَ الاّ مَنْ يُكـابدهُ ولا الصّبـابـةَ الاّ مَنْ يُعـانِيهـا[9]

حيا خالدا حتى اليوم.

وقد وجد في القرن السادس ـ الى جانب مقدمات المدائح ـ نوعان آخران من الغزل هما:

---

(١) النفر: اندفاع الحجاج من منى إلى مكة. (٢) الديوان ص ١٩٠.

(٣) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، الإمام العلامة، كان محدثاً مجوداً فقيهاً، أديباً شاعراً، نحوياً. توفي سنة ٧٠٢ هـ. فوات الوفيات ٢ / ٤٨٤، الدرر الكامنة ٤ / ٩١، شذرات الذهب ٦ / ٥، الأعلام ٧ / ١٧٣.

(٤) الوافي بالوفيات ٤ / ١٤.

(٥) العَذَبات: واحدتها عَذَبة، وهي طَرَف كل شيء. (٦) الخريدة ٤ / ٤٣٩.

(٧) هو حَمّاد بن منصور البُزاعي، قال العماد عنه: «.. ليس بالشام في عصرنا هذا مثله رقة شعر وسلاسة نظم..» توفي حماد سنة ٥٦٥ هـ. خريدة الشام ٢ / ١٣٠، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٨٣.

(٨) هو الشّهاب فِتْيان بن علي.. الدمشقي، كان فاضلاً وشاعراً ماهراً. توفي سنة ٦١٥ هـ. خريدة الشام ١ ٢٤٧ وفيات الأعيان ٣ / ١٩٥، الأعلام ٥ ٣٣٦، معجم المؤلفين ٨ / ٥٤.

(٩) الديوان و ١.

١ ـ الغزل المغنى:

وهو مقطوعات او ابيات تكون في العادة قليلة العدد، ! تنظم ليتغنى بها صناع الغناء أو المغنون، وقد وصلتنا اخبار اثنين منهم هما: مُظفَّر الدين ابو الفتوح سعيد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٦٠٠ هـ[١]، والبدر محمد بن الفراش المتوفى ٥٩٨ هـ[٢]، اما الشعراء الذين اشير الى ان المغنين كانوا مولعين بغناء طائفة من شعرهم فمنهم: الابله البغدادي[٣]، وابن المعلِّم الواسطي[٤]، وقد نص العماد[٥] على ان ابا المعالي بن مسلم الشروطي كان: «يعمل شعرا ويلقنه صناع الغناء».

وعلى الرغم من استقلال القطع المغناة عن المدح في العادة[٦]، فانني لم اعثر في ديوان الأبلـه على غزل له مستقل عن المدح، وقد نص على ان قصيدته الاتي مطلعها:

إنْ دامَ هَـجْـرِكِ واسْـتَـمـرّا ... ألـفيـتُ حُـلوَ الـعيشِ مُـرّا[٧]

وهي في مدح الوزير ابن هبيرة، ومما غني به.

ان معظم النصوص التي اشير الى انها غُنيت او فيها غناء، تتصف بخلوها من آثار التقليد والتعلق بأذيال القدماء كالوقوف على الاطلال، والبكاء في اثر الظاعنين، وقد يكون سبب ذلك ان هذه الموضوعات ليس فيها ما يسر، وقد فقدت طرافتها لفرط ما اعيدت وكررت.

وقد قلت «معظم» لان بعض القطع المغناة لم تسلم من هذه اللازمة كقول عماد الدين ابن الوزير عضد الدين:

قِفْ بـالِّلوى، إنْ تَنـاءَتِ الـدارُ ... فـعـنـدَ تـلكَ الاوطـانِ أوطـارُ
وشِمْ لها بـارق السَّحـاب، فـإنْ ... ضَـنَّ، فـمـاءُ الجـفـونِ مِـدْرارُ
أحبـابُنـا، أزمَعـوا الـرَّحيـلَ، ومـا ... أظـنُّ أني أعـيشُ إنْ سـاروا
راحـوا بقلبي، وخَلَّفـوا جَسَـداً ... جـار عليـه السَّقـامُ، مُـذْ جـاروا
أُحبّ نَجـداً، إنْ انجـدوا، واذا ... غـاروا، فعنـدي لـلغـورِ إيثـارُ

---

(١) تلخيص معجم الالقاب ٥ / ٥٢٢.
(٢) الجامع المختصر ٩ / ٨٨.
(٣) وفيات الأعيان ٤ / ٨٧، تاريخ الموسيقى العربية ص ٢٣٣.
(٤) الخريدة ٤ / ٤٣٨.
(٥) نفسه ٢ / ٣٠٨.
(٦) أنظر الخريدة ١ / ١٦٧، ١٨٦، ٢ / ٢٧٤، ٢٩٢، ٤ / ٣٧٣.
(٧) الخريدة / نسخة ايران ١٦٤.

لا عُــذرَ لي في الحيــاة بَعــدهــمُ النــارُ في حُبِّـهـم ولا الـعــارُ[1]

ان الرجل من اكثر الناس بعدا عن «اللوى» و«نجد» وما اظن احدا يصدقه حين يزعم ان احبابه على وشك الرحيل، وحين رحلوا خلفوه جسدا سقيما يائسا من الحياة. فاذا كان ابناء الوزراء ـ وهم في قمة الطبقة المترفة العباسية ـ يحبون نجدا لحب من سكنها، فماذا بقي لسكان البوادي الحقيقيين؟ انه التقلبد ينطق الرجل بما لا يشعر به، ولذلك تفوح رائحة التلفيق والتكلف من كل بيت، بل من كل كلمة في ابياته. وقال آخر:

يــا طُــلولُ بَــعــدَهــمُ كيفَ حــالُ ذي شَـجَنِ؟
غَــيَّــرتــكِ حــادثــةٌ مــن حــوادثِ الــزمنِ[2]

ان هاتين المقطوعتين تدلان على ان طوائف من المجتمع العباسي في عصوره المتأخرة لا تزال تجد لذة ونشوة بالاستماع الى احاديث البادية وصور اهلها، وهم ينتقلون بين الاغوار والانجاد، ولذلك نجد عذرا للشعراء حين التزموا بالمقدمة الطللية، لانهم انما يعزفون الالحان التي يحبها الجمهور.

وليس بوسع الباحث ان يطمئن الى ان العماد الكاتب قد اطلع على جميع الشعر المغنى فاشار الى القطع المغناة كلها. ان المهمة الكبيرة، وهي تسجيل ادب القرن السادس في العراق وغير العراق التي تكفل بها كتاب الخريدة تدل ـ فيما تدل عليه ـ ان الرجل سيفوته الكثير، وان قضية فرعية مثل تتبع الشعر المغنى، لا بد ان قلم العماد مر بها مسرعا منطلقا مكتفيا بالاشارات السريعة التي خلفها وراءه هنا وهناك. ولذلك ارجح أن قسما غير قليل من القطع الشعرية الغزلية المبثوثة في الخريدة ووفيات الاعيان وفوات الوفيات وسواها من المصادر التي اهتمت بشعر الفترة وشعرائه، هي من الشعر الذي نظم من اجل الغناء ـ وان لم ينص على ذلك صراحة ـ والدليل ان امثال هذه المقطوعات فيها كل صفات الشعر المغنى: البحور القصيرة او المجزوءة، والألفاظ الرشيقة المختارة، والقوافي التي اختيرت حروفها وحركاتها بعناية، وفوق كل ذلك قلة عدد أبياتها بحيث تصلح للاعادة والتكرار عند الغناء[3].

واكثر الذين رويت لهم امثال هذه المقطوعات هم: محمود الشَّرُوطي البغدادي[4]، ويوسُف بن الدُّرّ البغدادي[5]، وابن قَزَمي البغدادي[6]، وهذا الأخير بخاصة، أرجح ان

(١) الخريدة ١ / ١٦٧.
(٢) نفسه ٢ / ٢٩٢.
(٣) حياة الشعر في الكوفة ص ٦٠٤
(٤) الخريدة ٢ / ٢٩٨، ٣٠٦.
(٥) نفسه ٢ / ٣٢٩.
(٦) نفسه ٢ / ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

كثيرا من نظمه ألف وكتب للغناء والمغنين لان جميع الشعر الذي رواه له العماد، عليه طابع الغناء. ولم ينص صاحب الخريدة ان هذا الشاعر مدح أحدا، ولم يذكر سبب هذه الرشاقة والاناقة التي تغلف مقطوعاته، فتبدو متميزة عن سواها، تدل على ان الشاعر بذل جهدا غير قليل في اعدادها وصقلها وتذيبها مما يشهد له بعلو الكعب في الفن. مثل قوله:

لي حَـبيـبٌ لانَ عِطفـاً لَـيتَـهُ قـد لاَنَ عَـطْفـا
إنّ قـلبـي - مِـنْ هـواهُ - في حَـريـقٍ لَـيسَ يُـطْفـا
اشـتـهـي تَـقْـبيـلَ عَـيـنـيـ(م) ـه وصَـحـنِ الخـدِّ ألْـفـا
ثم ضِعْفَ الشَّفْعِ [1] والـوَتْـــ(م) ـرِ [2]، وضِعْفَ الضّعفِ ضِعْفا [3]

وقوله من ثانية:

لُطفُ الخُصورِ المُخْطَفَة [4] والـطّررُ [5] المُـصـفّـفـهْ
والـوَجَنـاتُ البَـضّـة الـ(م) ـمشـرقـة الـمـتـرفـة
ولـيـنُ أغـصـانِ الـقُـدو دِ الّلدنَـةِ المهفهفة [6]
أبـقتْ قـلوبَ العاشـقيـ(م) ـنَ صَـبّـةً مُخْـتَـطَفَـهْ
فـكـمْ مـريضٍ مُـدْنَـفٍ شِـفـاؤُهُ لثم الـشَّـفـهْ
ولا يُـبـالي أن يُـعَـ(م) ـدَّ فِـعْلهُ مِـنَ الـسَّـفَـهْ
قـالـوا لـه الهـائـمُ لا يَـردعُـهُ مَـنْ عَـنّـفَـهْ

... الخ [7].

٢ ـ امشاج من الغزل:

تصادف الباحث، وهو يدرس غزل القرن السادس، مقطوعات كثيرة لا يدري اين يدرسها، فهي ليست مقدمات لقصائد مديح، وليست من الشعر المغنى، كما انها لا تخلو ـ احيانا ـ من معنى طريف او تعبير مبتكر، وفيها من قوة الشاعرية واصالتها ما يوجب انتشالها

(١) الشفع: الزوج من العدد.
(٢) الوتر: الفرد.
(٣) الخريدة ٢ / ٣٣٦ـ ٣٣٧.
(٤) المخطفة: الضامرة، الخفيفة لحم الجنب.
(٥) الطرر: واحدتها طُرّة وهي الجبهة أو الناصية.
(٦) المهفهفة: واحدها مهفهف: الضامر البطن، الدقيق الخصر.
(٧) الخريدة ٢ / ٣٣٩، وأنظر ٢ / ٣٤٠.

من ايدي النسيان، وعرضها امام الباحثين فقد يرى فيها بعضهم من الدلالات غير ما تراه.

ان غزل القرن السادس الحقيقي ـ وهو قليل ـ لا يوجد في مقدمات المدائح حيث يتكلف الشاعر جزالة الالفاظ وفخامتها، وبداوة اللغة وقدمها، ولا في شعر الغناء حيث يجري الشاعر وراء الالفاظ التي تصلح للتلحين والموسيقى، مهدراً من أجل الألفاظ وفي سبيلها كل شيء. ان العواطف الصادقة البعيدة عن الافتعال الخالية من الأدعاء، تجدها في هوامش الغزل، بعيدا عن ضجيج الالفاظ، وصخب التملق والرياء. تجدها في البيتين او الثلاثة التي اصطادها الرواة فجمعوها من هذا وذاك، دون اشارة الى سبب نظمها، انها غزل وكفى، ولا يهمهم ان كان ناظمها عاشقا أو فاسقا.

ان قسما من هذا الغزل نظمه علماء مشهورون كأبي سعيد محمد[١] بن علي بن عبد الله.. الجاواني[٢] الحَلَوى المتوفى سنة ٥٦١ هـ، ويبدو أن الرجل كان أعور، ولذلك قال:

أفـديـكِ بـالعَـينِ الصَحيـ(م) ـحة، فالمريضةُ لا تُساوي
إني أقـيـكـمْ بـالَمـحـا(م) سنِ لا أقيكمْ بالَمساوي[٣]

وابي عبد الله الحسين بن محمد.. المنعوت بالبارع قال:

رُدي عليّ الكَرى، ثم اهْجُري سَكَني ... فَقَدْ قَنَعْتُ بطيف منكِ في الوَسَن
لا تَحْسَبي النومَ قد أوحشتُ أطلبُه ... الاّ رجاءَ خَيالٍ منكِ يُؤنسُني
تَركْتِني والهوى فَرْداً أغالِبُهُ ... ونامَ لَيلُكِ عَنْ هَم يُؤرّقُني[٤]

ومن شعراء هذا الغزل: علي بن افلح الكاتب المتوفى سنة ٥٣٥ هـ:

دَعِ الهوى لأُناسٍ يُعرفونَ بهِ ... قَدْ مارسوا الحُبَّ حَتىَّ لانَ أصعبُهُ
بَلَوتَ نفسَكَ فيما لَستَ تَخبرُهُ ... والشيءُ صعبٌ على مَنْ لا يُجُرِّبُهُ
إفنَ اصْطِباراً ـ وإنْ لم تَستطعْ جَلَداً ـ ... فَربَّ مُدرك أمْرٍ عَزَّ مَطْلبُهُ
أحنى الضُلوعَ على قلبٍ يُحَيِّرني ... في كُلِّ يومٍ، ويُعييني تَقلّبُهُ

---

(١) تفقه ببغداد على الغزالي.. وبرع وتميز وقرأ المقامات على الحريري، وكان إماماً مناظراً.. وله نظم.. الوافي بالوفيات ٤ / ١٥٥.

(٢) الجاواني: نسبة الى جاوان: وهي قبيلة كردية سكنت الحلة.

(٣) الوافي بالوفيات ٤ / ١٥٥، طبقات الشافعية الكبرى ٦ / ١٥٣.

(٤) الكامل لابن الأثير: ١٠ / ٢٥٤.

تَـنـاوحُ الـريـحِ مِنْ يهُـيّـجـهُ ولامِعُ البَرقِ مِنْ نَعمانَ يُطْرِبهُ[1]

وللأمير بَدْران[2] المَزْيَدي:

وَصَـغـيـرةٍ عُـلِّـقـتُـهـا كـانَـتْ مِنَ الـفِتَـنِ الـكِبـار
كـالـشَّـمسِ الاّ أنهّا تـبقـى عـلى ضـوءِ النهّـار[3]

ان هذه المقطوعات وأمثالها تدل على أن بعض شعراء العصر كان باستطاعتهم ان يطوروا فن الغزل ويدفعوا به الى امام لو تركوا قرائحهم على هواها، تعبر عما تحس، وتختار الألفاظ التي تريد، ولكن دنيا العواطف هذه - فيما يبدو - كان نصيبها من عناية القوم جد قليل.

ولا بد من الاشارة الى انني لا أستبعد أن تدل هذه القطع أو بعضها على حب حقيقي، وعاطفة صادقة، لم يصلنا منها سوى بصيص لا يكاد يضيء، كذلك يصح أن بعض هذه القطع اخذت اصلا من قصائد مدح، ابى المؤرخون والرواة الا ان يجعلوا القصيدة الواحدة اشلاء مبعثرة، فتركوا الباحثين يعتمدون على الحدس والظن والتخمين.

خصائص الغزل:

١ - غلبة التقليد عليه: على الرغم من غلبة التقليد على معظم شعر القرن السادس - كما يتضح من فصول هذه الرسالة - فان هذه الظاهرة واضحة ملموسة في الغزل التقليدي أكثر من سواه، لأن شعر المديح هو أهم وأكبر اغراض العصر، وهذه المقدمة تتصدر المديح غالبا. فما ان تحاول تقليب أي من دواوين الفترة، أو تطالع أي كتاب يهتم بشعرها حتى تطالعك هذه المقدمة بنوعيها:

الطللي: كقول ابن التعاويذي:

غـاداكِ مِنْ بَحرِ الـرَّواعـدِ مُسبـلُ وَسَقَتْكَ أخلافُ[4] الغُيومِ الحُفَّلُ[5]
وَجـرَتْ بلَيْلَ الـذَّيلِ وانِيَةَ الخُطا مِسكيَّـةَ النفحـات فيـكِ الشّمـألُ
لله مـا حُمِّلتِ مِنْ ثِقـلِ الهَـوى يـومَ استقـلَّ قَـطينـكِ المُتحمِّـلُ

.. الخ[6].

(١) المنتظم ١٠ / ٨١، وانظر أيضاً وفيات الأعيان ٣ / ٦٨.
(٢) أنظر الفصل الثاني ص ٩٢.
(٣) الخريدة ٤ / ١٨٠.
(٤) الأخلاف: الضروع واحدها خِلف.
(٥) الحُفَّل: الممتلئة.
(٦) الديوان ص ٣٢٦، وأنظر ٣٤٤، ٣٦٣. وديوان الأبله و ٨٤، ٩٤، ١٠٠، ١٢٤.

والغزلي كقوله:

أرى الأيّـام صِبْغـتُهـا[1] تحـولُ ... ومـا لِهـواكِ مِنْ قَلبي نُصـولُ[2]
وحُـبّ لا تُـغـيّـرهُ الـليـالي ... مُحـالٌ أنْ يُـغـيّـرهُ الـعَـذولُ
بنفسي مَـنْ وَهبْتُ لهَـا رُقـادي ... فَلَيـلي بعـدَ فُـرقَتِهـا طَـويـلُ

... الخ[3].

وما دام الشاعر البغدادي المترف، قد ارتضى لنفسه ان يعيش على ضفاف دجلة بين أحضان الترف والحضارة، ولكنه مع ذلك يطوف في غزله بين البوادي والرمال على ظهور الجمال، أقول ان شاعرا بدا بالصحراء والخيام والاظعان، لا بد ان يسير في هذا الطريق الى نهايته فنجد:

أ) أسماء الاماكن والبقاع التي يزعم الشاعر أن أحبابه من سكانها او ان له بها ذكريات وعلى ترابها عبرات، هذه الاماكن كلها غريب على المجتمع العراقي والبغدادي. فما اظن عراقيا مر ذات يوم بـ العقيق[4]، او المُنْحَنى[5]، أو نجد[6]، او الشّقيقة والضال[7] او رملتي يبرين[8]، او غيرها من الاسماء التي يرددها الشعراء ويلوكونها في غزلهم.

ان الشعراء لفرط ترديدهم للاسماء البدوية وحياتهم في الماضي، كأنهم نسوا ان في العراق اماكن وبقاعا يمكن ان تذكر في الغزل، فيثير ذكرها زوابع من الذكريات الحية المعاصرة. ان اسماء مثل الكرخ ودجلة والصراة والنيل[9]، لا تكاد تعثر عليها في غزل هذا العصر الا بشق الانفس، واذا وجدت اطلت عليك من بيت تلول من البداوة تخنقها خجلا كقول ابن التعاويذي:

وبالقَصْرِ مِنْ بَغـدادَ خَوْدٌ[10] إذا رَنَتْ ... لَـواحِظُهـا لم يَنـجُ مِنْ كَيـدِهـا قَلْبُ

(١) صبغتها: بالأصل صيغتها (بالياء) وما أثبته يتفق ومعنى البيت.
(٢) نصول: أراد بها هنا خروج.
(٣) الديوان ص ٣٣٩، ٣٤٧، ٣٧٤، ٣٨٦. وأنظر الخريدة ٢ / ١٧٥، ١٧، ٢٤، ٢٧، ٥٩ ...
(٤) ديوان الأبله و ٩٤.
(٥) نفسه و ١٠٠.
(٦) نفسه و ٨٤
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٣.
(٨) نفسه ص ٤٢٠.
(٩) نهر يخترق بُلَيْدَة النيل في سواد الكوفة قرب حِلّة بني مزيد.
(١٠) خَوْد: امرأة شابة.
(٦) رنت: من الرّنوّ وهو إدامة النظر مع سكون الطرف.

كَعابٌ[1] كَخوطِ البانِ[2]، لا أرضُها الحِمى ولا دارُها سلع، ولا قومُها كَعْبُ
-مُنَعّمةٌ، غيرُ الهَبيدِ[3] طعامُها ومِنْ غيرِ اللّقاحِ[4] لَها شُرّب
ولا دونهَا بِيْدٌ يُخاضُ غِمارُها قِفارٌ، ولا طَعنٌ يُخافُ ولا ضَربُ
محلّتها اعلا الصَّراةِ، ودارُها على الكَرخِ لا أعلامُ سَلْعٍ ولا الهضبُ

... الخ[5].

ان الشاعر لم يستطع ان يذكر بغداد والصراة والكرخ الا من خلال سلع وكعب والهضب والهبيد والحمى والبيد، وهذه الفتاة البغدادية المنعمة لم يجد شاعر بغداد في القرن السادس الا ان يصف طعامها بانه «غير الهبيد» وان شرابها من غير «البان اللقاح»، فهل تصدق ان البغداديات المترفات ـ وابن التعاويذي من بغداد ـ ليس لما يأكلن ويشربن من اسماء سوى هذه الاسماء والصفات البعيدة عن القرن السادس؟

وفي قصيدة اخرى قال:

ويَومٌ بالصَّراةِ لَنا قَصيرٌ وأيّامُ التَّواصلِ لا تَطولُ

وقبله بأبيات قال:

وَعنَّفني على العَبَراتِ صَحْبي عَشيّةَ قوّضَ الحيُّ الحُلولُ
وقالوا: اسْتَبقِ للأحباب دَمعاً فَقدْ شَرِقَتْ بأدمُعِكَ الطُّلولُ[6]

فاين الصراة من الدموع والطلول؟ والحي الحُلوَل؟ وما فائدة ذكر هذا النهر في وسط يضج بالاطلال والابل والرحيل والعبرات؟

ب ـ ان صورة المرأة التي رسمها الشعراء على انها المرأة المثالية كما يتخيلها الرجل، ظلت في القرن السادس نسخة من زميلتها في العصور السابقة البعيدة كالعصر الجاهلي وصدر الاسلام، وكذلك صفات الرجل العاشق هي هي حتى كأن الزمن واقف، والمجتمع يراوح في مكانه، والدنيا ثابتة لا تتزحزح، والعقلية العربية الاسلامية لم تهضم وتتصل بحضارات وثقافات غيرت كل شيء.

---

(١) الكعاب: الفتاة نهد ثديها.
(٢) الخُوط: الغصن الناعم.
(٣) الهبيد: الحنظل أو حبه.
(٤) اللقاح: واحدتها لقوح: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٥) الديوان ص ٣١.
(٦) الديوان ص ٣٤٠.

اما المرأة فلا زالت تشبّه بالبدر:

تجري دموعي شوقاً إنْ نظرتُ الى ... بَدرِ السَّماءِ وَبدرُ الأرضِ قَدْ غابا[1]

وعيونها مريضة من غير مرض:

عَبّدتْني لهُ، وما كُنتُ عَبْداً ... صِحّةٌ في جُفونِهِ واعْتِلالُ[2]

وقوامها كالقضيب، ووجهها كالصباح، وشعرها كالليل:

تُريكَ قَضيباً في كَثيبٍ اذا انثنتْ ... وصُبْحاً مُنيراً تحتَ جُنْحِ ظَلامِ[3]

ولا زالت علامات جمالها:

نَحيفُ خَصْرٍ، كَثيبُ رِدْفٍ ... ظامي الحَشا مُفْعَم[4] المَعاصِم[5]

ان الاوصاف البدوية للمرأة لا زالت كما هي على الرغم من تأثر الحياة الاجتماعية العربية بالامم الأخرى المتحضرة كالفرس والترك منذ زمن بعيد، ولكن هذا التأثر لم يظهر في شعر الشعراء المقلدين، فاكتفى بعض الشعراء بالاشارة الى ان محبوبه تركي:

جَدَّ بقلبي ومَزَحْ ... ظَبيٌ من التُركِ سَنَحْ[6]

تماما كما فعل ابن الرومي قبله بثلاثة قرون حين قال:

فَتاةٌ مِنَ الأتراكِ تَرمي بأسهُمٍ ... يُصِبنَ الحَشا في السِّلْمِ لا في المَعارِكِ[7]

ان شعر الغزل في نهاية العصر العباسي، لم يزل كما كان في بداية هذا العصر منذ ستة قرون: يدور معظمه حول جسم المرأة وملامحها الخارجية: العيون نجلاء تشبّه نظراتها بالسهام، والقوام يثنى مشبها الرمح او غصن البان، والخدود أسيلة كأن حمرتها اخذت من دماء العشاق، والفم رضابه كالخمر تسكر الباب الرجال. اما جمال المرأة المعنوي: جمال الروح، وخفة الدم، وحلاوة الحديث، ورقة الاحاسيس، وفرط الحنام، واثر ذلك على مشاعر الرجل فقلما التفت اليها الشعراء.

اما صورة الرجل العاشق فلا زالت هي الاخرى دون تغيير انه يطلق لدموعه العنان في اثر الاحباب الظاعنين:

يا مَنزِلاً بِدَواعي البَينِ مُنتَهَبٌ ... وما البَليّةُ الاّ مِنْ دَواعيهِ

---

(١) الخريدة ١ / ١٥٧.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٤٧.

(٣) ديوان الأبله و ٩٤.

(٤) مُفعَم: ممتلىء.

(٥) ديوان الأبله و ٩٠، وأنظر ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٩.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩.

(٧) ابن الرومي (حياته من شعره) ص ٣٥٨.

وَقفتُ اشكو اشتياقي والسَّحابُ به فـانَهلَّ دَمعي ومـا انهلّت غَـواليـهِ
والـنـارُ من زَفـراتي لا بـوارقـه والمـاءُ مِـنْ عَبَـراتي لا غَـوادِيـهِ
. . . الخ[1].

وأبرز ما يتصف به العاشق: النحول والأرق وفقدان الصبر وضعف الحيلة:

عَنْ جُفـوني النَّـومُ مَنْ بَـعّـدهُ؟ والى جِسمي الضَّنـا مَنْ قَـرّبـهْ؟
وَصِـلوا طيـفـاً اذا لم تَـصِـلوا مُستهـامِـا قـد قَـطَعْتُمْ سَبَبـهْ
والى أنْ تُحسِنـوا صُنعـاً بنـا قَدْ أساءَ الحبُّ فينا أدَبـهْ[2]

وقال الحيص بيص:

عَجِـزْتُ فـما لي حِيلةٌ في هَـواكمُ سِوى أنّني أزدادُ وَجداً مـع الصد
ولـو أنّني جـاهَـدْتُ نفسي فيكمُ سَلوتُ، ولكنْ لا جِهَادَ على العبدِ[3]

ولا بد ان يتصف العاشق بالوفاء غير المحدود، على العكس من الحبيب فهو غادر خائن ابدا:

أعيـذكمُ مِـنْ لَـوعَتي وشُـجـوني ونـارِ أسىً بـينَ الضُّلوعِ دَفـينِ
وَبـرحِ جَـوىً، لم يُبقِ مِنيَّ بَقيـةً سِـوى حَـرَكـاتٍ تـارةً وسُكـونِ
سَهِـرنَـا بنُعمـانٍ، ونمتم ببـابـلٍ فيـا لعيـونٍ مـا وَفَتْ لِعيـونِ
أكاذِبُ سَمْعي عَنْ أحاديثِ غَدرِكمْ وأعـرِفـهـا عنْ صِـحّـةٍ ويقـينِ
ألا مُخْـبِـرٌ عَـنيّ قـلوبـاً أبـيَّـةً يقولُ لهَا: كَمْ ذي القَسَاوة؟ لِيني[4]

ولا بد من القول في ختام دراسة ظاهرة التقليد هذه: ان التزام الشعراء بالمقدمة الغزلية التقليدية، ومدى محافظتهم عليها او التخفف من رسومها وتقاليدها يعتمد على:

١ ـ الشاعر. ٢ ـ غرض القصيدة.

ان شاعرا كابن التعاويذي يبدو مولعا بالقديم مفتونا به، ولذلك نجده يبدأ حتى بعض قصائده الذاتية ـ التي لم تنظم للمدح ـ يبدؤ ها بالغزل التقليدي، كما فعل في قصيدته التي أولها:

---

(١) ديوان ابن المعلم،و ٢٠ (نسخة النجف).
(٢) نفسه و ٤.
(٣) الخريدة ١ / ٢٤٢.
(٤) الخريدة ١ / ١٨٦.

أتُرى تَعودُ لَنا كما   سَلَفتْ لَيالي الأبرقين[١]؟

وكذلك قصيدته التي أولها:

تَأوَّبني فَأرّقني خَيالٌ   سَرى للمالِكيَّةِ بَعدَ وَهْن[٢]

وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي ـ على ما اظن ـ لأن الشعراء اعتادوا أن يتغزلوا في أوائل قصائد المديح مجبرين مضطرين، وهم يحاولون ـ حتى في شعر المدح هذا ـ ان يمروا بالغزل التقليدي مسرعين متعجلين. فما ظنك بمن يلتزم التقليد مختارا، وربما مفتونا؟

ولعل من الجديد ايضا ان نجد الأبله البغدادي يجمع في مقدمات بعض قصائده بين الغزل بالمؤنث والمذكر، وهذا الأخير هو الساقي في العادة، كقوله في قصيدته التي اولها:

على دارِ سَلمى بالعَقيقِ سَلامى   سَقاها مُلِثٌ[٣] مِثْلُ دَمعيَ هامِي[٤]

وكذلك قصيدته التي مطلعها:

أطلالَهُمْ بلِوى[٥] العَقيقِ فَحاجرِ   لاعَقَّ نُؤيَ[٦] حِماكِ نَوءُ[٧] مَحاجري[٨]

وفي هذه القصيدة الثانية نجد الشاعر ـ بعد ثمانية ابيات يتغزل فيها بالمؤنث ـ ينتقل فجأة في البيت التاسع الى الغزل بالمذكر قائلا:

وَمُعذَّر[٩] حُلو الشَّمائلِ واللَّمى[١٠]   كَمْ لي على حُبِّي له مِنْ عاذِرِ
لم أنسَهُ إذْ زارَني مُتلثِّمًا   تَحتَ الظَّلامِ على صَباحٍ سافرِ
بمَناطِقٍ[١١] نَطقٍ وحِجْلٍ صامِتٍ   وَمؤزَّرٍ عَبْلٍ[١٢] وكَشْحٍ[١٣] ضامِرِ
يَرْنو بمَطرفٍ ذي سَقامٍ ساحرٍ   في رَقْدةٍ عن طَرفِ صَبٍّ ساهرِ
ويهزُّ أعدلَ قامةٍ فيها ـ اذا   لَعبت بها الخُيَلاءُ ـ سِيرة جائرِ

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٥.
(٢) نفسه ص ٤٣٩، والوَهْن: نحو منتصف الليل أو بعده بساعة.
(٣) أُلملِثّ: المطر الذي يدوم أياماً.   (٤) ديوان الأبله و ٩٤.
(١) اللّوى: ما انعطف واستدق من الرمل، وهنا أراد بها مكاناً بعينه.
(٢) النؤي: حفرة تحفر حول الخيمة لوقايتها من المطر والسيول.
(٧) النَو: المطر، وأراد بها هنا الدمع.   (٨) المحاجر: أراد بها العيون.
(٩) المعذّر: أي ذو العذار وهو جانب اللحية.   (١٠) اللّمى: : سمرة تكون في الشفة.
(١١) المناطق: واحدتها منطقة وهي ما يشد على وسط الانسان.
(١٢) عَبْل: ممتلىء.   (١٣) الكشح: ما بين السرة ووسط الظهر.

عاطِيتهُ صَفـراءَ ما حَلّتْ حَشـاً   فَرأتْ لجيشَ هُمومِهِ مِنْ صافِرِ[1]
بَرزتْ بُروزَ الشَّمسِ بينَ شَمامسٍ[2]   سَجَدوا لَها إذْ أُخرِجتْ مِن كافِرِ[3]

.. الخ[4].

ان المقدمة التقليدية يغلب ان تلتزم بدقة في مدائح الخلفاء، ثم يعتمد مدى الالتزام بها في المدائح الأخرى على مدى العلاقة بين الشاعر والممدوح، فكلما توطدت هذه العلاقة، صرنا نجد الشاعر يخلع اللباس الرسمي في المدح، ويختار المقدمة التي تعجبه، ولذلك وجدت بعض المقدمات التي تكاد صلتها بالقديم تنقطع، كقول ابن افلح يمدح عم العماد الكاتب:

هـاتيكَ دجلةُ رِدْ، وهـذا النيلُ   مـا بعـدَ ذَينِ لحـائمٍ تَنْـويـلُ
إنْ كـانَ بَردُ المـاءِ عندكَ نـافِعاً   حرَّ الجَوى[5]، لاالاشْنَبُ[6]المعسول[7]
عَجَباً لِشأنكَ تَدَّعي ظمأً، وفي   جَفنيكَ مِنْ سَيلِ الجفونِ[8] سُيولُ
وَتَنحَّ من لَفْحِ الهَجـيرِ[9] وحَرِّهِ   وَحَشـاكَ فيهِ لَـوعـةٌ وغَليـلُ[10]
مـا هذه آياتُ مَنْ عَرَفَ الهَوى   وشَجاهُ رَقْراقُ الحيـاءِ أسيلُ[11]
لا تَكـذبنّ، فـما بِهـذا عِنْـدَنـا   أهلَ الصَّبابةِ ـ يُعرفُ المَتْبولُ[12]

... الخ[13]وكذلك قصيدة البارع التي أولها:

ذَكَـرَ الاحـبـابَ والـوَطَـنـا   والصبـي والألْفَ والـسَّكَـنـا[14]

٢ ـ قلة التجديد:

يكاد الدارسون يجمعون على ان الشعر العربي دخل منذ القرن الرابع في مرحلة الجمود والركود، اذ قلما وجد ابتكار او تجديد يمكن ان يشار اليه، وظل الشعراء عيالا على اسلافهم: يرددون افكارهم ويكررون صورهم. ويرى القاضي الجرجاني: ان المتنبي ومعاصريه معذورون اذا قصروا عن اسلافهم، لان احدهم يقف محصورا بين لفظ

(١) الصافر: الواحد.
(٢) الشمامس: واحدها شَمّاس: وهو دون القسيس.
(٣) الكافر: أراد به وعاء الخمر لانه يخفيها
(٤) ديوان الأبله و ٨١.
(٥) الجَوى: شدة الوجد.
(٦) الأشْنَب: ذو الأسنان البيضاء الحسنة.
(٧) المعسول: الحلو.
(٨) الجفون: واحدها جفن: قراب السيف وهو هنا السيف نفسه.
(٩) الهجير: شدة الحر.
(١٠) الغَليل: العطش الشديد.
(١١) الأسيل: الخد الطويل في امتلاء.
(١٢)المتبول: الذي أذهب الحب عقله.
(١٣)الخريدة ٢ / ٥٥.
(١٤)الخريدة / نسخة ايران ٢٣٥.

قد ضيق مجاله، وحذف اكثره، وقل عدده، وحظر معظمه ومعان قد اخذ عفوها وسبق الى جيدها[1]. . ويؤكد صاحب العمدة هذا الرأي، مشيرا الى ان الشاعر كلما تأخر زمنه، صار امله في التجديد والابداع ضئيلا، لان اسلافه لم يتركوا من الالفاظ والمعاني الا ما لا خير فيه[2].

وقال الدكتور شوقي ضيف: ان الناقد لا يحس ازاء شعراء القرن الرابع وما بعده من قرون بالاعجاب الذي كان يحسه ازاء اسلافهم من شعراء القرنين الثاني والثالث، فقد شمل الحياة الفنية غير قليل من الركود والجمود، فالماء ساكن وليس عليه امواج ولا رياح، وكأني بالحضارة العربية قد ضلت طريقها، فوقفت عند تقليد الاوضاع القديمة، وقلما ظهر جديد في الشعر والفن، الا هذا التلفيق الواسع للماضي وافكاره وصوره[3]. . .

وبعد اراء الخبراء هذه: ايصح ان يبحث عن «تجديد» في القرن السادس؟ ان التجديد الذي اريده، وسأحاول ان اجمع الشواهد عليه، هو تجديد نسبي، حملتني عليه ظروف العصر، وواقع الأدب والشعر فيه. ان التجديد الذي ادرسه، وانوع به، واصطاد له الشواهد من بين اكداس الشعر، كان من حقه ان يهمل، ولا يلتفت اليه ـ لو كان العصر الذي ادرسه غير القرن السادس ـ

أ ـ من ناحية المعنى أو المضمون:

يقول ابن خلكان: ان بيت عيسى[4] بن بهرام المعروف بالحاجري المتوفى سنة ٦٣٢ هـ:

وَيــلاهُ مِنْ بــرد رُضــابٍ لَــهُ   أشكــو الى العُذَّالِ منـه الحَريقْ

وكذلك بيت النَّفيس القُطْرسي[5]:

أحــرَقــتَ يــا ثَـغْــرَ الـحَبيـ(م)ـبِ حَشايَ لَمّا ذُقتُ بَـرْدَكْ[6]

الاصل فيهما بيت ابن التعاويذي:

يُذْكي الجَوى باردٌ مِنْ ثَغْرِهِ شَبَمٌ[7]   وَيوقظ الوَجْدَ طَرْفٌ مِنْهُ وَسْنانُ[8]

---

(١) الوساطة ص ٥٢.
(٢) العمدة ١ / ١١٣.
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣٠١.
(٤) وفيات الأعيان ٣ / ١٦٩.
(٥) هو أبو العباس أحمد بن أبي القاسم عبد الغني.. اللخمي المالكي، من أهل مصر نسب الى جده قطرس: كان من الأدباء وله ديوان شعر أجاد فيه توفي سنة ٦٠٣ بمدينة قوص وقد ناهز السبعين. وفيات الأعيان ١ / ١٤٨.
(٦) وفيات الأعيان ١ / ١٤٨.
(٧) الشبم: البارد.
(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٣، وفيات الأعيان ٥ / ٢٩.

كذلك رد صاحب الوفيات على ضياء الدين ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ: بان قوله في احدى رسائله الى الخليفة ببغداد: . . ودولته هي الضاحكة وان كان نسبها الى العباس، فهي خير دولة اخرجت للزمن، كما ان رعاياها خير امة اخرجت للناس، ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا لا بانها لا تهرم . . . هذا المعنى (السواد خير من البياض لانه لون الشباب، والربط بينه وبين شعار العباسيين) ليس من اختراع ابن الأثير كما يدعي، بل سبقه اليه ابن التعاويذي من قصيدته في مدح الناصر لدين الله:

يا نَهارَ المَشيبِ مَنْ لي - وَهَيها(م) ت - بليلِ الشَّبيبةِ الدَيْماسِ[1]؟
حالَ بيني وبينَ هَوي وأطرا(م) بي دَهرٌ أحالَ صِبْغَةَ راسي
ورأى الغانياتُ شَيبي، فأعرضـ(م) نَ، وقلنَ: السَّواد خَيرُ لِباسِ
كَيفَ لا يفضُلُ السَّوادُ وقد اضـ(م) حى شِعاراً على بني العَبَّاسِ[2]

. . . ويضيف ابن خلكان: ولا شك ان ضياء الدين زاد على هذا المعنى، لكن ابن التعاويذي هو الذي فتح الباب، وأوضح السبيل، فسهل على ضياء الدين سلوكه[3]:

وقال العماد الاصفهاني: ان قول ابن حِكِّينا في مدح عور عين الحبيب:

يـا لائِمي، والَملومُ مُتَّهـمُ حَسبُكَ ما قلتَ فيهِ من عَوَرِ
يَـرشقُ عن فَـرْدِ مُقْلَةٍ، ولـه ألفُ جَريحٍ مِنْها على خَطَرِ
لُمْ كيفَ شِئتَ، لستُ تارِكَهُ الانَ صحَّ التشبيهُ بالقمرِ[4]

مما لم يسبق اليه.

وعلى الرغم من «ان العبرة في الفن بجمال الاخراج وجمال الاوضاع والهيئات لا بالابداع المطلق[5]. . «أقول بالرغم من رأي الدكتور شوقي ضيف هذا، فان اختراع ثلاثة معان في قرن كالقرن السادس، يعد شيئا كالمعجزة، اذا تذكرنا ان شاعرا كأبي تمام، مشهود له بالعبقرية والزعامة، لم يثبت له بعض النقاد سوى ثلاثة معان مبتكرة[6].

---

(١) الدَيْماس: أراد بها هنا سواد اللون، ومن معانيها الحفرة المظلمة.
(٢) الديوان ص ٢٣٧، وفيات الأعيان ٥ / ٣٠.
(٣) وفيات الأعيان ٥ / ٣٠.
(٤) الخريدة ٢ / ٢٣٣.
(٥) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٢٩٦.
(٦) تاريخ النقد الأدبي ص ١٦٩.

اما بقية معاني الغزل فقد التقطها الشعراء من البيئة المحيطة بهم: من السياسة ورجالها، او من الحرب وما تحدثه من دمار وخراب، كذلك استغل الشعراء ثقافتهم الدينية واللغوية والتاريخية فاستطاعوا ان يتوصلوا الى معان بدت كالجديدة المبتركة لما فيها من طرافة..

فمن السياسة اخذ ابن الفضل قوله:

يـا مَنْ هجـرت ولا تُبـالي هَـلْ ترجِـعُ دولةُ الـوِصالِ[1]؟

فقد تخيل الشاعر وجود دولة للوصال والغرام، تدير شؤون اهل الهوى، وان هذه الدولة يعتريها ما يعتري الدول من ضعف وانحلال، ومن قوة وعظمة وجبروت.

ومن السياسة ايضا قول الآخر:

وِصـالُكِ لي مِثـلُ خُبزِ الـوَزيـرِ يُواصِلُ يوماً، ويَعْتاصُ[2] شَهْرا[3]

وقول الحَظيْري الوَرّاق:

يـا غـزالاً فـاتِـرَ الـنَّـظَر يـا شَبيـهَ الـشَّمسِ والـقَمـر
كـيفَ يخـفـى مـا أُكـتِّـمـهُ وَزفيـري صـاحِبُ الخَبَـرِ[4]؟

وصاحب الخبر هو رئيس الاستخبارات باصطلاحات الوقت الحاضر. أما الحرب فمنها اخذ ابن قَزَمّي قوله:

جـارَ عـليّ الـحـبُّ[5]، والـ(م) ـحـبُّ لئـيـمُ الـظَّفَـرِ[6]

ان الحرب وحدها التي يوجد فيها ظافر لئيم، وآخر كريم، وقد تصور الشاعر ان الحب مثل الحرب فيه ظفر وفيه هزيمة، وهو خيال جميل طريف.

ومن الحرب ايضا قول ابن التعاويذي:

تُـغـيِّر لَـواحِـظهُ في الـقلوبِ فَـترجِـعُ بـالسبى منه ثِقـالا[7]

وقوله:

فَبـيَنَ القلبِ والسّلوانِ حَـربٌ وبَـينَ الجفْنِ والعَبَراتِ صُلْحُ[8]

---

(1) الخريدة ٢ / ٢٧٤.
(2) يعتاص: ينقطع ويتوقف.
(3) تلخيص مجمع الآداب ٥ ٥٧ ق ١.
(4) الخريدة ٤ / ٤١.
(5) يصح أن تكون بكسر الحاء أي المحبوب دون أن يتأثر المعنى.
(6) الخريدة ٢ / ٣٣٧.
(7) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٦٨.
(8) نفسه ص ١٠٢.

اما الثقافة الدينية فتبدو من استفادة الشعراء من الاحكام الشرعية كقول اسير الهوى الهيتي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ:

شُهودُ صِدقِ غَرامي فيكِ أربعةٌ: الوَجْدُ والدمعُ والاسقامُ والسَّهَرُ[١]

وقول الآخر:

يا سافِكاً دَمي الحَرامَ بِطَرْفِهِ أوَ ما تخافُ اللهَ يومَ المَوقِفِ؟
أرويتَهُ عن عالِمٍ، أوَجدتَهُ في مُسْنَدٍ، أقرأتَهُ في مُصحَفِ[٢]؟

كذلك اخذ الشعراء بعض الفاظ القرآن الكريم ـ وهو غير الاقتباس ـ وطعموا بها غزلهم وزينوه، كقول ابن قزميّ:

مَنْ لِفُؤادٍ نارُهُ رامِيَةٌ بالشَّرَرِ[٣]؟

وقال ابن التعاويذي:

نَجْلاءُ[٤] لا النافثاتُ[٥] تَبلغُ ما يَبْلغُهُ سِحْرُها ولا العُقَدُ[٦]

ويبدو اثر العروض والصرف والنحو في قول جمال الدين ابي العباس احمد لبادرائي[٧]:

كَأني فَعولُنْ في الطَّويلِ، ومُهجَتي بكفِّ الأسى كالنونِ بالكفِّ[٨] تَزحفُ
وها انا مُعتلُّ الثلاثيِّ، والضَّنى مِنَ النحوِ تَصريفٌ به يتصرّفُ
وقد كُنتُ تأسِيساً[٩]، فيا لَيتَ أنني دَخيلٌ[١٠]، اذا عُلّتْ قَوافٍ وأحرفُ
بَليتُ سوى اسمي في هَواكمْ كَزائدٍ مع اللفظِ يبدو،وهو في النعْتِ يُحْذفُ[١١]

---

(١) معجم الأدباء ١١ / ١٥١.
(٢) نفسه ٧ / ١٠٢ ط. ماركليوث الثانية.
(٣) الخريدة ٢ / ٣٣٧، وهو من الآية ٣٢ (المرسلات): إنهَا تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ.
(٤) نجلاء: واسعة.
(٥) النافثات: الساحرات.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٢، وهو من الآية ٤ (الفلق): وَمِنْ شَرِّ النفّاثاتِ في العُقَد. والعقد في الآية الكريمة تعني ما يقوله الساحرات عند قيامهن بالسحر.
(٧) البادرائي: نسبة الى بَاذَرايا، وتعرف اليوم بـ بَدْرَة في محافظة واسط.
(٨) الكف: حذف السابع الساكن في العروض. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٢٠٧.
(٩)،(١٠) التأسيس: ألف ملتزمة تقع في لفظة واحدة مع الرَّوي ويفصلها حرف يعرف بالدخيل لا يلتزم ولكن حركته تلتزم. فن التقطيع الشعري ص ٢٤٦.
(١١) الخريدة ٤ / ٥١٧

ان فعولن والطويل والكف والتأسيس والدخيل من الفاظ العروضيين، والثلاثي المعتل من الفاظ الصرفيين، والزائد الذي يحذف في النعت من الفاظ النحاة.

اما الثقافة التاريخية فمنها قول الابله:

يَقْـرأ المتيّمُ من صَحيفـةِ خَـدّهِ   في الهَجْرِ مثلَ صَحيفةِ[1] اُلمتلمِّس[2]

وقول ابن اُلمعلّم الواسطي:

واحَـرّ قـلبِ اُلمبـتلىَ   لُمـنجـدٍ ومُـتْـهِـمِ
يـبكـي لِغـيرِ مـالِـكٍ[3]   بُمـقْـلَتي مُـتـمِّـمِ[4]

ب ـ من ناحية اللفظ أو الشكل:

ان الدُوبيت او الرُّباعية هي الشكل الجديد الوحيد الذي ـ يمكن ان يعد ابن القرن السادس، لانه شاع وذاع في هذا القرن، بعد ان اخذه العراقيون عن الفرس، ومن العراق انتشر الى الاقطار العربية الاخرى[5].

ويلاحظ ان معظم دوبيت القرن السادس في الغزل، كما ان معظم ناظميه ليسوا من الشعراء المحترفين الكبار، فقد خلت منه دواوين اشهر شعراء الفترة كابن التعاويذي، والابله، وابن المعلم، والحيص بيص، على حين اولع به الاغنياء المترفون، الذين ينظمون الشعر على سبيل الهواية، وقضاء أوقات الفراغ: ومن هؤلاء وزير المسترشد بالله الحسن بن علي بن صَدَقَةَ المتوفي سنة **٥٢٢** هـ[6]، وسديد الدولة ابن الأنباري منشىء دار الخلافة المتوفي سنة **٥٥٨** هـ[7] وأبو المحاسن البوشَنْجي، وقد استوزر أيام المستظهر بالله[8]، وأبو الفرج ابن الجوزي الواعظ الحنبلي المشهور المتوفى سنة **٥٩٧**[9].

ان الدوبيت لانتمائه الى الفرس من ناحية، وكونه يتيح للشاعر حرية في تنويع قوافيه وتبديلها من ناحية اخرى ـ وهو امر غير مقبول في القصيدة التقليدية ـ لذلك لا استبعد ان

---

(١) اُلمتلَمِّس هو خال طرفه بن العبد، واسمه جرير بن عبد المسيح، ويراد بصحيفته الكتاب الذي كتبه له الملك عمرو بن هند، وفيه أمر بقتل الشاعر. والقصة مشهورة وفيات الأعيان ٥ / ١٤٢.

(٢) ديوان الأبله و ٦٠، وفيات الأعيان ٥ / ١٤٣.

(٣) هو مالك بن نُوَيْرَة، ورثاء إخوة مُتمّم له مشهور معروف. فوات الوفيات ٢ / ٢٩٥.

(٤) ديوان ابن المعلم و ٢٥ (نسخة النجف).

(٥) أنظر مقدمة «ديوان الدوبيت في الشعر العربي» ص ٣٠ـ ٩٥.

(٦) الخريدة ١ / ٩٦، ديوان الدوبيت ص ١٥٤.

(٧) الخريدة ١ / ١٤٢، الدوبيت ص ١٦٩.

(٨) الخريدة ٢ / ٢٥٨، ديوان الدوبيت ص ١٧٣.

(٩) ديوان الدوبيت ص ١٨٩.

يكون شيوعه مقصورا على اولئك الذين لهم صلة بالفرس وآدابهم بطريقة من الطرق. وكذلك صغار الشعراء الذين يتلقفون كل بدعة ادبية ويروجون لها، لانها تلائم قابليتهم المتواضعة التي تعجز عن مجاراة كبار الشعراء في الميدان التقليدي(١).

ومن هنا لم يكتب للدوبيت في القرن السادس ان يكون ظاهرة ادبية متميزة بارزة بين فنون الشعر العراقي، بل ظل مقصورا على مجالس خاصة.

وقد يكون لانحسار النفوذ الاجنبي، وعودة السلطة الى ايدي الخلفاء بعد سنة **٥٤٧** هـ اثر في تقلص ظل الدوبيت وانكماشه.

ومن نماذج الدوبيت قول سديد الدولة:

يـا ريـحُ تحمَّـلي مِنَ المهْجـورِ   شَكـواهُ الى المعسكـرِ المنصـورِ
قـولي لِمعـذَّبي، شبيـهِ الحُـورِ   مـا أنتَ عن الجوابِ بِالمعْـذورِ(٢)

وقول ابي الحسين احمد بن المبارك ابن الخَلّ المتوفى سنة **٥٥١** هـ أو **٥٥٣** هـ:

هــذا وَلهي، وكم كَتمتُ الوَلَهـا   صَوناً لودادِ مَنْ هوى النفسِ لَهـا
يـا آخـرَ محِـنَـتي ويـا أوَّلهـا   آيـاتُ غَرامي فيـكَ مَنْ أوَّلهـا(٣)؟

بعد الدوبيت عاد شعراء القرن السادس الى النماذج اللفظية الموروثة يقلبونها ذات اليمين، وذات الشمال، علهم يعثرون على لفظ أو تعبير أو صيغة، لم يستهلكها القدماء. وبعد تفتيش ودأب ومحاولات هنا وهناك، التفت القوم الى الشعر المغنى. رأوا الاسلاف قد بذلوا كل ما في وسعهم لتوفير الالفاظ المناسبة له، ثم اختاروا له البحور القصار، والمجزوءات، ثم عمدوا الى التفعيلات ذاتها فاكثروا فيها من الزحافات، والجوازات، والضرورات الشعرية(٤).

فماذا بقي لشعراء القرن السادس؟

يبدو انهم فعلوا في الالفاظ الموروثة ما فعلوه في المعاني الموروثة: لقد وجدوا مجموعة من المبالغات عند اسلافهم، فاستغلوها، واضافوا اليها، واكثروا منها، حتى افسدوا المعاني افسادا لاصلاح بعده(٥).

---

(١) ديوان الدوبيت ص ٧٢- ٧٣، ص ١٠٧.
(٢) نفسه ص ١٦٩.
(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٣.
(٤) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٧٤ وما بعدها.
(٥) تنظر المآخذ على شعر المدح من هذه الرسالة.

وهذا بعينه ما حدث في الجانب اللفظي من الغزل: فقد بالغ الشعراء وافرطوا، وتجاوزوا جميع الحدود من اجل العثور على غزل، تكون الفاظه مما لم يستعمله الشعراء السابقون. ولا يضير ـ بعد هذه النتيجة ـ ان كان هذا الشعر «الجديد» ذا قيمة فنية تساوي ما بذل من أجله ام انه جديد، لا يمت الى الموروث العربي بصلة. تأمل ـ مثلا ـ هذه المقطوعة لابن القطان البغدادي، والتي اشار العماد الكاتب الى انها من الشعر المغنى:

يـا مَنْ هجَـرتْ ولا تُبـالي	هـل تـرجِـعُ دولـةُ الـوِصـالِ؟
مـا أطمعُ يـا عـذابَ قلبي	أنْ يـنـعَـمَ في هـواكِ بـالي
الـطـرف، كما عهـدتِ، باكٍ	والـجسـمُ، كـمـا تـريْـن، بـالِ
مـا ضَـرَّكِ أنْ تُـعَـلليـني	في الـمَـوْصـلِ بمـوعـدٍ محُـالِ؟
أهـواكِ وأنـتِ حَظُّ غـيـري	ـ يـا قاتلتَي ـ فـما احْتيالي؟
أيّـامُ عَـنـايَ فـيـكِ سـودٌ	مـا أشـبَـهـهُـنَّ بـالّـليـالي
والـعُـذَّلُ فـيـكِ قـد نَهَوْني	عَن حبّـكِ، مـا لهُمْ؟ ومـالي؟

... الخ(١).

ان البحث عن وزن هذه المقطوعة بين بحور الخليل، جهد ضائع: فهي ليست من العروض العربي، كما انها لا تشبه الدوبيت المكون من اربعة مقاطع عادة، فماذا صنع الشاعر حتى توصل الى هذا الوزن الغريب؟ لقد بالغ وغالى في اخضاع الوزن للموسيقى، فظل يسقط من الالفاظ الجزء تلو الجزء، والحرف بعد الحرف، حتى استحال الوزن العربي الى هذا الوزن الجديد، وبذلك اطمأن الشاعر، وايقن انه جاء بما لم يستطعه السابقون، وترك علماء العروض يضربون اخماسا باسداس: فمن قائل ان هذه المقطوعة من البحر الوافر، الا ان العقص وهو اجتماع الخَرْم(٢) والعَصْب(٣) ـ دخل عليه، فتحولت (مفاعِيلُن) الى (مَفْعولُ ـ بتحريك اللام)(٤)، وقال آخرون: بل الصواب ان هذه المقطوعة من مجزوء الدوبيت، ما دامت لا تشبه الدوبيت الاصلي ذا المقاطع الاربعة(٥).

والمهم ان محاولة ابن القَطّان، ظلت وحيدة، تدل على ان الشاعر سار بعيدا عن التجديد الذي ترتضيه الاذن العربية، حتى جاء البهاءُ زهير المتوفي سنة ٦٥٦ هـ(٦)،

---

(١) الخريدة ٢ / ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) الخرم: حذف أول الوتد المجموع من أول البيت في مطلع القصيدة. فن التقطيع الشعري والقافية ص ٥٢.

(٣) العصب: تسكين الخامس المتحرك وهو خاص بالبحر الوافر. فن التقطيع ص ٢٠٨.

(٤) الخريدة ٢ / ٢٧٣ ـ الهامش ٤

(٥) ديوان الدوبيت ص ٦٨ ـ ٧٢.

(٦) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي.. المَهَلّبي، الكاتب: من فضلاء عصره، واحسنهم نظمًا ونثراً وخطاً.. وفيات الأعيان ٢ / ٨١، البداية والنهاية ١٣ / ٢١١، ٢١٢، النجوم الزاهرة ٧/٦٢، ٦٣، شذرات الذهب ٥ / ٢٧٦، =

فجارى ابن القطان، وباراه في مقطوعة، كتب لها الذيوع والانتشار منها:

يـا مَنْ لعبتْ بـه شَمـولٌ[1] ... مـا الـطفَ هـذه الشمائـلْ!
نـشـوان يهـزّهُ دلالٌ ... كـالغُصْن مع النَّسيم مـائـلْ
لا يُمـكنـهُ الـكَـلام لـكـنْ ... قـد حَمّـلَ طـرفَـهُ رسـائـلْ
مـا أطيـب وقْـتنَـا وأهـنـا ... والـعـاذِلُ غـائـبٌ وغـافـلْ

... الخ[2].

٤ ـ الرثاء:

من الظواهر الأدبية التي تستوقف الباحث في شعر القرن السادس ظاهرتان: الاولى قلة المراثي قلة غير معهودة قياسا الى كثرة المدائح والممدوحين. والثانية ان هذه المراثي القليلة ليست جيدة ـ بصورة عامة ـ حتى يمكن ان تشفع لهذا الفقر الواضح في فن الرثاء. لقد عودنا الشعراء ان يخلدوا في مراثيهم رجال الامة العظام ونابغيها في شتى مجالات الحياة الا شعراء القرن السادس، فان الباحث يجد الهوة واسعة بين احداث العصر الكبيرة ـ كما سجلها التاريخ ـ وبين قصائد الرثاء.

ان الشعراء يندر ان يبكوا رجلا عظيما خسره هذا العالم، وحتى الرثاء الذي وصلنا في بعض الرجال المشهورين، جاء باردا هزيلا، شاحب العاطفة، كأن الشاعر يريد ان يتخلص من هذه المهمة الثقيلة بأي شعر. فالمهم ان يقول شيئا، وان يسود صفحة أو صفحتين، ثم يتنفس الصعداء.

ولعل الغريب حقا ان نجد الشعراء وقد امسكوا عن رثاء بعض من يستحق الرثاء من قادة العصر وزعمائه، كما اخفقوا في رثاء معظم الذين رثوهم من هؤلاء الزعماء، اقول من الغريب ان يتجه بعض هؤلاء الشعراء انفسهم الى رثاء من لا يستحق الرثاء، من الذين ثلبهم المؤرخون، وغمزوا سيرتهم كالوزير السميرمي[3] مثلا[4].

وفي مقدمة اسباب قلة المراثي سببان: الأول فقدان قسم كبير من شعر القرن السادس ـ كما سبق ان اشرت[5] ـ ولا بد ان يكون بين هذا الشعر المفقود بعض قصائد

= ٢٧٧، الأعلام ٣ / ٨٨، معجم المؤلفين ٤ ك ١٨٧.

(١) الشمول: الخمر.

(٢) ديوان الدوبيت ص ٢٤٦.

(٣) أنظر الفصل الأول ص ١٢ هامش ١.

(٤) الخريدة ٤ / ٢٤٥.

(٥) أنظر: مقدمة الفصل الثاني من هذه الرسالة.

الرثاء او اجزاء ومختارات من تلك المراثي. ويؤيد هذا الفرض ما يقوله ابن الجوزي[١]، وابن رجب[٢]: من ان الوزير يحيي بن هبيرة قد رثى بمراث كثيرة ليس بين ايدينا منها سوى واحدة. كذلك اشار صاحب الجامع المختصر[٣]: الى ان السيدة والدة الناصر لدين الله قد رثيت بعدة قصائد، لم يصلنا منها سوى مرثية ابن التعاويذي[٤].

واشار العماد الكاتب[٥] الى ان دُبَيساً المدائني[٦]، ثِقَة الدولة ابن ادُّرَيْني[٧] بقصيدة لم يستطع العماد ان يحصل الا على خمسة أبيات منها هي قوله:

قَـدْ قلتُ للرَّجـلِ اُلمـولى غسلهَ	هـلّا اطاعَ وكنتَ مِنْ نُصَحـائـهِ
جَـنِّبـهُ مـاءكَ ثـمّ غَسِّـلْهُ بمـا	تجُريـهِ عيـنُ المجدِ عنـدَ بُكـائـهِ
وأزلْ أفـاويه[٨] الحنـوط[٩] وطِيبَـهُ	عَـنـهُ وحنِّـطْهُ بـطيـبِ ثـنـائـهِ
ومُرِ الكـرامَ الكـاتبيـنَ[١٠] بحَملِهِ	أوَ مـا تَـراهـمْ وقَّفـاً بـازائـهِ؟
لاتوهِ[١١] اعنـاقَ الـرِّجـالِ بِحمْلِهِ	يَكْفي الّـذي فيهنّ مِنْ نَعْمائـهِ[١٢]

وهذه الابيات تدل على اننا خسرنا قصيدة، افضل من كثير مما وصلنا.

والثاني: تحزب الشعراء لرجال السياسة: وهو عامل سبق ان اشرت الى اثره على شعر المدح[١٣]، فليس من المعقول ان يمدح الابله البغدادي الوزير ابن هبيرة باكثر من خمس عشرة قصيدة[١٤]، ثم يلتزم هذا الشاعر الصمت المطبق حين مات الوزير. وكذلك الامر بين ابن التعاويذي ومواليه من آل عضد الدين: فقد شغلت قصائده فيهم جل شعره كما يقول في مقدمة الديوان[١٥]، فكيف يصّح ان يخلو ديوان هذا الشاعر من رثاء اي[١٦] من مواليه؟ ان من المعقول جدا أن يحذف الابله وابن التعاويذي من ديوانيهما أية قصيدة يشعران ان اثباتها سيغضب زيدا او عمرا من ولاة الأمور.

---

(١) المنتظم ١٠ / ٢١٧.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١ / ٢٨٦.
(٣) الجامع المختصر ٩ / ٢٧٩.
(٤) الديوان ص ٢٢٢.
(٥) الخريدة ٤ / ١١٦- ١١٧.
(٦) من شعراء المدائن (منطقة قريبة من بغداد) وكان ضَريراً. الخريدة ٤ / ١١٦، نكت الهميان ص ١٥٠.
(٧) مرت ترجمته في الفصل الأول ص ٣٩ هامش ٣.
(٨) الأفاويه: الطيب.
(٩) الحنوط: كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسادهم.
(١٠) الكرام الكاتبون: الملائكة.
(١١) لا تُوهِ: لا تثقل.
(١٢) النعماء: اليد البيضاء الصالحة.
(١٣) أنظر: العوامل المؤثرة في المدح من هذه الرسالة.
(١٤) ديوان الأبله و ٢٥- ٣٧، و ١٢- ١٦.
(١٥) مقدمة ديوان ابن التعاويذي ص ١٣.
(١٦) باستثناء زوجة عماد الدين. الديوان ص ٣٩٤

ضربا الرثاء:

لم يعرف شعراء القرن السادس من الرثاء سوى ضربين اثنين[١] قصروا فيهما عن اسلافهم تقصيرا بينا وهما:

١ ـ رثاء الاهل والاقارب: ومنه رثاء ابن التعاويذي لابن ابنه[٢]، ولاخيه[٣]، ولجده[٤] لامه، ولابنة له صغيرة[٥]، ورثاء الحيص بيص لاخيه[٦]، ورثاء الامير احمد بن ابي الفتوح لابنه[٧]، ورثاء عبد الرحيم بن الاخوة لابنه[٨].

ويغلب على هذه المراثي جميعها ـ باستثناء واحدة او اثنتين ـ برود العاطفة ونضوب الافكار والاخيلة، فلم يستطع الشعراء ان ينقلوا الينا حزنهم وألمهم، وكل الذي فعلوه ان وصفوا ما تركه الراحل من ضعف في قوة الشاعر، ونقص في انصاره ومؤازريه ـ اذا كان المرثي كبيرا ـ وكذلك يصفون فقدان الشاعر لصبره وجلده وتوازنه من هول ما اصابه، كقول ابن التعاويذي في رثاء جده لامه:

يا ساكنَ اللَّحدِ الذي أفردَني ... مِنْ لاعجِ الشَّوقِ بمِثْلِ ما انْفَرَدْ

إنْ كنتَ في ثوبِ العلى، فانّني ... بَعدَكَ في ثوبِ نُحولٍ وَكَمَدْ

يا مُوحِشَ الارضِ علّي فَقْدُهُ ... حَتّى كأنْ ليسَ على الارضِ أحَدْ

أوْحدْتَني ـ وفي الرجالِ كَثرةٌ ـ ... يا قِلّةَ الجارِ وقِلّةَ العددْ

كُنتَ اذا جارَ الزّمانُ عَضُدي ... فاليوم لا جارِحةٌ ولا عَضُدْ

... الخ[٩].

ونبحث عن العاطفة في هذه الأبيات، فلا نعثر عليها، انها الفاظ يابسة متخشبة، لا تدل على حزن، على الرغم من جودة الافكار، وكونها لا تختلف عما ردده شعراء العرب الكبار في مراثيهم كالشريف الرضي والمتنبي. ولعل ارادأ ما في هذه القصيدة تكرار لفظة «مالك» ثلاث مرات في خطاب الشيخ المتوفى:

---

(١) في الخريدة ٢ / ٢٢٣ خمسة أبيات لمحمد بن حَيْذر المتوفي سنة ٥١٧ يرثي نفسه.
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨.
(٣) نفسه ص ١٠٤.
(٤) نفسه ص ١٣٥.
(٥) نفسه ص ١٣٨.
(٦) الخريدة ٤ / ٣٤١.
(٧) نفسه ٤ / ٥٥٤، ٥٥٩.
(٨) الخريدة / نسخة ايران ٢٠٢.
(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ١٣٦.

مـالَـكَ لا تَـرقُّ لي من زَفْـرةٍ تُلْفِتُ أثنـاءَ الفؤادِ والكَبِـدْ؟
ما لكَ لا تَـرْأَبُ[1] أحوالي ولا تُصْلِحُ اراؤكَ منها ما فَسـدْ؟
مـا لـكَ لا تَـرْحمُ ذُلَّ مـوقِفي وكُنتَ أحنى والدٍ عـلى وَلَـدْ؟

اما رثاء الاطفال فيكون بوصف الفراغ والوحشة اللذين تركهما غياب الصغير في البيت، وفي قلب امه وابيه واهله، وبالرغم من النص على صعوبة رثاء الاطفال، لضيق الكلام وقلة الصفات[2]، فقد استطاع ابن التعاويذي ان يقول شيئا ـ وهو يرثي حفيده:

يـا بِـأبي المُختَلَسُ[3] المُسْتَلَبْ عَنَّ له سَهمُ حِمامٍ[4] غَـرَبْ[5]
وانْـتـزعتْـهُ لـلمَـنـايـا يَـدٌ مُغْتـالَـةٌ من حُجْـرِ أمّ وأبْ
أفـديـه مِـنْ ريحـانـةٍ غَضّـةٍ عـادَ هَشيمًا عُـودُها المُحْتَطَبْ
يـاقوتـةٍ أذْهبَ جِرْيَـا[6] لهـا الـ موتُ، فعادَتْ كَقضيبِ الذّهب
كـأنّـه الـوَردُ أتى زائـراً ثمّ انْقَضَتْ ايّـامُـهُ عَنْ كَثَبْ
أشـرقَ كـالنّجمِ مُضيئـاً، فَـما مَـلأَتُ عيني منهُ حتىّ غَـرَبْ

... الخ[7].

اما المرثية الثانية التي لابد ان يشار اليها فهي مرثية الامير احمد بن ابي الفتوح لابنه، وقد بكى عليه حتى ذهبت عيناه[8]، قال:

لَبِسَ الجنودُ جَديـدَهمْ في عيدِهمْ ولَبِستُ حُزنَ ابي[9] الحُسين جَـديدا
وَوَدِدْتُ لـو حَضَـرَ المُصـلىَّ فـيهِـمْ حَيّـاً، وكـنـتُ المَيّـتَ المَلحـودا
أيسـرُّني عـيـدٌ، ولم أرَ وجـهَـهُ فـيـه؟ الا بُـعْـداً لـذلـكَ عـيـدا
كيفَ المَسـرَّةُ لامْـرىء فَقَـدَ الهَوى وَحَثـا[10]عَليـهِ جَنـادلاً وصَعِيـدا[11]؟
أفَحـينَ عـادَ الليثُ بـأسـاً يُتّقى والبـدرُ حُسنـاً والسَّحـابـةُ جُـودا

---

(1) لا تراب: لا تصلح.
(2) العمدة ٢/١٥٤
(3) المُخْتَلَس: الذي مات صغيرا.
(4) الحِمام: الموت.
(5) سهم غرَب: أي لا يدري راميه.
(6) الجِرْيال: أراد بها هنا البريق او اللمعان.
(7) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٨
(8) نكت الهميان ص ١١٥
(9) ابو الحسين: كنية المرثى.
(10) حثا: هال عليه التراب.
(11) الصعيد: التراب.

وتقيَّل [1] النجباءَ من آبائه وجدودِهِ المتخيرين الصيدا [2]
ورَجا الصَّديقُ ـ كما زَجوتُ ـ بان يَرى بَعدي به ما ساءني مَسْدودا
وتخِذْتُهُ رُكْناً أردُّ به الاذى عنيّ، ورُكْناً في الخُطوبِ شَديدا
. . . الخ [3].

٢ ـ رثاء الاباعد:

ومنه رثاء ابن التعاويذي لوالدة الناصر لدين الله[4]، ورثاؤه لابن البُخاري[5]، ورثاء الحيص بيص لدبيْس بن صَدَقة[6]، ولبعض امراء الاكراد[7]، ولابن الخليفة المسترشد[8]، وللخليفة المقتفي لامر الله[9]، ورثاء الابله البغدادي للمقتفي ايضا[10]، ورثاء نصر[11] النميري لابن هبيرة الوزير[12]. .

ان تلك المراثي جميعها خلو من العاطفة المخلصة والدموع الحرار ـ الا النادر الشاذ ـ لان الشعراء نظموها بدافع المجاملة لاجل الميت من ناحية، ولان جميع هؤلاء المرثيين ـ باستثناء الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة ـ لم تؤثر عنهم اعمال باهرة كبيرة، تثير الشعراء وتحرك مشاعرهم وعواطفهم، من ناحية ثانية. ولذلك ملأ الشعراء هذه المراثي بالمبالغات وتهويل شأن الميت وما تركه فقده من شروخ وصدوع في هذه الدنيا، كقول الحيص بيص يرثي الخليفة المقتفي لامر الله:

الخَطْبُ أكبرُ في النفوسِ وأعظمُ مِنْ أنْ تُراقَ له الدموعُ أو الدمُ
ولو أنّ شمسَ الصبحِ راقَبَتِ[13] العُلى لَتغَيّبتْ فالصبحُ داجٍ مُظلمُ
ولَكُوِّرتْ[14] حُزناً لفقدِ خَليفةٍ شَهِدَ السِّنانُ ببأسهِ والمِخْذَمُ[15]

---

(١) تقيل: أشبه.

(٢) الصيد: واحدها أصيد، وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبرا. (٣) الخريدة ٤/ ٥٥٤ ـ ٥٥٦

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٢

(٥) هو جَلال الدين، هِبَة الله بن محمد بن البخاري، كان ينوب في الوزارة، وهو منصب من مستحدثات العصور العباسية المتأخرة. ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٠، وانظر: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١١٦

(٦) الخريدة ١/ ٣٣٦

(٧) نفسه ١/ ٣٤٢ (٨) نفسه ١/ ٣٤٤

(٩) نفسه ١/ ٣٤٨ (١٠) ديوان الابله و ٣ ـ ٤

(١١) هو أبو المُرْهَف نَصْر بن منصور. الصرير، الشاعر المشهور، قدم بغداد في صباه وسكنها إلى حين وفاته سنة ٥٨٨هـ. معجم الأدباء ١٩/ ٢٢٢، وفيات الأعيان ٥/ ١٩، نكت الهميان ص ٣٠٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١١٨

(١٢) المنتظم ١٠/ ٢١٧، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٦

(١٣) راقبت: تعني هنا خافت علي. (١٤) كُوِّرت: اضمحلت وذهبت.

(١٥) الخريدة ١/ ٣٤٨، المِخْذَم: السيف.

وقوله - يرثي ولد المسترشد بالله -:

نَبأً عادَ له الصبحُ دُجىً[1] وذُعافاً[2] رَيِّقُ[3] الماءِ الزُّلالِ
جَلَّ أنْ يُبكى دموعاً، فَجَرتْ أعينُ الحيِّ بمُحمرٍ[4] مُذالِ
وانْثنتْ مِن حَزَنِ الدهرِ به غُررُ[5] الامالِ سودا كالليالي
وعَلا عن نُدْبةٍ مِنْ بَشَرِ فرثاهُ المجدُ مَفهومَ المَقالِ[6]

والحيص بيص - برغم كل ما ادعاه من جريان الدماء بدل الدموع، وصيرورة النهار ليلا، والصبح دجى، وريق الماء سما ذعافا - اقول برغم هذا كله، فقد فضح الشاعر نفسه، ودل على حزن متكلف، والم لا دليل عليه سوى هذه المبالغات والتلفيقات.

ولما كان الغرض من هذه المراثي - في الغالب - هو الحصول على الجائزة من خلف المتوفى، أو من اهله وابنائه، لذلك فقد شغل الشعراء انفسهم في كيفية الجمع بين التعزية والتهنئة، خاصة وقد اخبرهم النقاد ان التبريز والاجادة في هذا الميدان، مما لا يتاح لكل شاعر[7].

وفعلا قل بين شعراء القرن السادس من احسن الجمع بين التهنئة والتعزية، وكل الذي فعلوه هو ان قسموا القصيدة الواحدة الى قسمين: الاول منها للرثاء، والثاني فيه ما يدل على انه تهنئة. وبعض الشعراء لم يحسن التسوية بين هذين القسمين فجار احدهما على الآخر، وصارت القصيدة ليست من الرثاء ولا من التهنئة. تأمل قول الابله البغدادي يرثي الخليفة المقتفي لامر الله، ويهنيء الخليفة الجديد:

عَزاءً، وإنْ اضحى العَزاءُ حَراما مَضى مَنْ حَمى سِرْبَ[8] الأَنام وحامَى
قَضى عامرُ الدنيا، وغامرُ[9] اهلِها عَطاءً كجَمَّاتِ[10] السّيول جُماما[11]
قضى قائد الخيل العتاق سواهما[12] تخال نعاماً، بل تظن نعاما
قَضى نَحْبه مَنْ كانَ بالعَدْلِ مُلْهِماً وبالجيشِ يُردي المارِقينَ لُهاما[13]

---

(١) الدجى: الليل المظلم.
(٢) الذُّعاف: السم القاتل. السريع المفعول.
(٣) الرِّيق: أفضل كل شيء.
(٤) المُحمر المُذال: ربما أراد به الدم.
(٥) الغُرَر: الواحدة غره: وهي أول كل شيء ومعظمه.
(٦) الخريدة ١/ ٣٤٤
(٧) العمدة ٢/ ١٥٥
(٨) السرب: جماعة الناس.
(٩) غامر: كثير العطاء.
(١٠) جَمات السيول: الأماكن التي تلتقي فيها.
(١١) جُمام: كثير.
(١٢) سواهم: واحدتها ساهمة: الضامرة.
(١٣) المارقين: الخارجين على الخليفة.
(١٤) لُهام: جيش عظيم.

قَضى ملكٌ زمَّ[1] الـزمـانُ بـرأيـهِ ... وَرَمَّ[2] اموراً كُنَّ قَبْلُ رِمـامـا[3]

سَلامٌ على ذاكَ الضَّريح لَقدْ حَوى ... صَـلاةً ونُسكـاً زاكيـاً، وصِيـامـا

ولا فـاتَـهُ جَـوْدٌ[4] مِنَ المُزْنِ لا يَني ... كَجُود ابنهِ المُحيي العُفاةَ[5] سِجَاما[6]

لَئِنْ جَبَّتِ[7] الأيامُ غاربَ[8] مُلْكه ... لقدْ عَوّضتْنا غارباً وسَناما

فَقـدْنـا غَمـامـاً عَـوّضَ اللهُ بَعـدَهُ ... وزادَ سـمـاءً ثـرَّةً[9]، وغَـمـامـا

خَـليفـة حَـقٍّ، وهـو خَـيرُ مُخَلَّفٍ ... تَقـاعـدَ بـالنـاسِ الـزمـانُ، فَقـامـا

وأوسـعُـهـمْ عَـدْلاً وبَـذْلاً ورَحْـمـةً ... وعِـلْمًا وحِلْمًا يَـستـخِفُّ شَمـامـا[10]

... الخ[11].

وهكذا في قصيدة عدد ابياتها ثلاثة وعشرون بيتا؛ نجد ستة أبيات في الرثاء، والبيت السابع بينَ بينَ فهو تمهيد لترك الرثاء وافتتاح التهنئة، ثم بقية القصيدة لمدح وتهنئة الخليفة الجديد.

واسلوب الابله هذا في الجمع بين التعزية والتهنئة، بافتتاح القصيدة بالرثاء ثم ـ بعد ابيات ـ ينتقل الى التهنئة، هو الشائع بين شعراءالعصر في هذا الضرب من القصائد[12].

وهناك اسلوب آخر هو ان تفتتح القصيدة بالجمع بين الرثاء والتهنئة منذ المطلع، كقول الحيص في مرثية الامير عَنْتَرَ[13] بن ابي العَسْكَر والثناء على اخيه مُهَلْهِل:

أسـىً وسـرورٌ نـاصـرٌ ومُخَـذِّلُ ... أتـاحَـهـما لي عَـنْـتَرٌ والمُـهَلْهِـلُ

فَمـاضٍ بَكَتْ عَيني لِفَقـدِ كَمـالـهِ ... وبـاقٍ لِما فيـهِ منَ المَجـدِ أجْـزلُ

... الخ[14]، وقوله:

---

(1) زم: من الزمام أي قاد. (2) رمّ: أصلح.

(3) رمام: بالية.

(4) الجَوْد: المطر الغزير. (5) العفاة: الفقراء.

(6) سِجام: مصبوب. (7) جُبَّت: قطعت.

(8) الغارب: أعلى الشيء. (9) ثرّة: كثيرة العطاء.

(10) شمام: إسم جبل لباهلة (معجم البلدان ٥/ ٢٩٢) (11) ديوان الابله و ٣.

(12) أنظر الخريدة ١/ ٣٣٨، ٣٤٤

(13) هو الامير فخرالدين، من أكراد الحلة الجاوانيين، كان من قواد العسكر في امارة الحلة المزيدية. قتل سنة ٥٣٢هـ. وبعد مقتله تولى أخوه مهلهل الحلة للسلطان مسعود. تاريخ ابن الأثير ١١/ ٢٥، أخبار الدولة السلجوقية ص ١١٠، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٣ ص ٢٧٢.

(14) الخريدة ١/ ٣٤٣

امــا اذا سَــلِمَ الإمــامُ الأعــظمُ وسَلِيْلُهُ[1]، دَقَّ[2] الجـليـلُ المُعْـظَمُ
عَــزَّ العَــزاءُ، وهــانَ حــينَ بَقِيتُــها فــالَمجــدُ بــاكٍ طَــرفُــهُ مُـتبسِّــمُ
وبَقــاءُ شَمسِ الصَّبــحِ يُحدثُ سَلْوةً فيـنــا اذا بَــدرٌ هَــوى او انْــجُــمُ
. . . الخ[3].

وعندي ان الجمع بين العزاء والتهنئة، يدل على زيف حزن الشاعر، وادعائه الالم ادعاء دون ان يكتوي بناره، ويذوق غصصه، لان المفروض بالحزين الذي سد عليه الالم وهول المصاب جهاته، وحال بينه وبين اي شعور آخر، ان ينسى هذا العالم وما فيه من مادة ومال. اما التفكير بالميت والحي، بالمصيبة، ومقدار الجائزة، في وقت واحد، وفي قصيدة واحدة، فأمر لا يمت الى دنيا العواطف والفن بصلة، خاصة اذا اخذنا مستوى شعراء العصر - بصورة عامة - بعين الاعتبار. فقول الحيص بيص - مثلا - (المجد باكٍ طرفه متبسم) امر يكذبه الواقع، لان البكاء عاطفة تختلف عن الابتسام والجمع بينهما يعني الكذب والافتعال والادعاء لا محالة، وان كنت اميل الى ان معظم قصائد الرثاء - التي جمع فيها بين التهنئة والتعزية - هي اقرب الى مدح الخليفة، او الشخص الذي خلف المتوفى، منها الى رثاء الميت، لان الشاعر - في مثل هذا الشعر - يؤ كد ويلح على ان الدنيا لم تخسر شيئا بل انها كانت الفائزة الرابحة، والدليل هو ان فلانا الفلاني - الذي سيأخذ الشاعر منه الجائزة - لما يزل على قيد الحياة.

والرثاء - مثل المدح والهجاء - اختلف تبعا لمقامات المرثيين ومنزلتهم الاجتماعية، وهو امر كان معروفا قبل القرن السادس، فالخليفة تبكيه الخيول المسومة، والعدل والكرم والدين[4]، ! والقادة الزعماء بكتهم الكتائب وسوح الحرب، ودماثة الخلق، وحسن تصريف الامور في الشدائد[5].

والنساء خسرت الدنيا بفقدهن العفاف والصون، ومساعدة المحتاجين، وان جنان الخلد والحور العين سيكن باستقبالها[6].

والشاعر في جميع هذه المراثي، لا بد ان يتحدث عن فلسفة الموت والحياة، وقد يضرب الامثال بالامم والممالك التي بادت ودرست آثارها. كقول الحيص بيص:

---

(١) سليله: ابنه.
(٢) دقّ: صغر.
(٣) الخريدة ١/ ٣٤٥
(٤) الخريدة ١/ ٣٤٨، ديوان الابله و ٣
(٥) الخريدة ١/ ٣٤٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨
(٦) ديوان الابله و ٤، ديوان ابن التعاويذي ص ٢٢٣، ٣٩٥

لاَ يَـرْكَنَنَّ الى الحيـاةِ مُمَتَّـعٌ　　فـالبُعدُ دانٍ، والمَـدى مُتصـرِّمُ
ووراءَ آمـالِ الـرِّجـالِ مَنيّـةٌ　　يَعـدو بفارسِهـا حَثيثٌ مِرْجَمُ(١)

وقوله:

حُمَّ القضـاءُ فكـالـدّنيّ مُمجّـدٌ　　عندَ المَماتِ وكالجبانِ مُصَمِّمُ(٢)

وقال ابن التعاويذي:

لا يَفْخَرنَّ الشامِتـونَ فانّمـا الـ(م)　　دنيـا تُحيلُ صُـروفُهـا الأَحْـوالا
مَـكّـارةٌ، غرارّة، غَـدّارةٌ　　ببعُـولِهـا(٣) تَسْتبـدِلُ الأَبْـدالا
يـا مَنْ يُكلّفُهـا الـوَفـاءَ بـذمّـةٍ　　كَلَّفتَ دنيـاكَ الغَـدورَ مُحـالا
لا تخدَعنَّ بثـروةٍ وشَبيـبـةٍ　　وارقُبْ لأيّـامِ السُّـرورِ زَوالا(٤)

وفي ختام هذه الدراسة للرثاء في القرن السادس، اظن ان تقليد شعراء هذا القرن لاسلافهم من شعراء القرون السابقة في اسلوب الجمع بين التهنئة والتعزية قد اضر بشعرهم ابلغ الضرر، والدليل هو وجود قصيدتين تعدان من اجود المراثي في هذا العصر كله، وقد خلتا خلوا تاما من اية اشارة الى التهنئة، أو الجائزة، بل نجد الشاعر فيهما يكاد يقضي نحبه في اثر من يرثيه، وهاتان المرثيتان هما:

١ ـ رثاء ابن التعاويذي لهبة الله بن البخاري ومنه قوله:

أأبا المُظَفَّـر كنتَ لي مِنْ عُسْرَتي　　مالا، ومِنْ جَورِ الخُطوبِ مَآلا(٥)
ما زِلْتَ عَوْناً في الحَوادثِ لي اذا　　ضَعُفَتْ يَمـينٌ أنْ تُـعيـنَ شِمـالا
مـا بـالُ ودٍّ في الـزَّمـانِ ذَخـرتُـهُ　　لِشـدائـدي أمسى عليّ وَبَـالا(٦)
ومـلابسـاً مِنْ غِبْـطَةٍ ألبسْـتَـني　　جُـدُداً أعْلامَ اعـدْتهـا أسْمـالا؟(٧)
ومُبشّراتُكَ(٨) كيفَ عُدْنَ سَمائماً(٩)　　هُوجا(١٠)، وكُنَّ على القلوبِ شَمالا؟

(١) الخريدة ١/ ٣٤٩، المِرْجَم: الفرس الشديد الوطء كأنه يرجم الأرض بحوافره.
(٢) نفسه ١/ ٣٤٧　　(٣) البعول: واحدها بعل وهو الزوج.　　(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٤
(٥) مآل: مرجع وملاذ.　　(٦) الوَبال: الشدة وسوء العاقبة.
(٧) الأسمال: الواحد سَمِل: الثوب البالي.
(٨) المُبشّرات: الرياح التي تبشر بالمطر لقوله تعالى في الآية ٤٦ (سورة الروم): وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَات.
(٩) سَمائم: المفرد سَمُوم: الريح الحارة.　　(١٠) الهُوج: الرياح التي لا تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.

سُلِبَتْ تَجملُها عليكَ وَزارةٌ   لَبِستْ بمُلْكِكَ رَوْنَقاً وجَمالا
يَبكي لِفقْدكَ دَسْتُها[١]، ولَقلَّما   كانَتْ تُبكّي غابةٌ ريبالا[٢]
يا مُوردي ماءَ الدموعِ ولمْ يَزَلْ   ورْدي نَميراً مِنْ يَديهِ زُلالا
ومُحمِّلي العبءَ الثقيلَ برزئه   إنّي عَهِدْتكَ تَحمِلُ الأَثقالا
أمسكْتَ عن رَدِّ الجوابِ، وطالَما   جادَلْتَ فُرْسانَ الكَلامِ جِدالا
وَقطعْتَ آمالَ العُفاةِ، ولم تَكنْ   لكَ شيمةٌ أنْ تَقْطعَ الآمالا
وَأعدْتَ أيّامي الحَواليَ بالأسى   عُطْلاً[٣]، وَليلاتي القِصارَ طِوالا

... الخ[٤].

ان ابن البخاري هو الوحيد الذي رثاه الشاعر، من بين جميع ممدوحيه ومنهم الخلفاء، ومواليه آل المظفر، مما يؤكد مكانته الكبيرة عند الشاعر ولذلك نحس بلذعة حزن، وحرارة تنبعث من بعض الابيات. ولو قدر لهذه القصيدة ان تخلو من هنات وركة، لامكن وضعها بجانب الخالدات من لاميات العرب في الرثاء: كلامية مَرْوان بن ابي حَفْصَة المتوفى سنة ١٨١ هـ، في معن بن زائدة المتوفى سنة ١٥١ هـ:

مَضى لسبيلِهِ مَعنٌ، وأبقى   مَكارمَ لَنْ تَبيدَ ولَنْ تُنالا[٥]

ولامية الشريف الرضى في الصاحب بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ:

أكَذا المَنونُ تُقَنْطِرُ الأَبطالا؟   أكَذا الزَّمانُ يُضَعْضِعُ الأَجْبالا؟[٦]

٢ ـ رثاء نَصْر النُّميري[٧] للوزير عَوْن الدين بن هُبَيْرة ومنها:

أَلْمِمْ على جَدَثٍ حَوَى   تاجَ الملوك[٨]، وقُلْ سَلامُ
واعْقرْ سويداءَ[٩] الضميـ(م)   ـر، فَلَيسَ يُقْنِعُني السَّوامُ[١٠]
فاذا ارتَوتْ تِلْكَ الجَنا(م)   دِلُ مِنْ دموعِكَ والرغَامُ[١١]

---

(١) الدَسْت: (فارسية): صدر المجلس او البيت.
(٢) الرِئبال: النبات الملتف الطويل.
(٣) العُطُل: غير المتجملات.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٥٣
(٥) وفيات الأعيان ٤ / ٣٣٥
(٦) ديوان الشريف الرضي ٢/ ٦٧٠
(٧) تصحفت إلى البحتري في المنتظم.
(٨) تاج الملوك: من القاب الوزير ابن هبيرة.
(٩) السويداء: حبّة الضمير.
(١٠) السَّوام: الماشية والابل الراعية.
(١١) الرُّغام: التراب.

فـاقِـمْ صُـدورَ الـيَـعْـمَـلا[1](م) تِ، فَـبعـدَ يحيى لا مَـقـامُ
ذَهـبَ الـذي كـانَـتْ تقيِّـ (م) ـدني مَـواهِـبـهُ الـجسَـامُ
فـاذا نَـظرتُ الـيـهِ لَـمْ يَخْـطرْ على قَـلبي الـشَّـآم[2]
غـاضَ[3] النَّـدَى الفَيّـاضُ عن راجـيـهِ واشْـتـدَّ[4] الأُوامُ
وَتـفـرَّقـتْ تِـلكَ الـجـمـو عُ، وقُـوِّضتْ تِلكَ الخِيـامُ
عَـجَبـاً لِـمَـنْ يَـغْـتَـرُّ بـالـ(م) دنـيـا، ولَـيسَ لَـهـا دَوامُ
عُـقْـبـى مَـسَـرَّتِـهـا الأَسـى وعَـقيـبُ صِحَّـتِهـا الـسَّـقـامُ
مـا مِـتَّ وَحْـدكَ يـومَ متـ(م) تَ، وأنَّما ماتَ الانامُ[5]

ان سبب الحزن في بعض ابيات هذه المرثية، يعود الى ان الشاعر شامي الاصل، وكان كثير الانقطاع لابن هبيرة[6]، ولذلك رأى في موت الوزير كارثة حلت به، وهو الضرير المغترب، اضف الى ذلك ان شخصية ابن هبيرة من الشخصيات التي استمالت القلوب وراعت الناس في القرن السادس.

(١) اليَعْمَلات: النوق.
(٢) يقول أنه نسي وطنه الشام وأهله فيه لفرط رعاية الوزير له.
(٣) غاض: نقص أو نضب.
(٤) الأوام: العطش.
(٥) المنتظم ٢١٧/١٠، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٦/١ وقد تصفحت الأبيات في هذا المصدر الثاني بما لا مزيد عليه، وجمع كل بيتين في بيت واحد، وهي هنا أطول بكثير مما ورد في المنتظم.
(٦) نكت الهميان ص ٣٠١

الفصل الرابع

الاتجاه الديني

تمهيد:

ان التيار او الاتجاه الديني في شعر القرن السادس، تيار كبير واسع، يمثل رقعة واسعة من الحياة الادبية على اختلاف فنونها، فهو واضح جدا في المديح خاصة، ومدح الخلفاء بصورة اخص، وكذلك الامر ـ ولكن بصورة أقل بطبيعة الحال ـ في الهجاء والنسيب والرثاء.

ان الحكومة العباسية، وعلى رأسها الخليفة، اكتسبت شرعيتها واحترام الناس لها وحرصهم على طاعتها من الدين وتعاليمه. ولذلك حرص الخلفاء على احاطة انفسهم بهالة من الدين والقداسة، تردعنهم كيد الاعداء وتحميهم من سهام النقد، عن طريق الايحاء للناس بان الخليفة يصدر، في جميع اوامره وتصرفاته، بتفويض وتخويل من الخالق سبحانه. فلا مجال للتذمر ولا موجب للشكوى.

ومن الاساس الديني للخلافة، اتخذ سلاح محاربة اعداء العباسيين ومنهم الفاطميون والسلاجقة والمزيديون[1]، وكذلك حزب الشيعة[2]، وجميع اولئك الذين لم ترضهم سيرة العباسيين ولم يوافقوا على الرأي الشائع بأن الخليفة نائب الله في الأرض.

وفي القرن السادس كانت الحروب الصليبية مشتعلة ذات لهب، وصلاح الدين الايوبي هو بطل الاسلام الذي حمل لواء الدين في مواجهة الغزو الصليبي المسيحي، وكان صلاح الدين، في نظر المسلمين، قائدا من قواد الخليفة ومنفذا لأوامره ولذلك شارك قسم من شعراء العراق في ادب الحروب الصليبية، وهو ادب اساسه الدين، لان الحرب كلها ذات طابع ديني.

وفي هذه الفترة، كما في الفترات التي سبقتها، كان الصراع لا يكاد يهدأ بين المذاهب

---

(١) لم أقف على شعر في الصراع الديني السياسي بين العباسيين والمزيديين، مع أن التاريخ يعكس صورا عديدة من هذا الصراع، كما أشرت في اول هذه الرسالة.

(٢) يغلب على الظن أن حركة قائد الجيش قطب الدين قايماز في خلافة المستضيء سنة ٥٧٠ هـ. كانت حركة شيعية، لأن أحد المشاركين فيها وهو علاء الدين تنامِش كان شيعياً، أضف إلى ذلك أن قطب الدين كان له دور في قتل المستنجد سنة ٥٦٦ هـ. تنظر التفاصيل في ابن الأثير ٩ / ١٣٤، ١٩٨، والمختصر المحتاج اليه ٢ / ٢٩٧ في الهامش.

والفرق الاسلامية، من شافعية وحنابلة ومتصوفة واشاعرة، كل يعظم مذهبه وينصر فرقته ويرد على خصومها. وكان الشعر هو سلاح الجميع، والشاعر هو الرجل المختار في سوح النضال الفكري ومعارك الخصام المذهبي.

وكان للمعارك الحربية والكوارث الطبيعية ومنها الفياضانات المدمرة، اثر لا يستهان به في تردي الاحوال الاقتصادية، مما كان له اسوأ الاثر في حياة الناس الاجتماعية فكثرت الشكوى وساد القلق والخوف وضعف الشعور بالامن وعرفت الفوضى طريقها الى حياة الناس، فضاقوا ذرعا بهذا العالم وزهدوا فيه ومالوا الى طريق الدين والتزهد والرهبنة، حتى خيل لهم ان لا منقذ لهم مما يعانون الا الرسول ﷺ فتطلعوا بابصارهم وقلوبهم الى الحجاز، فنشأت المدائح النبوية في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة.

ومن الطريف ان نجد في القرن السادس شاعرا، هو ابن التعاويذي، يشبه رجل الصحافة المرتزق في هذه الايام. لقد عرف هذا الرجل اهواء معاصريه وميولهم، فالجميع يحبون ان يوصفوا بالدين وينعتوا بالتقوى. ان اشارة صغيرة في بيت شعر اذا فهم منها ان فلانا رقيق الدين، كانت كافية لاسقاطه في عيون الناس. وعلى ضوء هذه الحقيقة الكبرى راح ابن التعاويذي يكسب رزقه ويدبر اموره، وديوان شعره هو الشاهد على ما اقول.

لقد مدح خلفاء بني العباس ورفعهم الى مصاف الانبياء، على حين جرد خصومهم - ومنهم بعض كبار القادة والزعماء - من اية صلة بالدين. وكان يتقرب الى زعماء الشيعة بما يرضيهم، ومن ذلك ان يدس في مدائحه لهم ابياتا تعمد ان يشير فيها الى الامام علي (رض)، ولم يتردد هذا الشاعر حتى عن الكذب حين زعم - وهو يمدح الوزير عضد الدين - بان في آباء هذا الوزير نزلت الآيات والسور[1] وهو يعلم ان الوزير فارسي الاصل.

ولعل الادهى من هذا كله: ان ديوان الشاعر يوحي بانه كان يحفظ القرآن الكريم ولكن هذا الديوان نفسه يدل على ان الشاعر غير متدين[2].

١ - الدين والسياسة:

أ - تعد الحروب الصليبية من اكبر الحروب التي شنت باسم الدين على الرغم من الاهداف السياسية التي دفعت الاوربيين الى مهاجمة البلاد العربية[3] والاعتداء على المقدسات الاسلامية. لقد قيل ان تعصب السلاجقة للدين الاسلامي، ادى بهم الى ان اساءوا معاملة

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٨

(٢) نفسه ص ١٨٨، ٢٢٦، ٢٣١

(٣) أدب الحروب الصليبية ص ١٦

الحجاج المسيحيين لبيت المقدس، فعاد هؤلاء الحجاج من فلسطين وبالغوا في وصف الاهانات التي لحقتهم في اثناء قيامهم بفريضة الحج، وهنا ثار الرأي العام الاوربي[١].

وعلى الرغم من ان العراق لم يكن طرفا مباشرا في ذلك الصراع، فان الخلافة العباسية، وعلى رأسها الخليفة، كانت تمثل في ذلك الحين اكبر سلطة دينية اسلامية يمكن ان يلجأ اليها حين يتعرض المسلمون، في أية جهة كانت، لخطر داهم كبير. ولذلك يحدثنا التاريخ بان الصليبيين حين اخذوا بيت المقدس، ووضعوا السيف في اهله، ووصلوا بخيولهم الى معبد سليمان، هاج اهالي دمشق ـ حين وصلتهم اخبار تلك المذبحة ـ وماجوا وخرج المستنفرون منهم، ومعهم قاضي المدينة ابو سعد الهروي، قاصدين بغداد، حيث حضروا في الديوان وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا. فقال ابو المظفر محمد بن احمد الأبيورْدي[٢] يصف ذلك.

مَزَجْنا دِماءً بالدموعِ السَّواجِمِ[٣] ... وَلَمْ يَبقَ مِنّا عرضةٌ للمراجِمِ
وشَرُّ سلاحِ المرءِ دَمعٌ يُفيضهُ ... اذا الحربُ شُبّتْ نارُها بالصَّوارمِ[٤]
فإيها بَني الاسلامِ إنَّ وراءكُمْ ... وَقائعَ يُلْحقنَ الذُّرى بالمَناسِمِ[٥]
أتَهْويمةً[٦] في ظِلِّ أمنٍ وَغِبْطةٍ ... وَعيش كَنوارِ[٧] الخَميلةِ ناعِمِ؟
وكيفَ تَنامُ العينُ ملء جفونها ... على هَفواتٍ[٨] أيقظتْ كلَّ نائمِ؟
واخوانُكمْ بالشامِ يُضْحي مَقيلُهمْ[٩] ... ظهورَ المَذاكي[١٠] اوبُطونَ القَشاعِمِ[١١]
تَسومُهمُ الرومُ الهَوانَ، وانتمُ ... تَجرّون ذيلَ الخَفْضِ[١٢] فِعْلَ المُسالمِ
... الخ[١٣]

وفي سنة ٥٢٣ هـ حاصر الصليبيون دمشق، فخرج اليهم اهلها وقاتلوهم قتالا شديدا، وبعثوا عبد الله الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة وهموا بكسر منبر الجامع[١٤].

(١) نفسه ص ١٥
(٢) مرت ترجمته ص ٩٥ هامش ١٠
(٣) السّواجم: المصبوبة.
(٤) الصَّوارم: السيوف.
(٥) المَناسِم: واحدها مَنْسِم: طرف خف البعير.
(٦) التَهْويمة: النوم القليل.
(٧) النُّوار: الزهر.
(٨) الهفَوات: من هفا القلب من الحزن أي استطير.
(٩) المَقيل: المكان الذي يمضي فيه الناس وقت اشتداد الحر. (١٠) المذاكي: الخيول.
(١١) القَشاعِم: النور.
(١٢) الخَفْض: لين العيش وسعته.
(١٣) ابن الأثير: ٨/١٨٩ ـ ١٩٠، أدب الحروب الصليبية ص ٣٠ ـ ٣١، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٢٩
(١٤) البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠

وهذا الذي فعله اهل دمشق، فعله كذلك اهل بُزَاعَة (على ستة فراسخ من حلب) سنة ٥٣٢ هـ[١].

وهذا الشعور بالوحدة بين المسلمين، وان بغداد تحتل مركز الزعامة الاسلامية لوجود خليفة المسلمين وزعيمهم الروحي فيها، هو الذي حمل جماعة من البغاددة من الفقهاء وغيرهم - ومنهم ابن الزّاغُوني[٢] - على الخروج الى الشام لاجل الجهاد وقتال الفرنج، وذلك حين بلغهم انهم فتحوا مدائن عديدة.. ثم رجع كثير منهم حين بلغهم كثرة الفرنج[٣].

وحين دارت الدائرة على الصليبيين، واستطاع المسلمون بعد ان وحدوا صفوفهم بقيادة صلاح الدين الايوبي ان يستردوا المدن والقلاع الاسلامية الواحدة بعد الاخرى، كان الخلفاء العباسيون قد نجحوا في التخلص من سيطرة السلاجقة كما نجح صلاح الدين في اعادة الخطبة لهم بمصر سنة ٥٦٧ هـ[٤]. ولذلك صار صلاح الدين يراسل الخليفة ويبشره بكل موقعة ينتصر فيها على الصليبيين، ذاكرا جهاده ومعاناته للحرب ومضايقاته للصليبيين وتدمير قلاعهم وحصونهم، وكان آخر وفد ارسله صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٨٨ هـ، لان بطل الحروب الصليبية توفي سنة ٥٨٩ هـ بعد أن اخبر الخليفة بالهدنة التي عقدها مع الصليبيين ذاكرا اسبابها وأهميتها[٥].

وكما شارك الشعر في اوقات الحزن والألم، حيث كان الشعراء يستنهضون الهمم ويشجعون المقاتلين ويذكرون المجاهدين بالجنة وحسن العاقبة، كذلك تسامع الشعراء بانتصارات صلاح الدين وجهاده في سبيل نصرة الاسلام وانقاذ بلاد المسلمين فكانوا يتبعونه في كل هذه الفتوحات ويزدحمون على بابه طمعا في العطاء، حتى قال في ذلك شاعر بغداد سبط ابن التعاويذي:

فَلا يُضْجِرنْكَ ازدحامُ الوفودِ ... عليكَ وكَثرةُ ما تَبذلُ
فانّكَ في زمنٍ لَيسَ فيهِ ... جَوادٌ سِواكَ ولا مُفْضَلُ
وقَدْ قَلَّ في اهلهِ المُنْعمونَ ... وقَدْ كَثُرَ البائسُ المُرْمِلُ[٦]
وما فيهِ غَيْرُكَ مَنْ يُسْتَماحُ ... وما فيه الاك مَنْ يُسْأَلُ[٧]

---

(١) نفسه ١٢/ ٢١٢ - ٢١٣
(٢) انظر الفصل الأول ص ٤٤
(٣) البداية والنهاية ١٢/ ١٧٢
(٤) أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة ص ٨ - ٩
(٥) وفيات الأعيان ٦/ ٢٠٢، تاريخ العراق العباسي الأخير ص ٣٣ - ٣٤
(٦) المرملُ: الفقير الذي لا زاد عنده.
(٧) ادب الحروب الصليبية ص ١٤٤، قارن ذلك بما ورد في ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٣.

وما كاد صلاح الدين الايوبي يسترد بيت المقدس ويحررها من ايدي الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ[١] حتى اسرع وزيره القاضي الفاضل بنقل هذه البشرى إلى الخليفة الناصر لدين الله، فقال - من رسالة طويلة -:

. . واستقرت على الاعلى اقدامهم، وخفقت على الاقصى اعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها - وان كانت صخرة - قلوبهم، كما يشفى الماء عللهم ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الاسود بيت عصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم[٢] لا يسعى الا لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى الارجاء هذه النعمى[٣] . .

كذلك كتب العماد الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - الى الخليفة - بمناسبة فتح بيت المقدس قائلا:

أبْشِرْ بِفتْحٍ اميـرَ المؤمنينَ أتى ... وَصِيتُهُ في جَميعِ الأرضِ جَوَّابُ
ومـا كانَ يَخْـطرُ في بالٍ تَصـوّرهُ ... واستصعب الفتحُ لَمّا اغلقَ البابُ
وخامَ[٤] عنهُ الملوكُ الاقدمونَ، وقدْ ... مَضتْ على الناسِ مِنْ بَلواهُ أحقابُ
وجـاءَ عَـصـرُكَ، والأيام مُـقْـبِـلةٌ ... فَكانَ فيه لِفَيْضِ الكُفْرِ إنْضابُ[٥]
نصـراً اعادَ صـلاحُ الـدينَ رَوْنقـهُ ... إيجـازُهُ بِبليـغِ القـولِ إسْهـابُ

. . . الخ[٦].

ويبدو ان الحماس والعاطفة الدينية هي التي حملت القاضي الفاضل، في الجزء الذي نقلته من رسالته للخليفة، على نعت المسيحيين بالكفر. وكذلك فعل العماد الاصفهاني في البيت الرابع من ابياته المتقدمة، وابن التعاويذي في قوله من ابيات اشرت الى ان جامع ديوانه اسقطها منه:

واصْمِـدْ لحربِ المُشْـركينَ مُهذَّباً ... بـالسيفِ مَنْ بِسواهُ لا يَتهـذَّبُ[٧]

ومعروف ان الاسلام يعترف بالمسيحية دينا سماويا، ولذلك لم يلزمهم بالدخول في

---

(١) وفيات الأعيان ٦/ ١٧٤ - ١٧٧
(٢) يريد به صلاح الدين الأيوبي.
(٣) وفيات الأعيان ٦/ ١٨٠ - ١٨١
(٤) خام: جبن ونكص.
(٥) أنضاب: نضوب، اقلال.
(٦) الروضتين ٢/ ١٠٢
(٧) أنظر قسم المديح من الفصل الثالث ص ١١٤ - ١١٦

الاسلام، على حين ليس بين المشركين والمسلمين الا السيف.

والشعراء العراقيون الذين شاركوا في انتصارات صلاح الدين بشعرهم خلال الفترة التي ادرسها ثلاثة: اولهم واكبرهم سبط ابن التعاويذي. وقد أشرت في مكان آخر من هذه الرسالة [١] الى انه كان يرسل قصائدة الى القاضي الفاضل وهو الذي يعرضها على صلاح الدين. وفي ديوان الشاعر قصيدة مطلعها:

أمِطِ اللِّثامِ عنِ العِذارِ[٢] السائلِ ليقومَ عُذْري فيكَ عِنْدَ عَواذِلي

قال فيها يخاطب القاضي الفاضل:

ولَئِنْ دَعوتُكَ من مَحلٍّ شاسعٍ ناءٍ مَداهُ على السُّرى المُتَطاولِ
فالسحبُ تَبعدُ أنْ تُنالَ وصَوْبُها[٣] دانٍ قريبٌ من يدِ المُتَناوِلِ
فَارفعْ ـ اذا عُرِضَتْ عليكَ قصائدي مدحي الى الملك الرحيم العادلِ
واسْفِرْ[٤] بجاهِكَ بينَ حَظّي والغِنى وَتَقاضَ[٥] لي ايَّامَ دَهْري المَاطِلِ
وانْهَضْ بِها أكرومةً قَعدَ الوَرى عَنْها، فَمِنْ مُتقاعسٍ او ناكِلِ[٦]
إنْ كنتَ اكرمَ مَنْزلٍ نَزَلت بهِ فَليحمَدَنَّ عَلَيكَ افْضَلُ نازلِ
لم ادْعُ ـ حينَ دعوتُ نَصركَ ـ غافلاً عَنّي، ولا اسْتنجدْتُ مِنكَ بخاذلِ
قَدْ اخْصَبتْ ارضُ العراقِ، وانني لارودُ[٧] مِنْها في جَدِيبٍ ماحلِ
.. الخ[٨].

والقصيدة واضحة الدلالة على ان العلاقة بين الشاعر المادح والوزير الممدوح لا تشب العلاقات المعروفة بين الشعراء ومن يقصدونهم بالمديح. ان الشاعر واثق من مكانته عند القاضي الفاضل، ولذلك اباح لنفسه ان يخاطبه مخاطبة الصديق الذي يجب ان يسعى من اجل صديقه. والواقع ان قصائد ابن التعاويذي في صلاح الدين الايوبي ووزيره، تثير الاستغراب

---

(١) انظر: الفصل الثالث ص ١١٣
(٢) العِذار: جانب اللحية.
(٣) صَوْب السحب: مطرها.
(٤) أسفر: من السفارة وهي الصلح.
(٥) تقاض: أراد أعني أو ساعدني.
(٦) ناكل: من نكل أي نكص وجبن.
(٧) أرود: اجول.
(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٦

والدهشة بسبب كثرتها اولا وتنوعها ثانيا، حتى يخيل للمرء ان ابن التعاويذي من شعراء مصر أو بلاد الشام القريبين جدا من ملك الايوبيين.

ففي القاضي الفاضل توجد - غير اللامية المتقدمة - قصيدتان: رائية مطلعها:

مَـرّتْ بِجـمـعٍ لَيلةَ الـنَّـفْـرِ   تجْـمـعُ بـيْنَ الاثـمِ والأَجْـرِ[1]

وبائية اولها:

عَسى قـاعـدُ الحظِّ يـومـاً يثِبْ   فيسـفـرَ عَن وجـهـهِ الْمنْتَقِبْ[2]

وهناك قصيدتان يمدح فيهما الشاعر رسول صلاح الدين الامير شمس الدين محمد بن ابي المضاء سنة ٥٧٠، ٥٧١[3]، وثمة قصيدة قافية يحذر فيه الشاعر صلاح الدين من ابن الحصين الذي هرب الى دمشق بعد ان استدان من جماعة من اهل بغداد ديونا كثيرة[4]. وفي الديوان قصيدة بائية مطلعها:

حَتّامَ أَرضى في هَـواكَ وَتغْضبُ؟   والى مَـتى تجْني عَـلَيَّ وَتَـعْـتِـبُ؟

قال ابن خلكان ان الشاعر: «اجاد فيها كل الاجادة»[5]، ولكن المؤرخ الكبير وكذلك الديوان لا ينصان على المناسبة التي نظمت فيها القصيدة، باستثناء القول انها نظمت سنة ٥٨٠ هـ، ويصف الشاعر فيها الخلع التي انفذت الى صلاح الدين من دار الخلافة[6]. ويبدو من قصيدة ثامنة ان الشاعر كان يرى نفسه متفوقا على زملائه من شعراء بغداد، ولذلك يعاتب صلاح الدين على مساواته ببقية الشعراء في العطاء، قال من قصيدة:

وَكـانَ يـا يـوسُفَ السَّماحِ بنـا   الى عَـطايـاكَ شَـوقُ يَعقـوبِ
حاشاكَ أنْ تُرسلَ الصِّلاتِ على   غَـيـرِ نـظامٍ وغيـرِ تَـرتـيـبِ
سَوّيتَ بي في العطاءِ مَنْ لا يُجا   ريني فـي مـذهَـبي وأسلوبي
وَغيـرُ بِدْعٍ فـالسُّحبُ ما بَـرِحَتْ   يقـلُ منهـا حَظُّ الأَهـاضِيْـبِ[7]
والحِـذْقُ في ما عَلِمْتُ مُكْتَسَبٌ   وانَّـمـا الحظُّ غـيـرُ مَكْـسـوبِ

---

(١) الديوان ص ١٩٠، والنَّفر: اندفاع الحجاج من منى إلى مكة.

(٢) نفسه ص ٢٧

(٣) نفسه ص ١٨٥، ٤٨٠

(٤) نفسه ص ٣٠٥

(٥) وفيات الأعيان ٦/ ٢٠٩

(٦) الديوان ص ٢٢

(٧) الأهاضيب: الهساب، المرتفعات.

وَلي عَلَيهِمْ فَضيلةُ السَّبْقِ في   مَدْحِكَ فاعْرِفْ سَبْقي وَتَعْقِيبي
شَأَوْتُهِمْ سابِقاً، وَصَلّوا[1] فَمَنْ   أولى بِبِرٍّ مِنّي وَتَقْريبِ؟
... الخ[2].

وعلى الرغم من ان شهرة صلاح الدين قائمة على انتصاراته في الحروب الصليبية وقد عبر شعر ابن التعاويذي عن هذه الحقيقة ابلغ تعبير، فان ديوان الشاعر لم ينص ـ في تقديم القصائد ـ سوى مرة واحدة على ان صلاح الدين قد انتصر على الفرنج وهزمهم سنة ٥٧٠ هـ، وهذه القصيدة هي التي مطلعها:

قَلْبيَ في حُبِّكَ مَعْمودُ[3]   وَحَظُّ عيني مِنْكَ تَسْهيدُ[4]

وقد اشار المحقق انه اسقط منها خمسة ابيات لعدم المنفعة كما قال[5].

وفي الديوان قصيدة واحدة اشار صاحب الروضتين[6] انها نظمت لتهنئة صلاح الدين لانتصاره في موقعة مَرْج عُيون[7]، وهي من انتصارات صلاح الدين المشهورة على الصليبيين[8]، وقد التزم الديوان الصمت، فلم يشر الا الى ان القصيدة نظمت في مدح صلاح الدين وانها ارسلت اليه بدمشق سنة ٥٧٥ هـ[9]. على الرغم من اشارة محقق الديوان الى ان الروضتين من مصادر شعر ابن التعاويذي وفي هذه القصيدة بالذات[10]. وهذه القصيدة الفريدة هي التي مطلعها:

إنْ كانَ دِينُكَ في الصَّبابَةِ ديني   فَقِفِ المَطِيَّ بِرَمْلَتَيْ يَبْرينِ[11]

وفيها قال الشاعر:

كادَ الأعادي أنْ يصيبكَ كَيْدُها   لَو لَمْ تَكِدْكَ بِرَأْيِها المَأفونِ[12]
تُخْفي عَداوَتَها وَراءَ بَشاشَةٍ   فَتَشِفُّ عَنْ نَظَرٍ لَها مَشْفونِ[13]
دَفَنتْ حَبائِلَ مَكْرِها، فَرَدَدْتَها   تَذْوي[14] بِغَيظِ صُدورِها المَدْفونِ

---

(١) صلّوا: اي جاءوا بعد السابق.
(٢) الديوان ص ٢١
(٣) المَعْمود: الذي هَدّه العشق.
(٤) الديوان ص ١٠٨
(٥) نفسه ص ١١١ في الهامش، وانظر الفصل الثالث ص ١١٥
(٦) الروضتين ٢/ ١٠
(٧) مَرْج عُيون: قال ياقوت أن موقع هذا المرج بسواحل الشام. (معجم البلدان ٨/ ١٦).
(٨) أدب الحروب الصليبية ص ١٢١
(٩) الديوان ص ٤٢٠
(١٠) نفسه ص ٧ من المقدمة.
(١١) يَبْرين: قيل أنه رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حَجْر اليَمامَة (معجم البلدان ٨/ ٤٩٤).
(١٢) الراي المأفون: الضعيف.
(١٣) النظر المَشْفون: هو نظر الحاسد الحذر المترقب.
(١٤) تَذْوى: تحمل الضغن، تمرض.

وعَلِمْتَ مـا أَخْفَـوا كـأَنَّ قلوبَهمْ أفضتْ اليـكَ بسرِّهـا المَخْـزونِ
كَمِنوا ـ وكَمْ لَكَ من كَمِينِ سَعادةٍ ـ في الغَيْبِ يَـظْهـرُ مِنْ وَرَاءِ كَمين
فَهَوتْ نُجومُ سُعودِهِمْ، وَقَضى لَهمْ بالنَّحْسِ طائـرُ جَدِّكَ المَيْمـونِ[١]

اما الشاعر العراقي الثاني فهو محمد بن بختيار المعروف بالابله البغدادي، وله قصيدة واحدة اشار الديوان انه «قالها في صلاح الدين» ومطلعها:

سَـقَـى أيّـامَـنـا بـلِوَى زَرُودِ ضَحوكُ البَرْقِ صَخَّابُ الرُّعودِ[٢]

وهي خالية من أية اشارة الى سنة النظم، وكذلك من المناسبة التي نظمت فيها، وليس في ابيات القصيدة اية دلالة على سنة النظم او مناسبته، وان كان البيت الاخير فيها يدل على تهنئة بالصوم، وهو قول الشاعر:

وَهُنِّيتَ الصِّيـامَ، ولا اسْتحالَتْ لَـكَ الايّـامُ عَنْ حـالٍ حَميـدِ

ومن هذه القصيدة قول الابله ـ بعد المقدمة الغزلية ـ

فَأقسِمُ ما على وَجْدِي وَجَذْوَى[٣] صَـلاحِ الدينِ يَـوماً مِنْ مَـزِيدِ
أخي الباسِ الشَّديدِ اذا تَراخَتْ كُمـاةُ الحَربِ والـرَّاي السَّديـدِ
مُباحُ حِمَى المَكارمِ، والأيادي قَـلايدُ جُـودِهِ في كُـلِّ جيـدِ[٤]
تُفرِّجُ بَيْضهُ[٥] في كُـلِّ نَقْعٍ[٦] ذُيـولَ قَساطِـلٍ[٧] كـالليـلِ سُـودِ
وَتُلْفَى سُمْـرُه[٨] حُمـراً وِراداً[٩] اذا غَشِيَ الوَغَى[١٠] بِدَمِ الوَرِيدِ
خَلِيُّ العِـطْفِ مِنْ عُجْبٍ وَتِيهٍ وَملءُ الـدِّرْعِ مِنْ كَـرَمٍ وَجُـودِ
يَضِنُّ[١١] بِعرْضهِ كَرَماً وطـولا[١٢] وَيَسمـحُ بـالطَّرِيفِ[١٣] وبـالتَّليـدِ
. . . الخ[١٤].

---

(١) في الروضتين رواية أخرى لعجز هذا البيت ولم يشر إليها المحقق وهي: . . بالنَّحسِ طائرُهمْ بمرْجِ عيُونِ الديوان ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣
(٢) ديوان الابله و ١٠٢
(٣) الجَذْوَى: العطاء. (٤) الجِيْد: العنق.
(٥) البَيْض: واحدتها بَيْضَة وهي الخوذة من الحديد، ويصح أن تكون السيوف. (٦) النَّقع: الغبار.
(٧) القساطِل: واحدها قَسْطَل: غبار الحرب. (٨) السمر: الرماح.
(٩) الوراد: التي يميل لونها الأحمر إلى صفرة. (١٠) الوَغى: الحرب. (١١) يضِنّ: يبخل.
(١٢) طَوْلًا: ترفُّعا. (١٣) الطريف والتليد: المال القديم والجديد.
(١٤) الديوان و ١٠٢

وواضح ان الشاعر مهتم بالبديع اكثر من اهتمامه بالمعنى ، ولذلك حشد في هذه الابيات عددا من الجناسات غير قليل مثل : استحالت وحال في البيت الاخير المتقدم ، ووجدي وجدوى في البيت الاول ، والشديد والسديد في الثاني ، وجود وجيد في الثالث ، وورادو وريد في الخامس . ويلاحظ الطباق بين خليٍ وَملءُ ، والعجب والتيه والكرم والجود في البيت السادس ، وكذلك بين يضن ويسمح والطريف والتليد . .

ولولا ان الابله يكثر من البديع في جميع شعره [١] ، لكان من المحتمل ان يكون قد تعمد الاكثار من البديع في هذه القصيدة بالذات ،ليرضي القاضي الفاضل ومدرسته وهم المقربون من صلاح الدين والمحيطون به[٢].

واما الشاعر العراقي الثالث فهو الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نَبْهان من اهل الحِلَّة اَلمزْيَدِيّة[٣]، وهو يختلف عن زميليه ابن التعاويذي والابله لانه شهد الموقعة التي مدح صلاح الدين من اجلها بنفسه، وهي فرصة يحسده عليها كثير من العراقيين، قال:

هَنيئاً صَلاحَ الدين بالفَتْحِ والنَّصْرِ ... وَنيلِ الأَماني الغُرِّ والفَتْكَةِ البِكْرِ[٤]
وما حُزْتَ فيها مِنْ فَخارٍ ومِنْ عُلاً ... وَحُسْنِ ثَنىً يَبْقى الى آخر الدَّهْرِ
سَمَوْتَ لها بالمَشْرَفيَّةِ[٥] والقَنا[٦] ... سُموَّ أبيّ لا يَنامُ على وِتْرِ[٧]
وَصَلْتَ بها حَبْلَ المَفاخِرِ مِثْلَما ... قَطَعْتَ بها يومَ الوَغى دابِرَ الكُفْرِ
سَلَكْتَ بَياضَ الصُّبحِ ، وهو صَوارِمٌ[٨] ... وَخُضْتَ سَوادَ اللّيلِ ، وهو دَمٌ يَجْري
وَقَدْ عَرَفَ الإفرنجُ بَأسَكَ في الوَغىَ ... وَجَرَّعْتَهمْ منه أمرَّ مِنَ الصَّبْرِ
وَظَنُّوا بِناءَ الحُصْنِ[٩] صَوْناً لِمُلكِهِمْ ... فأصبحَ بالشَّعواءِ[١٠] مُنْهتِكَ السِّتْرِ

. . . الخ[١١].

---

(١) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة.
(٢) أدب الحروب الصليبية ص ١٢٢، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٢٠٢ - ٢٠٤.
(٣) الروضتين ٢/١٢، ولم أعثر لهذا الشاعر على ترجمة في المصادر المتوفرة.
(٤) الفَتْكَة البِكْر: الجديدة، التي لم يسبقه إليها أحد.
(٥) المَشْرَفية: السيوف.
(٦) القَنا: الواحدة قناة أراد بها الرمح.
(٧) الوِتْر: الثأر.
(٨) الصَّوارم: السيوف.
(٩) الحصن: هو حصن الداوية أو حصن المخاض أو بيت الأحزان أو بيت يعقوب وقد خربه صلاح الدين . ادب الحروب الصليبية ص ١٢٢
(١٠) الشعواء: أراد بها الحروب أو الغارة.
(١١) الروضتين ٢/١٢

وهكذا ساهم شعراء العراق مع اخوانهم من شعراء مصر وسوريا في الاشادة بمآثر صلاح الدين الايوبي وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الاسلام والمسلمين، فكان هذا الشعر العراقي خير تعبير عن الوحدة الاسلامية التي كانت السبب الاول في دحر الصليبيين وطردهم.

ب ـ ان الصراع بين العباسيين والفاطميين يمثل حلقة اخرى ـ بعد الحروب الصليبية ـ من حلقات الصراع الديني السياسي.

لقد كانت كل من الدولتين تطمح الى زعامة العالم الاسلامي استنادا الى اسباب دينية. فالعباسيون يستندون الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم محمد ﷺ، على حين يقول الفاطميون انهم من ابناء فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ.

ومن هذا المنطلق الديني صار جمهور اهل السنة والجماعة من المسلمين يميلون الى الجانب العباسي. وصار عامة الشيعة يرون في الدولة الفاطمية فرصة لتقويض النظام العباسي، وخلق المتاعب له، او على الاقل رأي الشيعة في الدولة الفاطمية املا يمنون انفسهم في اللجوء اليه او الاستعانة به عندما تسوء الامور مع بعض العباسيين.

ولذلك حين فتح البويهيون بغداد سنة ٣٣٤ هـ، وهم من الشيعة الزَّيدِيَّة، سمحوا الدعاة الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم في العراق وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة لنفوذ بني بُوَيْه.. واستقبل رسول العزيز بالله الفاطمي لما وصل الى بغداد استقبالا حافلا. فقد اصطف الجند على جانبي الطريق وأخذ القواد وكبار رجال الدولة اماكنهم كل على حسب مكانته، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر[(١)].. وعندما قطع ابو الحارث البَساسِيْري[(٢)] الخطبة للعباسيين ببغداد سنة ٤٥٠ هـ وخطب للمستنصر الفاطمي[(٣)]، مال اليه اهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه[(٤)].

اما حين استولى الاتراك السلاجقة ـ وهم سنيون ـ على مقاليد الامور ببغداد بعد سنة ٤٤٧ هـ فقد حرصوا على تعقب دعاة الفاطميين الذين قاموا بنشر دعوتهم في بلاد فارس والعراق، كما تعصبوا للمذهب السني وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب ان اقصوا غير السنيين من وظائف الحكومة[(٥)].

---

(١) النفوذ الفاطمي ص ٨٠ ـ ٨١

(٢) هو أرْسَلان بن عبدالله مقدم الاتراك ببغداد، قتله عسكر السلطان طغرلبك ببغداد سنة ٤٥١ هـ. وفيات الأعيان ١٧٢/١ النجوم الزاهرة ٢/٥، ٦٤، مقدمة ديوان داعي الدُّعاة ص ٤٠ ـ ٤٧

(٣) وفيات الأعيان ٣١٧/٤

(٤) النفوذ الفاطمي ص ١١٧

(٥) نفسه ص ١٢٦

وعلى الرغم من ان الصراع بين العباسيين والفاطميين هو من بعض جوانبه صراع بين مذهبين وعقيدتين تنتميان الى الدين الاسلامي، وكان المفروض ان تتنافسا من اجل نشر المبادىء الاسلامية واحياء التراث الاسلامي، والوقوف صفا واحدا بوجه اعداء الاسلام من الصليبيين والروم البيزنطيين، ولكن الهدف السياسي الذي يكمن وراء الشعارات والمبادىء الدينية، هو الذي جعل اتباع الدين الواحد يقتل بعضهم بعضا، ويحاول جاهدا ابادته واستئصاله بجميع الوسائل والطرق المتاحة، ولذلك مرت الدعوة الفاطمية في اول امرها بدور الائمة المستورين في ذات الله خوفا من بطش بني العباس وتنكيلهم لانهم علموا ان فيهم من يروم الخلافة[1] وهذا هو الستر الأول، وحين انتقل مركز الدعوة الى اليمن في عهد آخر ملوك الفاطميين بدأ دور الستر الثاني[2].

ويذهب اكثر المؤرخين الى ان الفاطميين كانوا شديدي التعصب لمذهبهم الديني وتطرفوا في عصبيتهم حتى انهم اكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لا رغبة، وانهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب اهل السنة بل افنوهم تقتيلا[3].. بل ان الخوف من الفاطميين وانصارهم بلغ حدا لا يكاد يصدق حين رفض الشريف الرضى، وهو في عاصمة الخلافة العباسية ان يوقع على وثيقة تدين الفاطميين خوفا من الاغتيال، فعجب ابوه وقال له: اتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه، وتسخط من هو قريب وانت بمرأى منه ومسمع وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك[4]؟

وكما يحدث دائما بين المتخاصمين، نجد العباسيين قد استغلوا قضية الشك في نسب الفاطميين احسن استغلال وبدأوا يتوسعون ويبالغون في هذا الموضوع وربما اضافوا اليه اشياء تساعد على اخراج خصومهم من جملة المسلمين في نظر العامة الذين يصدقون كل شيء يصدر عن الخليفة، اقول هذا ترجيحا وظنا حين وجدت ان الخليفة القادر بالله لجأ الى محاربة الفاطميين عن طريق التشهير بسمعتهم في العالم الاسلامي، فعقد اجتماعا دعا اليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة واصدروا في شهر ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ محضرا ـ وكذلك صدر محضر آخر عن الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٤٤[5] ـ يتضمن الطعن في نسب الفاطميين خلفاء مصر، وفي شرعية امامتهم، ومما ورد في هذا المحضر: «.. فشهدوا جميعا ان الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم. وهو من تقدمه ومن سلفه الارجاس الانجاس، ادعياء، خوارج، لا

---

(١) وفيات الاعيان ٢/ ٣٠١

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ١٨٤

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) النفوذ الفاطمي ص ٨٨، الحماسة في شعر الشريف الرضي ص ٦٨

(٥) النجوم الزاهرة ٥/ ٥٣

نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب، وان ذلك باطل وزور، وانهم لا يعلمون ان احدا من الطالبيين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج انهم ادعياء. وقد كان هذا الانكار شائعا بالحرمين[1] في اول امرهم بالمغرب. ان هذا الناجم بمصر هو وسلفه.. قد عطلوا الحدود، وسفكوا الدماء، وسبوا الانبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية[2]..

وليس من المعقول، بعد هذا كله، ان يكون شعراء الطرفين المتنازعين بمعزل عن حلبة الصراع، وقد وجدنا شعراء العراق يساهمون في شعر الحروب الصليبية وهم بعيدون عن ميدانها، فكيف اذا كان احد المتخاصمين من ابناء العراق، وكان انصار الخصم، وهم الشيعة، ينتشرون في المدن والقرى العراقية، ومنهم شعراء كبار لا يخفون ضيقهم بالسلطان العباسي من جهة، وبعضهم يطمح الى الخلافة من جهة اخرى[3]؟

ولعلي لا اجانب الحقيقة حين الاحظ ان الشعراء هم الفئة التي وجد الخصمان المتنازعان في استمالتها وتشجيعها خير عون على دحر الخصوم وتسفيه آرائهم وجذب الانصار والمؤيدين وشد ازرهم، خاصة وقد عرف الطرفان ان الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من اهم وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللاحزاب السياسية والفرق الاسلامية بعد ظهور الاسلام[4].

وعلى الرغم من قدرة الفاطميين وكياستهم في فن السياسة واصطناعهم كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء، حتى انهم اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الاحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الاحزاب وآرائها[5]، اقول على الرغم من هذا كله فقد كتب عليهم ان يخسروا في معركتهم الأدبية ضد بني العباس، مع ان الباحث المنصف لا يستطيع ان ينكر الاثر الفاطمي الواضح في شعر العراق في القرن السادس، بل وفي مدح خلفاء بني العباس بالذات، وخاصة المستضيء وابنه الناصر لدين الله، كما سيأتي بيانه بعد قليل ان شاء الله.

فاذا عدنا الى اسباب انتصار العباسيين وجدنا منها:

١ ـ كتب على الدولة الفاطمية ان ينتهي حكمها سنة ٥٦٧ هـ، وهو تاريخ بدأت فيه الدولة العباسية تسترجع قوتها وتعود الى سابق عزها. وتبعا لقاعدة الويل للمغلوب، صار الأدباء

---

(١) الحرمان: مكة المكرمة والمدينة المنورة.

(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٣) الحماسة في شعر الشريف ص ٦٧، ٤٠

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

(٥) في أدب مصر الفاطمية ص ١٥٨

والشعراء يتقربون الى بني العباس بثلب الفاطميين والتنديد بهم، فقال العماد الاصفهاني يمدح المستضيء بعد الخطبة له بمصر سنة ٥٦٧ هـ:

قَدْ خَطَبْنَا لِلمُستَضيء بمصرٍ نائبِ المصطفى إمامِ العَصْرِ
وَخَذَلْنا لِنَصْرِهِ العَضُدَ العا(م) ضِدَ[١] والقاصِرَ الذي بالقَصْرِ
وأشعْنا بها شِعارَ بني العبـ(م) باسِ، فاسْتَبشَرتْ وجوهُ النَّصْرِ
وَتَرَكْنا الدعيَّ يَدْعو ثُبوراً[٢] وهو بالذُّلِ تحتَ حَجرٍ وحَصْرِ
وَتَباهَتْ مَنابرُ الدِّين بالخُط(م) بةِ للهاشِميِّ في ارضِ مصرِ
وَلَدينا تَضاعفتْ نِعَمُ اللـ(م) ـهِ، وَجلَّت[٣] عَنْ كُلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ
فَاغْتَدَى الدينُ ثابتَ الرُّكنِ في مصـ(م) ـرَ، محوطَ الحِمَى، مَصونَ الثَّغرِ

... الخ[٤].

واعادة الخطبة لبني العباس بمصر من احداث القرن السادس المهمة، كما سبق ان اشرت[٥]، وقد تبارى الشعراء في الاشادة بها، فكان مما قاله حاجب الوزير ابن هبيرة من قصيدة أولها:

لَعلّ حُداةَ العِيسِ[٦] أنْ يَتوقّفوا لِيشْفي غَليلاً[٧] بالمَدامعِ مُدْنَفُ[٨]

قال:

لِيهْنكَ يا مَوْلى الأنامِ بِشَارةٌ بها سَيْفُ دين اللهِ بالحقِّ مُرْهفُ[٩]
ضَربْتَ به هامَ الاعادي بهمَّةٍ تَقاصرَ عَنْها السَّمْهَريُّ[١٠] المُثقَّفُ
بَعثْتَ الى شَرقِ البلادِ وغَرْبها بُعوثاً مِنَ الآراءِ تُحْي وَتُتْلِفُ
فقامَتْ مقامَ السيفِ، والسَّيفِ، قاطر ونابَتَ مَنابَ الرمحِ، والرُّمحُ يَرْعفُ[١١]

---

(١) العاضد: آخر خلفاء الفاطميين بمصر، وقد سماه بالقاصر لصغر سنه.

(٢) الثُبور: الويل والهلاك.

(٣) جلت: عظمت وكبرت.

(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٢

(٥) أنظر: الفصل الثالث ص ١١٦

(٦) العِيسُ: الابل يخالط بياضها سواد خفيف.

(٧) الغَليل: حرارة الحب أو الحزن.

(٨) المُدْنَف: المريض، وهو هنا العاشق.

(٩) سيف مرهف: دقيق الحد، قاطع.

(١٠) السَّمْهَري: الرمح الصلب.

(١١) يَرْعُف: يقطر دما.

وَقُدتَ لها جيشاً من الرّوعِ هائلاً … الى كلِّ قلبٍ من عِداتِكَ يَزْحفُ
لِيهنكَ يا مولاي فَتحٌ تَتابعتْ … اليكَ به خُوصُ[1] الرَّكائبِ تُوجِفُ[2]
أَخذْتَ به مصرا، وقدْ حالَ دونَها … من الشِّركِ ناسٌ في لحى[3] الحقِّ تقذفُ
. . . الخ[4].

وهنا لا بد من وقفة نقلب بها صفحات التاريخ، فسنجد ان مصر كانت تابعة لبني العباس قبل سنة ٣٥٨ هـ. وفي هذه السنة قطعت خطبة بني العباس بها بعد ان استولى عليها القائد جَوْهَر[5] مولى المعز لدين الله الفاطمي[6]. . فاين الشعر الذي قيل في هذه المناسبة؟ اذ لا يعقل ان تمتلىء كتب الادب والتاريخ بالشعر حين ينتصر العباسيون، ولكن الشعراء يلتزمون الصمت حين يفتح الفاطميون مصر.

ان المؤرخين من السنة اهملوا جميع الشعر الذي يشيد بالفاطميين ويؤرخ انتصاراتهم تقربا لبني العباس وتملقا لهم. ومن ذلك ان ابن خلكان يشير الى ان القائد جوهرا حين توفي سنة ٣٨١ هـ: لم يبق بمصر شاعر الارثاه[7]؛ ولكن المؤرخ الكبير لم يورد من هذا الشعر اي بيت. وكذلك فعل ابن الجوزي اذ قال: ان ابا علي ابراهيم بن محمد بن محمد. . من اولاد زيد بن علي بن الحسين، سافر الى الاقطار واتصل بالخلافة الفاطمية بمصر وحصل له من المستنصر خمسة آلاف مصرية، ثم عاد الى الكوفة وتوفي بها سنة ٤٦٦ هـ[8]، ثم لا يذكر اي بيت لهذا الشاعر.

٢ ـ ان الفاطميين وجميع من ايدهم وسار في ركابهم ممن له عند العباسيين ثارات وديون، هؤلاء جميعا يمثلون اقلية ضئيلة اذا ما قورنوا بالاكثرية التي صدمتها اراء الفاطميين وعقائدهم، خاصة وان هذه الآراء والعقائد تميل الى الجانب الفلسفي المصبوغ بالصبغة الاسلامية[9]، وكان الفاطميون في فترة ضعفهم محاطين بمد اسلامي شديد التعصب ضد المتفلسفة وآرائهم، وهو المد الذي يمثله الحنابلة في العراق[10]، والايوبيون في مصر والشام[11]. اضف الى ذلك ان الذين

---

(١) خوص: الواحدة خَوْصاء: الناقة الغائرة العينين.

(٢) تُوجف: تسرع.

(٣) لحى الحق: جانبه أو جهته.

(٤) المنتظم ١٠/ ٢٠٩

(٥) هو ابو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب، الرومي المتوفي سنة ٣٨١هـ استقل بحكم مصر أربع سنين وعشرين يوماً، وكان محسنا إلى الناس. وفيات الأعيان ١/ ٣٢٥، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٨

(٦) وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦ ـ ٣٣٠

(٧) نفسه.

(٨) المنتظم ٨/ ٢٨٨

(٩) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦، ١٤٦

(١٠) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٤

(١١) في أدب مصر الفاطمية ص ١٦٨

استطاع الفاطميون استمالتهم من العراقيين، وكان من المحتمل ان يقفوا الى جانبهم ـ ولو بالسنتهم ـ هؤلاء، كانوا تحت سيطرة العباسيين وفي مناطق نفوذهم، ولذلك يستحيل عليهم الافلات من عيون بني العباس وجواسيسهم. ولعل الشريف الرضي خير مثال على ما اقول. فعلى الرغم من منزلة الرجل العلمية والادبية، وانه عاش في فترة حكامها متعاطفون مع الفاطميين، وهم البويهيون، ولم تصدر عنه سوى بعض ابيات ضد بني العباس ـ ولعله قالها في اوقات لم يستطع فيها ان يكظم غيظه، مثل قوله:

ويَا رُبَّ أدنى من أُميّةَ لُحْمَةً[1] رَمونا على الشّنانِ[2] رميَ الجَلامِدِ
طَبعْنا لهم سيفاً فكنّا لِحَدِّهِ ضَرائبَ عن أيمانِهمْ والسَّواعدِ
ألا لَيسَ فِعْلُ الاوّلينَ وإنْ عَلا على قُبحِ فعلِ الآخرينَ بِزائدِ[3]

وقوله:

ما مُقامي على الهوانِ، وعندي مِقْوَلٌ صارمٌ وانْفٌ حَميٌّ
وإباءٌ مُحلِّقٌ بي عَنِ الضَّيـ مِ كما راغَ طائرٌ وحْشيٌّ
أيُّ عُذرٍ له الى المجد إنْ ذَل(م) لَ غُلامٌ في غِمْدِهِ المَشْرَفِيُّ؟
البَسُ الذلَّ في دِيارِ الاعادي وبمصرَ الخَليفةُ العَلَويُّ؟
مَنْ ابوه ابي ومَولاهُ مَولا يَ، اذا ضامَني البَعيدُ القَصِيُّ
إنَّ ذُلِّي بذلكَ الحَيِّ عِزٌّ وَأوامي[4] بذلِك الرَّبعِ رِيٌّ[5]

اقول على الرغم من مكانة الشريف، وان البويهيين هم حكام البلاد الفعليون، فان الشاعر لم يسلم من تعنيف الخليفة القادر بالله[6]. فما ظنك بمن هم دون الشريف بدرجات كثيرة؟

ولعلي ـ بعد هذا الذي بسطت القول فيه ـ غير مبالغ ولا موغل في الافتراض والظن حين الاحظ انه من المستبعد ان يقف الشعراء العراقيون صامتين ـ كما تريد المصادر ان توحي الينا ـ وهم يرون ابا الحارث البَساسِيْري يقتل وزير الخليفة ويدعو الى الفاطميين على منابر بغداد لمدة

---

(١) اللُّحْمة: القرابة. (٢) الشَّنآن: البغضاء.
(٣) ديوان الشريف ١/ ٢٨٢
(٤) الأوام: العطش.
(٥) ديوان الشريف ٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣
(٦) النفوذ الفاطمي ص ٨٧، الحماسة في شعر الشريف ص ٦٨

سنة كاملة[1] . كذلك لا اكاد اصدق ان نهاية الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ـ بعد كل ما بذلته من جهود وتضحيات استمرت عشرات السنين لتثبت موضع قدم لها في العراق[2] ـ تكون بهذا الشكل الذي يحاول المؤرخون اقناعنا به، وهو ان جميع الشعراء العراقيين سارعوا الى الوقوف بجانب العباسيين، فرحين مستبشرين بزوال دولة الكفر والالحاد، على الرغم من الشواهد الكثيرة التي تثبت ان بعض هؤلاء الشعراء ـ ومنهم ابن التعاويذي والحيص بيص ـ لم يكونوا على علاقة طيبة ببني العباس في جميع الاحوال.

قال ابن التعاويذي من قصيدة مطلعها:

يـا زَمنَ السُّوءِ الـذي مَسَّني بـغَمْـرَةٍ[3] لَيسَ لها كـاشِـفُ

قال:

يَحسُـدني النـاسُ على مَـوردٍ مُـكـدَّرٍ يَنـزَحُـهُ الـراشِـفُ
وصـاحـبٍ هَـمِّـي مـا سَـرَّهُ وهـو على مـا سَـاءني عـاكِفُ
اذا بَـدَتْ مِـنّي لـه هَـفْـوةٌ اعـرضَ لا يعْـطِفـهُ عـاطِفُ

الى ان قال:

يـا دولـةً مـا نـالَني خَيـرُهـا وأنني مِـنْ شَـرِّهـا خـائـفُ
ناءَتْ صُروفُ الدَّهر عنها، فما يَـطوفُ للذُّعـرِ بهـا طـائفُ
فـارْقُبْ لهـا إنْ رَقَـدتْ فِتْنَـةً نَكْباءَ[4] شَرُّ ريحِهـا عاصِفُ[5]

وقد اشار هذا الشاعر مرات الى انه يفكر في مغادرة العراق، بسبب ما يلاقي كقوله:

سَئِمتُ مـن الثَّـواءِ بـدارِ ذُلٍّ أُجرِّرذَيـلَ مَـنـقَـصـةٍ وَوَهْـنِ
ارى مَنْ لا تَـشاقُ[6] اليه عَيني واسمـعُ مـا تَصَمُّ عليـه أُذني
وأُمْسي مُضْمِـراً ودّاً صَحيحـاً لِمَـطويٍّ على حَنَقٍ وضِـغْـنِ[7]

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٧٢

(٢) النفوذ الفاطمي ـ ابتداء من ص ٧٢ ـ ١٣٦

(٣) الغَمْرَة: الشدة.

(٤) النُكباء: الريح المنحرفة عن مهاب الرياح فتهب بين ريحين.

(٥) الريح العاصف: الشديدة. الديوان ص ٢٩٦

(٦) لاتشاق: بالاصل: لا تشتاق، وهو كاسر للوزن.

(٧) الضغن: الحقد.

فَأسهُل جانِبا، واليَنُ عِطْفا لأجْباسٍ[1] من المعروف خُشْن
أُنافِسُ في وِدَادِ أخٍ مَشُوبٍ[2] بِغِلٍّ[3] او سَماحِ يَدٍ بِمَنٍّ

الى ان قال:

تَنَقَّلْ إنَّ في النَّقلِ اعْتِلاءً وَعِزّاً، والهَوانُ مع المبنِّ
لَئِنْ ضاقَتْ بيَ الزَّوراءُ داراً فما ضاقَتْ بِلادُ اللهِ عَنِّي
وَلِي في الارضِ مُضْطَربٌ وَسيعٌ وَمُرتَكض اذا هِيَ لم تَسعْني
سَأرهفُ مِنْ مَضاءِ العَزْمِ عَضْباً[4] اذا نَبتِ الصَّوارمُ لم يَخُنّي

.. الخ[5].

وقال من قصيدة ثانية:

فَسُدَ النـاسُ، فالمَوَدْ(م) داتُ فيهِمْ على دَخَنْ[6]
فَتوحَّدْ، ولا تَكُنْ ذا سُكُونٍ الى سَكَنْ[7]
وَتغرَّبْ لا تَحْمِل الـ(م) ضيمَ في مَوْطِنٍ تَهُنْ
فَأخو الفَضْلِ حَيثُ كا نَ غَريباً عن الوطَنْ
فَهو كالماءِ ما أقا مَ بأرضٍ الّا أجِنْ[8]
والفَتى الحازِمُ الذي سَبَرَ[9] الدَّهرَ وامْتَحَنْ[10]

واما الحيص بيص فان دراسة شعره تثبت ان صلاته بزعماء الدولة العباسية ومنهم الخلفاء، محدودة ضيقة[11] وقد كان الرجل معروفا بميله الى الشيعة رغم انه شافعي المذهب[12]، وقد خرج هذا الشاعر الى حرب الخليفة المسترشد بصحبة امير الحلة دُبَيْس المزيدي[13]. ويبدو ان ولاء الحيص بيص لبني العباس كان موضع شك، ولذلك كان هذا الشاعر ممن قبض عليهم

---

(١) الاجباس: واحدها جِبْس: اللئيم، الجبان.

(٢) مشوب: ممزوج. (٣) الغِلّ: الحقد والغش.

(٤) العَضْب: السيف. (٥) الديوان ص ٤٤١

(٦) دَخَن: فساد.

(٧) السكن: الانقطاع عن الحركة ويراد بها هنا المسكن أو المنزل.

(٨) أجن الماء: تغير لونه وطعمه.

(٩) سَبَر الدهر: عرفه جيدا. (١٠) الديوان ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨

(١١) انظر ـ مثلاً ـ أسماء الممدوحين في الجزء الأول من الديوان المطبوع.

(١٢) مقدمة الجزء الأول المطبوع ص ٤٧ (١٣) الشعر العربي في العراق ٢/٦٣

حين ورد الخبر الى بغداد بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ، ولكنه اطلق بعد حين واعيد عليه ما أخذ منه[١]. وللحيص بيص مقطوعة في ديوانه المطبوع يعاتب فيها الخليفة المسترشد على قلة ما يصل اليه لقاء شعره أولها:

خَليفـةَ اللهِ مـا لي كلَّما بَسَـطتْ ... نفسي الرَّجاءَ طوى الحِرمانُ آمالي؟
وكلَّما كثُرتْ ـ والحالُ شاهِـدةٌ ـ ... وَسـائلي آذَنَتْ حـالي بـإقْـلالِ

الى ان يقول:

فَـارْعـوا ذِمـامَ مُحبٍّ دونَ مجدِكُمُ ... مُـقـارعٍ بـينَ قَـوّالٍ وَصَـوَّالِ
وَهـوِّنـوا المالَ في إحـرازِ حَمْـدِكمُ ... فالحمد لِلمُقتني أبقى منَ المالِ[٢]

والمقطوعة صريحة الدلالة على ان خلفاء بني العبّاس كانوا لا ينظرون الى الحيص بيص بارتياح، ولذلك يتعمدون التقتير عليه في العطاء.

مدح العباسيين بعقائد الفاطميين:

مر بنا ان جوهر الخلاف وسبب الصراع والقتال بين العباسيين والفاطميين الذي استمر اجيالا طويلة، وخسر المسلمون جميعا بسببه كثيرا من الارواح كان يمكن ان يستفاد منها في الذود عن بلاد المسلمين، اقول لقد شاع وعرف ان الخلاف بين الطرفين سببه الدين أو المذاهب الدينية بعبارة أدق.

فقد قال العباسيون ـ ومعهم جمهور اهل السنة والجماعة ـ ان غلو الفاطميين في عقائدهم ـ التي تدور كلها حول الامام الفاطمي وتمجيده اكثر من أي شيء آخر[٣] ـ قد اخرجهم عن جماعة المسلمين، لان الاسلام لا يعرف هذه الصفات التي خلعها الفاطميون على أئمتهم، ولذلك اطلق عليهم بعض السنة القابا منها «الكفار» و «الزنادقة» و «المجوس»[٤].

وحين تدخل الشعراء في هذه المعركة، راحوا يكيلون الشتائم والسباب للفاطميين، حتى اضطر بعض مؤرخي السنة انفسهم الى اسقاط رواية هذا الشعر تحرجا[٥].

---

(١) ابن الأثير ٩/٣٢
(٢) الديوان المطبوع ١/٣٤٣
(٣) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٦
(٤) دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١٤
(٥) أثر الصراع المذهبي ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

وقد استمرت المعارك سجالا بين الطرفين، كل طرف يحاول ان يثبت ويبرهن على ان رئيسه الأعلى أحق بالزعامة الدينية والدنيوية من خصمه لانه اقرب الى الرسول ﷺ من جهة أو لأن صفاته الدينية التي حباه الله بها وفضله لاجلها اكثر وأوضح مما هي عند الخصم.. وهكذا حتى سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وبعد هذا التاريخ كان المفروض ان يعود المنتصرون ـ وهم الايوبيون والعباسيون ـ الى العقيدة التي حاربوا الفاطميين من أجلها.. ولكن ما حصل كان على النقيض تماما: فقد استمرت الصفات التي غلا الفاطميون فاطلقوها على خلفائهم استمرت تطلق على ملوك الايوبيين وخلفاء بني العباس، بل لقد قيل في هؤلاء من النعوت والصفات ما لم يقله الفاطميون[١]، وهذا مما يؤكد ان الدين بريء مما نسب اليه، وانه كان ستارا لاهداف سياسية.

فاذا عدنا الى الشعر العراقي، موضوع هذه الرسالة، فسوف نجد ان مديح ابن التعاويذي للخليفتين المستضيء وابنه الناصر لدين الله، يكون اكبر مجموعة من القصائد تصلنا كاملة من مدائح خلفاء بني العباس في القرن السادس، وبدراسة هذه المجموعة الشعرية النادرة، ظهر واضحا ان شاعر الديوان العباسي كان يمدح الخلفاء بالصفات والنعوت والمعاني التي اشتهرت بانها من اختراعات الفاطميين وغلوهم في أئمتهم.

١ ـ من عقائد الفاطميين العقيدة التي كثيرا ما رددها دعاة المذهب، والتي تنص على انه لا تقبل من عبد طاعة الا باعتقاد ولاية الامام. وقد نظم هذه العقيدة شاعر المذهب الفاطمي وداعيته المُؤيَّد[٢] في الدين، فقال يمدح امامه المستنصر:

يا وَلِي الالهِ يا مَنْ به تُقْـ(م) بَلُ مِنّا صَلاتُنا والصِّيامُ[٣]

وقال تَميْم[٤] بن المُعز:

بهِ يَقبلُ اللهُ فَرضَ الصِّيامِ وحَجَّ الحَجيجِ وأهْلا لهَا[٥]

وقوله:

---

(١) دراسات في الشعر ص ٣٦، ٣٩ ـ ٤٣، أثر الصراع ص ٤٥٢، ٤٥٣

(٢) هو هِبَةُ الله بن موسى بن داود الشيرازي، كان من أكبر علماء عصره، وتدلنا كتبه على أنه كان واسع الثقافة ملما الماما تاما بجميع العلوم التي عرفت في العالم الاسلامي إذ ذاك. توفي في القاهرة سنة ٤٧٠هـ.
مقدمة ديوانه ص ١٧ ـ ٦٤ ـ في أدب مصر الفاطمية ص ٨١ ـ ٨٨

(٣) ديوان داعي الدعاة ص ٢٣٤

(٤) هو ابو علي تَميم بن المُعز بن المنصور، كان فاضلا شاعرا ماهرا توفي بمصر سنة ٣٧٤هـ. يتيمة الدهر ٢٥٣/١، ٣٩٠ ـ ٣٩٧ (ط. الصاوي)، المنتظم ٩٣/٧، وفيات الأعيان ٢٦٩/١، مقدمة ديوانه.

(٥) ديوان تميم ص ٣٢٠

فَهَنّتهُ يا مَنْ به الله قابلُ   منَ الخَلْقِ فيهِ كلَّ نُسْكٍ مُقدَّمِ [1]

وهذا المعنى الفاطمي هو نفسه الذي ردده ابن التعاويذي في مدح خلفاء بني العباس، فقال يمدح الناصر:

خَليفةُ طاعةُ الرَّحمنِ طَاعَتُهُ   حَقّا وعِصْيانُهُ للهِ عِصْيانُ
اذا تَمَسّكْتَ في الدنيا بِطاعَتهِ   فما لِسعيكَ عندَ اللهِ كُفرانُ [2]

وقال يمدح المستضيء بأمر الله:

لولا تَمَسُّكُها بطاعَته لَما   صَحَّتْ عقيدتُها ولا اسلامُها
أنى لَها بمراغم عن أمرهِ   لو حاولتهُ لَسفَّهَتْ أحْلامُها
وبه عِبادَتُها تَتِمُّ، ونُسْكُها   ونِكاحُها، وصَلاتُها، وصِيامُها [3]

وقال ايضا يمدحه:

تَرْمي العِدَى بِنَوافذِ [4] الـ   عَزَمَاتِ مِنْ آرائِها
لا يُرْتَضى مِنْ عامِلٍ   عَمَلٌ بِغَيرِ وَلائِها [5]

ومن قصيدة في مدح الناصر:

مِنْ مَعْشرٍ وَرِثُوا النَّبيَّ خِلافَةً   أفْضتْ إليهمْ كابرا [6] عنْ كابر
قومٌ بحبّهمُ وَطاعَتهِمْ غَداً   في الحَشْرِ يُعرفُ مُؤمنٌ مِنْ كافرِ [7]

وقال يمدح المستضيء:

وَطاعتُكَ الإيمان باللهِ والهُدى   وعِصيانُكَ الإلحادُ في الدِّينِ والكُفرُ
وَلولاكَ ما صَحّتْ عقيدةُ مُؤمنٍ   تَقِيّ، ولم يُقْبلْ دُعاءٌ ولا نَذْرُ [8]

ويبدو ان الناس في الفترة التي ادرسها ـ أو العامة منهم على وجه التخصيص ـ كانوا

---

(١) ديوان تميم ص ٣٨١.
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤١٤
(٣) نفسه ص ٤١٠.
(٤) الاراء النوافذ: المطاعة.
(٥) الديوان ص ٤٧٣ ـ ٧٤
(٦) الكابر: الجد الاكبر.
(٧) الديوان ص ١٧٠
(٨) نفسه ص ١٧٣

يعتقدون ان فروض الدين لا تقبل منهم الا اذا رضي عنهم الخليفة، جاء في المنتظم: ان العامة ببغداد كانوا يسبون الاتراك السلاجقة ويقولون يا باطنية، يا ملاحدة، عصيتم أمير المؤمنين، فعقودكم باطلة وانكحتكم فاسدة[1].

ومما يتصل بولاية الامام وانها احد اركان الدين، قال الفاطميون: ان الامام حجة الله على عباده وهاديهم الى الطريق القويم، وهو حبل الله الممدود بينه وبين العباد[2]. وقد وردت هذه اللفظة «حجة الله» و«حبل الله» عدة مرات في مدائح ابن التعاويذي للخليفتين الناصر لدين الله والده المستضيء، كقوله في المستضيء:

أنتَ ـ فَلْيرغم العِدَى ـ حُجّةُ اللـ ـهِ وأنتَ المَحَجّةُ البَيضاءُ
انتَ حَبْلُ اللهِ الذي فازَ مَنْ أدْ نَتهُ مِنهُ مَودَّةٌ وَوَلاءُ[3]

وقال في الناصر:

يا مُبيدَ العِدَى، ويا قاتِلَ المَحْـ ـلِ نداهُ وطارِدَ الإفلاسِ
حُجَّةُ اللهِ انتَ والسَّببُ الممـ ـدودُ ما بينَهُ وبينَ النَّاسِ[4]

٢ ـ اعتقد الفاطميون بان الامام يتصف بما يتصف به الرسول، وان كانت مرتبة الامامة دون مرتبة النبوة، ولذلك قالوا بان الأئمة لهم حق الشفاعة لاتباعهم يوم القيامة. وهذا يفسر قول ابن هانيء في مدح المعز:

هذا الشَّفيعُ لأمةٍ يَأتي بها وجُدُودُهُ لِجدودِها شُفَعاءُ
هذا أمينُ الله بَينَ عِبادِهِ وبِلاده إن عُدَّتِ الأُمَناءُ[5]

وهذه الفكرة ذاتها مدح بها ابن التعاويذي الخليفتين الناصر لدين الله والمستضيء عدة مرات، قال يمدح المستضيء من قصيدة:

أنتمُ للناسِ أعلامُ هُدىً يَلْتَجي السَّاري الى نِيرانِها
أنتمُ في الحَشْرِ ذُخرٌ يومَ لا يَنفعُ النفسَ سِوى إيمانِها
يومَ لا تَحْبَطُ أعمالُ فَتىً حُبُّكمْ في كَفَّتيْ مِيزانِها

(١) المنتظم ٩/ ٢٥٩
(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢، اثر الصراع ص ٣٣٧
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢
(٤) نفسه ص ٢٣٨
(٥) شرح ديوان ابن هاني ص ١٨

وَذُنـوبٌ أوْبَقْتَنِي[1] كَثْـرَةً بِكُم أطْمعُ في غُفْـرانِهـا[2]

وقال أيضا في مدحه:

يا مَنْ عَليهِ مُعَوَّلٌ في عاجِل الـ(م) دنيا، وفي الأُخرى عليهِ أُعَوِّلُ
وَبمـدْحِهِ مِيزانُ اعمـالي ـ اذا خَفَّتْ مَوازِينُ القِيامةِ ـ تَثْقُلُ[3]

وقال يمدح الناصر:

أيَضِلُّ أو يَصْلى لَظىً مَنْ أنتمُ شُفَعاؤهُ والى الصِّراطِ هُـداتُهُ؟
واللهِ لا وَردَ القِيـامـةَ ظـامِياً مَنْ أنتُـم آلُ النَّبيِّ سُـقـاتـهُ
كَـلّا ولا خـابَ امـرؤٌ والاكمُ في كَفَّتي ميـزانِـهِ حَسَنـاتُـهُ[4]

وقال فيه أيضا:

بِهمْ تُحطُّ الأوزارُ عَنّـا، فَـإنْ عَـنَّ بـلاءٌ فَهـمْ لَـنـا وَزرُ[5]
كـلُّ مُسيءٍ الـى شَفـاعـتهـمْ في الحَشرِ يومَ المَعادِ يَفتَقِرُ[6]

وقال:

مَـوازينُ أعمالي غـداً بـولائهمْ ـ اذا خَفَّ ميزانُ الخَلائق ـ تَرْجُحُ
مَيامِينُ مَنْ عاداهمُ، فهو مُخْسِرٌ شَقِيٌّ، ومَنْ والاهُم فَهوَ مُرْبِحُ[7]

٣ ـ حين قال ابن هاني الاندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شِئتَ لا ما شاءَتِ الاقدارُ فاحكُمْ، فانتَ الواحدُ القَهّارُ[8]

فهم القدماء من هذا البيت وامثاله ان الشاعر يؤله امامه، وحكموا بان الائمة الفاطميين ادعوا الالوهية[9]. ولم يشر احد الى ان ابن التعاويذي قد نقل هذا المعنى حرفيا ليمدح به الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فقال من قصيدة:

---

(١) أوْبقتْني: أهلكتني.
(٢) الديوان ص ٤٤٦
(٣) نفسه ص ٣٢٩
(٤) الديوان ص ٦٧
(٥) الوزر: أراد المعين والمساعد، من الفعل: آزر.
(٦) الديوان ص ١٦٠
(٧) نفسه ص ٨١، وانظر أيضا ص ١٦٦، ١٧٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ١٧٠
(٨) شرح ديوان ابن هاني ص ٣٦٥
(٩) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٩

أنتَ رَبُّ الزَّمانِ تَجْري بِتَصْريـ(م) فـكَ في أهلهِ يَـدُ المَقْـدُور
والليـالي خَـوادِمٌ لـكَ، والأيـ يامُ، فاحكُمْ حُكمْ العَزيزِ القَديرِ[1]

وقد يكون شاعر الفاطميين معذورا، لانه انما يعبر عن عقيدة القوم وفلسفتهم، ولذلك قال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين عند بيت ابن هاني المتقدم: ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليها ولا غلوا في العقيدة[2].

اما شاعر القرن السادس فما اظن سنيا واحدا يجد له اي عذر. لقد اراد أن يجدد ويطور في المعاني التي مدح بها الخلفاء، وقد وجد كأن القدماء لم يتركوا زيادة لمستزيد في هذا الميدان، فاضطر الى الكفر الصريح. وكما هي العادة دائما حين لا يجد الشاعر من يحاسبه او يناقشه في معاني شعره وانما يواجه بالصمت المطبق ـ ربما خوفا من الخليفة لان الشاعر من المقربين اليه ـ لذلك استمر الشاعر يمدح الخلفاء بهذه المعاني الدينية، فقال من قصيدة أخرى في الناصر:

.. تَبْقَى بَقَـاءَ الأيَـامِ حـالِيـةً بـالعَـدْلِ مِنْـكَ الآثـارُ والسِّيَـرُ
.. فاحْكُمْ على الدَّهْرِ قادِراً فَبِما تَشـاءُ يَجْـري القَضـاءُ والقَـدَرُ
.. يا صاحِبَ العَصْرِ والزَّمانِ وَمَنْ في يـدِهِ النَّفْعُ بعـدُ والضَّـرَرُ
.. ومَنْ لـه اللّيلُ والنَّهـارُ ومـا كَـرًّا عليـهِ والشَّمسُ والقَمـرُ
والبـرُّ والبحـرُ والشَّـواهِقُ والـ غـرُّ الغَـوادِي والنَّجمُ والشَّجـرُ
.. عِتـادُ مُلْكٍ لـهُ زَئيـرُ سُـطىً تَكـادُ مِنهـا الجبـالُ تَنْفَـطِرُ
.. مِنْ مَعشرٍ تَخضعُ الجِباهُ لَهمْ وَتقْشَعِـرُّ الجُلودُ إنْ ذُكِـرُوا[3]

ومن قصيدة في مدح المستضيء:

مُرِ الدَّهْرَ يفْعلْ ما تَشاءُ، فـإنَّهُ بأمرِكَ يَجْري في تَصرُّفِهِ الدَّهْرُ
.. وكيف يُقاسُ البَحْرُ جُوداً بكفِّهِ ومِنْ بعضِ ما تَحويهِ قَبْضتهُ البحرُ
وما لضياءِ البَـدْرِ إشراقُ وَجْهـهِ وأنّى، ومِنْ إشراقهِ خُلقَ البَدرُ؟
.. وكَيفَ يُهنّى بالزَّمانِ، وإنَّما تُهنّى به الايامُ والعامُ والعصرُ

(١) الديوان ص ١٦٥

(٢) في أدب مصر ص ٢٩

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٨ ـ ١٦٠

ولكنّـــا نُثنِي عـليــهِ تعبُّــداً وانْ كانَ عنّا ذا غِنىً فبنا فَقْرُ[1]

وعندي ان شعر ابن التعاوذي هذا، وهو شاعر الخليفة الرسمي، قد شجع بقية الشعراء على السير في هذا الاتجاه، ولذلك نجد كمال الدين النَّبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ، يقول في مدح الخليفة الناصر:

بَغـدادُ مَكّتُنـا، واحمـدُ أحمـدُ حُجّوا الى تلكَ المنازلِ واسْجُدوا
يـا مُذْنبينَ بهـا ضَعوا اوزارَكمْ وَتـطهّـروا بتـرابهـا، وتَهَجَّـدوا
فَهناكَ مِنْ جَسدِ النُّبوةِ بِضْعَةٌ[2] بالوَحي جِبريلٌ لَها يَتردّدُ
. . . الخ[3].

ولهذا الشاعر قصيدة اخرى لم يبق فيها زيادة لمستزيد، مدح بها القاضي الفاضل ومطلعها:

قُمتُ ليـلَ الصُّـدودِ الاّ قليــلا ثُمَّ رَتّلْتُ ذِكْـركُمْ تَـرْتِيــلا[4]

ان القراءة الدقيقة لمدائح ابن التعاويذي في خلفاء بني العباس، تدل على أن الشاعر يريد اثبات تفوق الخليفة العباسي على منافسه الفاطمي من الناحية الدينية حتى بعد ان زال نفوذ الفاطميين السياسي، ولذلك كان من الطبيعي أن يصف حرص الخليفة الشديد على اداء شعائر الاسلام - ومنها الصلاة والصوم - حتى في اصعب الأوقات كقوله في مدح الناصر:

إمــامٌ يُـطيــعُ اللهَ في خَلَواتـهِ بِطَاعَتِه الاعمالُ تَزْكو[5] وَتصْلحُ
. . هو القائمُ الصّوامُ، والّليلُ صائفٌ وللقيظِ زَنْدٌ في نَواحيهِ يَقْدَحُ[6]

وقوله:

إمـامٌ يخـافُ اللهَ سِـرّاً وَجَهْـرَةً ويُضْمرُ تَقوى اللهِ في الحَلِّ والعَقْدِ
. . يُقيمُ حُدودَ اللهِ غيرَ مُراقبٍ بقائمِ مَطْرورِ[7] الشَّبا باترِ الحَدِّ[8]

---

(١) نفسه ص ١٧٣ - ١٧٦، وانظر ايضا ص ١٧٢

(٢) البِضْعَة: القطعة من اللحم.

(٣) ديوان ابن النبيه ص ٣

(٤) ديوان ابن النبيه ص ٦٨

(٥) تزكو: تحسن وتصلح.

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٠، ٨١

(٧) مَطْرور الشَّبا: مُحَدَّد الطَّرَف.

(٨) الديوان ص ١٤٩، ١٥٠

وقال:

فَلِمُلْكِهِ رَأْدُ[1] الضُّحى تثقيفُهُ ... ولربِّهِ جُنحَ[2] الدُّجى إخْباتُهُ[3]
.. لابنِ السَّبيلِ عَطاؤُهُ وحِباؤُهُ[4] ... وَلِذي الإساءَةِ حِلْمُهُ وأَناتُهُ[5]

كذلك حرص الشاعر على القول ـ في جميع المدائح تقريبا ـ على ان الخليفة شديد القرابة من الرسول ﷺ فهو ابن عمه:

آلُ النُّبوَّةِ بُرْدُها وَقضِيبُها ... لَكم ومِنْبرُها معاً وحُسامُها
أبناءُ عمِّ المُصطفى الهادي وخَيـ(م) ... ـرُ عِصابةٍ وَطِيءَ الثَّرى أقدامُها[6]

ومن البديهي أن الشاعر لا يمكن ان يعيد ويكرر في جميع القصائد والأبيات وفي شتى المناسبات عبارة واحدة هي أن الخليفة ابن عم الرسول ﷺ ولذلك راح يتصرف في هذا المعنى ويردده بألفاظ مختلفات فمرة يقول:

آلُ الرِّسالةِ بالصَّلاةِ عَليهِمُ ... والحَمدِ يُفْتتحُ[7] الصَّلاةُ وتُخْتَمُ
قومٌ على أبياتِهِمْ تتنزَّلُ الـ ... امـلاكُ، والمَبْعوثُ احمدُ مِنهُمْ[8]

وقال ايضا:

جارٍ على سُنَنِ[9] وسُنَّةِ الـ(م) ... خُلفاءِ مِنْ آبائِه تُتقَيَّلُ[10]
شَرفاً بني العبّاسِ شادَ بناءهُ لكمُ ... فاعلاهُ النَّبيُّ المُرْسَلُ
وابوكَ سيِّدُ هاشمٍ طُرّاً وخَيـ(م) ... ـرُ النّاسِ مِنْ بعدِ النَّبي وأفْضَلُ
وَوَقَفْتَ مِنْ شَرفِ الخِلافةِ مَوقِفاً ... مِنْ دونِهِ سِتْرُ النُّبوةِ مُسْبَلُ[11]

والشاعر في هذا البيت الاخير يخاطب الخليفة المستضيء، ويلاحظ ان الشاعر ـ وهو يتصرف في التعبير عن القرابة بين الرسول ﷺ والخليفة ـ لا يتحرج من تجاوز المعروف والمسموح به دينيا في هذه الصلة، مما يكشف حقيقة تدين الشاعر من ناحية، والمدى الذي بلغته سلطة الدين على الناس في القرن السادس من ناحية اخرى، ففي البيت المشار اليه

---

(١) رأد الضحى: وقت ارتفاع الشمس.
(٢) الجُنْح: الناحية.
(٣) الأخْبات: الخشوع لله سبحانه.
(٤) الحِباء: العطاء.
(٥) الديوان ص ٦٥، ٦٦
(٦) نفسه ص ٤٠٩
(٧) كذا بالاصل والصواب: تفتتح.
(٨) الديوان ص ٣٧٣
(٩) السُنن: الطرق.
(١٠) تُتَقَيَّلُ: تتبع، وهي بالأصل بالباء تتقبل تصحيف.
(١١) الديوان ص ٣٢٨، ٣٢٩

قال الشاعر «ستر النبوة» وهو يريد «ستر الخلافة» وهو متعمد في هذا التلاعب بالالفاظ - وهو غير جائز دينيا - لانه يريد ان يوحي للناس بان لا فرق بين الخلافة والنبوة، ولست هنا انطق الشاعر بما لم يقصد اليه، فقد قال في قصيدة اخرى:

أردَيتُم كِسْرى وَتُبعَ حِمْيرٍ ... والُمْلكُ مَغْصوبٌ بكمْ خَزراتُهُ[1]
وكَفاكمُ شَرَفاً ومُعجِزَةً تَضا ... ؤلُهُ لَكمْ حتىَ هَوتْ شُرفاتُهُ[2]

فقد زعم الشاعر ان الخلفاء من بني العباس لهم معجزات، وهي لم تصح الا للانبياء. وقال يمدح الناصر:

فَقُلْ لِملوكِ الأرضِ دينوا لأمرهِ ... ولا تَتَولَّوا حائرينَ عَنِ القَصْدِ
ولا تُضْمِروا عِصْيانَ أمرِ إمامِكمْ ... مُخالَفةً عنه فعصيانه يُرْدِي
أطيعوهُ مِنْ حُرٍّ وعَبدٍ، فإنَّهُ ... خَليفةُ مَبعوثٌ الى الُحرِّ والعَبْدِ[3]

ففي هذا البيت الاخير جعل الخليفة كالنبي فهو «مبعوث» الى الحر والعبد ولعل ابن التعاويذي في ابياته هذه ومحاولاته للتقريب بين النبي والخليفة أراد ان يقلد الفاطميين الذين يعتقدون ان الامام يقوم مقام النبي[4].

٥ - وما دام الشاعر ابن التعاويذي حريصا على ابراز المكانة الدينية للخليفة العباسي - وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة من مدائح الشاعر كلها - لذلك لا بد أن يستعين بآيات والفاظ القران الكريم في اشاعة الجو المقدس والاطار الروحي لتلك القصائد، فمثلا حين يمدح المستضيء بعد اعادة الخطبة للعباسيين بمصر قال:

مَلَكتْها يَداكَ، والله يُؤتي ... مُلْكَهُ مِنْ عِباده مَنْ يَشاءُ[5]

وقال ايضا في القصيدة ذاتها:

نَزَعَ الغِلَّ[6] مِنْ صُدورِهِمْ عِنْ ... دَكَ جُودٌ لا يُبْتَغى وَعطاءُ[7]

---

(١) الحَزرات: الخِيار من كل شيء.
(٢) الديوان ص ٦٦
(٣) نفسه ص ١٥٠، وانظر ص ٢٨٣ البيتان ٩، ١٠
(٤) في ادب مصر الفاطمية ص ١٨٦
(٥) الديوان ص ٢
(٦) الغل: الحقد.
(٧) الديوان ص ٥

وواضح ان البيت الاول من قوله تعالى في الآية ٢٤٧ (سورة البقرة): وَاللهُ يُؤتي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ، واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. والبيت الثاني من قوله تعالى في الآية ٤٣ (سورة الاعراف): وَنَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ.

ومن قصيدة ثانية قال الشاعر يمدح الناصر:

وبـهِ يُـرْتجَى الـنَّـجـاهُ اذا حُصِّـ　　صِلَ يومَ الحِساب ما في الصُّـدورِ[1]

وهو من قوله تعالى في الآية ١٠ (سورة العاديات): أفَلَا يَعْلَمُ اذا بُعْثِرَ ما في القُبورِ وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُور.

ومن قصيدة في مدح المستضيء قال:

قَـذَفْتهمُ بالـرُّعبِ من كـلِّ مَسْلكٍ　　فَكـلُّ سبيـلٍ أمَّ رائـدُهمْ وَعْـرُ[2]

وهو من قوله تعالى في الآية ٢٦ (سورة الأحزاب): وَقَذَفَ في قُلوبِهِمْ الرُّعب، ولست أشك ان الشاعر اظهر براعة في ادخال الألفاظ القرآنية الى مدائح الخلفاء وساعد بذلك على الايحاء بالجو الديني المقدس الذي يحيط بمركز الخليفة، ولكن الشاعر لا يريد لمدح الخليفة ان يقف عند حد، وهو يعلم ان الاستعانة بالقرآن الكريم في المدح عموماً ومدح الخلفاء خصوصاً ليس جديداً، ومن هنا لا بد من تجاوز هذا القديم المعروف. فكان ان اتجه الشعر الى الغلو والافراط في صفات الخلفاء، فالتقى في نهاية المطاف مع شعراء الفاطميين، لقد اراد ابن التعاويذي أن يعبر عن عظم مكانة الخليفة، فكان ان زعم بأن القرآن الكريم مدح الخليفة وأثنى عليه:

يـا مَنْ لـهُ مِـدَحٌ يقصِّـرُ نـاطِقـاً　　عَنهـا لِسـانُ المـادحِ الـوَصَّـافِ
نَطَقتْ بها آيُ الكِتـاب فَكيفَ نَبْـ　　لُغهـا بِنَـظمِ قَـلائـدٍ وقـوافِ[3]؟

وقال ايضا:

يـا إمـامـاً اغنتْ عُـلاهُ عن الاشـ　　ـعـارِ طـهَ والـنَّمـلُ والـشُّعـراءُ
مَـدَحتْـهُ السَّبـعُ المَثـاني فـما تَبْـ　　لغُ غـايـاتِ مَـدْحـهِ البُلَغـاءُ[4]؟

وقال من قصيدة ثالثة:

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥
(٢) نفسه ص ١٧٥
(٣) نفسه ص ٢٨٧
(٤) نفسه ص ٢

عَن جَودِهِمْ رُويتْ احاديثُ الندى وبفضلهم نَـطقَ الكِتَابُ الْمُنْـزَلُ
إنْ كنتَ تُنكرُ مـأثـراتِ قَـدِيمهمْ فـاسأَلْ بهـا «يـا أيهُـا الْمزَّمِّـل»[1]

ان اصل الفكرة التي يرددها ابن التعاويذي هنا موجود عند شعراء الفاطميين منذ القرن الرابع، وما اظن احدا مدح خلفاء بني العباس بها بهذا الشكل قبل شاعر القرن السادس. فمن الشعر الفاطمي قول ابن هاني يمدح المعز:

إذا أنتَ لم تَعـلَمْ حَقيقَـةَ فَـضْلهِ فَسائلْ بـهِ الوَحيَ الْمُنَـزلَ تَعْلمِ[2]

وقال ايضا:

نَـطقتْ بـكَ السَّبـعُ الْمَثـاني ألسُنـاً فَكَفينَنَـا التَّعـريضَ والتَّصـريحَـا
شَهِـدَتْ بِمفْخَرِكَ السَّمـاواتُ العُلا وَتَنَـزلَ القُـرآنُ فيـكَ مَـدِيحـا[3]

ان النتيجة الحتمية التي يخرج بها الباحث بعد دراسة مدائح ابن التعاويذي في خلفاء بني العباس هي ان الشاعر جعلهم فوق مستوى البشر وان العالم مدين لهم ببقائه ووجوده، ولا يحق لاحد ان يعترض عليهم او يقف في وجوههم، لأنه بذلك يعترض على ارادة الله سبحانه.

واظن ان هذا المفهوم هو نفسه الذي اراده الفاطميون حين غلوا في أئمتهم فاتهموا بالكفر والالحاد والخروج على المبادىء الاسلامية.

ومن البديهي ان ابن التعاويذي ليس الشاعر الوحيد الذي مدح الخلفاء في القرن السادس، بل ان مديحهم يأتي في مقدمة الشعر العراقي كله، كما سبق ان اشرت[4]. ولعل الابله البغدادي يأتي في هذا الباب بالمرتبة الثانية[5].

كذلك من البديهي ان التأثير الفاطمي في الشعر العراقي لهذه الفترة لم يقتصر على شعر ابن التعاويذي وحده، فقد اثبت احد الباحثين المحدثين ان قصيدة ابي الفرج ابن الجوزي في مدح الخليفة المستضيء، والتي مطلعها:

يـا سَيِّد الخَلْقِ وَعـينَ الاكـوانْ خَليفَـةَ اللهِ العَـظيم السُّلطانْ[6]

---

(١) نفسه ص ٣٢٨، وانظر ايضا ص ١٧٤، ١٥٨، ٦٧ (٢) شرح ديوان ابن هاني ص ٦٦٦
(٣) شرح ديوان ابن هاني ص ١٦٠ ـ ١٦١
(٤) أنظر دراسة شعر المديح في الفصل الثالث.
(٥) له في الخلفاء تسع قصائد. أنظر الديوان و ١ ـ ٩ (٦) المنتظم ١٠/٢٦٣ ـ ٢٦٤

فيها آراء فاطمية كما في هذين البيتين :

حبُّ بني العَباسِ أصْلُ الإيمانْ بَنى الإلـه ودُّهُم في الجُثْمانْ
الحجرُ والبيتُ لَهُمْ والأرْكانْ أصْبحتَ كالرُّوحِ ونَحنُ أبْدانْ

فقال الدكتور صلاح الدين محمد : ألا تراه قد جعل حب خلفاء بني العباس اصلا للايمان ، وجعلهم في عالم الدين كالارواح بالنسبة للابدان ، اي انه يفضلهم على سائر البشر ، وقد رأينا هذه المعاني نفسها تتردد على السنة الشعراء الفاطميين[1]

ولكن رغم هذا يلاحظ ان الآراء الفاطمية واضحة وكثيرة في شعر ابن التعاويذي حين يمدح الخلفاء فقط ، وكثرتها في هذا الديوان تلفت النظر وتجعله متميزا عن بقية شعر العراق في القرن السادس كله ، مما يحمل المرء على البحث عن اسباب هذه الظاهرة ، خاصة وكان المفروض ان يحدث العكس ما دام ابن التعاويذي من شعراء ديوان الخلافة ، وهو يعلم ان عقائد الفاطميين وآراءهم من اكبر واهم اسباب نقمة اهل السنة عليهم . ولا يخفى ان خليفة بغداد هو الرئيس الديني الاعلى للمسلمين من غير الشيعة .

ج ـ ظن خلفاء بني العباس ان خضوع البلاد للسلاجقة السنيين بدل البويهيين الشيعة سيغير الامور الى صالحهم ، ولكن الايام اثبتت بطلان هذا الظن . فبدأ الخلفاء ينتهزون الفرص للانقضاض على السلاجقة وتخليص البلاد من شرهم ، لا سيما وقد كانوا السبب في مقتل خليفتين[2] .

وكان سلاح العباسيين لطرد السلاجقة وحمل العراقيين على التخلص منهم ذا حدين :

اولهما الدين وقد حمل لواءه اول خليفة عباسي يقود جيشا لمحاربة السلاجقة وهو المسترشد بالله حين قال يحرض الناس ويصف الاتراك : فوضنا امورنا الى آل سلجوق ، فبغوا علينا فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون[3] . وواضح ان الخليفة تعمد الضرب على وتر الدين الحساس حين اختار الفسوق ليصف السلاجقة به مستشهدا بنص من القرآن الكريم .

وفي سنة ٥٤٧ هـ امر الخليفة المقتفي لامر الله باراقة الخمور من مساكن اصحاب السلطان ، ووجد في دار مسعود بلال شحنة[4] بغداد كثير من الخمر فأريق ، ولم يكن الناس

---

(١) أثر الصراع المذهبي ص ٤٥١

(٢) أنظر دراسة الحياة السياسية من الفصل الأول لهذه الرسالة.

(٣) جهار مقاله ص ٣١ ، والعبارة الأخيرة من الآية ٢٦ (سورة الحديد): فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

(٤) عن معنى «الشحنة» أنظر: الفصل الأول ص ١٦ هامش ٧

يظنون انه شرب الخمر بعد ان حج[١].

وهكذا يستغل الخليفة الدين للتشهير بكبار السلاجقة امام العامة فاذا كان من حج منهم يشرب الخمر فما ظنك بالآخرين؟

ويسخر احد علماء الحنابلة من تدين بْهرُوز بن عبد الله الغياثِي[٢] الذي ولي العراق من قبل السلاجقة نيفا واربعين سنة حتى توفي سنة ٥٤٠ هـ قائلا: عجبا لِبهرْوز منع ان يجتمع الرجال والنساء في السفن وجمع بينهم في المواخير[٣].

ويبدو لي ان خلفاء بني العباس لم يلاقوا صعوبة في مهاجمة سلاطين السلاجقة من الناحية الدينية، لان الناس ـ قبل القرن السادس بزمن طويل ـ قد الفوا واعتادوا ان يكون الخليفة هو الحاكم الذي يذكر الدين اذا ذكر، على حين لم يستطع الناس ان يربطوا بين السلطان والدين برباط متين، فكأن السلاطين هم اصحاب الدنيا، والخلفاء اصحاب الدنيا والدين معا. ولعل دواوين الشعر وقصائد المديح خير من أوضح هذه الحقيقة.

ان الحيص بيص هو اشهر شاعر مدح سلاطين السلاجقة بين شعراء العراق في القرن السادس، ففي الجزء الاول من ديوانه المطبوع ـ على سبيل المثال ـ نجد سبع قصائد في مدح السلطان مسعود[٤]، وقصيدة واحدة في مدح طغرل[٥] واخرى في مدح سنجر[٦]. وفي هذه القصائد كلها نجد الشاعر يحرص على نعت هؤلاء السلاطين بالشجاعة والهيبة وسعة الملك وضخامة الجيش وشدة الفتك بالاعداء والخصوم، ولكنه ـ وهو الشاعر الذي يهمه رضى الممدوح ـ لم يصف ايا منهم بالدين او التقوى والورع وكثرة الصوم والصلاة، وهي الصفات التي اعتاد الشعراء ذكرها عند مدح الخلفاء وحدهم.

وثانيهما: ان السلاجقة اعاجم اتراكا. وعلى الرغم من ان التيار الديني هو السائد في هذه العصور، فان الباحث يحس بوجود اشارات يمكن ان ترشدنا الى احساس بالقومية بدأ يظهر على نتاج الادباء بصورة خاصة: فمثلا قال العماد الاصفهاني عن الخليفة المقتفي لامر الله وفي خلافته انتصر العباسيون على السلاجقة لاول مرة ـ: «وهو الذي اقام حرمة دار

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٩/ ٣٢

(٢) نسبة إلى مولاه السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه. المختصر المحتاج إليه ١/ ٢٦٥

(٣) المنتظم ١٠/ ١١٧

(٤) انظر ص ٨٤، ٢٦٧، ٣٣٠، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨٣

(٥) ص ١٧٩ (٦) ص ٢٢٨

الخلافة واعاد رونقها وحفظ رمقها وقطع طمع الاعاجم عنها وحكم يأسهم منها[١]»، وقال طَلْحَة بن محمد النُعماني يمدح قاضي قضاة شيراز عماد الدين ابا محمد طاهر بن محمد الفزاري من قصيدة:

حَماني نَداهُ مِنْ زَماني، وَصانَني فَليسَ يَرى وَجْهي أياز وَقيمازُ[٢].
وَشائجُ قُرْبى قَدْ رعاها بِجُودِهِ وَحمدٌ تَلاهُ نازحُ الدّارِ مُجتازُ
وَقُرْبى أُصولٍ بيْننا عَربيّةٌ رَعاها فَزاريُّ الأرومةِ مُمتازُ[٣]

ولابن الخُراساني في الخليفة المستضيء:

إمامَ الهُدى دُمْ لِلخِلافةِ وَالمُلْكِ على رَغمِ انافِ الأعاجمِ والتُّركِ
بَقيتَ لَها حَتّ المعادِ خِلافةٌ لَها نَبأ بَينَ الخَلائقِ كالمِسْكِ
وما الحسنُ الوَضّاحُ لله درّهُ سوى رَحمة للهِ مِنْ غيرِ ما شكٍّ
عَلَيكَ سلامُ اللهِ ما ذرَّ شارِقٌ[٤] وما مَخرَتْ[٥] في البحرِ جاريةُ الفُلكِ[٦]

وقال الابله البغدادي يمدح الوزير ابن هبيرة ـ وهو ساعد الخليفة المقتفي في قتال السلاجقة ـ من قصيدة مطلعها:

وَهَواكِ أقسمُ أنّهُ أوفى القَسَمْ ما كنتُ في السُّلْوانِ الّا مُتّهمْ

قال فيها:

وغَداً تَعودُ الى العراقِ مُظفراً والعُربُ قَدْ أولَيتَها مُلْكَ العَجَمْ[٧]

وواضح من هذا البيت ان الوزير كان يقود حملة خارج العراق ضد السلاجقة وان لم يشر الديوان الى ذلك.

ومن المحتمل ان يكون الوزير ابن هبيرة قد أثار متعمدا الشعور بالقومية العربية لدى البغداديين خاصة، ليضمن تعاونهم معه ـ على اختلاف مذاهبهم الدينية ـ ضد السلاجقة حين وجد ان العامل الديني وحده ليس مقنعا بدرجة كافية لاثارة السنة ضدهم، لا سيما وقد امتدت

---

(١) الخريدة ١/ ٣٥

(٢) أياز وقيماز: أرجح ان الشاعر اراد بهما مجرد الاشارة الى الاتراك، ولم يرد أشخاصاً معينين.

(٣) الخريدة ٢/ ١٣ ـ ١٤

(٤) ذرَّ شارق: طلع وأشرق.

(٥) نحرت: كذا بالاصل المصور، والصواب «مَخَرَت»

(٦) الخريدة / نسخة ايران ق ٢ و ٥

(٧) ديوان الابله و ٥٥

سيطرة السلاجقة على العراق لمدة تقارب قرنا من الزمان. والذي يرجح هذا الاحتمال ان نسب ابن هبيرة - في وفيات الاعيان - قد اوصل الى مَعَدّ بن عدنان، وعلق ابن خلكان على سلسلة النسب هذه بقوله: «وانما اخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته[١]. فلماذا اراد الوزير ان يكون عربيا صليبة في عصر كانت العجمة فيه هي السائدة؟

اضف الى ذلك ان مجموعة الادباء التي احاطت بابن هبيرة اثناء وزارته والتي شرد او قتل بعضها بعد وفاته من قبل استاذ[٢] الدار عضد الدين - على الراجح - كان البعض منهم معروفا بنسبه العربي الصريح مثل الشاعر الضرير نَصْر النُميْري[٣]، والبعض الآخر كان عربي النسب عربي الاسلوب وطريقة الانشاد والايراد مثل الشاعر مُفلِح بن علي الانباري[٤]. فاذا صح هذا الاحتمال كانت العداوة المعروفة بين ابن هبيرة وعضد الدين بن رئيس الرؤساء، والتي اشار اليها ابن خلكان[٥]، ترجع الى اسباب قومية وصراع بين التيار العربي والتيار الفارسي أو الاجنبي داخل البلاط العباسي، لان عضد الدين من اسرة فارسية معروفة[٦].

فاذا عدنا الى موضوع الدين والسلاجقة، فسوف نجد سؤالا مهما هو: اين الشعر العراقي الذي يفضح ادعاء السلاجقة الدين، ويؤيد الخلفاء في حملتهم ضد المنكرات التي جلبها السلاجقة معهم الى العراق؟.

ان سعي الشعراء للحصول على مكانة لدى الخلفاء - وخاصة بعد ان اصبح زمام البلاد بايديهم - لا بد ان يحملهم على المبالغة والتهويل من شأن الاضرار التي لحقت بالاسلام بعد احتلال السلاجقة بغداد.

وللاجابة على السؤال المتقدم لا بد من ملاحظة ما يلي:

١ - ان اتخاذ الدين سلاحا بوجه السلاجقة، كان يهدف الى غرض سياسي ولذلك لا بد من ملاحظة التطرف في استعماله.

٢ - ان الحيص بيص - وقد اشرت الى انه اشهر من مدح السلاجقة - رجل دين غلب عليه الشعر[٧]، ولذلك من غير المنتظر ان يشير هذا الشاعر باصبع الاتهام الى دين من عرفهم من رجال

---

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٢٧٤

(٢) أنظر عن «الأستاذ داريّة» الفصل الثاني ص ٧٢ هامش ٢

(٣) وفيات الأعيان ٥/ ١٩، وقد مرت ترجمة هذا الشاعر ص ٢٠٢ هامش ٨

(٤) الخريدة ٤/ ٣٠١ - ٣٠٢ (٥) وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٥

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٤، ٢٢٢، ٤٠٤، ٤٧٦، ٤٦٧، ٤٣٣، ديوان الابله و ١٣٣، ١٣٨، ١٤٧

(٧) وفيات الأعيان ٢/ ١٠٦

السلاجقة، بل العكس هو الذي تشير اليه بعض قصائده، كقوله في مُجاهِد الدين بْهرُوز:

لـمـا غَـدا بهـروزُ مُـتَّـقـيـاً رَبَّ العُـلى في السِّـرِّ والجَهْـرِ
ألْقى عَليـهِ منْ مَهـابَتـهِ سِـرّاً مُطاعَ الـنهْيِ والأمْـرِ
فَـنَجـاحُـهُ في كـلِّ مُـطّلبٍ فَرْضٌ على الأيّامِ والدَّهْرِ [1]

وقال من قصيدة في وزير السلطان مسعود:

لا يختَشي غَضَبَ العَساكرِ بَعْدَما صَرَفَ الزَّمانَ الى رِضا الرَّحمنِ [2]

وقال في بْهرُوز ايضا:

لِيهْنِ التُّقى والدِّينَ كونُكَ سالماً فَلا دِينَ الاّ حَيثُ أنتَ مجُاهِدُ
تَساوَى فِصاحُ الحَيِّ فيكَ ولكنُهُ [3] مَديحاً، فكلُّ القولِ فيكَ قَصائدُ
كَما أنَّ ضوءَ الشَّمسِ شاعَ، فما لهُ -ولا الرَّجلُ الأعمى- مِنَ النَّاسِ جاحِدُ

... الخ [4].

وهكذا لا يمكن أن يفيدنا شعر الحيص بيص الا في اثبات تدين رجال الدولة السلجوقية الذين مدحهم، وهو امر ربما اشار الى زيف اتهام السلاجقة برقة الدين.

---

(١) ديوان الحيص بيص المطبوع ١/٣١٣

(٢) نفسه ١/٣١٥

(٣) اللُّكن: الواحد ألكَن: وهو العِي العيُّ اللسان.

(٤) الديوان المطبوع ١/٣٠١، وأنظر ايضا ١/٣٠٧

٢ ـ بين الفكر والدين:

درست في الصفحات الماضية ما كان من أثر لاختلاط الدين بالسياسة في شعر القرن السادس العراقي، فدرست اثر الحروب الصليبية، والصراع بين العباسيين والفاطميين، ثم بين السلاجقة والعباسيين من خلال النصوص الشعرية.

وفي الصفحات الآتية سأحاول دراسة أثر الخلاف المذهبي او الفكري على شعر العراق لهذه الحقبة من الزمان.

وعلى الزغم من وجود المذاهب الاسلامية قبل تدخل الاجانب ـ من بويهيين وسلاجقة ـ في الحياة العباسية، فقد كان تدخل هؤلاء سببا مباشرا في اذكاء العصبيات المذهبية، وتحولها من خلافات فكرية نافعة الى معارك دموية مدمرة، كان المنتفع الوحيد منها هو ذلك الاجنبي الدخيل الذي استطاع عن طريقها اطالة أمد احتلاله للبلاد. فحين وجد السلاجقة ان بني بويه قد شجعوا الاتجاه الشيعي على حساب اهل السنة قاموا هم بالاجهاز على الجماعة التي قويت شوكتها، وهكذا عمت المصائب جميع العراقيين.

ولا بد ان الكوارث والمعارك المذهبية التي عانى منها الناس مدة طويلة هي التي حملت معتنقي المذهب الواحد على التجمع والسكن في مناطق متجاورة متلاصقة كي يواجهوا الاعداء متراصين متحدين فيخف اثر المصيبة على المجموع. وهذا هو التعليل المعقول للنصوص التي تدل على ان معظم اهل الجانب الغربي من بغداد من الحنابلة[١]، على حين كان اهل الكرخ كلهم شيعة امامية لا يوجد فيهم سني البتة[٢].

وعلى الرغم مما شاع وعرف من ان نظام الملك، الوزير السلجوقي، كان يهدف الى محاربة التشيع عن طريق المدارس النظامية التي بثها في كثير من مدن الامبراطورية السلجوقية[٣]، فقد ثبت ان هذه المدارس كانت سببا في تفريق اهل السنة انفسهم، وتعميق الخلافات وبذر بذور الحسد والبغضاء بين الشوافع من جهة، وكل من الحنابلة والحنفية من جهة اخرى[٢]. فلما رأى الحنفية ما عزم عليه نظام الملك الشافعي من تأسيس المدارس النظامية في امهات مدن الاقطار..

---

(١) المنتظم ١٠/ ١٤٥

(٢) معجم البلدان: كرخ بغداد (٧/ ٢٣٤).

(٣) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٤) نفسه ص ٢٢٦

أسرعوا الى تربة الامام ابي حنيفة وانشأوا مدرسة بازائها افتتحت قبل نظامية بغداد بما لا يقل عن خمسة اشهر[1].

وقد اشرت في اول هذه الرسالة[2] الى وجود مدارس خاصة للحنابلة منها مدرسة ابن هبيرة الوزير الحنبلي المشهور.

وكان طموح بعض الفقهاء للوصول الى بعض المراكز المرموقة، ومنها التدريس في النظامية، سببا في شيوع بدعة تغيير المذهب التي كثرت في هذه الفترة كما سبق ان اشرت[3].

وعلى الرغم من اشارة بعض المؤرخين الى ان الخلاف بين مذاهب اهل السنة يعد شكليا اذا قورن بالخلاف بين السنة والشيعة عامة[4]، فان الامور قد ساءت الى حد كبير في القرن السادس بين السنة انفسهم حتى قال ابن هبيرة الوزير: ان اختصاص المساجد ببعض ارباب المذاهب بدعة محدثة، فلا يقال هذه مساجد اصحاب احمد فيمنع منها اصحاب الشافعي ولا بالعكس، فان هذا من البدع وقد قال تعالى في المسجد الحرام - وهو أفضل المساجد -: «سَواءٌ فِيْهِ العَاكِفُ والبَاد»[5].

وذكر عن محمد بن محمد البغوي ويقال الدوي - وكان قد قدم بغداد في اول عهد المستضيء ووعظ بالنظامية، ونصر مذهب الأشْعَري[6] - انه بالغ في ذم الحنابلة حتى انه قال: لو كان الامر له لوضع عليهم الجزية وقيل انه مات بسم دسه له احد الحنابلة[7].

ومن الغريب ان جهود السلاجقة لاضعاف الفكر الشيعي وتفتيت قوة الشيعة في العراق قد باءت بالفشل: فان نشاط هؤلاء وكثرة انصارهم ووفرة ما خلفوه من اخبار واشعار، يدل كل ذلك ان للشيعة في العراق نفوذا كبيرا في القرن السادس.

ولعل من الاسباب التي جعلت الفكر الشيعي يتميز بنشاط واضح في هذه الحقبة: وجود مشاهد واضرحة أئمة الشيعة في عدة مدن عراقية منها: مقابر قريش في بغداد، وقبر الحسين بن

---

(١) دليل خارطة بغداد المفصل ص ١٥٦

(٢) أنظر ص ٤١ من الفصل الأول.

(٣) أنظر ص ٤٠ - ٤١ من الفصل الأول. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٨

(٤) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٢

(٥) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠، والنص من سورة الحج اية ٢٥

(٦) نسبة إلى أبي الحسن علي بن اسماعيل.. الأشْعري. قال ابن خلكان عنه: «صاحب الاصول والقائم بنصرة مذهب السنة.. كان معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن..» توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ (على قول). وفيات الاعيان ٢/ ٤٤٦، طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٤٥، البداية والنهاية ١١/ ١٨٧.

(٧) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٤٠

علي في كربلاء، وقبر الامام علي (رض) في الكوفة. ومن المعروف ان زعماء الشيعة يوصون ان يدفنوا في هذه المشاهد: فقد دفن سَيفُ الدولة صَدَقَة بن منصور الأسدي (ت ٥٠١) في مشهد الحسين عليه السلام[١]، بينما دفن الوزير انوشروان بن خالد (المتوفى سنة ٥٣٢ هـ) في مشهد علي (ع)[٢]، وكذلك دفن علاء الدين تنامش المتوفى سنة ٥٨٤ هـ، وهو من كبار الامراء الاتراك ايام المستضيء، دفن في مشهد الحسين عليه السلام[٣] ومن الذين دفنوا بمشهد الامام موسى بن جعفر[٤] بالجانب الغربي من بغداد ابو طالب يحيى بن سعيد بن زَبادة الشَّيْباني الكاتب المتوفي سنة ٥٩٤ هـ[٥].

كما ان اسناد بعض المناصب الكبيرة ايام المستضيء وابنه الناصر الى رجال من الشيعة مثل مجد الدين هبة الله بن علي المعروف بابن الصاحب المتوفى سنة ٥٨٣ هـ استاذ الدار ايام المستضيء[٦]، ونصير الدين ناصر بن مهدي المتوفى سنة ٦١٧ هـ وزير الناصر لدين الله[٧]، ساعد على شعور القوم بان في دار الخلافة من يعتمدون عليه اذا ساءت الامور وحاول خصومهم ان يفعلوا شيئا. ولذلك تميزت خلافة الناصر بالذات بنشاط شيعي ملحوظ يكاد يشبه ما كان عليه الحال ايام البويهيين.

فحين نقل الناصر الفُتوّة وجددها سنة ٦٠٤ هـ جاء في المنشور الصادر بهذه المناسبة ما نصه: «باسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم الذي لايتمارى في صحته، ولا يرتاب في براهينه وادلته، ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ـ هو اصل الفتوة ومنبعها، ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها، وعنه تروى محاسنها وآدابها، ومنه تشعبت قبائلها واحزابها، واليه دون غيره تنتسب الفتيان»[٨].

وفي سنة ٥٨٢ هـ قال سبط ابن الجوزي: «.. وفي يوم عاشوراء فرش الرماد في الاسواق.. وخرج النساء حاسرات يلطمن وينحن.. والخلع تفاض عليهن وعلى المنشدين من الرجال.. وكان اهل الكرخ يصيحون ما بقي كتمان.. تحت منظرة الخليفة..»[٩]. وكان للشيعة قصائد خاصة تقرأ في مواسم زيارة مشاهد اهل البيت، وقد احجم المؤرخون عن

---

(١) المنتظم ٩/ ١٥٩

(٢) نفسه ١٠/ ٧٧ ـ ٧٨

(٣) تاريخ ابن الأثير: ٩/ ١٩٨

(٤) هو الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أحد الأئمة الاثنى عشر. توفي ببغداد سنة ١٨٣ هـ (على قول). وفيات الأعيان ٤/ ٣٩٣

(٥) وفيات الاعيان ٥/ ٢٨٨

(٦) انسان العيون ٨٠ ـ ٨١، شذرات الذهب ٤/ ٢٧٩

(٧) تاريخ ابن الأثير: ٩/ ٢٩٠، ٢٩٧، ذيل الروضتين ص ٥٨، ٦٠

(٨) الجامع المختصر ٩/ ٢٢٣

(٩) مراة الزمان ٨/ ٣٨٦

رواياتها، ولكنهم ذكروا اسماء بعض اصحابها من شعراء الشيعة ومنهم محمد بن محمد بن المُبارَك الكَرْخِي ابو منصور المقرئ المؤدب المتوفى سنة ٥٩٨ هـ[١] وعلي بن حمدون ابو الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحِلّة السَّيفيّة[٢]. ولذلك لا نعجب اذا ما قيل ان الخليفة الناصر نفسه كان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية[٣].

ويبدو لي ان سوء الحياة الاقتصادية، وعدم الاستقرار والقلق وانعدام الشعور بالأمن في الحياة الاجتماعية، اضافة الى الكوارث التي اصابت العراق ومنها الفيضانات المدمرة[٤]، وتكالب الاعداء على بلاد المسلمين وخاصة الصليبيين والبيزنطيين، كل ذلك ساعد على اشاعة الحزن والميل الى الكآبة في نفوس الناس، ومن هنا وجدوا في النوح والبكاء على الحسين بن علي - رض - متنفسا عما يعانون ويكابدون من آلام وأوجاع[٥]. وبذلك تحولت مأساة كربلاء من قضية خاصة بالشيعة، الى مأساة اسلامية عامة[٦]، يجد المسلمون في ترديدها وذكر المآسي التي حلت بأهل البيت خير ما يهون عليهم مصائبهم ويصغر عندهم عظام الخطوب.

ولذلك نجد شاعرا سنيا هو ابن التعاويذي، يرثي عينيه ويندب حظه في قصيدة قال فيها:

وَأُصِبْتُ في عَيني التي ... كانَتْ هِيَ الدُّنيا بعينِ
عَيْنٌ جَنَيْتُ بِنُورِها ... نورَ العُلومِ، وأيُّ عَينِ؟
حالانِ مَسَّتْني الحَوا ... دثُ مِنْهُما بِفَجيعَتَينِ
إظلامُ عَينٍ في ضِيا ... ءِ مَشيبِ رأسٍ سَرْمَدَيْنِ
صُبْحٌ وإمْساءٌ معاً ... لا خِلْفَةً[٧]، فاعْجَبْ لِذَيْنِ
أوْ رُحْتُ في الدُّنيا مِنَ السـ ... ـسرّاءِ صِفْرَ الرَّاحَتَينْ
في برزخٍ مِنْها أخا ... كَمَدٍ حَليفَ كَآبَتَينْ
اشْوانُ[٨] لا حَيٌّ ولا ... مَيْتٌ كَهَمْزةِ بَينَ بَينْ

... الى أن يقول:

---

(١) ابن الدبيثي (المصور) ١/١٢٨، الجامع المختصر ٩/٨٥

(٢) انسان العيون ١٥٣

(٣) شذرات الذهب ٥/٩٨، تاريخ العراق في العصر العباسي ص ٤٣٥، الفكر الشيعي ص ٥٢.

(٤) أنظر: الفصل الأول: الحياة السياسية والاجتماعية.

(٥) الفكر الشيعي ص ٥٠ هامش ٤٣ أ.

(٦) المدائح النبوية ص ٦٥ والهامش «١».

(٧) خِلْفَةً: اي واحد خلف الأخر. (٨) أشْوان: حزين.

وَالدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ والـ(م) نَكبَاتِ مَبْسوطُ[1] اليَدَيْن
أرْسى على غُمْدانَ والـ إيوانِ منهُ بِكَلْكَلَيْنْ[2]
وأناخَ في آلِ النَّبيْـ(م) ي مُجاهِراً بِرَزيئَتَيْن
فَبَدا بِرُزْءٍ في أبي حَسَنٍ وَثنىّ بالحُسينِ
الطَّيّبِينِ، الطّاهِرَيْـ نِ، الخَيِّرينِ، الفاضِلَيْنْ
المُدْلِيَيْنِ الى النَّبيـ(م) ي، مُحَمدٍ بِقَرابَتَينِ
. . الخ[3].

ان ابن التعاويذي في هذه الابيات الاخيرة يحاول أن يهون على نفسه نكبته في فقدان عينيه وضيق الدنيا عليه، فلم يجد عزاء وسلوى الا في ما اصاب الامام عليا وابنه الحسين، وهما من اقرب الخلق الى الرسول الكريم ﷺ.

ولابن المُعلِّم الواسطي من مرثية:

لَعْمري لَئِنْ غالَتْ عَليّا، وَطوَّحَتْ[4] بـه عنكَ مِنْ جَورِ القَضاءِ الطَّوائحُ
فَقَدْ غالَ[5] خَيرَ الأوصياءِ وَنجْلَهُ الـ(م) حُسينَ بكُوفانَ الُخطوبُ الفَوادِحُ[6]
تَعزَّ، فَكمْ في الطفِّ[7] مِنْ آلِ أحمدٍ دَمٌ وَلَغتْ فيهِ الكِلابُ النَّوابِحُ؟
دَمٌ فيهِ للباغي التَّأسّي أُسْوةٌ[8] وَنورٌ لِمَنْ يَبْغي الهِدايَةَ لائحُ
. . . الخ[9].

ان مقتل الامام علي واستشهاد ابنه الحسين واهل بيته في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة، من حوادث التاريخ الاسلامي الدامية التي اذا ذكرت رفع الشيعة رؤوسهم وتطلعوا كالبا حثين عن قتلة الحسين بين معاصريهم، وهم انما يفعلون ذلك ليفخروا على خصومهم من ناحية ويهددوا اعداءهم من ناحية اخرى. ومن هنا أرجح أن ظهور مأساة كربلاء في قصائد

(١) مبسوط اليدين: كريم، جواد.
(٢) الكَلْكَل: اراد به هنا ثقل مصائب الزمن.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٣٦ - ٤٣٧
(٤) طَوّح: أهلك.
(٥) غال: أخذ وأهلك على حين غرة.
(٦) الخطوب والفوادح: المصائب الشداد.
(٧) الطف: كربلاء.
(٨) اسوة: قدوة.
(٩) ديوان ابن المعلم و ٢٣ (نسخة دار الكتب).

الشعراء فيه ما يدل على أن التشيع بدأ يغزو حياة الناس ويسيطر على مشاعرهم، وصار الشيعة احرارا في التعبير عن مشاعرهم التي عانت من الكبت طويلا، ولذلك وجدنا ابن التعاويذي ـ بتأثير العوامل التي مرت ـ يرثي الحسين بقصيدة طويلة قال فيها:

وَقفتُ على الدِّيار، فَما أصاختْ[1] مَعالِمها لِمُحْترِقٍ بَكِيِّ
أُروِّي تُربهَا الصَّادي[2]، كأنِّ نَزَحْتُ الدَّمعَ فيها مِنْ رَكِيِّ[3]
وَلو أكرمْتِ دَمْعَكِ يا شُؤوني بَكيتِ على الإمام الفاطميِّ
على المَقتولِ ظَمْآناً فَجُودي على الظَّمآنِ بالجَفنِ الرَّويِّ
على نَجمِ الهُدى السَّاري، وَنجمِ الـ ـعُلوم، وذُروةِ الشَّرفِ العَليِّ
على الحامِي بأطرافِ العَوالي[4] حِمى الإسلام، والبَطَلِ الكَمِيِّ[5]
وخَيرِ العالَمينَ، أباً وأُمّاً وأطهَرِهمْ ثَرَى عِرْقٍ زَكيِّ

... الخ[6].

ان ابن التعاويذي ليس شاعرا سنيا فحسب، بل هو من شعراء البلاط الرسميين ـ كما يقال بلغة اليوم ـ ورثاؤه لابي الشهداء يبدو مستحيلا لو لم يشعر ـ وهو القريب من دار الخلافة ـ بان السياسة العامة للدولة الى جانب الشيعة، ولذلك راح يتقرب الى ولاة الامور برثاء ائمة الشيعة وترديد بعض افكارهم وآرائهم كقوله في القصيدة المتقدمة يخاطب خصوم الامام علي:

فَجُوزيتُمْ لِبُغضِكُم عَليّا عَذابَ الخُلْدِ في الدَّركِ القَصيِّ

وقال ايضا:

فَذُخْري لِلمَعادِ وَلاءُ قَوْمٍ بِهِمْ عُرِفَ السَّعيدُ مِنَ الشَّقِيِّ

وهذا البيت الاخير يجب ان يذكرنا بأبيات كثيرة سبقت الاشارة اليها[7]، كان الشاعر فيها يزعم ان ذخره ليوم القيامة كان ولاء بني العباس.

ومهما يكن فان ابن التعاويذي حاول التقرب الى زعماء الشيعة في عصره ـ وكذلك فعل زميله الحيص بيص كما سيأتي ـ بذكر مناقب الامام علي وهو يمدح اولئك الزعماء، تملقا لهم

---

(١) اصاخت: أصغت.
(٢) الصّادي: الظمآن.
(٣) الرَّكيّ: واحدتها ركية: البئر ذات الماء.
(٤) العَوالي: الرماح.
(٥) الكميّ: الشجاع او لابس السلاح.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٥٦ ـ ٤٦٠
(٧) أنظر قبل صفحات: الصراع بين العباسيين والفاطميين ص ٢٢٨

واستدرارا لاكفهم، وكذلك مشايعة للسياسة التي اتبعت في عصره تجاه الشيعة والتشيع.

قال ابن التعاويذي يشكر المُوفَّق اباعلي[1] بن الدَّوامي، وقد استنهضه لحاجة فقضاها، من قصيدة مطلعها:

لأبي علّي مُرتَقىً | في ذُروةِ العَلياءِ شاهِقْ

قال فيها:

قَسَمًا بمُزْجِي[2] السُّحب تحْـ | دُوها[3] الرَّواعدُ والصَّواعِقْ
ومُسيرِّ الشُّهْبِ الثَّوا | قِبِ في المَغارِبِ والمَشارِقْ
وَبِساطِحِ الأرضِ المِهَا | دِ وَرافِعِ السَّبعِ الطَّرائِقْ
وَبِسيفِهِ المَسْلولِ صِنْـ | وِ[4] نَبيِّهِ، خَيرِ الخَلائِقْ
المُغْمِدِ البِيضَ، الصَّوا | رِمَ في الجماجِمِ والمَفارِقْ
مَنْ قالَ للدُّنيا اذْهَبي | عَنيِّ[5] اليكِ، فأنتِ طالِقْ
بِوَلائِهِ[6] يَتَمَيَّزُ الـ | بَرُّ، التَّقيُّ مِنَ المُنافِقْ
وَبحُبِّهِ تُسْتَدفَعُ الـ | نِقَمُ النَّوازِلُ والبَوارِقْ
إنَّ المُوفَّق - إنْ عَرَتْـ | كَ خَصاصَةٌ[7] خِلٌّ مُوافِقْ

... الخ[8].

وواضح من هذه الابيات ان الشاعر تعمد الاشارة الى الامام على - لان الممدوح شيعي - وقد عرف الشاعر ان هذه الاشارة كفيلة بتحقيق الغرض من القصيدة.

وفي الديوان قصيدة اخرى يعاتب فيها الشاعر نقيب مشهد الكوفة ومطلعها:

يا سَمِيَّ النَّبيِّ يا ابنَ علي | قاتِلِ الشركِ والبتُولِ الطَّهُور[9]

---

(١) هو الحسن بن هبة الله بن الحسن: أحد الأعيان وحاجب الحجاب توفي في رجب سنة ٦١٦هـ. المختصر المحتاج إليه ٢٩/٢

(٢) المُزجي: السائق. (٣) تحدوها: تسوقها.

(٤) الصِّنو: الأخ الشقيق.

(٥) في شرح نهج البلاغة ٢٧٦/٤ قول الامام علي: يا دنيا يا دنيا إليك عني.. لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها.

(٦) في مسند الامام أحمد بن حنبل ٥٧/٢ قول الرسول ﷺ: يا عَلِّي لا يُحبُّكَ الاّ مُؤمِنٌ ولا يُبغِضُكَ الاّ مُنافِق.

(٧) الخصاصة: الحاجة الشديدة.

(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ٣١٧ - ٣١٨

(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢١٤

وعلى الرغم من اسقاط وحذف بعض ابياتها، كما يتضح من عدم اتصال البيت الثامن منها بما تقدمه[١] ـ وقد يكون الشاعر هو الذي اسقط الجزء الناقص ـ فان ما بقي منها يوضح جانباً من الحياة الفكرية المذهبية التي عاصرها الشاعر، ومنها عيد الغَدِيْر[٢] عند الشيعة، ومحاولة السنة زيارة قبر مُصْعَب بن الزبير ردا على زيارة الشيعة لقبر الحسين (رض)[٣].

والحيص بيص شاعر آخر من شعراء السنة، تقرب الى الشيعة ـ أولا ـ يهجو بني امية[٤] فهو القائل:

مَلَكْنا، فَكَانَ العَفوُ مِنّا سَجِيّةً[٥] فَلَمّا مَلَكتمْ سالَ بالدَّمِ أبطَحُ[٦]
وَحَلَّلتم قَتْلَ الأسَارَى، وطالَما غدونا على الأسْرى نَعفُّ ونَصفحُ
فَحسبُكُمْ هذا التَّفاوتُ بينَنا وكُلُّ إناءٍ بالّذي فيهِ يَنْضحُ[٧]

ـ وثانيا ـ فعل ما وجدناه عند زميله ابن التعاويذي حين راح يعرج على الامام علي فيذكر مناقبه وفضائله عند مدحه لزعماء الشيعة طلبا للحظوة عندهم، وان كان الحيص بيص مشهورا في ميله للعلويين. ولكنه ليس شيعيا كما توهم صاحب اعيان الشيعة[٨].

ان الحيص بيص يشبه ابا تمام من هذه الناحية ـ وقد عد هو الآخر من اعيان الشيعة ـ فكلاهما «من الشعراء المتكسبين الذين يتنسمون رائحة التكسب فيصطنعون الوسائل لاغتنامها أو الافادة منها، لا يلتزمون مذهبا بعينه ولا يخلصون لعقيدة أو مبدأ، وانما يتلونون بما يرضي السلطان ويقربهم الى الكسب»[٩].

ففي قصيدة مدح بها الحيص بيص عَميدَ الدين ابا جعفر بن المُختَار العلوي ـ وهو نقيب الكوفة والمشاهد ـ مطلعها:

إذا ما غَزَوتُمْ ـ معلمين[١٠] ـ فَراوِحُوا بَني دَارِمٍ[١١] بينَ الظُّبى[١٢] والمَخائلِ[١٣]

نجد الشاعر ـ بعد سبعة وأربعين بيتا ـ يختم قصيدته بمدح الامام علي وذكر مناقبه فيقول:

---

(١) ولم ينتبه المحقق إلى ذلك.
(٢) سيرد الحديث عن هذا العيد مفصلا بعد قليل.
(٣) الفكر الشيعي ص ٥٠
(٤) يغلب على الظن أن المراد هجاء بني العباس، ولكن الشاعر تجنب التصريح بذلك.
(٥) سَجيَّة: طبيعة، خلقا.
(٦) الأبْطح: مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.
(٧) وفيات الأعيان ٢ / ١٠٨.
(٨) انظر ترجمة الحيص بيص في الجزء ٣٤
(٩) التشيع وأثره ص ١٥٥
(١٠) أي ذوي علامات يضعها الفرسان ليعرفوا بها في الحرب.
(١١) بنو دارم: قبيلة الشاعر من تميم.
(١٢) الظبى: واحدتها ظبة، وهي حد السيف أو السنان.
(١٣) المخائل: السحب المنذرة بالمطر.

وانْـزَعُ[1] مِـنْ شِـرْكِ الالـهِ مُبـرّأً بَطينٌ[2] مِنَ الأحكام، جَمُّ النَّوافِلِ[3]
شَـديدُ مَضـاءِ البأسِ يُغْني بَـلاؤهُ[4] اذا رَجَمـوهُ بـالقَنـا[5] والقَنابِـلِ[6]
لَـه عَـصْفـةٌ بـالمُشْـركـينَ كـأنَّها زَعازِعُ[7] خَرْقٍ[8] سُوِّفتْ[9] بالقَلاقِلِ[10]
صَـدوفٌ[11] عنِ الـزَّادِ الشَّـهيِّ فُـؤادُهُ رَغيبٌ[12] الى زادِ التُّقى والفَضـائـلِ
جَـرىءٌ الى قَـولِ الصَّـوابِ لِسـانُـهُ اذا مـا الفَتـاوى أفحمَتْ بـالمَسـائـلِ
أُعيدَتْ له شَمسُ الأصيلِ[13] جَلالَـةً وَقَدْ حالَ[14] ثوبُ الصُّبـحِ في أرضِ بابلِ
وَنصُّ حَـديـثٍ بـالـغَـديـرِ دَلالَـةً على نَفْيِ أضرابٍ[15] وبُعْدِ مُساجِلِ[16]

... الخ[17]

ومن قصيدة كتب بها الى بعض امراء العلويين ومطلعها:

أبـا عُمـارةَ إنْ شَـطَّتْ[18] مَنازِلُنـا فَمِنْ مَعـاليـكَ إدنـاءٌ وَتَقـريـبُ

نجد الشاعر يختمها بذكر الامام علي قائلا:

وعـاصِفٍ بِكمَـاةِ[19] الشِّـرْكِ صـارِمُـه مِنَ الجحاجِحِ[20] والأبطالِ مَخْضوبُ
غَرْثانُ[21]، والعامُ خِصْبٌ مِنْ مَكارِمهِ ظَمآنُ، والجُودُ مِنْ كَفّيـهِ أثْعُوبُ[22]
صَـدقُ البَديهَـةِ في إثبـاتِ حُجَّتـهِ ولِـلرَوِيَّـةِ تَصعيدٌ[23] وَتَصْـويـبُ[24]

---

(١) الانزع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته. (٢) البَطين: العظيم البطن.

(٣) النوافل: واحدتها نافلة وهي العطية، والعبادة الزائدة على الفرض.

(٤) البلاء: الاختبار.

(٥) القنا: الرماح. (٦) القنابل: جماعات الخيول.

(٧) الزعازع: الرياح الشديدة. (٨) الخَرْق: الأرض الواسعة.

(٩) سوفت: كذا بالاصل، جاء في الديوان لعلها: أسفيت أي حملت السفا وهو ما تحمله الريح.

(١٠) القَلاقِل: ما تحمله الريح.

(١١) صدوف: مُعْرِض، مُتجنِّب. (١٢) رَغيب: شديد الرغبة.

(١٣) الأصيل: وقت غروب الشمس. (١٤) حال: تغير وتبدل.

(١٥) الأضراب: الواحد ضَريب، وهو الشبيه. (١٦) المُساجل: المماثل والشبيه.

(١٧) ديوان حيص بيص المطبوع ١/ ١٣١ (١٨) شَطَّت: بعدت.

(١٩) الكُماة: الأبطال ـ مفرده كَمِيّ. (٢٠) الجحاجح: السادة.

(٢١) غَرْثان: جائع. (٢٢) أثعوب: سائل، كثير.

(٢٣) التَّصعيد: النظر إلى أعلى. (٢٤) التَّصويب: النظر إلى أسفل.

رُدَّتْ له الشَّمسُ حَيثُ اللَّيلُ مُقْتربٌ وأحسنَ القَولَ في تَكْليمهِ الذِّيبُ[1]

ولست اشك ان هذه النصوص لا تكفي ليصبح الحيص بيص من شعراء الشيعة، لا سيما وقد اكد ابن خلكان على ان الشاعر شافعي المذهب[2].

شعر العقائد:

في فترة تتميز بالتساهل مع الشيعة وعدم التعرض لهم حين يجهرون بآرائهم ويظهرون معتقداتهم، حتى اضطر بعض السنة - كما مر - الى ادعاء التشيع والحرص على تضمين اشعارهم شيئا من آراء الشيعة، اقول في فترة مثل التي اشرت الى جوانب منها، لا بد أن يكون الشعر الشيعي هو السائد المتميز في الجانب الادبي من حياة الناس العقائدية.

وفي الوقت الذي تبدو فيه كثرة الشعر والشعراء من الشيعة معقولة ومقبولة اذا صحت الصورة التي رسمتها للحياة العقائدية في هذه الفترة من تاريخ العراق - فان ندرة شعر الجانب السني الى هذا الحد تبدو لي غير طبيعية. فلم يصلنا من شعر السنة العقائدي سوى القليل جدا، حتى انه لا يكفي لتصوير الجانب الادبي من عقائد اهل السنة، وقد مرت الاشارة الى انها كانت تتميز بنشاط ملحوظ.

ان اشهر ما وصلنا من شعر اهل السنة مقطوعة للحسين بن جعفر بن عبد الصمد الهاشمي المقرىء المتوفى سنة ٥٥٤ هـ، قال:

يا ذَا الذي أضْحى يَصولُ ببدعة وَتَشيُّعٍ، وتَمَشْعرٍ[3]، وَتَمَعْزلِ[4]
لا تُنكِرنَّ تحَنْبلي، وتَسَنُّني فَعَلَيْهَا يومَ المعادِ مُعوَّلي
إنْ كانَ ذَنبي حُبَّ مذهبِ أحمدٍ فَليشهدِ الثَّقلانِ[5] أنيِّ حَنْبلي[6]

وليس بين يدي - بعد الابيات المتقدمة - سوى قصيدة في ٢١ بيتا نظمها ابو محمد (وقيل ابو عبد الله) ابن الباطُوخ[7] البغدادي، يمدح فيها فقيها حنفيا قدم بغداد مع سلطان السلاجقة سنة ٥٣٨ هـ، ومطلعها:

---

(١) يشير إلى بعض فضائل الامام علي التي ذكرتها كتب الحديث. الغدير ٣/ ١٢٦، الديوان المطبوع ١/ ١٨٩

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٠٦

(٣) تمشعر: أي إعتقاد مذهب أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، وقد مر ذكره ص ٢٦٥

(٤) تمعزل: أي القول بآراء المعتزلة، الفرقة الاسلامية المشهورة. انظر عنهم: «المعتزلة» لزهدي حسن جارالله.

(٥) الثَّقلان: الجن والانس.

(٦) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٣٥، شذرات الذهب ٤/ ١٧١

(٧) في الخريدة ٢/ ٣٤٦: «المعين بن الباطوخ..»، وفي المنتظم ١٠/ ١٠٧: «أبو محمد بن الباطوخ..»، وفي الوافي بالوفيات ١/ ١٧١: «ابن الباطوخ الواعظ، محمد بن محمد.. أبو عبدالله.. توفي سنة ٥٤٤هـ»، وأنظر هامش محقق الخريدة.

صَـرْفُ[1] العُيـونِ إليـكَ يحْلو　　وَكَـثـيـرُ لَـفْـظِكَ لا يُمـلُّ

قال في ختامها:

مـا ثَـمَّ غـيرُ أبي حَـنـيـ　　فـةَ، والمَـديـحُ لـهُ يجَـلُّ
وَفـقـيـهِ طَـيْـبـةَ[2] مـالِـكٍ　　طَـوْدٍ[3] لـهُ زُهْـدٌ وَفـضْـلُ
وَفتى ابنِ حَـنبـلَ، والحَـديـ　　ثُ عَنِ ابنِ حَنبـلَ مـا يُمـلُّ
والـشَّـافِـعـيّ، ومَـنْ لـهُ　　مِنْ بَعـدِ مَنْ قَـدَّمْتُ مِثْـلُ؟
فَـهُـمْ أدِلَّـتُـنـا، ومَـنْ　　يهـدى بِـغـيـرِهـمُ يَـضِـلُّ
كُـنّـا نَـعُـدُّ خِـلافَـهُـمْ[4]　　صُـلْحـاً، ونَـدرُسـهُ وَنَـتْـلُو
حَـتىّ بُـلـيـنـا بـالخِـلا(م)　　فِ[5]، وزادَ في الشّطرنجِ بَغْلُ
والجِنْسُ يَضْـبِطُ في البَـهـا　　ثم أصلها، والبَغْـلُ بَغْـلُ[6]

اظن ان وجود نصين يمثلان «معظم» شعر اهل السنة المذهبي، هو امر لا يصدق. وقد يكون القسم الاكبر من هذا الشعر من تراث القرن السادس الذي فقد ولم يصلنا.

اما شعر الشيعة فيلاحظ ان المؤرخين حين يصفون مذهب شاعر ما بانه كان شيعيا رافضيّا[7]، او انه كان شيعيا غالياً[8]، وبالرغم من علم هؤلاء المؤرخين بان الشيعة فرق متعددة، فلم اجد احدا يذكر الفرقة التي ينتسب اليها الشاعر بين فرق الشيعة، كما اعتادوا أن يميزوا بين اهل السنة بالقول ان المترجم له شافعي اوحنفي اوحنبلي. ولعل سبب هذا التمييز بين الطائفتين يعود الى:

١ ـ ان اهل السنة ينظرون الى الشيعة ـ على اختلاف فرقهم ـ على انهم مجموعة واحدة، لها عقائد متقاربة، وهي ـ اجمالا ـ مخالفة لمذاهب اهل السنة.

٢ ـ ان اطلاق لفظ الشيعة يراد به ـ في الغالب ـ فرقة الامامية الاثنا عشرية، وهو المذهب

---

(١) صَرْف العيون: ميلها وتطلعها.
(٢) طيبة: المدينة المنورة.
(٣) طَوْد: جبل.
(٤) خلافهم: أي الاختلاف بين آرائهم.
(٥) الخِلاف: المقارنة بين المذاهب الفقهية.
(٦) المنتظم ١٠/١٠٧
(٧) النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٤
(٨) الوافي بالوفيات ٨/ ١٥ «مصور».

الذي كان سائدا في العراق خلال الفترة التي ادرسها[1].

ان ابرز الظواهر في شعر التشيع الذي ادرسه ما يلي:

١ ـ خلوه خلوا تاما من أية اشارة الى هجاء الصحابة (رض)، مع أن كثيرا من شعراء الامامية يفعلون ذلك[2]. وقد حذف مؤرخو السنة طائفة من شعر القرن السادس لتعرضه للصحابة[3]، ولكن مؤرخا شيعيا هو ابن شَهْراشُوب لم يذكر هو الآخر اي نوعٍ من هذا الشعر لاشهر شعراء الشيعة في القرن السادس: وهو الشاعر المعروف بابن العُودِي النِّيلي[4]. فهل اتفق الشيعة والسنة في هذا الموضوع، فيما يخص القرن السادس وحده؟.

٢ ـ على الرغم من وفرة عدد شعراء الشيعة في هذه الحقبة[5]، فان الشعراء الذين رويت لهم اشعار مذهبية قلة، من اشهرهم ابن العُودِي السالف الذكر، وسعيد (وقيل سعد) بن مَكّي النِّيلي[6].

ان نعت اي شاعر بالتشيع مع عدم الاشارة الى اي شعر مذهبي له قد يعني اما انه لم ينظم شعرا مذهبيا ابدا، واما ان شعره المذهبي قد حذف دون ان يشير المؤرخون الى ذلك.

ويبدو لي ان مؤرخي السنة لم يكتفوا بوصف بعض الشعراء بانهم من الشيعة دون صفة او صفات اخرى، الا لأن هؤلاء المؤرخين لم يعثروا على دليل شعري يدل على مقدار هذا التشيع، ارجح هذا لأن بعض الشعراء قد وصف بانه شيعي فقط: قال ابن شاكر عن الحسن بن علي بن نصْر بن عَقِيل ابي علي العَبْدِي الواسطي البغدادي المنعوت بالهُمام: «مدح طائفة بالشام والعراق وأقام بدمشق، وكان شيعيا. توفي سنة ٥٩٦ هـ[7]». على حين قال مؤرخ آخر عن علي ابن علي بن حمدون بن الحسن بن ابي القاسم الكاتب من اهل الحِلّة السَّيفيَّة: «وكان فاضلا اديبا مدح الاكابر وسافر الى الشام، وكان غاليا في التشيع، مبالغا في الرفض، خبيث العقيدة مجاهرا بتكفير الصحابة، رضي الله عنهم وارضاهم[8]»..

٣ ـ يغلب على ادب الشيعة الحزن ويتميز بكثرة البكاء على اهل البيت حتى قيل «أرقّ من

---

(١) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٤٣٣

(٢) التشيع وأثره ص ١٤٩، نشأة التشيع وتطوره ص ٢٩٨

(٣) الخريدة ٤/ ٢٠٨، الوافي بالوفيات ٨/ ١١١ «مصور»، انسان العيون ١٥٣

(٤) مناقب آل أبي طالب ١/ ٢١٧، ٢٣١، ٣١٧، ٣/ ١٤٦، ٤٤٥..

(٥) المختصر المحتاج إليه ٢/ ١٨، الوافي بالوفيات ٨/ ١٥ «مصور»، فوات الوفيات ١/ ٢٤٣، النجوم الزاهرة ٥/ ٢١٤

(٦) الخريدة ٤/ ٢٠٨، معجم الأدباء ١١/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٢٤٤

(٧) فوات الوفيات ١/ ٢٤٣

(٨) انسان العيون ١٥٣

دَمعة شِيعيّة» ، ورأى أئمة أهل البيت انفسهم ان المحن والعذاب كأس كتب عليهم تناولها[١]، ولكن شعر الشيعة في القرن السادس خلا من رثاء اهل البيت، ولذلك خلا ايضا من الحزن والبكاء.

وهذه الظاهرة تؤكد ما سبق ان اشرت اليه من ضياع وفقدان قسم كبير من شعر هذه الفترة، لا سيما وقد نص صاحب معجم الادباء على ان سعيد بن مَكّي النِّيلي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ بعد ان عاش زهاء مائة عام: «كان اكثر شعره في مديح اهل البيت[٢]، ونحن اليوم لا نملك من هذا الشعر الا نتفا قليلة، تعمد مؤرخو السنة ان تكون من الشعر الذي لم يشتهر به، بحجة انه كان مغاليا في التشيع. وشاعر الشيعة الآخر: ابن العودي النيلي، الذي قال عنه الدكتور مصطفى جواد: «ان شعره في المذهب الشيعي كان شائعا جدا في اواسط القرن السادس»[٣]، لم يشر العماد الكاتب حين ترجم للشاعر في الخريدة[٤] الى انه من شعراء الشيعة، وقد تابعه في هذا محقق الكتاب، وليس من المعقول ان يجهل صاحب الخريدة مكانة ابن العودي بين شعراء الشيعة، وقد كان من معاصريه، ونص انه لقيه سنة ٥٥٤ هـ[٥]، فلعل في نص الخريدة نقصا كان على المحقق ان ينبه اليه. أما شعر الشيعة الذي وصلنا من القرن السادس فان معظمه يتناول مناقب الامام علي بقصد الرد على الخصوم وتسفيه آرائهم، لان تلك المناقب تعتمد على احاديث رسول الله ﷺ من وجهة النظر الشيعية.

ومن تلك المناقب حديث غدير خم، وهو مكان بين مكة والمدينة وقف فيه الرسول ﷺ بعد حجة الوداع، فكان مما قاله عليه الصلاة والسلام: « . . مَنْ كُنْتُ مَوْلاه فَعلّي مولاه، اللهُمَّ والِ مَنْ والاه، وعَادِ مَنْ عاداه، وانصُرْ مَنْ نَصَرَه، واخْذِلْ مَنْ خَذَلَه، وأدِر الحقَّ معهُ حَيثُما دار. . »[٦].

وهذا الحديث «اعتقده الشيعة سندا صريحا لهم في القول بامامة علي، وقد اعترف اهل السنة جزئيا بصحة هذا الحديث، واولوه بان المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية. . اما السلف من الحنابلة المتقدمين فقد اولوا الموالاة بعدم الكراهية، وانكر السلف المتأخرون الحديث انكارا تاما»[٧]. ومهما يكن فان شعراء الشيعة يؤيدون وجهة نظرهم، ولذلك قال سعيد بن مكي:

---

(١) نشأة التشيع وتطوره ص ٥، التشيع وأثره ص ٢٤٩ (٢) معجم الأدباء ١١/ ١٩٠

(٣) انظر مقالاته عن ادب العراق وأدبائه في القرن السادس/ مجلة الغرى السنة السابعة.

(٤) الخريدة ٤/ ١٨٩ (٥) نفسه.

(٦) مسند الامام احمد بن حنبل ٢/ ١٩٥، نشأة التشيع ص ١١ (٧) نشأة التشيع ص ١١

أَلَمْ تَعْلَموا أنَّ النَّبيَّ محمدا بحيدرةٍ أَوْصى ولم يسكُنِ الرمسا[١]
وقالَ لَهُمْ، والقوم في خُمِّ حُضَّراً[٢] وَيَتْلو الذي فيهِ وَقَدْ هَمَسوا هَمْسا
عليّ كَزرّي مِنْ قميصي، وإنَّهُ نَصِيري، ومِنيٍّ مِثْلَ هرونَ مِنْ موسى[٣]

وقال ابن العُودى:

وكلُّ نبيٍّ جاءَ قَبْلي وَصِيُّهُ مُطاعٌ، وأنتمْ للوَصِيّ عَصيتُمُ
فَفِعْلُكُمُ في الدّين أضحى مُنافياً لِفعْلي، وأمري غيرُ ما قَدْ أمرْتم
وقُلتمْ مَضى عَنّا بغيرِ وَصيَّةٍ أَلَمْ أوْصِ لَفْظاً؟ زُغتمُ[٤] وَغفلْتمُ
نَصبْتُ لكمْ بَعدِي إماماً يَدلكمْ على اللهِ، فاسْتكبرتُم وضَلَلْتمُ
وَقَدْ قلتُ في تَقديمهِ وَوَلائهِ عَليكم، بما شاهَدْتُمُ وسَمعتُمُ
علي غدا مِنيِّ محلاً وقُرْبةً كَهارونَ مِنْ موسى فَلم عنهُ مِلْتُم؟
علّي رسولي فاتْبعوهُ، فَإنَّهُ وَلِيّكمُ بَعدي اذا غِبْتُ عَنكمُ[٥]

ومن المناقب ايضا ما عرف بحديث المُباهَلة: وذلك «حين اتى وفد نجران الى الرسول (ص)، وسألوه عن حقيقة المسيح، نزل القرآن «إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وجعلناه مَثَلاً لِبَني إسْرائيل[٦]». إنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب[٧]. ثم دعا الى المباهلة «فَمَنْ حاجَّك فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْم، فَقلْ تَعالوا نَدْعُ أَبْناءَنا وأبناءكمْ وَنِساءَنا ونساءَكمْ وأنفُسَنا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبتَهِلْ فَنجْعَلْ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَى الكاذِبين[٨]. ورضي الوفد بالمباهلة فاتى الرسول (ص) آخذا بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بين يديه والقى عليهم الرسول بكسائه. . ثم جثا رسول الله (ص) على ركبتيه وركع، فانسحب الوفد النجراني هاربا ورفض المباهلة»[٩].

وقد أشار ابن العودي الى المباهلة فقال:

هُم باهَلوا نَجرانَ مِنْ داخِلِ العَبا فعادَ المُنادِي عَنهُم، وَهوَ مُفْحَمُ
وأقْبلَ جبريلُ يقولُ مُفاخِرا لِميكالَ مَنْ مِثْلي، وقَدْ صِرْتُ مِنْهمُ

---

(١) الرَّمْس: القبر.
(٢) كذا بالاصل، ويصح أن تكون حُضرًا بالضاد.
(٣) مناقب آل أبي طالب ٢/ ٢٢١
(٤) زُغتم: انحرفتم.
(٥) مناقب آل أبي طالب ١/ ٢١٧
(٦) سورة الزخرف آية ٥٩
(٧) سورة آل عمران آية ٥٩
(٨) آية ٦١ سورة آل عمران.
(٩) نشأة التشيع ص ٦ - ٧، وانظر مسند احمد بن حنبل ٣/ ٩٧ - ٩٨

فَمَنْ مِثْلُهمْ في العالَمِينَ وَقَدْ غَدَا　　لَهمْ سيّدُ الاملاكِ جبريلُ يَخْدِمُ[1]؟

وقال العلاء بن علْي . . بن السَّوادِي الواسطي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ يذكر المباهلة في ختام قصيدة:

وَيْـحَ نفسي إنْ لم يَكنْ لي وَلاءٌ　　كـانَ مِنّي في طَـاعَـةِ الـرَّحمنِ
فَعِمــادِي وَعــدَّتــي في مَعــادِي　　عِنـدَ حَشْرِي اذا جَثا الخَصْمانِ
يــومَ عَـرْضِـي مُـحـمـدُ وعـليّ　　والبَتــولُ الـزَّهــراءُ والحَسَـنـانِ
خَمْسةٌ في العَبا اسْتَجارَ بهمْ جب　　ريلُ يَبْغي الزُّلفى [2] الى المَنَّانِ[3]

ان الصفة الغالبة على معظم النصوص المتقدمة منْ الشعر العقائدي هي ان هذا الشعر سهل غاية السهولة في الفاظه ومعانيه، وقد يكون غير متماسك النسج مفككا يكاد يقرب من لغة العامة واساليبها. واذا عرفنا ان هدف الشعر العقائدي هو التبشير بالعقيدة والتغلغل بها بين كل طبقات الامة، ادركنا سر هذه السهولة وهذا الوضوح والحرص الذي يظهره الشعراء في الابتعاد عن التعقيد وتجنب الغريب.

اضف الى ذلك ان شاعر العقيدة كان يجهد نفسه في ان يأتي في شعره ببعض العقائد، وان يلائم بين هذه العقائد والالفاظ التي يختارها لشعره، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر[4]. وشيء آخر يجب ان يذكر هنا وهو التزيد والانتحال والتلفيق من المتحمسين والمتعصبين للعقائد الاسلامية ودورهم في وضع الشعر وانطاق الشعراء بما لم يخطر لهم ببال.

٣ ـ الدين الصِّرْف:

شعر القرن السادس يدل على ان الناس في هذه الفترة كانوا فريقين من ناحية التمسك بالدين واتباع اوامره ونواهيه:

(ل)
الفريق الاول: حاول ان يوفق بين الدين والدنيا، لم يدخر وسعا في التمتع بطيبات هذه الحياة، ولم يبخل بجهد في سبيل ارضاء الذين بيدهم مفاتيح الأموال ومقاليد السلطة والجاه ـ

(١) مناقب آل ابي طالب ٣/ ١٤٦

(٢) الزُّلْفى: القُرْبى.

(٣) الخريدة ٤/ ٣٧٧ ـ ٧٨، المنّان: الله سبحانه.

(٤) في أدب مصر الفاطمية ص ١٩٤، التشيع وأثره ص ١١٨

ولو كان ذلك على حساب التمسك بالتعاليم الدينية ـ عن طريق الايحاء للناس بان الدين يسر، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ولذلك خاض هؤلاء معارك ضارية، سفكت فيها دماء، وازهقت أنفس، تحت ستار اعلاء كلمة الدين والقضاء على المفسدين.

واظن انني بذلت ما استطيع، وما اسعفتني به النصوص، في الصفحات الماضية، كي ارسم صورة للدين كما فهمه هؤلاء.

اما الفريق الثاني: فقد سار في الاتجاه المضاد: اختار طريق الدين والتقوى، وآثر تعاليم الاسلام واحكام الشريعة، وفضل الاخرة الباقية على هذه الدنيا الفانية. ولذلك تجنب هؤلاء السلطة والسلاطين وراحوا ينادون: بأن ما عند الحاكم دراهم معدودة، زينة الحياة الدنيا، وان لله خزائن السماوات والأرض.

وقد تطرف بعض هؤلاء في الابتعاد عن الدنيا والتعلق بالآخرة، قال ابن الجوزي: ان «يحيي بن عيسى بن ادريس ابا البركات الانباري، كان ورعا، حتى انه عطش فجيء بماء من بعض دور الحكام فلم يشرب»(١). وقال في ترجمة احدهم: «.. سمع الحديث الكثير وتفقه.. الا انه اشتغل بالعمل مع السلطان»(٢).

وعلى الرغم من علامات الاقبال على الدنيا، وتلك الاشارات الدالة على ان حزب العاجلة يوشك أن ينتصر، بدليل الصراع المخيف بين العباسيين والسلاجقة من جهة، وكذلك بين العباسيين انفسهم على الوزارة والمناصب العليا من جهة ثانية(٣). اضف الى ذلك غرام بعض الخلفاء ـ ومنهم المستضيء ـ ببناء القصور والاكثار منها(٤). ثم هناك شرب الخمر والتغني بصفاتها وسقاتها ومعاصرها، وهو امر شائع جدا في شعر هذه الفترة حتى يخيل للمرء ان الخمرة ليست محرمة ولم يقل الفقهاء انها ام الخبائث، والا وقعنا في حيرة اذا اردنا معرفة سر الاقبال على التغني بذكر الخمر جهارا امام الخلفاء، وفي مجالسهم الحاشدة.

ولكن على الرغم من هذا كله، فان من الخطأ الاعتقاد بأن الطبقة المتدينة في ورطة، او ان رجال الدين مضطرون على التحايل والتسامح وغض النظر والتوسع في تفسير النصوص الدينية. ان الكتب التي اهتمت بالنشاط الديني وذكر رجال الدين والاشارة الى كتبهم ومناظراتهم واخبارهم ومنها: الجواهر المُضِيّه في طبقات الحنفية، وطبقات الشافعية الكبرى، والذيل على طبقات الحنابلة، والمختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي،

---

(١) المنتظم ١٠/ ١٨٠. (٢) نفسه ١٠/ ١١٤

(٣) أنظر: الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٦، ٣٧٧، ٤٥٢

والتكملة لوفيات النقلة للمُنْذري، وغاية النهاية في طبقات القراء، وغيرها مما سبقت الاشارة اليه[1]، كل ذلك يدل على ان الدين بخير، وان رجاله يتمتعون بنفوذ كبير، وبغداد القرن السادس كانت قلعة من قلاع الاسلام الحصينة. وان ملاحظة ابن جبير عن بغداد «وان أهلها لا تكاد تظفر من خواصهم بالورع العفيف، ولا تقع من اهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف[2]».. ليست سوى نظرة مسافر متعجلة.

ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاسية التي تعرض لها العراق والتي أشرت اليها في الفصل الأول من هذه الرسالة، وكذلك ميل الناس عامة لاحترام الزهاد وتوقيرهم والنظر اليهم باكبار واجلال[3]، هذان العاملان ساعدا على اتساع موجة الزهد والعزوف عن الدنيا، بحيث اصبحت ظاهرة اجتماعية عامة شملت جماعات كانت تعد بعيدة عن الزهد والزهاد: فقد جاء عن الامير سليمان بن نظام الملك متولي المدرسة النظامية انه حضر مجلس ابي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، فتواجد وخرق ثيابه وكشف رأسه وقام واشهد الواعظ والجماعة انه قد اعتق جميع ما يملك من الرقيق ووقف أملاكه[4]. وقال ابن الدبيثي: «ان الحسن بن عبد الله بن أبي الفوارس الحاجب كان خصيصا بخدمة الوزير ابي الفرج بن رئيس الرؤساء ملازما له، وانقطع في آخر عمره الى الصوفية واقام برباط[5] الزَّوزَني مدة[6].. » وقال عن «الحسن ابن محمد بن علي.. الشيرازي الاصل، البغدادي المولد والدار ابي منصور، كان كاتبا في الاعمال السلطانية مدة، وترك ذلك واشتغل بطريقة التصوف، وتولى خدمة الصوفية برباط[7] الأرجواني بدرب زاخي[8] مدة.. توفي سنة ٥٩٦ هـ[9]».

وهذه الظاهرة التي شاعت وانتشرت في الحياة الاجتماعية، يمكن ان ترشدنا الى تعليل لظاهرة ادبية تطالعنا في شعر طائفة من كبار شعراء القرن السادس الا وهي وجود قطع وقصائد في الزهد والوعظ، مع أن احدا لم يذكر هؤلاء الشعراء بين الزهاد او رجال الوعظ.

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٧٤ (ط. دار التراث).

(٣) تلبيس ابليس ص ١٦٦

(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٣٩٧.

(٥) عن رباط الزوزني، انظر الفصل الأول ص ٤٦ هامش ٦

(٦) تاريخ ابن الدبيثي و ٣١٩

(٧) ويعرف أيضا بـ «رباط أرْجُوان»، منسوب إلى السيدة أرجوان الأرمنية، والدة الخليفة المقتدي بأمر الله، وموقعه في بغداد الشرقية في شارع المتنبي الحالي، دليل خارطة بغداد ص ١٦٥

(٨) وفي رواية «زاخا» ويرجح الدكتور مصطفى جواد أنه في موقع شارع المتنبي اليوم من بغداد الشرقية (الرصافة). دليل خارطة بغداد ص ١١٥.

(٩) تاريخ ابن الدبيثي و ٣٤٥ ـ ٣٤٦

قال ابن التعاويذي يعظ نفسه ويذكرها الموت:

نَعِمْتُ زَمـانـاً مـع المُتْـرَفينَ ... وَعِشْت أخـا ثَـرْوَةٍ مُـوسِـرا
وَقَضَّيْتُ عُمرَ الهَوَى بـالوصـالِ ... وليل الصبى بالـدمـى مُقْمِـرا
طَليقُ العِناقِ[1] خَلِيعَ العِذار[2] ... أهْـوى الـغَـزالَ اذا عَـذَّرا[3]
وَلَمْ أعْصِ في حُكْمِهـا غـادَةً ... كَعـابـاً، ولارَشْـأً[4] أحْـوَرا[5]
وَيـا رُبَّ صَفْـراءَ مَشْمـولَـة[6] ... أهَنْتُ لَهـا المَسْجِـدَ الأحْمَـرا
وَغـالَيتُ في اللَّهـو لا نـادِمـاً ... لِصَفْـقَـةِ غَبْنٍ، ولا مُخْسِـرا
ونَـادَمتُ كـلَّ سَخِيٍّ[7] البَنـانِ ... يُـطْعِمْ نِيـرانَـهُ الـعَـنْبَـرا
وَجـالَسْتُ كلَّ مَنيعِ الحِجَـابِ ... يَـفْـرَقُ مِنـهُ أُسـودُ الشَّـرَى

الى ان يقول:

فَقِفْ بِيَ مُعْـتَبِـراً إنْ مَـرَرْتَ ... على جَدَثِي[8]، وابْكِ مُسْتَعْبِرا[9]
وَلا تُـخْـدَعَـنَّ بِـمُـغْـتَـرَّةٍ ... حَـديثُ مَـوَدَّتِهـا مُـفْتَـرَى[10]
وَلا تَـرْكَـنَـنَّ الـى ثَـرْوةٍ ... مَقِيلُكَ[11] مِنْ بَعْدِهَافي الثَّرى[12]

وقال في الزهد:

خُـذْ مِنْ شَبـابِـكَ، وانْتَهِـزْ ... أيّـامَ صِـحَّـتِـكَ الـفُـرَصْ
تَـشْـرِي الـمَـآثِـمَ مُغْـلِـيـاً ... وَتَـبِـيـعُ دِيـنَـكَ مُـرْتَـخِصْ
أوَ مـا تَـرى ظِـلَّ الشبيـ ... ـبَـةِ عَنْ عِـذارِكَ قَـدْ قَلَصْ[13]
اعـرض عـن الدنيا المشو (م) ... بَـةِ[14] بالنوائـب والغصص[15]
كـمْ جَـرَّعـتْ أبـنـاءَهـا ... مِـنْ فَتْكِـهـا بِهِـم الـنَّـغَصْ

(١) العناق: كذا بالأصل، والصواب العنان.
(٢) خليع العذار: له مطلق الحرية.
(٣) عذّر: ظهر عذاره، وهو لحيته.
(٤) الرَّشأ: ولد الظبية.
(٥) أحور: من الحور، وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها.
(٦) الصفراء المشمولة: الخمر.
(٧) سخي البنان: غنى كريم.
(٨) الجدث: القبر.
(٩) مستعبر: آخذا عبرة.
(١٠) مفتري: من الافتراء، وهو الكذب.
(١١) المقيل: المنزل.
(١٢) الديوان ص ٤٨١ - ٨٢
(١٣) قلص: انحسر.
(١٤) المشوبة: الممزوجة.
(١٥) الغُصَصْ: الواحدة غُصَّة: ما يغص به الانسان، الحزن، الهم.
(٩) النَّغص: تكدير الحياة.

وَاعْـلَمْ ـ إذا مـا زِدْتَ مـا لاَ ـ أنَّ عُـمـركَ قَـدْ نَـقَصْ

. . . الخ[1].

ان ندرة شعر الوعظ والزهد في ديوان ابن التعاويذي تدل على أن الرجل ليس من فرسان هذا الميدان، وان الدنيا من حوله بكل ما فيها من منغصات ومتاعب هي التي دفعته الى العزف على قيثارة المحزونين.

وقال الحيص بيص:

مـا لي وَللدُّنيـا؟، وَيَـا غَفْلَتِي إذا تَـفكَّـرتُ؛ ويـا سَـهْـوي
أضحـكُ مِمّـا لـو تَـأمَّـلْتُـهُ بَكَيْتُ مِنـهُ أبـداً شَجْـوي[2]
ونعيـمـي عنـدهـا صـحـتي إنْ هي جادتْ لي بـالصفـو-
صـحـتي مجـمـوعـهـا أنـني مـرتهـنٌ بـالآكـلِ والنـجـو
وَالوَيْلُ كُلَّ الوَيـلِ مِنْ بَعْدِهـا إنْ لَمْ تُصادِفْ شَرَفَ العَفْـو[4]

ومن شعر محمد بن محمد بن عمر. ابي الفتح النُّعْمان الشاعر المشهور، ويعرف بابن الأديبْ المتوفى سنة ٥٦٩ هـ[5]:

كلا السَّوادَيْن مِنْ قَلْبي ومِنْ بَصَري فِدَاءُ ما بَيَّضَ الفَوْدَيْن[6] مِنْ شَعري
صُبغٌ على الرأس مَوقوفٌ قَضَيْتُ بهِ مـا شِئتُ مِنْ لَـذَّةٍ تُلْهي ومِنْ وَطَرِ
مَـرَّ الجَدِيـدُ[7] بهِ حيناً، فأخْلَقَـهُ[8] وإنَّـمَـا ذلـكَ الأخـلاقُ لِـلْعُـمـرِ
مـا سـاعـةٌ تَنْقضي الاّ وقـدْ أخـذَتْ شَطراً مِنَ السَّمعِ او شَطْراً مِنَ البَصَرِ
لـو فَكَّـر المَـرءُ في أطْوارِ خِلْقَتِـهِ مـا كانَ في غيـرِها يَـوْمـاً بِمُعْتَبِرِ[9]

وقال ابو الحسن علي بن احمد البغدادي المعروف بقبلة الادب المتوفى سنة ٥٧٠ هـ[10]:

---

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٨، وانظر أيضا ص ٣٢٠

(٢) الشَّجْو: الحزن

(٣) النَّجو: ما يخرج من البطن. (٤) ديوان حيص بيص ٢/ ٥٠

(٥) أورد العماد الكاتب كثيراً من شعره، وأثنى على جودة خطه في القسم المخطوط من الخريدة/نسخة ايران/في خزانة المجمع العلمي العراقي.

(٦) الفَوْدان: جانبا الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام. (٧) الجديد: الليل أو النهار.

(٨) أخلقه: أبلاه. (٩) الوافي بالوفيات ١/ ١٢٦ (١٠) انظر دراسة الهجاء ص ١٤٢

قُلْتُ للفَرقَدَيْنِ(١)، واللّيـلُ مُلْقٍ فَـضْـلَ(٢) أَرْواقِـهِ(٣) على الآفـاق
إبقَيـا مـا بَقِيتُمـا سـوفَ يُـرْمَى بَينَ شَخْصَيكُمـا بِسَهْمِ الفِـراقِ(٤)

وقال الضحاك بن سليمان بن سالم ابو الازهر المتوفى سنة ٥٦٣ هـ:

مـا أَنْعَـمَ اللهُ عـلى عَبْـدِهِ بـنعـمـةٍ أوفى مِـنَ العـافِيـهْ
وكـلُّ مَنْ عُـوفِيَ في جِسْمِـهِ فـأنَّـهُ فـي عِيشَـةٍ راضِيـهْ
والمـالُ حُلوٌ، حَسَنٌ، جَيِّـدٌ على الفتى لـكنَّـهُ عـارِيَـهْ
وأسْعَـدُ العـالَم بـالمـالِ مَنْ أَدّاهُ لـلآخـرةِ الـبـاقِـيَـهْ
مـا أحْسنَ الـدُّنيـا، ولكنَّهـا مَـعْ حُسْنِهـا غَـدَّارةٌ فـانِيَـهْ(٦)

وبعد: فلست ارى فائدة من الاستمرار في عرض الشواهد، لانها كثيرة(٧) وكثرتها خير دليل على الظاهرة التي اشير اليها.

مدح الرسول ﷺ:

اظن ان موجة الزهد وذم الدنيا وسوء الظن بالناس وما ادت اليه من شيوع الاتجاه الى السماء والدعوة الى رفض الاستعانة بغير الواحد الاحد، لان حكام الارض بَدوا عاجزين عن اسعاد البشر وادخال الطمأنينة الى نفوسهم، اظن ان هذه الموجة كان يمكن ان تنحسر وتزول، لو قدر للاسباب التي خلقتها ـ وهي اسباب اجتماعية واقتصادية كما اشرت ـ ان تختفي فيعم الوئام ويحل السلام، بعد ان يقضى على اسباب الحروب التي دمرت الاقتصاد وفتكت باسباب الرخاء والنعيم. ولكن الدلائل مجمعة على ان الامور في العراق والدول المجاورة كانت تسير من سيء الى اسوأ، وكل سنة جديدة تنذر الناس بمزيد من المتاعب ومزيد من الفقر والهم(٨).

---

(١) الفرقدان: نجمان يهتدى بهما.
(٢) الفَضْل: الزيادة.
(٣) الأرْواق: واحدها رَوْق: الطائفة من الليل.
(٤) تلخيص معجم الألقاب ق ٤ ج ٣ ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣، وهامش «١».
(٥) عارية: مستعار، غير دائم.
(٦) الخريدة ٤/ ١٢١، المختصر المحتاج إليه ٢/ ١١٨
(٧) انظر شواهد أخرى في: ذيل الروضتين ص ٥٨، الجامع المختصر ٩/ ٩٣، الوافي بالوفيات ٦/ ١١٢ «مصور»، ٢/ ١٠١، مستدرك المختصر المحتاج إليه ص ٣٨
(٨) بدليل أن الموجة الصليبية التي بدأت تنحسر تدريجيا، حلت محلها أخبار الزحف المغولي من الشرق، وقد استطاع هؤلاء الاتيان على الخلافة العباسية من الجذور.

وهكذا وجد الادباء انفسهم ـ وهم الذين عرفوا برهافة الحس ورقة الاحساس ـ في عالم كئيب، تسوده شريعة الغاب، ويقتل الناس فيه من اجل مكاسب تافهة. فماذا كانت النتيجة؟ لقد بدأ الادباء يشكون في امكانية اصلاح هذا العالم، وظهر ان المستقبل مظلم، فازدادت موجة الزهد اتساعا، وزحف الوعظ والشعر الديني الى ميادين لم يعرفها من قبل، واشتدت الحاجة الى مثل اعلى يقصده الشعراء ويستعيضون بمدحه عن مدح الزعماء والحكام، فكان ان تطلعوا بابصارهم الى الحجاز حيث مهبط رسالة السماء.

لقد شاعت في هذا العصر فكرة المجاورة في الديار المقدسة: وهي نوع من الهروب من هذا العالم ومحاولة البحث عن السكينة والطمأنينة بالالتجاء الى قبر الرسول ﷺ، ومن الذين قصدوا الحجاز لهذا الغرض ابو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، وجار الله الزَّمخْشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، الذي عرف بهذا اللقب «جار الله» بعد ان جاور في مكة زمانا[١]. ومن الذين جاوروا بمكة ايضا في الفترة التي ادرسها «الحسن بن علي بن ابي سالم.. بن ناهوج الإسكافي الاصل، البغدادي المولد والدار.. من اهل باب الأزج[٢]، احد الكتاب المتصرفين في خدمة الديوان الإمامي هو وابوه، وكان فيه فضل وأدب بارع وعربية وتصرف في فنونها.. وكان خرج من بغداد حاجا في سنة ٥٨٩ هـ أو نحوها، فجاور بمكة ثم صار منها الى الشام واقام بحلب مدة، ثم انتقل الى مصر فسكنها الى ان مات بها سنة ٥٩٦ هـ.. ومن شعره يتشوق الى الحجاز بعد مجاورته بمكة:

خَلِيلَيَّ هَـلْ يَشْفي مِنَ الوَجْـدِ وَقْفَـةٌ ... بِخَيْفِ[٣] مِنىً، والسَّامِرونَ هُجـوعُ؟
وَهْــل لِلَيْـلاتِ المُحصَّبِ[٤] عَــوْدَةٌ ... وَعيشٍ مَضى بـالمـأزمَين[٥] رُجـوعُ؟
وَهَلْ سَرْحَةٌ[٦] بالسَّفْحِ مِنْ أَيْمنِ الصَّفا[٧] ... وَعَتْ مِنْ عُهودِي ما أَضـاعَ مُضِيعُ؟
وَهَلْ قُوِّضَتْ خَيمٌ على أَبرقِ الحِمَى[٨] ... ومـا ذاكَ مِنْ غَدْرِ الـزَّمانِ بَـدِيـعُ[٩]

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٥

(٢) تعرف اليوم باسم «باب الشيخ»، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني، وفيها ضريحه.

(٣) خَيْف مني: خيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى. (معجم البلدان ٣/ ٤٩٩).

(٤) المحصب: موضع فيما بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب. (معجم البلدان ٧/ ٣٩٥). وهذا الشطر مكسور الوزن، ولعله: وهلا..

(٥) المأزمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة. (معجم البلدان ٧/ ٣٦٢) (٦) سرحة: شجرة.

(٧) الصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس. (معجم البلدان ٥/ ٣٦٥).

(٨) أبرق الحمى: لم يذكره ياقوت بين «الابارق» التي ذكرها في معجمه.

(٩) بديع: جديد.

وَهَلْ تَردنْ مـاءً بِشِعْبِ ابنِ عامرٍ[١] حَـوائمُ لـو يُقْـضى لَـهنَّ شُـروعُ؟
ومـا ذاكَ الّا عـارضٌ مِنْ طَمـاعَـةٍ لـهُ بـقـلـوبِ الـعـاشِـقـيـنَ وُلـوعُ
. . . الخ[٢].

وقد عاصر ابن ناهوج «ابو نزار الحسن بن ابي الحسن . . النحوي المعروف بـ ملك النحاة . .ولد ببغداد في الجانب الغربي . . ثم سافر الى بلاد خراسان وكرمان وغزنة . . وقدم دمشق ثم خرج منها وعاد اليها واستوطنها الى ان مات بها سنة ٥٦٨ ـ، وكان قد ناهز الثمانين . ومن شعره يمدح النبي ﷺ:

يـا قاصِـداً يَثْرِبَ الفَيحـاءَ[٣] مُرْتَجياً أَنْ يَسْتَجيـرَ بِعَلْيـا خـاتَمِ الـرُّسـلِ
خُذْ عَنْ أخيكَ مَقالاً إنْ صَدَعْتَ[٤] بهِ مُدِحْتَ في آخرِ الأعصـارِ[٥] والأُولِ
قُلْ: يا مَنِ الفخرُ موقوفٌ عليهِ، فَإنْ تُذوكِرَ الفخرُ لَمْ يصْدِفْ[٦]، ولَمْ يملِ
صِيْتٌ إذا طُلِبتْ غـايـاتُـهُ خَـرقَتْ سَبْعـاً طِباقـاً، فَبذّتْ كـلَّ ذي أمـلِ
عَلَوْتَ وازْددْتَ، حتّى عـادَ مُنْتَـزحـا جبـريلُ عمّـا لَهُ قَـدْ كانَ لَمْ يَـطُلِ[٧]
وَعُدْتَ ـ والكِبْرُ قَدْ نافَى عُلاكَ ـ فما عَدَوْتَ شِيْمةَ سَبْطِ[٨] الخَلْقِ، مُبْتَهلِ
أتتْـكَ غـرُّ قـوافي المـدحِ خـاضِعـةً لَـديـكَ، فـاقْبَـلْ ثَنـاءً غيـرَ مُنْتَحَـلِ
ثَنـاءَ مَنْ لَمْ يَجِـدْ وَجْنـاءَ[٩] تَحْمِلُهُ إليكَ، أوصُدَّ بالأقتارِ[١٠] عَنْ جَمَلِ[١١]

وقال ايضا يمدح الرسول ﷺ:

للهِ أخـلاقُ مَـطْبـوعٍ على كَـرَمِ وَمَنْ بـهِ شَـرَفُ العَـلْيـاءِ والكَـرَمُ
أغرُّ ابلجُ[١٢] يَسْمو عَنْ مُسـاجِلِهِ[١٣] إذا تُـذوكِـرتِ الاخـلاقُ والـشِّيَـمُ

---

(١) شعب ابن عامر: ارجح أنه «شعب جبلة» الذي كانت فيه الوقعة المشهورة بين بني عامر وتميم وعبس وذبيان وفزارة، إذ لم يذكر ياقوت شعبا بهذا الاسم في معجمه. (معجم البلدان ٣/ ٥١، ٥/ ٢٧٠)
(٢) معجم الادباء ٩/ ٨٨ (ط. دار المأمون)
(٣) الفيحاء: الواسعة.
(٤) صدعت: جهرت.
(٥) الأعصار: واحدها عصر وهو الزمن.
(٦) صدف: يعرض.
(٧) لم يطل: من الطَّوْل أي القدرة، اي أن جبريل لم يصل إلى ما وصل إليه الرسول ولعل الشاعر يشير إلى ما ورد في كتاب (الاسراء والمعراج) من أن الرسول ﷺ صعد إلى سماوات لم يصل إليها جبريل.
(٨) سبط الخلق: كريم الشمائل، متواضع.
(٩) الوجناء: الناقة القوية.
(١٠) الأقتار: الفقر.
(١١) معجم الأدباء ٨/ ١٢٣ ـ ١٢٥ (ط. دار المأمون).
(١٢) الأبلج: المفترق الحاجبين، وقيل الابيض الحسن الواسع الوجه.
(١٣) المساجل: المنافس.

سمَتْ عُلاكَ رَسولَ اللهِ، فارْتَفَعَتْ عن أن يُشيرَ الى إثْباتِها كَلِمُ[1]
لا مَنْ رأى المَلأَ الأعلى، فراعَهُمُ وعادَ، وهو على الكَوْنينِ، يَحْتَكِمُ
. . . الخ[2].

وقال يمدح الرسول أيضا:

مَنْ حامِلٌ عَنْ أخيه سَبْطَ مَألُكَةٍ[3] يَهزُّها إنْ أُفيضَ[4] القالُ والقِيلُ
يَقولُ، والحُجُراتُ الغرُّ تَسْمعُهُ والوفْدُ كلٌّ بما يَعنيهِ مَشْغولُ
هَلْ سامِعٌ يا رَسولَ اللهِ أنتَ لِمَنْ وَلاؤُهُ لكَ مَزْوِيٌّ وَمَنْقولُ؟
. . . الخ[5].

ولابي نزار ثلاث قصائد اخرى في مدح الرسول ايضا: احداها قافية ومطلعها:

يا خاتَمَ الأنبِياءِ قاطِبةً أتاكَ لَفْظُ الثَّناءِ يَسْتَبِقُ[6]

والاخرى دالية ومطلعها:

رَأى البَرْقَ غَورِيَّ الوَميضِ فَأنْجَدا وأصْدَرَ رَكْبٌ بالعَقيقِ فَأوْرَدا[7]

والثالثة رائية ومطلعها:

لِمَنِ النّارُ على مَرْفوعَةٍ مِنْ يَفاعٍ[8] جبل عاليها مغار[9]؟

ان ملك النحاة ـ فيما اعلم ـ هو أول شاعر يمدح الرسول ﷺ بهذا العدد من القصائد، وعندي ان لشخصية ملك النحاة علاقة بهذا الولع والاكثار من مدح سيد المرسلين. فقد كان ابو نزار عنده عجب بنفسه وتيه، وهو الذي اطلق على نفسه هذا اللقب «ملك النحاة» وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك[10]، حتى انه قال عن مقاماته التى وضعها على غرار مقامات الحريري: «مقاماتي جد وصدق، ومقامات الحريري هزل وكذب»[11].

والمهم ان شخصية ابي نزار هي التي املت عليه ان يتوجه بمديحه الى الرسول ﷺ، بعد ان خاب ظنه في الزعماء من معاصريه، لا سيما وقد عرفنا ان الرجل جال جولة كبيرة بين حواضر العالم الاسلامي: بدأت ببغداد وواسط، ثم اربل وخراسان وكرمان. . وانتهى به

---

(١) الكلم: الكلام، ولعلها: قلم.
(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ١٦٧
(٣) المَألُكَة: الرسالة.
(٤) أفيض: كثر، اتسع.
(٥) تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ١٦٧ ـ ٦٨
(٦) نفسه ٤/ ١٦٨
(٧) نفسه ٤/ ١٦٨
(٨) اليفاع: المرتفع، وفي هذا العجز اضطراب.
(٩) نفسه: ٤/ ١٦٩
(١٠) وفيات الاعيان ١/ ٣٧١
(١١) أنباه الرواة ١/ ٣٠٩، حاشية «١».

المطاف في دمشق[١].

ولعل الوقوف على شعر ابي نزار في مدح الرسول الكريم مما يعين على معرفة الاصل الذي الهم البوصيري[٢] نظم قصائده الذائعة الصيت في مدح الرسول ﷺ وهو موضوع ظل يشغل بال المحدثين، اذ ليس من المعقول ان يكون البوصيري المتوفي في اواخر القرن السابع، قد ابتكر هذا الفن دون ان يستعين بأحد سبقه اليه، لأن هذه الفترة يغلب عليها التقليد، فكيف استطاع صاحب البردة الخروج على سمة عصره وطابعه؟

لقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعليل الطريقة التي اهتدى البوصيري بها الى المدائح النبوية: فمن قائل ان مدح الخلفاء العباسيين، وزعماء الشيعة والفاطميين، بسبب قرابتهم للرسول، كانت البداية التي اوحت للبوصيري بالفكرة[٣]، وقال المرحوم الدكتور محمد كامل حسين: ان الشعراء في أواخر العصر الفاطمي، وفي العصر الايوبي وما بعده في غزلهم، كانوا يحرصون على ان يذكروا بعض الاماكن والبلاد التي في الحجاز. . وكانت هذه الظاهرة اللافتة في العصر الايوبي هي السبب الاول في ظهور فن جديد في الادب العربي هو فن المدائح النبوية»[٤].

اما المرحوم الدكتور مبارك فعلى الرغم من دراسته لموضوع المدائح النبوية في الأدب العربي في كتاب خاص، قال عنه: «انه اول من يرسم خصائص المدائح النبوية في الادب العربي. . »[٥] ولكن الدكتور الفاضل لم يتطرق الى العوامل التي ساعدت البوصيري على النبوغ في هذا الفن فجأة، على الرغم من اشارته الى قصائد الشريف الرضي ومهيار في رثاء الحسين ﷺ واهل البيت[٦]. . وهي اشارة ربما اغنت عن العبارة.

التصوف:

يمثل المتصوفة اقصى درجات الزهد والمبالغة في الانصراف للدين والاعراض عن كل ما يمت الى هذه الدنيا بصلة، ولذلك عرفوا بالميل الى الوحدة والابتعاد عن الناس وما يشغلهم، كما شهروا بالاكتفاء بما يسد الرمق من الطعام، وبما يستر الجسم من اللباس.

وقد عاش في العراق خلال الفترة التي ادرسها زعيمان مشهوران من شيوخ الصوفية،

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٣٧١

(٢) هو محمد بن سعيد بن حماد. . الصنهاجي، كان يعاني صناعة الكتابة والتصوف، وشعره في غاية الحسن واللطافة. توفي سنة ٦٩٥ هـ. فوات الوفيات ٢/ ٤١٢، الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥، المدائح النبوية ص ١٧١

(٣) الأدب في بلاد الشام ص ٤١٢

(٤) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٣ - ١٩٤

(٥) المدائح النبوية ص ٩

(٦) نفسه ص ١٤٢ وما بعدها.

وهما الشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ في بغداد: « . . وكان سكوته اكثر من كلامه . . فظهر له صيت عظيم وقبول تام . . وتاب على يده معظم اهل بغداد، واسلم معظم اليهود والنصارى . . »[١] وفي جنوب العراق، في البطائح اشتهر شيخ الطريقة الرفاعية ابو العباس احمد بن علي بن احمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ، وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة[٢] الى ما كان يعتقد من ان سبب لطافة شعر ابن المعلم الواسطي هو بركة انفاس المنتسبين الى الشيخ احمد الرفاعي، لانه عاش بينهم فترة طويلة.

ان انصراف المتصوفة عن الدنيا، وانشغالهم بالدين، قد لفت نظر الحكام اليهم، فحاولوا بذل كل ما يستطيعون للسيطرة على هذه الحركة، واستمالة زعمائها. فاصبح الصوفية فئة مميزة في المجتمع، واصبح لرؤ سائهم مكانة عند الحكومة كالقضاة والشهود والوجوه، فكانوا يحضرون مجالس الوزير اسوة بكبار رجال الدولة[٣]، وحين يذكر المؤرخون كبار المدعوين الى الوليمة التي اعتاد الخليفة المستضيء اقامتها في مستهل رجب من كل سنة، يذكرون من بين المدعوين الكبار « . . مشائخ الربط والصوفية واهل الدين» . .[٤]

إن هذه العلاقة بين الصوفية والحكومة قد أثارت سخط العارفين بأصل التصوف، المدركين لحقيقة أهدافه[٥].

كذلك استغل أعداء التصوف هذه العلاقة، وراحوا يشنعون على الصوفية بأن أوائلهم كانوا ينفرون من السلاطين والأمراء، ولكنهم الآن صاروا أصدقاء[٦]. وقال أحد الباحثين: كان لهذه الطبقة (المتصوفة) أثر كبير على الناس، إذا شاعت فيهم روح التوكل والاستجداء، وأصبحت السلبية طابع تلك العصور عند الشعوب أو المحكومين، ولم تقم بينهم دعوات للتحرر لأنها كانت تكبت لأول ظهورها[٧]. . ، وقال باحث آخر: « . . إن التصوف في الحقيقة حركة اتخذت الجانب السلبي من المثل . . فقد كان قائماً على الاعتراف بالعجز، بل على التسليم بالضعف وقلة الحيلة والاعراض عن المادة كلها، وعن الامجاد والطموح وعن الشرف . .[٨]».

وللانصاف يجب أن يشار إلى وجوب التأكد من التهم التي يهاجم بسببها التصوف فليس جميع المتصوفة كانوا يقبلون هبات الحكومة ونقودها، فقد ورد أن كمال[٩] الدين عبد الرحمن بن محمد بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ: «كان تقياً عفيفاً، خشن العيش خشن الملبس، لم يتلبس

---

(١) مرآة الزمان: ٨/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥
(٢) أنظر: الفصل الثاني ص ٨٩
(٣) تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ٣٩٧
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٢٦
(٥) الرسالة القشيرية ص ٣.
(٦) تلبيس ابليس ص ١٦٦
(٧) الادب في العصر الأيوبي ص ٤٩ ـ ٥٠
(٨) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ص ٧١.
(٩) هو صاحب الانصاف في مسائل الخلاف، ونزهة الألباء، واسرار العربية.

من الدنيا بشيء . . وكان يحضر في نوبة الصوفية بدار الخلافة، فينفذ إليه بالتشريف والذهب فيعيده ولا يقبله . . وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله تعالى[١]. كذلك يجب الحذر من التعميم في اتهام الصوفية بالسلبية، قال سبط ابن الجوزي عن الشيخ عبد القادر الكيلاني، « . . وكان يصدع بالحق على المنبر، وينكر على الظلمة، ولما ولي المقتفي القاضي ابن المرخم[٢] الظالم، قال على المنبر: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين، فما جوابك غدا عند رب العالمين؟ . . »[٣].

أما شعر التصوف في الفترة التي أدرسها فيجب أن يقسم إلى ضربين:

الأول:

شعر أولئك الشعراء الذين اتصلوا بالمتصوفة وعرفوهم عن كثب وعاشوا بينهم فترات ربما طالت - كما سبق عن ابن المعلم الواسطي مثلاً - ولكن هؤلاء الشعراء لم يعتنقوا المبادىء الصوفية، ولا صاروا من جملة المريدين والاتباع لشيوخ التصوف واقطابه، ولذلك يغلب على شعر هؤلاء روح التصوف ونفحاته دون غموضه واصطلاحاته، فتحس بخشوع ورهبة تجاه فنائهم وتعلقهم بالخالق سبحانه، ولا تملك نفسك من الاعجاب بهذا الحب الذي ملك عليهم جوارحهم، كقول سعدالله[٤] بن نصر بن سعيد، الذي كان يخالط الصوفية ويحضر معهم السماعات:

لي لَـذَّةٌ في ذِلَّتي وَخُضـوعي ... وأُحِبُّ بينَ يـديكَ سفْـكَ دُموعي
وَتَضـرُّعي في رأيِ عَينِـكَ راحَـةٌ ... لي مِنْ جَوىً قدْ كنَّ[٥] بينَ ضُلوعي
ما الذُّلُّ للمحبوب في شَرْعِ الهَوَى ... عارٌ، ولا جَوْرُ الهـوى ببَـدِيعِ[٦]
هَبْني أَسأْتُ، فأينَ عَفْـوُكَ سيِّدي ... عَمّنْ رَجـاكَ لِقلْبـهِ المَـوْجـوعِ[٧]
جُدْ بالرِّضا مِنْ عَطْفِ لُطْفكَ، واغْنهِ ... بِجمالِ وَجْهكَ عنْ سؤالِ الشَفيعِ[٨]

إن البيت الأول من هذه الأبيات لا تصل إلى روعته وصدقه قصائد طوال ينظمها المفتونون بالحكام ودنانيرهم، ولست أشك أن الشاعر لم يكن يستطيع أن يتوصل إلى فكرة الجمع بين اللذة

---

(١) الروضتين ٢/٢٧، فوات الوفيات ١/٥٤٧.
(٢) بالأصل: ابن المجرم . . تحريف، وانظر عن ابن المرخم القاضي الفصل الأول ص ٢٦.
(٣) مرآة الزمان: ٨/ ٢٦٥.
(٤) أنظر الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧.
(٥) كَنَّ: اختبأ وتوارى.
(٦) ببديع: بجديد، غير مألوف.
(٧) المَوْجوع: الذي أصابه الوجع.
(٨) المختصر المحتاج إليه ٤/ ٧٧ وهامش المحقق رقم ١٥٤، فوات الوفيات ١/٣٤١

والذل والخضوع، ولا بين الحب وسفك الدموع، لولا الصوفية وطقوسهم وحياتهم التي رآها بعينه وسمعها باذنه.

وليس في الأبيات من ألفاظ التصوف واصطلاحاته ـ بحسب علمي ـ سوى لفظة «المحبوب» في البيت الثالث، وواضح أن المراد بها الخالق سبحانه وتعالى[1].

وقال ابن الباطوخ[2] المتوفي سنة ٥٤٤ هـ:

بحَقّكَ إنْ عايَنْتَ مَنْ أنا عبدُهُ ... فقلْ: قالَ ذاكَ العبدُ: قَدْ مسَّني الضُّر
تَرَفَّقْ بِصَبٍّ قَدْ عَزَّ صَبرهُ ... وَصِلْ دَنِفاً[3] قدْ شَفَّهُ[4] البُعدُ والهَجْرُ
أُعلِّلُ قَلْبي في وِصالِكَ بالمنى ... وأسألُ عن صَبْري، وقَدْ عُدِمَ الصَّبْرُ
فَكَيفَ سلوى عَنْ حَبيبٍ إذا بَدَتْ ... مَحاسِنُهُ لي غابَ عَنْ حُسْنِها البَدْرُ؟
ذَلَلْتُ لَـهُ، والحُبُّ عارٌ وَذِلَّةٌ ... وصرتُ له عَبْداً، وفي يدِهِ الأمْرُ[5]

وكما نعجب بالشعر الصوفي لما يتردد فيه من نفحات الحب الالاهي ـ وهو حب لم يعرفه الشعر العربي لولا المتصوفة ـ كذلك قد وفق بعض هؤلاء الشعراء ـ بسبب عقائد الصوفية وعاداتهم ـ إلى افكار طريفة، تبدو غريبة نوعا ما بالنسبة للأكثرية الساحقة من الناس، كقول قوام الدين أبي الفرج هبة الله بن أحمد. الاعرابي البغدادي الصوفي المحدث المتوفي سنة ٥٧٦هـ:

مَنْ كانَ مُنْفرداً في ذا الزَّمانِ، فَقَدْ ... نَجا مِنَ الذُّلِّ والأحزانِ والقَلَقِ
تَزْويجُنا كَركوبِ البَحْرِ، ثُمَّ إذا ... صِرْنا إلى وَلَدٍ صِرْنا إلى الغَرَقِ[6]

إن فكرة البيت الثاني ليست مما ألفه الناس، بل العكس هو المألوف، فالزواج والانجاب من طيبات هذه الدنيا التي يحرص على التمتع بها الرجال والنساء على السواء، ولكن المتصوفة وحدهم ألفوا الوحدة والعزلة والانصراف إلى العبادة والترهب، ولذلك رأى هذا الصوفي أن الزواج بداية المصائب والكوارث، أما إنجاب الذرية فالداهية الدهياء والموت الأحمر.

أما الضرب الثاني من الشعر الصوفي:

فهو شعر المتصوفة أنفسهم وهو يعكس أفكارهم، ويعبر عن مجموعة المصطلحات

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١١، ١٣

(٢) أنظر هامش ٣ ص ٢٧٨ من هذا الفصل الرابع.

(٣) الدنف: العاشق.

(٤) شفّه: انحله.

(٥) الوافي بالوفيات ١/ ١٧١

(٥) تلخيص معجم الالقاب ق ٤ ج ٤ ص ٨٦٥ ـ ٦

والألفاظ التي كثر استعمالها بينهم، وصارت لها مدلولات خاصة بهم، ومن هنا بدت لغير المتصوف أشبه بالطلاسم والمعميات، فاكسبت الشعر غموضاً لا سبيل إلى إزالته إلا بالرجوع إلى كتب التصوف وفي مقدمتها الرسالة القَشَيْريّة لعبد الكريم[1] بن هَوازن القُشَيْري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ. ومن هذا الضرب قول أبي الفتوح البغدادي وهو من أهل التصرّف في التصوف، كما يقول العماد الاصفهاني:

تَقَضّى العُمْرُ، لا وَصلٌ فَيُرْجى ... ولا هَجْـرٌ مـريـح بـالأيـاسِ
تَجلّى الأمْـرُ لـلأبصـارِ، لكنْ ... تَـغـطّى الحَقُّ عنّا بـالـتـبـاسِ
فَكَمْ مِنْ مُـوقِظٍ، والذِّهنُ لاهٍ؟ ... وكَمْ مِنْ مُذْكِرٍ، والقلبُ ناسي؟[2]

إن البيت الأول يدل على عشق وغرام بدليل الوصل والهجر، ولكن البيت الثاني يوضح أي محبوب هذا الذي يتحدث عنه الشاعر. إنه الحق، وهو الله سبحانه في اصطلاحات التصوف[3]. وفي البيت الثاني اصطلاح صوفي آخر هو التَّجلِّي، وقد ألفوا ـ على ما يبدو ـ ان يجمعوا بينه وبين مصطلح الستر، فيقولون: الستر والتجلي[4].

وقال أبو الفتوح أيضا:

يا قِبْلَةَ القلب، يا مَنْ حَلَّ في فِكَري ... وجَلَّ[5] عَنْ أنْ يَحِلَّ الربُّ في الفِكَرِ
خَلَقْتَني مِنْ تُـرابٍ أنتَ خـالِقُـهُ ... حتّى إذا صِرْتُ تِمْثالاً مِنَ الصُّوَرِ
أَجْـرَيْتَ في قـالَبِي رُوحـاً مُنـوّرةً ... تَمرُّ فيهِ كَجَرْيِ الماءِ في الشَّجَـرِ
جَمَعْتَ بَينَ صَفـا رُوحٍ مُـنـوّرةٍ ... وهكـذا صَنْعـةٍ مِنْ مَعْـدِنٍ كَـدِرِ
يا مالِكـاً مُهْجَتي، يا مُنْتَهى أَمَلي ... يا حاظِراً[6] بي في بَدْوي وفي حَضَري
إنْ احْتَجبْتَ، فَسِرّي منكَ في وَلَهٍ[7] ... وإنْ حَضَرْتَ، فَقَلْبي منكَ في خَطَرِ
تَبْـدُو فَتَمْحو رسُومِي، ثُمَّ تُثْبِتُها ... فـإنْ تَغَيَّبتَ عنّي عِشْتُ بـالأثَـرِ

---

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن. القشيري، الفقيه الشافعي، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والاصول والادب والشعر والكتابة وعلم التصوف، توفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ. تاريخ بغداد ٨٣/١١، وفيات الاعيان ٣٧٥/٢، طبقات السبكي ٢٤٣/٣، وانظر مقدمة الرسالة القشيرية ط. بولاق.

(٢) الخريدة/ نسخة إيران ق ٢ و ١٥

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥، ٨

(٤) الرسالة ص ٥١

(٥) جَلَّ: عَظُم وتعالى.

(٦) حاظر: كذا بالاصل بالظاء. والصواب «حاضرا».

(٧) الوَلَهُ: التَّحيرُ من شدة الوجد.

يَلوحُ شـاهِـدُ وجْـدانٍ، فَيُنْعِشُني نَسيمُ روحٍ على رَوضٍ منَ السَّحَرِ
. . . الخ(١).

إن هذه الأبيات لا سبيل إلى فهمها دون الرجوع إلى رسالة القشيري؛ لكثرة ألفاظ واصطلاحات التصوف بها، مثل: يا حاضرابي. . في البيت الخامس فهومن المحاضرة، وهي اصطلاح شرحه عبد الكريم القشيري(٢). وفي البيت السادس: إن غبت. . وإن حضرت، وهما من الغيبة والحضور، كما فهمهما المتصوفة(٣) وفي السابع اصطلاح السر(٤)، وفي الثامن اصطلاح المحو والاثبات(٥)، وفي البيت الأخير اصطلاح الشاهد(٦).

وهكذا يبدو أن هذا الشعر كتب للمتصوفة وحدهم، فلا سبيل إلى فهمه دون شرح يقوم به شيخ من شيوخهم. وقد وجدت كتب التصوف ذاتها، ومنها الرسالة كما أشرت، تشرح الغامض بألفاظ تزيده غموضاً، حتى يخيل لك أن القوم يتحدثون بلغة أخرى. ولعل هذا الغموض هو الذي حمل أعداء التصوف ـ ومنهم ابن الجوزي الواعظ المشهور ـ على القول «بأن جمهور التصانيف الصوفية لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها، وقد سموها بالعلم الباطن»(٧).

(١) الخريدة/ نسخة ايران ق ٢ و ١٤
(٢) الرسالة القشيرية ص ٥٢
(٣) نفسه ص ٤٨
(٤) نفسه ص ٥٩
(٥) نفسه ص ٥١
(٦) نفسه ص ٥٧
(٧) تلبيس ابليس ص ١٦٦

الفصل الخامس

الخمر والغزل بالمذكر والمجون

يمثل هذا الشعر الجانب اللاهي والعابث من حياة الناس، فكما اتجهت طائفة من الناس - بسبب عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية[1] - إلى الدين والزهد والتصوف والاعراض عن هذه الدنيا، اتجه آخرون وجهة أخرى، فاقبلوا على الدنيا وتمسكوا بها واداروا ظهورهم للآخرة وامعنوا في نسيانهم، فكان هؤلاء عشاق المواخير والحانات، وأولئك الذين اتجهوا بعواطفهم نحو الذكور.

ولا بد لمن يشرب أو ينحرف في سلوكه الجنسي ويخرج على تقاليد المجتمع وعرفه، لا بد له من الفاظ أو عبارات تدل على الانحراف والشذوذ، وتشير إلى عدم المبالاة بالأخلاق وأصحابها، وهو ما سمي بالمجون أو السخف.

١ - شعر الخمر:

ورث شعراء القرن السادس، مع ما ورثوا من اسلافهم شعراء القرون السابقة، شعر الخمر، وهذا الهيام ببنت الحان، والتغزل بسقاتها من الاناث والذكور والسعي إلى حاناتها آناء الليل وأطراف النهار، وتلك الصفات البراقة الاسطورية التي وصفوا بها رائحتها، ورقتها، وشعاعها، وما تفعله في عقول الشاربين وأبدانهم. فليس من المعقول أن يكون التقليد هو الصفة الغالبة على جميع النماذج الشعرية باستثناء الخمريات.

لقد وجد شعراء هذه الحقبة أن وصف الخمر قد صار غرضاً تقليدياً من أغراض الشعر العربي مثل المديح والهجاء والرثاء. . ولذلك لا بد أن يقول الشاعر فيه شيئاً، كي يثبت شاعريته في ميدان كثر فرسانه. وظاهرة التقليد هذه، هي السبب في تلك النتف والمقطوعات الخمرية المنتشرة في تراجم طائفة من شعراء القرن السادس في خريدة العماد الأصفهاني، ووفيات الأعيان، وفوات الوفيات وغيرها من كتب الأدب والتراجم.

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة.

ولا شك أن قسماً غير قليل من شعر الخمر هذا ـ ربما زاد على ما وصل إلينا ـ قد ضاع، أو أهمله المؤرخون عمداً: لأنه خلا من مقومات الشعر باستثناء الوزن والقافية من ناحية، ولأنه يخالف الاتجاه الشعري العام والسمعة الأدبية لأولئك الذين أضيف إليهم من الناحية الأخرى، فمثلاً قال العماد عن ثقة الدولة ابن الدريني أنه: «من أركان دولة المقتفي.. مجموع الكرم والفضل والورع والدين»[1].. ثم يروي له من الخمريات قوله:

إذا ما حَساها في الدُّجُنَّةِ[2] شاربٌ ... ظَنَناهُ بالبَدْرِ المُنيرِ تَلَثَّما
وَكَمْ لَيلَةٍ، لم يَبدُ مِنهنَّ كوكبٌ ... أَقَمْنا حَبابَ[3] الكَأسِ فيهنَّ أَنْجُما[4]

وقال عن سَدِيْد الدولة محمد بن عبد الكريم الانباري أنه: «منشىء ديوان الخلافة، من بيت السؤدد والكرم والفضل، وهو شيخ الدولة.. وما كان يتعاطى الشعر، تغانيا عنه..» ثم يروي له قوله:

الآن، وما رَوضُ[5] العُمْرِ نَدِي ... لا تُخْلِ مِنَ الكؤوسِ والرَّاحِ يَدِي
في باقي العُمْرِ فُزْ بعيشٍ رَغِدِ ... إنَّ الدُّنيا إذا مَضَتْ لم تَعُدِ[6]

وقال أحد القضاة:

نَبهَ العودُ ضَجَّةَ المِزْمارِ ... وَبَدتْ جَهْرة كؤوسُ العَقارِ[7]
وغَدا الصَّومُ هازئاً يَنشرُ الرَّوْ ... عَةَ، يَتلوهُ عَسْكَرُ الإفطارِ
ومَضَى النُّسكُ والتَّراويحُ[8] والتَّسْـ ... ـبيحُ طُرّاً، مُهتَّكَ الأَستارِ
فاشربوا الخَمْرَ مِنْ يَدَيْ فاتِرِ المُقْـ ... ـلَةِ، عَذْبٍ لُماهُ[9] لِلْمُشْتارِ[10]

ويبدو لي أن كثرة شعر الخمر في القرون التي سبقت القرن السادس، وكذلك الصور التي رسمت لاثرها في الشاربين، والهالات التي أحيطت بها مجالس الشرب والمنادمة، واعتياد الناس على الاعجاب باسلافهم، والنظر إلى القدماء على أنهم القدوة والسابقون إلى كل حسن وجديد

---

(١) الخريدة: ١/ ١٤٤
(٢) الدجنة: الظلمة.
(٣) الحباب: الفقاقيع التي تعلو الخمر.
(٤) الخريدة: ١/ ١٤٦
(٥) بالاصل: روضه، ولعل الصواب ما اثبته.
(٦) الخريدة ١/ ١٤٤
(٧) العُقار: الخمر.
(٨) التَّراويح: نوع من الصلوات التي تصلى في ليالي شهر رمضان.
(٩) اللمى: (بتثليث اللام) سواد أو سمرة في باطن الشفة يستحسن. المشتار: الذي يجني العسل.
(١٠) الخريدة: ٤/ ٦٨٢

مبتكر، لا سيما وقد حاول المتأخرون أن يبالغوا في المكانة التي بلغتها الخمرة عند الاسلاف حتى نسب إلى الخلفاء والقادة والقضاة وكبار أصحاب المناصب شعر أو قصص أو حكم ومواعظ تتصل بالخمر وتحض على الخلاعة وإطراح الوقار(١).

إن جميع هذه العوامل والأسباب، مع عوامل أخرى سبقت الاشارة إليها في هذه الرسالة، أعني سوء الحياة الاقتصادية، وتفكك المجتمع، وتغلب الاجانب والدخلاء من فرس وترك على مقاليد الأمور، كل ذلك ترك أثره على تفكير الناس، ونظرتهم إلى القيم والأخلاق. فصار الشعراء أكثر جرأة في صورهم وأفكارهم وألفاظهم وأخذوا يجهرون ويصرحون بمعان وآراء، كانوا يترددون في التفكير بها من قبل من ناحية، وبالغوا وتطرفوا في تهافتهم وهيامهم وغرامهم بالخمر من ناحية ثانية. حتى ليعجب المرء كيف تصل الأمور إلى هذا الحد في بلاد يحرم دينها الخمر، ويشدد فقهاؤها النكير على باعة الخمور وشاربيها؟.

لقد كان للتقليد دور كبير في ولع شعراء القرن السادس ولعا شديداً بالخمر: فالأبله البغدادي يقول:

لــولا كِــبــارُ كُــؤوسِــهــا ... مــا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الكَبائرْ (٢)

وقال:

قم فَاجْلُ في جُنْحِ (٣) الدُّجى ... فَــجُــنْــحُــهُ قَــدْ بَــرَدا
صَفْــراءَ لَــوْ كــانَتْ سِوى الـ ... ـخَمْر، لَكانَتْ عسْجَدا(٤) (٥)

ويشارك ابن التعاويذي زميله في غرامه بالخمر، فيقول:

وَالْــقَ بَــرْدَ الشتاءِ مِنْها بِــنــارٍ ... وَارْمِ جُنْحَ الظَّلام مِنْهـا بِنُورِ
واسْقني بالصَّغيرِ مِنْها، فَما أَبْـ ... ـقَى الهَوَى فِيَّ فَضْلَةً(٦) للكَبيرِ(٧)

وقال:

تَــفْــتَضُّ عَــذْراءَ بِــنتَ كَــرْمٍ ... أَنْحَلَهــا المَكْثُ في الــدِّنــانِ

---

(١) الديارات ص١٦٦، ١٦٨، ٦٣، ٧٢، ٧٦-٧٦، حلبة الكميت ص ٢١، ٢٤، ٦٣، ٩٩ تطور الخمريات ص١٤٦-١٤٩ ١٨٣

(٢) ديوان الابله و ١٧٤

(٣) جُنْح الدُّجى: جانب الظلام.

(٤) العَسْجَد: الذهب.

(٥) ديوان الابله و ٧٧

(٦) فَضْلَة: بقية.

(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣

تَضْحكُ في كأسِها سُروراً　　إذا بَكَتْ أَعْيُنُ القَناني
ما رَقصَتْ في الكؤوس إلا　　نَقّطها المَزْجُ بالجُمانِ[1]
حَتّى تَراها مِنّا عِقالاً[2]　　لِليدِ والرِّجْلِ واللِّسانِ[3]

وفي هذه الأبيات الأخيرة، تحولت الخمر إلى فتاة، ضعفت من بقائها في الدنان ثم أكمل الشاعر تجسيم الخمر بالزعم أنها بدأت تضحك، ثم ترقص. وهو تجسيم أخذه الشاعر من أبي نواس، حين راح يحاور الخمر وتحاوره، تشكو إليه فيحاول أن يهون عليها المصاعب:

فاسْتَوحَشَتْ وَبَكَتْ في الدَّنِّ قائلَةً:　　يا أمُّ ويحَكِ أَخْشى النّارَ واللّهَبا
فَقُلتُ: لا تَحْذَريهِ عِندَنا أَبداً　　قالَتْ: ولا الشَّمْسَ، قُلْتُ: الحَرّ قَدْ ذَهَبا
قالَتْ: فَمَنْ خاطبي هذا فَقُلتُ: أنا　　قالَتْ: فَبعْلِيَ؟ قُلتُ: الماء إنْ عَذُبا[4]

كذلك ظلت الفكرة القديمة بأن الخمر تذهب الهموم شائعة في شعر القرن السادس، قال ابن التعاويذي:

حَمْراءَ صِرْفاً لا يَطو　　فُ بِرَحْلِها لِلْهَمِّ طائِفْ[5]

وقال:

أَتَتْ عَلَيْها في الدنانِ الأعوامْ　　تَنْفي الهُمومَ وتُداوي الأَسْقامْ[6]

وقال الأبله:

وأدِرْها حَمراء تَدْرأُ[7] عَنّا　　بُرَحاءً[8] ما مِنْ أَذاها بَراحُ[9]
خَنْدَريساً[10] لَها مِنَ المزج تاجٌ　　وَعَلَيْها مِنَ الحَبابِ وِشاحُ
تَتَلاشى الهُمومُ مُنْطَوياتٍ　　حِيْنَ تُجْلَى وتُنْشَرُ الأَفْراحُ[11]

---

(١) الجمان: ضرب من الجواهر.
(٢) العقال: الحبل.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٣
(٤) ديوان ابي نواس (آصاف) ص ٢٤٦ ـ ٤٧
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٢
(٧) تدرأ: تدفع، تبعد.
(٨) البُرَحاء: الشدة.
(٩) بَراح: خلاص.
(١٠) الخَنْدَريس: من اسماء الخمر، وهي الخمر القديمة.
(١١) ديوان الابله و ١٤١، وانظر ايضا و ٨١

وظل الشعراء عيالاً على أبي نواس في بقية معاني وصفات الخمر التي ترد كثيراً في الشعر الخمري، ومنها المبالغة في نعتها بالقدم[١]، والمبالغة في نعتها بالبريق واللمعان[٢]. ففي المعنى الأول قال أبو نواس:

رَأَتْ نُوحا، وَقَدْ شَمِطَتْ[٣] وَشَابَتْ   وَقَدْ شَهِدَت قُروناً قَبْلَ نُوحِ[٤]

ومن المعنى الثاني قوله:

تَرى حَيثُما كانَتْ مِنَ البَيْتِ مَشْرِقاً   وما لَمْ تَكنْ فيهِ مِنَ البَيتِ مَغْرِبا[٥]

ولقد أعاد شعراء القرن السادس - بلا جدوى - هذين المعنيين في عشرات الأبيات والكثير من القصائد.

ولعل ظاهرة التقليد هذه، لم تتضح في شعر شاعر كوضوحها في شعر الحيص بيص، لقد أشرت في الفصول السابقة من هذه الرسالة[٦] إلى أن هذا الشاعر عرف بالجد والحشونة والتقوى والصلاح والورع والاعتزاز بالاصل العربي التميمي، وهي صفات جعلته يخرج على العرف السائد في عصره من افتتاح بعض المدائح بوصف الخمر والتغني بصفاتها، والاشادة بمجالسها، فليس في شعره أية قصيدة افتتحت بالخمر، بل أن هذا الشاعر افتتح إحدى مدائحه بغزل غلب عليه الدين، وهو مطلع نادر في الشعر العربي فيما أظن:

عَفى اللّهُ عنها هَلْ يُلِمُّ خيالُها؟   فَيُقْضى على رَغْمِ الرَّقيبِ وِصالُها[٧]

ومن تدين الحيص بيص أيضا: قوله - وهو يمدح دُبَيْس بن صَدَقَة: -

ظَفِرْتَ فَأَوْفِ اللهَ شُكراً، فإنّهُ   يَزِدْكَ عَلاءً إنْ تَزِدْهُ تَضَرُّعا
وصَفْحاً عنِ الجاني، فَكُلُّ خَليقةٍ   تَقِلُّ عنِ الغُفْرانِ والحِلْمِ مَوْضِعا
وما باتَ يُرْضي ربَّهُ مِثْلُ قادِرٍ   تَجاوَزَ عَنْ جُرْمٍ جَليلٍ تَوَرُّعا[٨]

إن تذكير الممدوح بأن يشكر الله على الظفر، مما انفرد به هذا الشاعر في الفترة التي أدرسها

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ٣٨٢، ٤٤٣، ديوان الابله و ٩٦، الخريدة ٤/ ٣٧٥
(٢) الخريدة ٤/ ٢٦١، ٣٧٥، ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٠، ٤٠٨، ديوان الابله و ٥٩
(٣) شَمِطَتْ: اختلط سواد شعرها ببياضه.
(٤) ديوان ابي نواس ص ٢٦٣
(٥) ديوان ابي نواس ص ٢٤٤
(٦) انظر الفصل الثاني ص ٥٧، والفصل الرابع ص ٢٦١
(٧) الديوان المطبوع ١/ ٨٤   (٨) نفسه ١/ ١٧٢

وقال أيضا يمدحه:

في طـاعَـةِ اللّهِ أَسْبـابٌ مُجبنـةٌ ... تَظَلُّ مِنْها ليوثُ الغابِ في وَهَلِ [1]
وكَمْ بَخيـلٍ بتَسْليمٍ لـعِـزَّتِـهِ ... يُعفِّرُ[2] الخدَّ للرحمنِ في وَجَلِ
إذا أتى الـدينُ، فالإقـدامُ مَنْقصةٌ ... ومـا لَنا بِقـراعِ اللّهِ مِنْ قِبَلِ [3]

. . إن هذا الشاعر هو نفسه الذي يقول:

أَقَامَ بها الشَّـرْبُ[4] الكِرامُ عَشِيّـةً ... وَقَـدْ هَجَمَ اللّيـلُ البَهيمُ فـأَمْتَعـا
إذا أَمْسكَ الغَيثُ المُلِثُّ[5] بأرْضِها ... سَقَوْها مِنَ الأيدي عُقارا[6] مُشَعْشَعا
وإن دارَتِ الصَّهباءُ فيهِمْ تجاذَبوا ... أحاديثَ مجدٍ يُجْعَلُ[7] النُّكْس[8] أروعا[9]
فما الهُجْرُ[10] مَسْموعاً لهم عِنْدَ سَكْرَةً ... وما الحِلْمُ فيهِمْ بالسُّرورِ مُضَيَّعا[11]

ويقول:

وما نَشْوةٌ مِنْ قَـرْقَفٍ[12] صَرْخَـدِيَّةٍ[13] ... تدفق مِنْ ضَنْكِ الجِـرانِ[14] مُفَدَّمِ [15]
إذا سُكبتْ في الكأسِ خِلْتَ شُعاعَها ... ـ على غَسَقِ الظَّلْماءِ ـ جَذْوةَ مُضْرِمِ
لَهـا حَبَبٌ يَـرْفَضُّ عنهـا كـأنَّـهُ ... عُيـونُ جَـرادٍ أو زَواهِـرَ أنجُـمِ
أُتيحَتْ لِمَشْعـوفِ[16] الفُؤادِ مُدِلَّـةً ... رَمَتْـه الغَواني عَنْ قِسِيٍّ التَّصَـرُّمِ
فَعادَتْ بأَشْجـانٍ، وهاجَتْ صَبـابَةً ... له وتَمشَّتْ في مُشاشٍ وأَعْظُمِ [17]

إن هذه المقاطع من شعر حيص بيص: تخالف الصبغة العامة لشعره ـ اولا ـ ، وتخالف أخبار الشاعر وطابع حياته ـ ثانيا ـ ، وهي تختلف ـ ثالثا ـ عن المألوف المشهور من خمريات معاصريه، وخاصة في النص الأول لأن أحاديث المجد التي تجعل النكس أروع، ومجالس الخمر

---

(1) الوَهَلُ: الفزَع.
(2) يُعفِّر: يلصق خده بالتراب.
(3) الديوان المطبوع ١/ ٢٣٦
(4) الشرب: جماعة الشاربين.
(5) الملث: المقيم.
(6) العقار المشعشع: الخمر الممزوجة بالماء.
(7) كذا بالاصل ولعلها: تجعل.
(8) النِّكْس: المقصر عن غاية النجدة والكرم.
(9) الاروع: الذي يعجبك بحسن المنظر والشجاعة.
(10) الهُجْر: الكلام الفاحش.
(11) الخريدة ١/ ٢٦٨
(12) القَرْقَف: الخمر.
(13) صرخدية: منسوبة إلى صَرْخَد، وهي بلد في بلاد الشام.
(14) الجران: مقدّم العنق.
(15) مُفَدَّم: عليه مصفاة.
(16) مشعوف الفؤاد: عاشق.
(17) الخريدة ١/ ٣١١، المُشاش: رؤوس العظام.

التي لا يسمع فيها هجر الكلام، ولا يضيع فيها الحلم، لم ترد في القرن السادس إلا في شعر الحيص بيص، ولعلها نادرة في الشعر العربي عامة، لأن المرء «في الساعة التي يعكف بها على كأسه يتحرر من تقاليد المجتمع . . ونراه يأتي أفعالاً ما كان ليأتي بها لو كان صاحياً، ويتخلق باخلاق ويتأدب بآداب ما كان ليتخلق بها لو كان واعيا، فهو في ساعة السكر هذه لا يأبه للمجتمع، ولا يحسب لاعماله ونتائجها[1] حسابا وكل عاطفة تثور في نفسه تأخذ طريقها إلى الخارج . . »[2].

لهذه الأسباب جميعها أرجح أن الشاعر اضطر إلى الاستعانة بأوصاف الخمر ليرضي ممدوحيه، إذ في أيامه صار من البديهيات أن الخمر المعتقة لا يفوقها شيء في طيب الرائحة، وإن تشبيه طيب ذكر الممدوح وحسن أخلاقه بالخمر، يمثل الغاية التي لا سبيل إلى تجاوزها. فكيف يراد من شاعر يكسب رزقه من مدائحه أن يبخل على هذه المدائح بأبلغ التشابيه وأجود المعاني؟ .

وإذا كان الحيص بيص معذوراً في تطعيم بعض مدائحه بذكر الخمر، فإن بعض شعراء القرن السادس الآخرين لا عذر لهم في تقليد خمريات أبي نواس في شعرهم الذاتي الذي لا يبغون منه جائزة أحد كالأمير حسام الدولة أبي الغيث محمد بن المغيث بن حفص الحنفي، الذي يقول في خمرية له:

مـا شـاقَني حـاتِمٌ[3] ولا صُـرَدُ ... ولا شَـجـانـي رَبْـعٌ بـهِ وَتِـدُ
ولا نَويْتُ الوقوفَ في عُرصٍ[4] الـ ... ـدار عَـلـيـهـا الـسَّـرابُ يَـطَّرِدُ
والعِيْسُ[5] في البِيـدِ لا أُكلِّفُهـا ... تُعْنِقُ[6] بي راكبـاً ولا تَخِـدُ[7]
لا أَمْتَطي في الفَلا الجَدِيْلَ[8] ولا ... تَنْقُـلُ رَحْلى عَيْـرانَةٌ[9] أُجُدُ[10]
لَمْ تُبْكِ عَيني دارٌ بـكاظِمَةٍ[11] ... ولا اسْتَبـاني العَلْيـاءُ[12] والسَّنَـدُ
مـالي ولِلْمَهْمَـهِ القِفـارِ، وَقَـدْ ... جَـمَّـعَ لِـذّاتِ عَيشِنـا البَـلَدُ؟
أُصْبِـحُ بينَ الصِّحـابِ مُنْتَشِيـاً ... مِـنْ خَمـرةٍ كـالـشُّعـاعِ تَـتَّقِـدُ
قَـدْ عَبِقَتْ في دِنـانِهـا، ومَضَى ... لهـا - ومـا فُضَّ ختمُهـا - أَبَـدُ

(١) بالاصل: ونتائجه.
(٢) تطور الخمريات ص ١٤
(٣) الحاتم: الغراب. الصرد: طائر أكبر من العصفور.
(٤) عرص: أراد جمع العَرْصة وهي الفسحة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.
(٥) العيس: كرام الابل.
(٦) تعنق: تسرع.
(٧) تخد: تسرع.
(٨) الجديل: فحل من الابل.
(٩) العيرانة: الناقة الصلبة.
(١٠) أجد: موثقة الخلق.
(١١) كاظمة: منخفض من الارض على سِيْف البحر في طريق البحرين من البصرة (معجم البلدان ٢٠٢/٧)
(١٢) العلياء والسند: موضعان في البادية، ذكرهما النابغة الذبياني في قوله: يا دار مَيَّة بالعلياء فالسند.

رَوَى لنـا القَسُّ حينَ نـاظَـرَنـا   فيهـا، وثـارَ الجِـدالُ واللَّدَدُ[١]
أنَّ أبـا جـدِّهِ، وكـانَ بـهـا   يـضـن عـنْ مِثْـلِنـا إذا رَقَـدُوا
أَفْضى إلى ابنِ ابنـهِ بـأَنَّ لهـا   في الـدَّنِّ مُذْ كـانَ بيضـةً لُبَـدُ[٢]
فَحينَ أَبْـدى لنا سَـرائِـرَهـا[٣]   حُلَّت لَنـا منْ نقُـودِنـا العُقَـدُ
وَقـامَ يَمْشي مُحْدَوْدِبـاً، وعلى   عَـصـاهُ بيـنَ الـدِّنـانِ يَعْـتَـمِـدُ
ثُمَّ تَـوَخَّى بِـمِبْـزَلٍ[٤] مَعَـهُ   فُـؤادَ دَنٍّ لِـرُوحِـهِ زَبَـدُ
فـأقبلتْ كـالـدَّمِ المُـراقِ، فَهَـلْ   رَأيتَ دَنّـاً ـ يا صاحِ ـ يَنْفَصِدُ؟
وضـاعَ[٥] في البيتِ نَشْرُ رائحـةٍ   يَهْـرُبُ منهـا الـزُّكـامُ والـرَّمَـدُ
وابْتَـدرَ القـومُ بـالـرَّقينِ[٦] وبـالـ   ـعَسْجـدِ لا يَحْفُلونَ مـا وَجَـدوا
وقـامَ يَسْعـى بكـأسِهـا رَشَـأٌ   مُسَـلَّطٌ مـا لِـعَـمْـدِهِ[٧] قَـوَدُ[٨]
يُـدِيـرُ مِنْ طَـرْفِـهِ، وَمِنْ يَـدِهِ   خَمْـرَيْن يَنْحازُ عَنهمـا الـرَّشَـدُ
وَمِـنْ رُضـابٍ بِـفـيـهِ ثـالـثـةً   تَـجْـري بِثَـغْـرٍ كَـأَنَّـهُ بَـرَدُ[٩]
. . . الخ[١٠].

إن القصيدة تقليد لضرب من الشعر الخمري يسمى بـ«القَصَص الخمري»[١١] أو قصص الخمر، بدأت بذوره عند الأعشى ثم نما واكتمل وبلغ أوجه عند أبي نواس. والشاعر في قصة السكر هذه ـ كما فعل شاعرنا حسام الدولة ـ يحكي ما فعله في إحدى الحانات، وكيف ثار جدل بين الشاعر وأصحابه من جهة وبين القس ـ أراد به صاحب الحان ـ من جهة أخرى، حول قدم خمرته إذ روى لهم إنهما كانت في الدن «مذ كان بيضة لبد: ثم وصف ـ على طريقة أبي نواس ـ الساقي: وقام يسعى بكأسها رشا. . ثم ختمت القصة ـ كما في الجزء الذي اسقطته من القصيدة ـ بالمجون، إذ يخبرنا الأمير أنه فعل ما لم يره إلا المهيمن الصمد مع الساقي. وهي طريقة أبي نواس التي اعتاد أن يختم بها قصصه الخمري[١٢]، وزيادة «المهيمن الصمد» التي دلت على أن شاعر

(١) اللدد: الخصومة الشديدة.
(٢) لبد: نسر يضرب به المثل في طول العمر.
(٣) السرائر: واحدتها سريرة وهو السر.
(٤) بالاصل بمنزل، وهو خطأ صوابه ما اثبته.
(٥) ضاع: فاح وانتشر.
(٦) الرقين: الدرهم ونحوه.
(٧) العمد: أراد القتل العمد، أي إن هذا الساقي يقتل الناس متعمدا.
(٨) القود: القصاص.
(٩) البرد: هو الحالوب عند اهل العراق.
(١٠) الخريدة ٤/ ٧١٧ ـ ٧٢١
(١١) تطور الخمريات ص ٢٣١، اتجاهات الشعر ص ٤٩٦، جحظة البرمكي ص ١٥٠
(١٢) تطور الخمريات ص ٢٣٥، جحظة البرمكي ١٥١

القرن السادس لم يدرس خمريات أبي نواس جيداً، ولذلك لم يحسن تقليدها، إذ أن أشهر المجان في الأدب العربي لم يجرؤ على ذكر المولى سبحانه في هذا الموطن:

إن التقليد في قصيدة حسام الدولة يبدأ من بيتها الأول، لأنه - لفظا ومعنى - إعادة لمطالع جملة من قصائد أبي نواس المشهورة والتي بدأها بالسخرية من حياة الاعراب وكلفهم بالوقوف على الاطلال وبكاء الظاعنين كقوله:

عـاجَ الشَّقِيُّ على رَسْمٍ يُسـائلُهُ   وَعُجْتُ أسألُ عَنْ خَمّارةِ البَلَدِ[1]

أو قوله:

قُـلْ لِمَنْ يَبْكي على رَسْم دَرسْ[2]   واقِفاً، ما ضَرَّ لَوْ كـانَ جَلَسْ[3]؟

وقوله:

دَعِ الرَّبْعَ ما للربْعِ فِيكَ نَصيبُ   ومـا إنْ سَبَتْني زَينبٌ وكعـوبُ[4]

ومن المعروف المشهور أن أبا نواس نظم ما نظم، وقال ما قال لاسباب كثيرة منها الشعوبية وبغض العرب[5]. ولكن الأمير حسام الدولة كان من أمراء العرب والعربية. فهو من أمراء ربيعة بالبصرة[6]، ولذلك ليس من المعقول أن يقف في صف الشعوبيين، وإنما أوقعه التقليد في هذا المأزق.

لقد حمل التقليد شاعر القرن السادس على الزعم بأن رجل الدين المسيحي (القس) هو الذي روى للشاعر وجماعته قصة تعتيق الخمر، نقلا عن أبي جده عن ابن ابنه، وأن القس هو الذي قام يمشي محدودبا. وعلى عصاه بين الدنان يعتمد. وكل ذلك لم يرد مثله حتى في خمريات أبي نواس ذاتها، لأن رجال الدين المسيحي لم يكونوا يديرون حانات الخمر وبيوت الريبة، وإنما عرف بذلك بعض عوام النصارى. والذي أوقع شاعرنا في هذا الوهم أنه وجد طائفة من الشعراء - عند ذكر الخمر - تزعم أنها بنت الشماس أو الاسقف:

فـاسْـتَـجْـلِـهـا كَـرْخِـيَّـةً   بِـنتَ الشَّـمـامِسِ والأَسـاقِفْ[7]

---

(1) ديوان ابي نواس ص ٢٦٦

(2) درس: بلى، وعفى أثره.

(3) ديوان ابي نواس ص ٢٩٩

(4) ديوان ابي نواس ص ٢٤٥

(5) العمدة ١/ ٢٣٢

(6) الخريدة ٤/ ٧٠٢

(7) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٨٢

أو كما قال أبو نواس:

وقَهْــوةٍ عُتِّقتْ في دَيْــرِ شَمّــاسِ تَفْترُّ في كأسِها عن ضَوْءِ مِقْباسِ [١]

فسبق إلى ظنه أن رجال الدين ربما قاموا بأنفسهم بإدارة الحانات، فنسج قصته على هذا الوهم.

وفي نسيج القصيدة مآخذ أخرى منها: إن جملة (إذا رقدوا) في البيت العاشر لا موجب لها سوى القافية، ولفظة (الرمد) في البيت السادس عشر، اجتلبت هي الأخرى للقافية، إذ لم يقل أي سكير بوجود علاقة بين الخمر ومرض الرمد. أما البيتان الأخيران من القصيدة فهما من قول أبي نواس:

تسقيك من يدها خمْراً، ومِنْ فمِهـا خَمراً، فَما لكَ مِنْ سُكْريْنِ مِنْ بُـدِّ.
لي نَشْـوتـانِ، ولِلنُّـدْمـانِ واحِــدةٌ شَيءٌ خُصِصْتُ بهِ مِنْ بَينهِمْ وَحْدِي [٢]

أما الخمر الثالثة، وهي خمرة العيون، فيجب الاعتراف أنها من مخترعات القرن السادس، ولم ترد في شعر أبي نواس ولا في شعر غيره، بحسب علمي.

هل من جديد في شعر الخمر؟

مر بنا أن التقليد واتباع مشاهير شعراء الخمر السابقين هو الطابع الغالب المميز لخمريات القرن السادس، سواء من حيث الأسلوب أو الأفكار أو الصور وهو ما يتفق والخصائص العامة لشعر هذه العصور المتأخرة، التي يخيل للباحث أن القرائح فيها قد أصيبت بالعقم، فلم يعد هم الأدباء سوى الاعادة والتكرار والترديد لنتاج الاسلاف.

ان غلبة التقليد على الشعر عامة، ومنه شعر الخمر، لا يعني عدم وجود فكرة أو صورة جديدة بين اكوام الافكار والصور المعادة المكررة. ولكن كيف السبيل الى الفصل في هذه المسألة الفنية الدقيقة دون الرجوع الى مشاهير الشعراء السابقين ودراسة شعرهم؟

ان دراستي لشعر جحظة [٣] البرمكي ومقارنته بشعر ابي نواس في رسالتي للماجستير

---

(١) ديوان ابي نواس ص ١٨٥ (مط. الحجر)

(٢) نفسه ص ٢٦٦

(٣) هو ابو الحسن احمد بن جعفر: الملقب بجحظة، من أبناء البرامكة، كان شاعرا، مغنيا نديما. توفي سنة ٣٢٤هـ (على قول)، تاريخ بغداد ٦٥/٤، معجم الادباء ٣٩١/١ (ط. ماركليوث الثانية)، وفيات الاعيان ١١٦/١، جحظة البرمكي الاديب الشاعر (رسالة ماجستير):

واطلاعي من خلال ذلك على اشهر قصائد الخمر ومعانيها في القرنين الثاني والرابع للهجرة، ربما ساعدتني على التمييز والترجيح بين المعاني والصور التي كررت في القرن السادس، وتلك التي لم تعرف قبل هذا القرن.

وقبل الخوض في هذا الموضوع الاحظ ان شعر الخمر في القرن السادس قد تقلص وانكمش عما كان عليه في القرون السابقة، سواء من حيث كثرة النصوص ام تنوعها واتساعها، وكذلك الامر في شعراء الخمر الذين اكثر الشابشتي من ذكر اخبارهم واشعارهم في دياراته[1].

ان شعر الديارات[2]- على سبيل المثال- يكاد يلفظ انفاسه في الفترة التي ادرسها، لاننا لا نملك منه سوى قول ابن التعاويذي في دير الثعالب[3]:

وَغَـزالٍ عَـلِقْـتُـهُ يـومَ دَيْـرِ الـثَّـعـالِـبِ
مِنْ ظِبـاءِ الصَّريْمِ يَخْـ طِـرُ فـي زيِّ راهِـبِ
كـالقَضِيبِ الرَّطِيبِ يُـو[4] هِـيـهِ حَمْـلُ الـذَّوائـبِ
شَـدَّ زُنَّـارَهُ فَـحَـلْـ لَ عُـقـودَ المَـذاهِـبِ
مـا رَمى طَـرْفُـهُ بسَهْـ مٍ هَـوىً غَيـر صـائبِ
بـتُّ مِـنْ حُـبِّـهِ عَلى مِثْـلِ شَـوْكِ العَقَارِبِ[5]

وابيات مفرقة هنا وهناك، لا نعلم في اي دير نظمت، منها قول الابله في اول قصيدة مدح:

وَحـانَـةُ العُمْـرِ[6] فَمَعْمُـورَةٌ بـالّـلهـوِ، والـدَّيـرُ لَنـا دارُ
والخمـرُ والخَمَّـارُ مـا بَيْنَنـا لا عُـدِمـا عِـطْرٌ وَعـطّارُ
وَقَـدْ صَفـا إبـريقُنـا، واغْتَـدَى يَـروقُـنـا عُـودٌ وَمِـزْمـارُ
فَـطُفْ[7] بِها حَمـراءَ مَشْمـولَـةٍ كَـالنَّـارِ عُقْبى شُـرْبِهـا النَّـارُ

(١) الديارات ص ٥١، ٦٣، ٦٩، ١٧٢

(٢) انظر دراسات مفصلة عنه في: تطور الخمريات ص ١٩٠، اتجاهات الشعر ص ٤٩٧، جحظة البرمكي ص ١٩

(٣) كان يقع بالجانب الغربي من بغداد بالموضع المعروف بباب الحديد. الديارات ص ٢٤

(٤) يوهيه: يثقله.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢ ـ ٥٣

(٦) بالاصل: الغمر بالغين المعجمة، والصواب ما اثبته، والعمر: البيعة والكنيسة.

(٧) فطف: بالاصل بالقاف: قطف، تصحيف.

ذاتِ نَسيمٍ أرجٍ نَشْرُهُ يَغارُ مِنْ نَفْحَتِهِ الغَارُ[1]
لَهَا اذا أظلَمَ جُنْحُ الدُّجَى في الكاسِ أضْواءٌ وأنْوارُ
يُكَفِّرُ الشَّرْبُ لَهَا ما بَدَتْ تُنْجلَى كَأنَّ القَومَ كُفّارُ
في سُحْرَةٍ أرْشَفَني مِثْلَها مِنْ رِيقهِ أهْيَفُ سَحّارُ
بَدْرُ دُجَىً يُزْدي بِشَمْسِ الضُّحى مَطْلَعُهُ جِيْدٌ وَأزْرارُ
قَدْ شَدَّ فوقَ الخَصْرِ زُنّارَهُ والخَصْرُ في الدِّقَّةِ زُنّارُ

... الخ[2].

ان مقطوعة ابن التعاوذي وأبيات الابله ليستا من شعر الديارات القديم الا على سبيل المجاز، لان شعر الدير لا بد فيه من اجتماع ثلاثة عناصر هي: الغزل بالمذكر، والخمر، ووصف الطبيعة المحيطة بالدير[3]. وليس في نص ابن التعاويذي سوى الغزل بالمذكر، ونص الابله كان التركيز فيه قد انصب على الخمر. اضف الى ذلك ان افتتاح قصائد المدح بوصف الدير والخمر التي فيه، لم يعرف قبل القرن السادس فيما اظن، لان المعروف ان ادب الدير مستقل عن المدح تماما.

وهذا الذي اصاب شعر الديارات امتد الى بقية الفنون الخمرية، حتى ان اكبر شعراء القرن السادس وهو سبط بن التعاوذي، لم تذكر الخمر في ديوانه الا بضع مرات، تعد عدا، مع ان الرجل شِرِّيب خمر، وصاحب لهو، وليال حمراء[4]. وقد ابعدت الخمر تقريبا عن ديوان ابن المعلم الواسطي في اكثر من ثلاث من نسخ الديوان التي اطلعت عليها، سواء في مقدمات المدائح ـ وهو من شعراء المدح الكبار ـ ام في قصائد الخمر الذاتية المستقلة عن المدح مع العلم ان الشاعر كان من عشاق بنت الحان واخدانها[5]. وقد مر قبل صفحات ان ديوان الحيص بيص ـ بالشكل المتوفر منه حاليا ـ هو الآخر لا يكاد يذكر الخمر الا في الندرة.

وهكذا يحق لنا أن نتساءل عن أسباب قلة هذا الفن الشعري العريق في القرن السادس؟

وللاجابة عن هذا السؤال لا بد من ملاحظة ما يلي:

١ ـ ان الاقبال على مجالس الشراب، والحرص على توفير ما تحتاجه من خمر جيدة

---

(١) الغار: شجر طيب الرائحة، كانوا يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين.
(٢) ديوان الابله و ١١، وانظر أيضا الخريدة ٢/٢٤٣
(٣) تطور الخمريات ص ١٩٥
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨، ٢٣٠، ٣٩٩
(٥) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١، ٤٦، ٤٥

وآلات لشراب ذات صفات خاصة، وسقاة مدربين على هذا العمل، وندامى من النوع الذي يروق الشاربين. كل ذلك وغيره كصنوف الرياحين والازهار التي لا بد ان تكثر في مكان الشرب، ووجود المغنين او المغنيات الذين لا يطيب الشرب الا على اصواتهم[1]. ان هذه المجالس - وهي التي يصورها الشعراء في قصائدهم عادة - لا بد أن تنهض بها - بسبب تكاليفها الباهظة - الطبقة العليا من المجتمع، فهل كانت الطبقة العليا في الفترة التي ادرسها تملك من المال والوقت والاستعداد النفسي ما يساعدها على احياء سنة الآباء والاجداد، وخاصة المتوكل وابنه المعتز وحفيده عبد الله[2]؟

٢ - هل كانت الزراعة في العراق، ومنها زراعة الكروم بالذات، وكذلك نباتات الزينة الدائمة الخضرة، وزراعة البساتين والحدائق التي لا بد منها لتشجيع قيام الحانات واماكن اللهو والشرب. اقول هل كانت الخضرة والمزارع هي السائدة في القرن السادس أم ان الاراضي الجرداء القاحلة هي الاوسع والاكثر انتشارا؟.

٣ - من المعروف ان بيع الخمور والارتزاق منها وادارة حاناتها، من الاعمال التي يمارسها غير المسلمين كالمسيحيين واليهود والمجوس، فهل كان هؤلاء في وضع يشجع على ازدهار تجارة الخمر؟ وهل كان عددهم في ازدياد أم في تناقص؟

٤ - ان خريدة العماد الاصفهاني، والكتب التي نقلت منها واشهرها وفيات الاعيان، وفوات الوفيات، والوافي بالوفيات، ومعجم الادباء وكذلك دواوين الشعر التي وصلتنا، هذه المصادر هل ادت دورها تاما في ايصال تراث القرن السادس الينا؟ وهل شخصية العماد الكاتب - كما تصورها نماذج الخريدة في النصوص واسماء الاعلام - من الشخصيات التي يمكن الوثوق بها في موضوع كالخمر؟

فاذا انتقلنا من هذه الملاحظات السريعة، والاسئلة العامة، الى التفاصيل والحقائق المؤكدة بالادلة والبراهين، فسوف نجد: بخصوص الملاحظتين الاولى والثانية، ان الدول والممالك كالافراد لها أعمار، ولها فترات قوة وضعف تشبه مراحل العمر المختلفة عند الانسان، فليس من المعقول ان تكون الدولة العباسية في اواخر القرن السادس واوائل السابع، من حيث سعة الرفعة وكثرة الموارد ووفرة الغلات والحاصلات، هي ذات الدولة التي كانت ايام الفتوة والشباب في القرن الثاني او الثالث، بل وحتى القرن الرابع. لقد بدأت معاول السنين تفعل فعلها وتترك آثارها على جسم الدولة واعضائها المهمة،

---

(١) جحظة البرمكي ص ٢٧، ١٣٥ - ١٣٨

(٢) الديارات ص ٧، ١٥٠ - ١٥٦، ١٦٦ - ١٧٠، معجم البلدان: المَطِيْرَة.

فتقلصت رقعتها، وانحسرت سيطرتها عن كثير من الممالك والدول التي كانت في يوم ما تابعة لها، ولو بالاسم دون الحقيقة، بل ان ضعف الدولة العباسية بلغ حدا لا يكاد يصدق، ! حتى وجدنا بعض المدن العراقية ذاتها لم تكن تابعة لخليفة بغداد في النصف الثاني من القرن السادس، ومن هذه المدن تكريت وداقوقا(١).

وقد يقال ان الناصر لدين الله استطاع أن يعيد للدولة العباسية هيبتها وقوتها وهو امر اختلف حوله المؤرخون ـ كما اشرت في الفصل الاول من هذه الرسالة ـ ومع افتراض صحة هذا القول، فان اعادة الدولة من عصر الشيخوخة الى عز الشباب او الى قوة الكهولة وتماسكها، يكاد يكون مستحيلا، والدليل على ذلك هو سقوط الدولة العباسية السريع والمفاجيء على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ.

ان العراق بلد زراعي يعتمد رخاء سكانه على الزراعة بالدرجة الاولى والزراعة لا بد لازدهارها من شبكة ارواء منظمة تخضع باستمرار للعناية والصيانة ولا بد للفلاحين من استقرار يستطيعون في ظله ادامة الانتاج والاكثار منه. فاذا علمنا ان الحروب لم تكد تتوقف في الفترة التي ادرسها(٢)، ادركنا ما اصاب الزراعة وشبكات الري والفلاحين من اضرار فادحة.

ان قرية بنارق ـ مثلا ـ الواقعة على طريق خراسان بين النُعمانية وبغداد كانت خرابا في اوائل القرن السابع ـ كما يقول ياقوت ـ وكان السبب في خرابها مداومة العساكر السلجوقية على المرور عليها ونزولهم فيها(٣). وجيش السلاجقة هذا خرب (٢٧٠) دولابا في الجانب الغربي من بغداد عند حصاره للمدينة سنة ٥٥٢(٤) هـ

وكان من اثر اهمال مشاريع الري، بسبب الانشغال بالحروب، ان انهار سد العظيم حوالي القرن السادس الهجري(٥)، وتحول مجرى دجلة بين بغداد وسامراء الى مجراه الشرقي الحالي في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي، فأدى ذلك الى خراب كثير من الاراضي، ومنها مدينة عُكْبَرا فقد زالت بزيال دجلة(٦)، وفي معجم البلدان: «ان النهروان وانهارا كثيرة فسدت ولم تتفرغ الملوك لاصلاحها الى الآن..» وكان ذلك في حدود سنة ٥٤٥ هـ(٧).

وربما يقال هنا بأنه الى جانب هذه المظاهر السلبية، وجدت طائفة من الاصلاحات ومنها القنطرة التي اقامها الخليفة المستنصر على نهر دُجَيْل عند مدينة حَرْبَي سنة ٦٢٩ هـ(٨).

---

(١) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.
(٢) انظر الفصل الاول من هذه الرسالة: الحياة السياسية.
(٣) معجم البلدان: بنارق.
(٤) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣٣٩
(٥) نفسه ص ٣٤٥
(٦) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣
(٧) معجم البلدان: بنارق.
(٨) دليل خارطة بغداد ص ١٨٣

ولكن هذا التاريخ متأخر عن الفترة التي ادرسها بضع سنوات.

وبسبب وفرة المعلومات عن بغداد في عصرها المتأخر قياسا الى المدن العراقية الاخرى، يمكن ادراك ما اصاب المدن الاخرى قياسا اليها، على الرغم من عناية السلطات في العادة بالعاصمة اكثر من سواها.

ان بغداد في أواخر العصر العباسي تغيرت كثيرا عما كانت عليه في فترة قوة العباسيين وقمة رخائهم وسعة سلطانهم، لقد صغرت مساحة المدينة اولا، حتى ان ابن جبير حين زارها في اواخر القرن السادس قال: «ان الجانب الشرقي من المدينة هو الجانب العامر، اما الجانب الغربي فقد عمه الخراب، واستولى عليه»[1]. ولم يمض زمن طويل على انتهاء الدور السلجوقي حتى تهدمت اكثر المحلات الشمالية القديمة في بغداد الشرقية، عدا الربض الخارجي الذي يحيط بمشهد ابي حنيفة، وجامع الرصافة الشهير، وتهدمت اكثر المحلات والعمارات في الجانب الغربي من المدينة بحيث اصبح جامع المنصور في جانب باب البصرة بعد ان كان وسط العمارة، وقد تهدمت ايضا قصور بني بويه والسلاجقة، ثم ازال ما بقي منها الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٣ هـ وأمر بتسويته مع سطح الارض[2].

وفي بغداد محلة تعرف باسم «باب المَراتِب» كان يسكنها الاغنياء وكبار الشخصيات من ذوي المناصب، وقد خربت هذه المحلة في ايام ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وكانت بقاياها في طرف من البلد بعيد، وقد حاول اهلها بيع انقاض دورهم بعد هدمها فلم يرغب احد في شرائها[3].

وعلى ضوء ما تقدم اظن ان المرء يستطيع ان يتصور الحالة العامة للدولة العباسية في اواخر الفترة التي ادرسها، وهي صورة لا تدل على غنى او ترف ولا تشجع الا على حياة الكفاف.

اما الموقف من اهل الذمة، وهم الذين يرتزق قسم منهم من الاتجار بالخمور، فان بعض المصادر التاريخية تشير الى ان اهل الذمة كان من بينهم ذوو النفوذ في دار الخلافة ذاتها كالطبيب هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ[4]، كذلك تدل اخبار اخرى على ان بعض القيود قد رفعت عن اهل الذمة ومنها ازالة الغيار[5] عنهم سنة ٤٩٨ هـ[6].

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١١ (ط. دار مصر للطباعة).
(٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٧
(٣) معجم البلدان: باب المراتب.
(٤) وفيات الاعيان ٥/ ١١٩، وانظر الفصل الثاني (شعر العلماء).
(٥) كان علامة لأهل الذمة كالزنار للمجوس. (٦) المنتظم ٩/ ١٤٣

ولكن الاخبار الاخرى ـ وهي الاكثر ـ تدل على ان اهل الذمة كانوا مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة[١] ـ كما يقال بلغة اليوم ـ. وعلى الرغم من صعوبة الجزم في مسألة مثل هذه، بسبب شحة المصادر والمعلومات المتوفرة، فان بوسع المرء ان يتصور الحالة التي كان عليها اهل الذمة في فترة ساد فيها المذهب الحنبلي في العراق[٢] من ناحية، وكانت الحروب الصليبية فيها لما تزل مشتعلة تثير العالم الاسلامي كله على المسيحية والمسيحيين من ناحية اخرى.

بقيت الملاحظة الاخيرة المتعلقة بالمصادر وأهمها الخريدة ودواوين شعراء الفترة، وهي من العوامل المساعدة في شحة شعر الخمر.

اما الخريدة فيمكن اجمال اثرها بما يلي:

١ ـ ان التقوى والصلاح والاستقامة هي الصفات التي تغلب على رجال الطبقة العليا من المجتمع العباسي، كما صور العماد حياتهم في خريدته، ومن هؤلاء الخلفاء والوزراء وابناؤهم وكبار الشخصيات في دار الخلافة[٣]، ولست اشك في اقوال العماد من هذه الناحية، لانه قد عرف القوم عن كثب وعاشرهم وجالسهم سنين طوالا، ولم تنقطع صلته ببعضهم حتى بعد ان ترك العراق الى الشام[٤]، ولكن ما يعاتب عليه صاحب الخريدة هو انه اقتصر على تصوير ناحية واحدة عرف بها علية القوم هؤلاء، فلم يحاول ان يدس قلمه في الجوانب اللاهية المرحة البعيدة عن الانظار من حياة هؤلاء، فلم يتطرق الى مجالس الشراب والمنادمة، ولا عرج على اوقات اللهو واطراح الحشمة والوقار، وهذه جوانب عودنا اسلاف هؤلاء انهم كانوا فيها من السابقين المبرزين[٥]. وليس في الخريدة ولا في سواها ما يدل على ان الجانب اللاهي من حياة الكبار قد تولى وأزيح جانبا، لان ذلك يخالف المألوف المعروف من منطق هذه الدنيا.

وقد اعترف العماد نفسه ـ ربما دون قصد منه ـ بان اوقاته ببغداد لم تكن كلها جدا ووقارا، حين قال من قصيدة ارسلها من الشام الى عماد الدين ابن الوزير عضد الدين:

فَلَيالي العِراقِ بِيْضٌ مِنَ البِيْـ ... ـضِ غَوانٍ مِنَ الغَواني غَوانِمْ
وزَماني مُساعِدٌ وَرفيقي ... في الهَوى مُسْعِدٌ وَدَهري مُسالِمْ

---

(١) مرآة الزمان: ٨/ ٣٧٨، وفيات الاعيان ٤/ ٤٢٤، تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ١٥١
(٢) تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٤٣٤
(٣) الخريدة ١/ ٩٧، ١٠١، ١٤١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٧
(٤) نفسه ١/ ١٦٨
(٥) الديارات ص ١٠٩، ٣٤، ٦٣، حلبة الكميت ص ٧٥، ٨٣، ٩٩

ومُنـادي المُنى مُجـاوِبُـهُ الإسْـ ـعـافُ والسُّؤالُ للنَّجاحِ مُنـادِمْ
ومِنَ الأكـرَمِيـنَ كـلُّ نَـديمٍ لَسْتُ مِنْ قُرْبِهِ مَدى الدَّهـرِ نادِمْ
مـا فَقَـدْنـا السُّـرورَ إلاّ هَـدانـا[1] كـلُّ هـادٍ لِمـا بَنى الهَمُّ هـادِمْ
وَمَبِيتي مـا بَينَ كـأسٍ وَثَـغْـرٍ راشِفـاً مِنْهمـا متى شِئْتُ لاثِمْ
وَرْدُ خَـدٍّ نَـدٍ وَغُـصْـنُ قَـوَامٍ ذا جَـنـيٌّ غَضٌّ وذلـكَ نـاعِـمْ
فَـأنـا اليـومَ بـالشَّـآمِ وَجِيـدٌ لِسَنـا البـارِقِ العِـراقـيِّ شـائمْ
. . . الخ[2].

٢ ـ وهناك طبقة اخرى من كبار الشخصيات ذوي النفوذ، لم يصفهم العماد بالتقوى والدين ـ كما فعل مع سابقيهم ـ بل بالعكس لمح الى جوانب من حياتهم لا تدل على التمسك بتعاليم الدين، اوعلى الاقل انهم لا ينظرون الى الدين كما ينظر اليه المتدينون المتزمتون، ومن هنا يعاتب صاحب الخريدة ايضا لأنه ترك جوانب من صور الحياة في القرن السادس، مبتورة ناقصة، ومن المرجح انه كان يستطيع ان يضيف الى النصوص التي اوردها اخبارا او نصوصا اخرى، هي اجدى على الادب واهله من تلك الصفحات العديدة التي سودها في اثبات شعر طائفة من الشعراء مدحوه شخصيا من باب التزلف والتملق والرياء[3].

ومن تلك النصوص والاخبار التي وددت لو توسع فيها قلم العماد قوله ـ ما معناه ـ: ان شاعرا ـ يسميه ابن الرّيفيّة ـ كان من رؤ ساء الراذان[4]، قعد به الزمان وحاربه الحدثان، فقصد الامير دبيس بن صدقة بن منصور، وكان لا يهب الا وقت سكره، فأنشده قصيدة منها:

فَلَمْ يَبقَ، يا تاجَ المُلوكِ، وَسيلةٌ يَمُتُّ بهـا ذو حـاجَـةٍ وهـو مُضْطَرُّ
سِوى الخَمْرِ أنْ أضْحى لَديْكَ مَنارُها فَواسَوْأتا إنْ قيلَ: شـافِعُهُ الخمـرُ
وَحاشَا وَكلاًّ أنْ يُقالَ: ابنُ مَـزْيَدٍ كـريمٌ اذا ما هَزَّ أعطافَهُ السُّكْرُ[5]

ان العماد ترجم للامير المزيدي في خريدته[6]، ولكنه لم يشر الى موضوع الصلة بين

---

(١) بالاصل: بكسر الهاء وتنوين الاخر (كما يقول محقق الخريدة)، وهو سهو من الناسخ على الارجح لان الفعل ماض اتصل به ضمير المفعول بدليل «كل هاد.. هادم» في العجز.
(٢) الخريدة ١/ ١٦٩ ـ ١٧٠
(٣) الخريدة ٤/ ٧٦٥ ـ ٧٧٤، ٤٥٧ ـ ٤٦٥
(٤) منطقة من سواد بغداد، وراذان أيضا قرية بنواحي المدينة (معجم البلدان ٤/ ٢٠٤).
(٥) الخريدة ٤/ ١٠٧ ـ ١٠٨ (٦) الخريدة ٤/ ١٧٠

سكره وكرمه. وقد تكون للامراء المزيديين اوغيرهم كآل ابي الجبر مثلا نواح تهم الباحث في ادب هذه الفترة، ولكن العماد طواها عن الباحثين، وهذا الذي حدث في اخبار الامير المزيدي، حدث مثله للشريف ابي هاشم اسماعيل بن المؤمل بن الحسين العباسي الرشيدي الواسطي، وصفه العماد بأنه: «من بيت الخطابة والنقابة بـواسط..» ثم اختار من شعره، وهو اكثر من ستة آلاف بيت ـ كما يقول العماد ـ قوله:

مَضَى الودُّ، والأيَامُ ما سَمَحتْ لنا بِشُرْبِ مُدامٍ او بِقُرْبِ نَدِيمِ
ونحن عِطاشٌ، والمَواردُ جَمَّةٌ يُوطِّدُها قومٌ لِكُلِّ لَئيمِ
على الرَّاحِ والأقْداحِ مِنِّي تَحِيَّةٌ الى أنْ أراها في بَنانِ كَرِيمِ(١)

والابيات ـ وخاصة الاول والثالث كما قال العماد ـ لا نظير لها، وهي تدل على ان هذا الشريف ذو طبيعة او قابلية مواتية في شعر الخمر، وربما كان في اثبات قطع اخرى له ـ لا سيما وقد نص العماد انه رأى شعره كله في مجلدة ـ فائدة للناحية التي اشكو من قلة النصوص عنها.

اما دواوين الشعراء، فقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة(٢) الى ان الضائع المفقود منها يفوق كثيرا المتيسر المعثور عليه، سواء أكان مطبوعا مثل ديوان ابن التعاويذي وقسم من ديوان الحيص بيص، ام مخطوطا مثل ديوان ابن المعلم وديوان الابله البغدادي.

وهذه الدواوين، وخاصة المخطوط منها، لا يمكن الوثوق الى انها تجمع جميع شعر الشعراء من اصحابها، بسبب الاختلاف بين النسخ المتوفرة، ولذلك يفترض ان قسما من شعر الخمر ربما غاب عنا بسبب نسخة او اكثر لا تزال مجهولة وخاصة فيما يتعلق بديوان ابن المعلم وكذلك ديوان الابله. فليس من المعقول ان يدل ديوان ابن المعلم ـ عن طريق مقدمات القصائد ـ بان الشاعر كان يشرب الخمر، وفي الوقت نفسه ليس في الديوان من شعر الخمر سوى بيتين، جاء في تقديمهما ما نصه: «وقال ايضا، وهو في مجلس الشراب، وقد اخذ السكر منهم، فكشفوا رؤوسهم:

ومَعاشرٍ رَضَعوا المُدامَ، فأصبَحَتْ تحكي(٣) خَلائقَهمْ حَبابُ مُدامِ
كَشَفوا الرؤوسَ، فأقْشَعتْ مِنْ فوقِها سُحبُ العَمائِمِ عَنْ بُدورِ(٤) تَمامِ

اما الابله، فان نسخة ديوانه التي عندي، وهي من اجود النسخ واكبرها(٥)، تدل على

(١) الخريدة ٤/٤٠٥
(٢) الفصل الثالث ص ١٤٢ ـ ١٤٣
(٣) كذا بالاصل باهمال نقط الحروف.
(٤) ديوان ابن المعلم (نسخة دار الكتب) و ٩١
(٥) اخبرني بذلك صاحبها المرحوم الاستاذ عبد الكريم الدجيلي.

ان هذا الشاعر من اكثر شعراء الفترة ولعا وشغفا بافتتاح مدائحه بالخمر[1]، ولكن نسخة الديوان هذه خلت خلوا تاما من اية قصيدة او مقطوعة خمرية مستقلة عن المدح، وهو امر لا اراه معقولا ، فلا بد ان الشاعر كانت له سكرات خاصة مع اصدقائه واخوانه، ولكن الديوان خلا من ذكرها لسبب لا نعرفه. وليس في سيرة الشاعر واخباره ما يحمل الباحث على الافتراض انه كان مضطرا على افتتاح طائفة من مدائحه بذكر الخمر، لا سيما وقد دلت هذه الخمريات على ان الرجل خِمِّير من الطراز الأول.

وبعد هذا العرض الموجز لظروف العراق في القرن السادس، وخاصة ما يتصل منها بالجانب المترف اللاهي ذي الصلة الوثيقة بشعر الخمر، وكذلك بعد ايضاح دور المصادر المتوفرة في هذا الموضوع، اقول بعد هذا كله يمكن ان تكون الاجابة عن السؤال المتقدم : هل من جديد في شعر الخمر؟ اكثر سهولة لان القارىء اصبح على معرفة بالظروف المحيطة بفن الشعر الخمري في هذه الفترة مقارنة بما كان عليه الامر في عصور الأدب العباسي المتقدمة.

وبناء على ما تقدم لا بد من الحذر والوقوف الطويل الدقيق امام النصوص التي تلوح للباحث من خلال معانيها او صورها او اسلوبها بارقة جدة، وسيماء حداثة غير مطروقة من قبل، لان شعراء القرن السادس - في شعرهم الخمري بالذات - لم يكونوا في وضع يمكنهم من التجديد والابتكار، ومع ذلك بدت لي بعض ابيات لم استطع ارجاعها الى اصول قديمة فهي من مبتكرات هذه الفترة الى ان يثبت العكس، وكذلك تصرف الشعراء في اساليب القصائد التي يذكر فيها الخمر - وخاصة من ناحية مقدمة القصيدة وخاتمتها - فبدت بعض القصائد بشكلها الجديد مبتكرة، يمكن ان تضاف الى تراث القرن السادس.

فعلى سبيل المثال، قال الابله متغزلا :

لاثِماً مِنْ خَدِّهِ الوَرْ ... دَ ومِنْ فِيهِ الأقاحِي

مازِجاً مِنْهُ رُضاباً ... يُسْكِرُ الرَّاحَ بِراحِ[2]

ان معنى هذا البيت الثاني، وهو ان رضاب الحبيب كالخمر، ولكنها خمر جديدة غير مألوفة، لانها لا تسكر الانسان بل تسكر الخمرة نفسها. وهو نوع من المبالغة فيه طرافة وفيه تشخيص للخمر، فصارت كالبشر يمكن أن تشرب وأن تسكر. والتشخيص او التجسيم من معاني الخمر معروف مطروق - كما اشرت قبل صفحات - ولكن الراح التي تسكر الراح من المعاني الجديدة.

---

(١) ديوان الابله و ٤٦، ٥٩، ٦١، ٧٠، ٧٧، ٧٩ ...

(٢) ديوان الابله و ١٦١

ويبدو ان الابله قد اعجبه هذا المعنى الجديد فكرره في مطلع قصيدة مدح، بعد أن تصرف فيه قليلا، فقال:

باكَرَ يَجْلو مُدامةً بِكْرا   مُعيرُها مِنْ لِحاظِهِ السُّكْرا[1]

ان الخمر هنا ـ كما كانت في البيت السابق ـ هي الشخص الذي يسكر، ولكن المسكر في هذا البيت هو لحاظ الساقي، التي صارت ـ لفرط سحرها وشدة اثرها ـ تعير السكر للخمرة، وهي اصل السكر ومصدره، وقد الم ابن التعاويذي بهذا المعنى حين قال:

والكأسُ قَدْ أعْداهُ سُكْـ   ـرٌ مِنْ لَواحِظِ حامِلِهْ[2]

وقد الف شعراء الخمر، وفي طليعتهم ابو نواس، ان يصفوا نداماهم اي الافراد الذين اعتادوا أن يشربوا معهم بكرم الاصل وحسن الخلق[3]، ومن المشهور قول طَرَفَة ابن العبد: نَداماي بِيضٌ كالنّجوم..

وفي القرن السادس بالغ الابله البغدادي في صفة هؤلاء الندامى وحسن خلقهم فقال:

نَفَرٌ لَو أنَّهمْ مِنْ لُطْفِهِمْ   نادمُوا ظَبْيَ فَلاةٍ ما نَفَرْ[4]

ان المعنى ليس جديدا ـ كما اسلفت ـ ولكن طريقة العرض او التصوير المبالغ فيها هي الجديدة.

ومن الطريف ان شعراء القرن السادس، وهم يحاولون العثور على معان غير مطروقة للخمر، لم يتوروعوا حتى ان يستفيدوا من الدين في هذا الموضوع، رغم البعد الكبير بل التناقض بين الدين والخمر، وهو تناقض اكسب الصور والتعابير جدة وطرافة، قد يغضب لها رجال الدين، ولكن الشاعر الفنان تهمه اللقطة المبتكرة، وكل ما سواها هين يسير، قال ابن التعاويذي:

ونادِ في نَدْمانِها حَيَّ على الفَلاحِ[5]

وكرره فقال:

---

(١) نفسه و ١٤٨
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٩
(٣) تطور الخمريات ص ٢٠١ ـ ٢٠٢
(٤) ديوان الابله و ٤٦
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦.

قُمْ يا نَديمُ فنادِ في الـنـ   نَدْمانِ حَيَّ على الفَلاحِ [1]

وواضح ان «حي على الفلاح» ليس مكانها بعد الندمان او النديم ابدا، وان الشاعر قد تجاوز حدود الظرف فاستعمل نداء المؤذن للصلاة بالمساجد استعمالا غير لائق ومن الدين ايضا اخذ ابن التعاويذي قوله في خمرية اخرى:

وَدَعْني، وبالصَّلاةَ اذا تَدَانَتْ   فَلَيسَ على خَرابٍ مِنْ خَراجِ [2]

فقد شبه الصلاة بالخراج الذي فرضه الاسلام على الاراضي الزراعية، وشبه نفسه بالارض الخراب او البُور وهي التي لا خراج عليها، وبين التشبيهين اسقط عن نفسه فرض الصلاة.

ومن الصور التي اختلط فيها الدين بالخمر، قصيدة للحسين بن شبيب الطِّيبي نديم الخليفة المستنجد بالله، قال العماد الكاتب انه «يستطرد فيها بمؤذن يعرف بـ عَبّاس جهير الصوت، كان يصل صوته إلى أقاصي المحال ببغداد وقت الصباح:

وَشَى بالصُّبْحِ عَبّاسُ   وَثوبُ الّليلِ أدراسُ [3]

ومنها:

وَقَدْ مَجَّ فَمُ الإبريـ   ـقِ مِمّا قَهْقَهَ الكاسُ

ويقول في آخرها:

فَما أطْيَبَ لَيلَ الوَصْـ   ـلِ لَوْ يَخْرَسُ عَبّاسُ [4]

ومن اختلاط الدين بالخمر قول البارع:

كُفِّي عَنِ العَذْلِ كُفِّي   خَلَّفتُ رُشْدِيَ خَلْفي
مِنْ بَعدِ حَجّي ونُسْكي   عاوَدْتُ لَهوي وَقَصْفي
فَحجَّتِ الكاسُ ثَغْري   على مَطِيَّةِ كَفِّي

قال في آخرها:

---

(١) نفسه ص ٨٩
(٢) نفسه ص ٧٧
(٣) ثوب الليل أدراس: أي وقد كاد الليل ينقضي، ادراس واحدها دِرْس: الثوب البالي.
(٤) الخريدة ١/ ١٨٨

هاتِ اسْقِنيها وَدَعْني يَلومُني كُلُّ جِلْفِ[1]
إنْ كنتَ تُبْتَ، فإنّي مِنْ تَوْبَتي مُسْتَعفي
لِيَهْنَ إبليسُ أنّي صَبَوْتُ مِنْ بَعدِ عَزْفِ[2]

وليس من المستعبد ان يتعمد بعض الشعراء اقحام الدين في شعر الخمر للتعبير عن شعورهم بالاثم من ناحية، وتمردهم على تعاليم الدين من ناحية اخرى، وهكذا تعبر الخمريات عن صراع بين روح الفنان المرهفة التي تساعدها الخمر على الوقوف والصمود في هذا العالم القاسي الذي لا يرحم، وفي الوقت نفسه تثير الخمرة حقيقة يحاول الشاعر تجاهلها وهي ان الخمر حرام وانمها اكبر من نفعها. تأمل - مثلا - قول العلاء بن علي السوادي الواسطي:

الصَّبوحَ الصَّبوحَ في شَعْبانِ لا تُخِلّوا بهِ مَعَ الإمكانِ
طَمْئِنوا بالمُدامِ جَأشَ نُفوسٍ روِّعتْ بالصِّيامِ في رَمَضانِ
إدْهَقُوها[3] بالطّاسِ والكاسِ حَتّى لا يُحَقّ الصّاحي مِنَ السَّكْرانِ

ومنها:

واسْقِنيها مِنْ بَعْدِ تِسْعٍ وَعِشْريـ نَ صَباحاً خَلَوْنَ مِنْ شَعْبانِ
واسقينها يومَ الثّلاثينَ في الشَّكْ وَبعْدَ السُّحورِ قَبْلَ الأذانِ
وارصُدِ الوقْتَ لا تُفرِّط في سُكْـ ـري حتّى يُبيَّنَ الخَيطانِ
وأقِمْني الى الصَّلاةِ ولا تُسْـ ـرِفْ في يَقْظَةِ الفَتى الوَسْنانِ
أتصدّى لَها، واسْعَى الى المَسْـ ـجدِ جَهْدي إنْ كانَ لي رُكْبتانِ
... الخ[4].

ان قصيدة ابن السَّوادِي هذه تمثل ضربا فريدا وجديدا من قصائد الخمر لان الشاعر، وقد بدأها بالخمر، يختمها بالدين قائلا:

نِيّتي غيرُ ما سَمِعْتَ وما كا نَ لِساني عَنْ نِيَّتي تُرْجُماني
وَيحَ نَفْسي إنْ لم يكنْ لي وَلاءٌ كانَ مِنّي في طاعةِ الرَّحمنِ

---

(١) جلف: احمق.
(٢) الخريدة/ نسخة ايران ٢٣٤، عَزْف: توبة وإعراض.
(٣) ادهق: اعجل.
(٤) الخريدة ٤/ ٣٧٦ - ٣٧٧

فَعِمـادِي وعُـدَّتي فـي مَـعـادي عِنْـدَ حَشْري إذا جَثـا الخَصْمـانِ
يـومَ عَـرْضِـي مُـحـمَّـدٌ وعـليٌّ والـبَـتُـولُ الـزَّهـراءُ والـحَـسَـنـانِ
. . . الخ[1].

ان المشهور في قصائد الخمر نوعان: الاول ان تكون الخمر بداية القصيدة ومنها ينتقل الى المدح. والثاني ان تكون القصيدة كلها من الخمريات. وقد عرف الضربان في خمريات القرن السادس ـ كما سيأتي ـ وقصيدة العلاء ليست قصيدة مدح، كما انها ليست مقصورة على الخمر وحده، لانها ختمت بالدين كما رأينا فهل تعمد الشاعر الجمع بين الضدين؟ ولماذا؟

ولابن التعاويذي قصيدة تشبه هذه من ناحية الخروج على الاسلوب المعروف في قصائد الخمر، سوى ان ابن التعاويذي بدأ قصيدته بالمدح وختمها بالخمر وهو عكس الاسلوب المعروف في افتتاح المدائح بالخمر واختتامها بالمدح، وهو اسلوب اتبعه شاعر القرن السادس لان الممدوح من اصدقائه المقربين، على ما أظن.

كتب ابن التعاويذي لابي عليّ[2] بن الحسن بن الدَّوامي وقد قدم من سفره بعد مدة اطال فيها وكانت بينهما مودة:

لا أوْحشَ اللهُ مِـمَّـنْ بهِ يَـتِـمُّ الـسُّـرورُ
ومَـنْ مُـرادُ ذَوي الـفَـضْـ ـلِ رَبْـعُـهُ الـمَـعْـمـورُ
وَمَـنْ تَـخِـفُّ حُـلومُ الـرْ رجـالِ وهـوَ وَقُـورُ
وَمَـنْ أنـامِـلُ كَـفَّـيْـ ـهِ بـالـعَـطايا بُـحـورُ
وَمَـنْ سَـجـايـاهُ مِـسْـكٌ مِـنْ طِـيـبِـهـا وَعَـبـيـرُ

وبعد نهاية هذا المديح، ينتقل الشاعر الى الخمر فيقول ـ مخاطبا الممدوح ـ

فـانـهَضْ لأمْـري، فـإنِّـي عـلى الـنَّـدامَـى أمـيـرُ
وعـاطِـنـيـهـا كُـؤوسـاً عـلى الـكَـريـمِ تَـجـورُ
مِـثْـلَ الـنُّـجـومِ، ولـكـنْ فـي الـشَّـارِبـيـنَ تَـغـورُ
يَـزيـدُهـنَّ خَـبـالاً مِنْ مُـقـلَـتَـيـهِ الـمُـديـرُ

(١) الخريدة ٤/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨

(٢) انظر: الفصل الرابع ص ٢٧٢ هامش ٢

مِنْ بِنْتِ مِعْصَرَةٍ قَدْ أتتْ عَليها العُصورُ
حَمراءَ في الكأسِ مِنْها نارٌ وفي البَيتِ نُورُ
. . . الخ [١]

ضربا الشعر الخمري:

ان اكثرية شعر الخمر في القرن السادس، يمكن ان تقسم الى قسمين:

١ ـ شعر الخمر في مقدمات المدائح، وهو اكبر القسمين وأهمهما، ومن البديهي ان كبار شعراء المدح، وخاصة الابله وابن التعاويذي، كانا في طليعة شعراء الخمر بهذا المفهوم.

٢ ـ خمريات مستقلة عن المدح، ويعد ابن التعاويذي وبعض شعراء البصرة[٢] من فرسان هذه الحلبة. وهذا القسم الثاني صغير لا يعتد به اذا ما قورن بالقسم الاول.

وهناك ضرب ثالث غفل لا يمكن القطع حول انتمائه الى اي من القسمين السابقين، وهو عمل يحمل تبعته الادباء والمؤرخون الذين اولعوا بالمختارات والمقاطع المبتورة من شعر الشعراء، وفي مقدمتهم عماد الدين الاصفهاني، فقد اورد للكامل ابي عبد الله الحُسين بن ابي الفَوارس[٣] قوله:

صَبا الى اللَّهوِ في هُبوبِ صَبا[٤] وقالَ: قُمْ، فالصَّبوحُ قَدْ وَجَبا
ها أنجُمُ الصُّبحِ مِنْ مَخافَتِها مِيلٌ الى الغَرْبِ تَطلُبُ الهَرَبا
وأدْهَمُ اللّيلِ كلّما حاولَ الـ حُظْوةَ مِنْ أشْهَبِ الصَّباحِ كَبا[٥]
والدّيكُ قَدْ قامَ في مُمزّجةٍ[٦] شَمّرَ أذيالَها، وشدَّ قَبا[٧]
يَصيحُ إمّا على الدُّجى أسَفاً منهُ، وإمّا على الضُّحى طَرَبا[٨]

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦ ـ ١٨٩
(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣، ٤٠٥
(٣) لم يوضح العماد شخصية هذا الشاعر، ولم يذكر سنة وفاته ولا ما يدل عليها على وجه التقريب.
(٤) صبا: الاولى بمعنى مال، والثانية اسم لريح باردة تهب على نجد في الصيف.
(٥) كبا: انكب على وجهه.
(٦) المزجة أو المزوجة واحدة المُزَّج وهو نسيج فيه حرير بذهب، وكان يصنع ببغداد.
(٧) القبا: مقصور القباء: ثوب يلبس فوق الثياب، أو القميص، ويتمنطق به.
(٨) الخريدة ٢/ ١٨٤

وهي ابيات لا ندري: هل هي جزء من قصيدة مدح، ام هي من الخمريات المستقلة، لان العماد لم يضف اليها ما يزيل الابهام. وعلى الرغم من تنبه العماد الى هذه الناحية، بدليل النصوص الكثيرة التي اوضح فيها ان ما ينقله من شعر المدح[١]، او من الخمريات[٢]، فان صاحب الخريدة ربما سها احيانا فترك الباحثين في حيص بيص[٣].

١ ـ مقدمات المدائح:

كما اعتاد الشعراء ان يبدأوا قصائدهم بالغزل، كذلك نجد طائفة من المدائح يتقدمها شعر الخمر. ويعد الابله البغدادي اكثر شعراء القرن السادس استعمالا للمقدمات الخمرية في قصائد المديح.

ولا يوجد سبب واضح يحمل الشاعر على تفضيل المقدمة الخمرية على سواها من المقدمات، ولكن قلة المقدمات الخمرية في القرن السادس ـ قياسا الى مقدمات الغزل مثلا ـ تحمل الباحث على افتراض وجود عوامل ـ ومنها الدين على الارجح ـ كانت وراء هذه القلة. ولعل مما يقوي هذا الافتراض ان وصف الخمر في مقدمات مدائح الخلفاء لا يكاد يذكر، قياسا الى مدح سواهم من رجال الطبقة الحاكمة العباسية[٤].

ان المقدمات الخمرية تكون عادة حديثا عاما عن الخمر دون التركيز على ناحية على حساب النواحي الاخرى: فلا يطنب الشاعر مثلا في وصف الساقي أو الساقية ويمر مسرعا بوصف مكان الشرب او زمانه او صفات الخمر ذاتها، وعندي ان مقدمات ابن التعاويذي من احسن الامثلة على ما اقول:

حُثَّ كُؤوسَ الرَّاحِ ... واشْربْ على الأقاحي
وعاصِ في النَّشْوَةِ ... كلَّ لائمٍ ولاحِ
ونادِ في نَدْمانِها ... حَيَّ على الفَلاحِ
واجْتَلِها قَبْلَ انْجِلا ... ءِ غُرَّةِ الصَّباحِ
مَشْمولَةً[٥] تلْعبُ بالـ ... عُقولِ والأرْواحِ

---

(١) الخريدة ٢/ ٢٤٤، ٢٣٩
(٢) الخريدة ٤/ ٧١٧، ٧١٣
(٣) الخريدة ٢/ ١٦٢، ١٦٣، ١٨٥
(٤) لم اعثر في ٩ قصائد مدح بها الابله خلفاء بني العباس إلا على بيت واحد في الخمر، انظر ديوانه و ٥
(٥) مشمولة: من الشمول، وهي من أسماء الخمر.

تَـكـادُ مِـنْ مِـزاجِـهـا تَـرْقُـصُ فـي الأقْـداحِ

... الخ[1].

ويمكن ادراك الفرق بين مقدمات ابن التعاويذي ومقدمات سواه من شعراء المديح، باستعراض نماذج من شعر زملائه، ومنهم ابن حِكّينا، الذي يقول في اوْل قصيدة مدح بها سديد الدولة ابن الأنباري:

أدِرْهـا مُـدَعْـدَعَةً[2] يـا نَـدِيـمـي بـمـاءِ الـكُـرومِ وبـيـنَ الـكُـرومِ
وكُنْ أرْفَقَ النّـاسِ - تحتَ الـظِّلا مِ - ببَزْلِ [3] الدِّنانِ[4] وَفَضِّ الخُتومِ
الـى أنْ تُـريـكَ طُـلوعَ الـصَّـبا حِ في حَبَبٍ كـانْقِضـاضِ النُّجـومِ
وَوَكِّـلْ مَـصـابيـحَهـا الـزّاهـراتِ بـإحـراقِ شيـطانِ هَمِّي الـرَّجيـمِ
وَخُـذْهـا عـلى أنَّـهـا لُـقْـطَةٌ اذا اشْتَـريتَ بـدخُـولِ الـجَحيـمِ
هـي الـرُّوحُ أو مِثْلُهـا في الـقِيـا سِ مَـخْلوقَـةٌ لِقـوامِ الـجُسـومِ

... الخ[5].

ان الشاعر هنا مغرم بالخمر، ولذلك ظل يدور حولها ويسلط اضواءه على صفاتها فهي رقيقة لا تحتمل الخشونة، ولذلك يوصي النديم ان يكون «ارفق الناس» وهي شديدة التوهج «تريك طلوع الصباح»، اما حبابها فيشبه انقضاض النجوم، وهي رخيصة حتى اذا كان الثمن دخول جهنم. وهذه المبالغة الاخيرة تعيد الى الاذهان ما سبق ان اشرت اليه من تعمد السكارى ادخال الافكار والالفاظ الدينية في خمرياتهم، لانهم يعانون صراعا حادا بين حبهم للخمر وتحريم الدين لها.

اما الابله فيبدو في مقدمات مدائحه هائما بالطبيعة، مفتونا بجمالها، ولذلك يمر بالخمر مسرعا في بيت أو بيتين أو ثلاثة[6]، ولكنه يطيل الوقوف في محراب الطبيعة، كالعابد المتبتل لا يريد مبارحة معبوده، او كالعاشق رأى من يحب فأفلت من يده زمام اعصابه، واخذته الدهشة من كل جانب.

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٦، وانظر أيضا ص ٨٩، ٨٢، ٧١

(٢) مدعدعة: من دعدع الشيء، ملأه.

(٣) البزل: الشق. (٤) الدنان: واحدها الدَّنّ، وهو وعاء ضخم للخمر.

(٥) الخريدة ٢/ ٢٣٩

(٦) ديوان الابله و ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٣٦، ١١١، ١٢١، ١٥٧

ان اجود مقدمات الابله الخمرية ثلاث[1]، سأكتفي هنا بعرض واحدة منها فقط.
قال من قصيدة مدح مطلعها:

يـا مَـنْ تَـورَّدَ مـنـهُ خَـدُّ   واهـتـزَّ هَـزَّ الـغُـصـنِ قَـدُّ

وبعد المقدمة الغزلية قال:

يـا طِـيـبَ يـومٍ مـرَّ لـي   بـنـهـرِ عِـيـسـى[2] لَـوْ يُـرَدُّ
والـزَّهـرُ سَـبْطٌ والـرِّيـا   ضُ أريـضَـةٌ والـمـاءُ جَـعْـدُ[3]
والـطَّلُّ مـنـثـورٌ، وفـي   جِـيـدِ[4] الشَّـقـائقِ مِـنـهُ عِـقْـدُ
ومـعَ الـبَـنـفـسـجِ مـنْ خُـدو   دِ سُـقـاتِـنـا آس وَوَردُ
حـيـثُ الـنَّـسـيـمُ مُـعَـنْـبَـرٌ   وضَـبـابُ ذاكَ الأُفـقِ نَـدُّ[5]
والـغُـصـنُ يَـرْقُـصُ والـغَـديْـ   ـرُ مُـصـفِّـقٌ والـوُرقُ[6] تَـشْـدو
والـشَّـمسُ تَـخْـفـى فـي نِـقـا   بِ الـغَـيـمِ أحـيـانـا وتَـبـدو
والـجـوُّ بـعضٌ مـنـهُ كـا   فـورٌ وَبـعضٌ لا زَوردُ
فـالـخُـلْدُ مَـنْ يُـمْـسـي أخـا   راحٍ يَـروحُ لَـهـا وَيـغْـدُو
... الخ[7].

ان هذه الابيات كادت ان تكون-وصفا للطبيعة، ولا علاقة لها بالخمر لولا لفظ «سقاتنا» في البيت الرابع، وكلمة «راح» في البيت الاخير ومنهما علمنا ان الشاعر يصف مجلس شراب «بنهر عيسى». ولم ينس الشاعر ادق التفاصيل المحيطة بمجلس الشراب، فقد وصف الارض وما فيها من صنوف الزهور ومنها الشقائق والبنفسج، ولون السماء بأن بعضه اسود كالكافور، وبعضه ازرق كاللازورد، والشمس متنقبة بنقاب من الغيم، حتى رائحة الجو قال انها عنبر، ولفرط غنى الشاربين قال ان الند كالضباب كثرة، وهي مبالغة من شاعر نشوان، أطلقت الخمرة لخياله العنان.

---

(١) نفسه و ١٦٧، ١٧٣، ١٦٠
(٢) انظر الفصل الاول ص ١٩ هامش ٢
(٣) ماء جعد: أي مجتمع متراكب بعضه فوق بعض.
(٤) الجيد: العنق.
(٥) الند: عود يتبخر به.
(٦) الورق: الحمائم.
(٧) ديوان الابله و ١٦٧

وهكذا يتضح انه من بين اربعة شعراء كانوا اشهر شعراء المديح في القرن السادس كله[1]، تبارى ابن التعاويذي والابله في افتتاح طائفة من مديحهما بذكر الخمر. وقد ظهر ان الابله متفوق من ناحية الكم، لان عدد قصائده التي اشير في مقدماتها الى الخمر تفوق كثيرا قصائد ابن التعاويذي في هذا المجال. كذلك نجد الابله يطيل في مقدماته الخمرية ويبدو محبا مولعا بهذا النوع من الوصف، اكثر من زميله ابن التعاويذي، اذ نجد هذا الاخير قصير النفس، ضجرا، لا يتدفق شاعرية حين يفتتح بعض قصائده، بذكر الخمر، كما عودنا في معظم شعره. ومع ذلك لا بد من القول ان مقدمات ابن التعاويذي- على قصرها وقلتها- بدت الصق وأقرب الى شعر الخمر من مقدمات الابله، لان هذه ظهرت وكأن الشاعر لم يرد ذكر الخمر اصلا وانما نظم قصيدته في وصف الطبيعة والتغني بجمالها، ثم استدرك على نفسه فدس بين الأبيات بيتا أو بيتين في الخمر.

وأكاد ألمح من بين ابيات ابن التعاويذي، وخاصة تلك التي افتتح بها بعض مدائح الخلفاء[2]، ان الشاعر ذكر الخمر أو وصفها في هذا الموضع ليشكو الى الخليفة من خلالها سوء حاله، وضيق ذات يده، وهو بذلك يخلط الحقيقة بالخيال والشكوى بجو المنادمة والسكر والعربدة. ولعله وجد - وهو شاعر الخلفاء - ان هذه الطريقة مجدية اكثر من سواها في الاستماع الى شكواه، وازالة اسباب تذمره، لان المفروض بالمقدمة الخمريه ان تكون فاتحة المدح وطليعة غرض القصيدة الاصل، ومن هنا لا بد ان يوفر لها الشاعر كل اسباب النجاح ولفت الانظار وشد الاسماع، وفي مقدمة هذا كله الحديث المرح الخفيف، والوصف البارع الجذاب لدنيا خيالية، براقة، ساحرة غير التي يعرفها الناس - اما الشكوى والمبالغة في تصوير الهم والغم ومصائب الدنيا وآلام الكبر ومتاعبه، فلست اشك ان ابن التعاويذي يعرف ان مكانها ليس المقدمات الخمرية.

٢- الخمريات المستقلة:

وهي شعر خمري صرف، لا علاقة له بالمدح، ويفترض ان عشاق الخمر ينظمونه تعبيرا عما يشعرون به حين تدور الكؤوس. ويمكن تمييز الضروب التالية من هذه الخمريات:

أ- وصف جلسة شراب او ساعة لهو يشارك فيها عادة جماعة اعتادوا أن يشربوا معا، فلا يطيب الشرب ولا تحلو الجلسة اذا تخلف أحد منهم، ولذلك قال ابن التعاويذي لأحد اصحابه:

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٣، ٤١٣

أبا علِيّ عَدَاكَ الـ مَخوفُ والمَحْذورُ
ولا تَخطَّى مَرامِي مَرامُكَ المَقْدورُ
بَعُدْتَ عَنّا فَطَرْفُ الـ لذّاتِ خاسٍ[1] حَسيرُ
وأعيُنُ اللّهوِ شَوْقاً الى أيادِيكَ صُورُ[2]
وللخَلاعَةِ مَغْنىً مُعطَّلٌ مَهْجورُ
وَجَنَّةُ الخُلْدِ بغدا دُ مُذْ نَأيتَ سَعِيرُ
عادَ النَّسيمُ سَموماً والظِّلُّ وهو حَرورُ[3]

... الخ[4].

ومن شعر الشعراء نعرف ان امثال هذه الجماعات يلتئم شملها في العادة ايام تلبد السماء بالغيوم، وكذلك في الايام الممطرة المكفهرة الجو حيث لا يجد الناس بدا من ملازمة البيوت[5]، ولا يخلو المجلس من ساق ذكر أو انثى ـ وهم يفضلون الذكور ـ ومن مغنية، لان الشراب والغناء متلازمان لا يطيب احدهما اذا فقد الآخر، حتى لقد نسبوا الى هارون الرشيد انه قال: «النِّكس الذي يشرب على غير سَماع»[6].

وفي مجالس الشراب هذه، يحدث ان يعربد احد السكارى على زميله، وربما وقعت فيها جراحات، كذلك قد تسمع فيها الفاظ وعبارات تدل على فساد العقيدة واطراح القيود الاجتماعية، ولكن جماعة الشاربين ـ وخاصة الشعراء منهم ـ يتعمدون ابراز الجوانب الحسنة من مجالس الشراب، ويخفون الجوانب السيئة[7].

ويلاحظ ان الشعراء، وهم يصورون ويصفون مجالس الشراب الخاصة هذه يحلقون بعيدا على اجنحة الخيال، فيرسمون صورا لمجالس لم توجد على هذه الأرض منذ عرف الناس الخمر، انها اوهام، واحلام لا يعرفها الا السكارى. تأمل ـ على سبيل المثال ـ قول ابن التعاويذي:

يا علِيّ يومُنا أوْ وَلُ يومٍ مِنْ شُباطِ
فاعْكِفِ اليومَ على الرّا حِ تُعاطَى وتُعاطي

---

(١) طرف خاس: كليل، عي.
(٢) أعين صُور: متطلعات، مائلات.
(٣) الحرور: نقيض الظل.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٨
(٥) نفسه ص ٢٣٠ ـ ٢٣١
(٦) محاضرات الادباء ٢/ ٧١٩
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨، الخريدة ٤/ ٧٣٥

لا تَرُعْنا بِتَوانٍ فيهِ عَنَّا وَتَباطِ
انا في مَجْلسِ لَهوٍ وسُرورٍ وانْبِساطِ
نازلٌ مِنْ نهرِ عيسى بينَ دُولابٍ ورَاطِ[1]
قُبَّتي الغَيْمُ وأزْها رُ الرَّياحينِ بِساطِي
حَلِيَتْ أوراقُها بيـ نَ جعادٍ[2] وسِباطِ[3]
بشُنوفٍ[4] نَظَمَ الطَّلْ لُ عليها وقِراطِ
وقُدودِ السَّرْوِ في خُضْـ[5] ـرِ مُلاءٍ[6] وَرِياطِ[7]
وَنَديمٍ مِنْ شُيوخِ الـ كَرْخِ مَحْلولِ[8] الرِّباطِ
حَنَّكَتْهُ[9] أُمُّهُ بالـ خَمرِ طِفْلاً في القِماطِ
وغُلامٍ مِنْ بَني الأصْـ غَرَ كالثَّوبِ القُباطِي[10]
رِدْفُهُ عالٍ، ولكِنْ خَصْرُهُ النّاحِلُ لاطِي[11]
وَضَجيجٍ كَهَديرِ الـ طَيرِ حَوْلي واخْتِلاطِ
وَرَذاذٍ نحنُ منهُ في نِثارٍ وَلِقاطِ
... الخ[12]

وليس من شك ان الشاعر نجح نجاحا باهرا في تصوير مجلس الشراب تصويرا اسطوريا عن طريق مجموعة من الاستعارات والمجازات التي احسن الشاعر بثها في انحاء القصيدة، فلعبت دورا كبيرا في اضفاء صبغة سحرية على كل ركن من اركان القصيدة والصورة معا، حتى يخيل للمرء ان المكان الذي يتحدث عنه الشاعر لن يتكرر وجوده على

(١) الراط: لم أقف على معناها.
(٢) جعاد: واحدها جعد وهو من الشعر خلاف المسترسل.
(٣) سباط: واحدها سبط وهو ضد الجعد.
(٤) الشنوف: واحدها شَنْف: ما علق في الاذن أو علاها من الحلي.
(٥) خضر: بالاصل بالصاد: خصر.
(٦) ملاء: الواحدة مُلاءَة وهي ثوب يلبس على الفخذين.
(٧) الرياط: الواحدة رَيْطَة وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجا واحدا.
(٨) محلول الرباط: أي غير مبال بشيء كالحيوان. (٩) حنكته: هذبته.
(١٠) القُباطي: ثياب من كتان منسوبة للقبط. (١١) لاطي: لاصق.
(١٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٨ - ٥٩، وانظر قصيدة أخرى للشاعر مثل هذه ص ٢٣٠

هذه الأرض، بسبب استحالة اجتماع هذه العناصر ـ بالشكل الذي صوره الشاعر ـ مرة ثانية. فابتداء من البيت الاول: يا علي يومنا . . . اوحى الشاعر للقارىء عن طريق ايصال الضمير «نا» بكلمة يومَ، بأن لهذا اليوم فضلا وميزة على سواه من الايام ولذلك لا بد من الاحتفال به احتفالا يليق بمقامه، ثم اندفع الشاعر يصف لصديقه المكان الذي وقع عليه الاختيار لقضاء ذلك اليوم الكبير، فاذا هو قرب نهر عيسى، ويبدو ان هذا مكان مشهور في القرن السادس بالنسبة لاهل بغداد، اذ سبق ان مر بنا قول الابله:

يـا طِيـبَ يـومٍ مـرَّ لـي بِنـهـرِ عـيسى لَـوْ يُـرَدُّ

وبعد هذا التحديد للزمان والمكان، جاء دور الاستعارات لتجسم وتشخص وتكبر عناصر الصورة وتظهرها بالشكل الذي تمناه الشاعر وحلم به، لا بالشكل الموجود فعلا، ولذلك توهم ان السماء ليست غائمة، وانما هي قبة ضربت ليشرب فيها الشاعر، وان الأرض لم تكن مزدانة بالزهور، وانما هو بساط من الرياحين خاص بالشاعر، ولذلك قال: بساطي، وتتوالى الاستعارات التي تشهد للشاعر بالبراعة وخصوبة الخيال، فاذا الاوراق فتيات قد لبست شنوفا واقراطا، واشجار السرو قد ارتدت ملاءات ورياطا خضرا. . اما نديمه فهو شيخ «محلول الرباط» وكفى بذلك فخرا.

ب ـ والضرب الثاني من هذا الشعر الخمري يتكون من مقطوعات او نتف توصف فيها الخمر وحدها دون اشارة الى مجلس شراب او جماعة متنادمين وهكذا خلت هذه المقطوعات ـ تبعا لذلك ـ من وصف للطبيعة او مكان الشرب. ويمكن تشبيه هذه المقطوعات الخمرية بمقطوعات الغزل القصار التي اولع بها المغنون(١)، سوى ان المتغزل به هنا هو الخمر، ومن هذا الغزل الخمري قول ابن التعاويذي:

أدِرْ كـأسَ المُدام عليَّ صِـرْفاً ولا تُفْسِـدْ كُؤوسَـكَ بـالمِـزاجِ
فقـدْ حانَ الصَّبـوحُ وحَنَّ قلبي الى عَذراءَ تَرقُصُ في الزُّجاجِ
ودونَك فاقْتَبِسْ بالرَّطلِ(٢) منها سَنيً يُغنيكَ عنْ ضوءِ السِّراجِ
فهذا الدِّيـكُ من طَرَبٍ يُنـادِي وَيخْـطُرُ بيـنَ إكْليـلٍ وتـاجِ
وَدَعنـي والصَّـلاةَ اذاً تَـدانَتْ فليسَ على خَرابٍ منْ خَراجِ(٣)

(١) انظر دراسة الغزل في الفصل الثاني.
(٢) الرطل: أراد به الكأس.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٦ ـ ٧٧

وقول ابن شُعَيْبان (١) البغدادي :

مَرْحَباً بالتي بها قُتِلَ الهَـ ـمُّ، وعاشَتْ مَكارِمُ الأَخلاقِ
وهيَ في رِقَّةِ الصَّبابَةِ والشَّوْ قِ، وفي قَسْوَةِ النَّوى والفِراقِ
لَستُ أدْرِي : أمِنْ خُدودِ الغَواني سَلبوها، أمْ أدْمُعِ العُشّاقِ (٢)؟

ج - والضرب الثالث من شعر الخمر هذا قريب من الغلاميات، ويمكن القول انه حائر بين وصف الغلمان ونعت الخمر، ولا يخلو من شيء من المدح في بعض نماذجه، كقول ابن الطَّوابيقي (٣) :

مولايَ، قد زارَني غُلامُ يَنظُرُ مِنْ مُقْلَتَيْ غَزالِ
يميس كالغُصنِ جاذَبَتْهُ في دَوْحِهِ نَسمةُ الشَّمالِ
مَزَّقَ بالهَجْرِ ثَوبَ عُمْري وعادَ يَرْفوهُ بالوِصالِ
وهو جليسي في صَحْنِ دارٍ مِنْ كلِّ ما يَشْتهيهِ خالِ
وقدْ تَحيَّلْتُ في طَعامٍ يُغْنى أكيلاً عَنِ الخِلالِ (٤)
والغَيرُ في دارِهِ قُدورٌ فوقَ الأثافي (٥) بينَ المَقالي
قدْ أحكمتْ طَبخَها طُهاةٌ وصُفِّقَ (٦) الخَمْرُ بالزُّلالِ
فانعَمْ بها قَهوةً حَراماً لِزاهِدِ الدِّينِ في الحَلالِ (٧)

وقول ابن التعاويذي :

يا صَديقي مسعودُ حَقّاً وما كُـ ـلُ صديقٍ دَعوتُهُ بصديقِ
قدْ أحاطَتْ بيَ الهُمومُ، وما أحْـ ـسِبُ أنّي من دائِها (٨) بمُفيقِ
وشِفائي في نَشوةٍ تَدْرأُ (٩) الأحـ ـزانَ عَنّي منْ سَلْسَبيلِ رَحيقِ

---

(١) هو أبو طاهر محمد بن حيدر بن عبدالله بن شعيبان البغدادي، قال العماد عنه : «كان شاعراً بليغاً مجيداً، حسن الشعر، رقيقه، يسكن الثلاثاء، اعور». اختلف حول سنة وفاته، والمرجح أنها سنة ٥١٧هـ. الخريدة ٢/ ٢١٩، فوات الوفيات ٢/٣٩٨

(٢) الخريدة ٢/٢٢٦، ونص العماد على أنها تنسب له، وفي وفيات الوفيات ٢/٣٩٨ نص أنها له، وانظر هامش محقق الخريدة. وهناك أمثلة أخرى على هذا النوع من الخمريات في الخريدة ٢/ ٢٢٠، ٤/ ٣٧٥، ٤/ ١٨٠

(٣) هو القاسم بن الحسين أبو شجاع، البغدادي، الشاعر توفي سنة ٥٧٦. الخريدة ٢/٣١٨، وانظر فوات الوفيات ٢/٢٥٨

(٤) الخلال: الواحدة خَلّة وهي الحاجة والفقر.

(٥) الاثافي: واحدتها أُثْفِيَة: حجارة يوضع عليها القدر.

(٦) صفق: مزج.

(٧) الخريدة ٢/ ٣١٩ - ٣٢٠

(٨) بالاصل دابها، وهو خطأ، والصواب ما اثبته.

(٩) بالاصل تذر، وهو خطأ، والصواب ما أثبته.

أمْ لَهْوٍ كأنَّ ياقُوتةً في الـ | كأسِ منها عُلّتْ[1] بمِسْكٍ فَتيقِ[2]
غَنِيَتْ مِنْ صَفاءِ جَوْهرها الـذّا | تيِّ عَنْ أنْ تُراقَ في راووق[3]
مِنْ عَتادِ الرُّهبانِ لَمْ يَخْلُ عُمْـ | ـرَ الدَّهرِ منها قِلايَةُ[4] الجَاثَليق
مَذْهبُ القَسِّ مَذْهبي في صَبوحٍ | انا فيها مُغْرىً بهِ وغَبوقِ
فأرِحْني مِنْ شاغِلِ الهَمِّ واعْتِقْ | منهُ رِقِّي بِدَنٍّ خمرٍ عَتيقِ
لا ألمَّتْ بكَ الهُمومُ ولا زِلـ | ـتَ سَميراً للكأسِ والإبريقِ[5]

وابيات ابن التعاويذي هذه من الاخوانيات، وكذلك النماذج الاخرى الموجودة في ديوانه، والتي اشرت اليها في الهامش. وبذلك تجمع هذه الخمريات بين الغزل بالمذكر ونعت الخمر والاخوانيات.

٢ ـ الغزل بالمذكر:

عرف هذا الغزل في الشعر العربي لاول مرة عند شعراء بني العباس، وقد كان من اسباب ظهوره الاتصال بالفرس وتأثر المجتمع العربي العباسي بعاداتهم وافكارهم ومنها هذا الغزل الشاذ، حتى روي ان ابا مسلم الخراساني ـ حين سئل عن الذ العيش ـ قال: «طعام احبر ومدام اصفر وغلام احور»، ولما سئل عن تقديم الغلام على الجارية قال: «لانه في الطريق رفيق، وفي الاخوان نديم، وفي الخلوة اهل»[6].

وكان الى جانب السبب الرئيسي المتقدم، اسباب ثانوية ساعدت على تفشي هذه الآفة الاجتماعية، ومن تلك الاسباب: هو ان مركز المرأة بسبب كثرة الجواري، وايغال الطبقة العليا العباسية في الحضارة والترف مما دفعهم الى البحث عن متع جديدة مبتكرة[7].

ولست ادري لم يتجاهل الباحثون في هذا الموضوع عاملين كبيرين لعبا دورا كبيرا في شيوع الشذوذ الجنسي وهما بعد الطبقة المترفة العباسية عن الخلق العربي الاصيل، وضعف الوازع الديني الذي يحول بينهم وبين الانحراف. فلم يعرف العرب اللواط الا بعد ان تخلوا عن اخلاقهم وقلدوا الاجانب، كذلك يستحيل على المسلم ان ينحرف في سلوكه وهو يعلم ان القرآن الكريم نص على أن هذا الشذوذ فاحشة من الفواحش[8].

---

(١) علت: من العَلَل وهو الشرب الثاني. (٢) فتيق: شديد الرائحة.
(٣) الراووق: مصفاة الخمر. (٤) القلاية: مسكن الاسقف (يونانية)
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٨، وانظر نماذج أخرى فيه ص ٣٩٩ ق ٢٥٨، ق ٢٥٩
(٦) اتجاهات الغزل ص ١٩٧، الادب في ظل بنى بويه ص ٢٦٦ وما بعدها.
(٧) اتجاهات الشعر ص ٥١٧ ـ ٥٢٠، اتجاهات الغزل ص ٢٠٩ ـ ٢١٣
(٨) سورة العنكبوت، الآية ٢٨ ـ ٢٩. سورة الأعراف، الآية ٨٠ ـ ٨١

ومن اشهر شعراء بني العباس لجاجة في الغزل بالمذكر ابو نواس الحسن بن هاني والحسين بن الضحّاك المشهور بالخليع ، ووالِبَة بن الحُباب الكوفي ، استاذ ابي نواس ، وفيه يقول الدكتور شوقي ضيف : «انه هو الذي يتحمل وزر افساد ابي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقا»[1].

وفي القرن الرابع ، ايام بني بُوَيْه ، شاعت عادة اللواط بحيث اصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة فكانا سببا في حدوث قصص غرامية شائقة . . واكثر الادباء من القول في هذا الباب حتى ليندر ان نجد بينهم من لم يقل شعرا في غلام بل لقد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك فقصر تشبيبه على الغلمان دون النساء كأبي الحسن السَّلامي[2] ونَصْر[3] بن أحمد الخُبْزأرزي[4].

أما في الفترة السابقة للفترة التي ادرسها ، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى كثرة التغزل بالغلمان فيها ، ثم قال : «ولا شك في ان بين هذه الاشعار ما قيل تظرفا . . ولكن هذا يعني ان المجتمع ، وحتى مجتمع المتزمتين والمؤدبين والفقهاء ، يقبل هذا النوع من التظرف ويستسيغه ويستحسنه ، وربما يتطلبه ، حتى ليشك المرء في مدلول التظرف هذا . . وقد يخرج العصر عن قواعد الذوق في استساغة هذا اللون من الشعر»[5] . .

وحكاية التظرف هذه ، والتي شك فيها الدكتور الطاهر ، وهو منصف في شكه ذاك ، استمرت في الفترة التي ادرسها واتسعت ، جريا على عادة الشعراء في تقليد اسلافهم وتلقف ما عرف عند هؤلاء الاسلاف من فنون شعرية ، وهكذا يمكن ان يكون من هذا الغزل قول الحيص بيص في العذار :

شَكّـوا أشَمسٌ أنتَ أم قمـرٌ؟ ولِفَـرْطِ حُسنِـكَ أشْكَـلَ الأمْـرُ
فـانْجـابَ ليـلُ الشك حين قَضى ليـلُ العِـذارِ بِـأنَّـكَ البَـدْرُ[6]

---

(١) العصر العباسي الاول ص ٧٣، وانظر أيضا حياة الشعر في الكوفة ص ٦١٥

(٢) محمد بن عبدالله بن محمد . . المخزومي ، السَّلامي ، الشاعر المشهور ، نشأ ببغداد ونسب إليها وكانت ولادته بالكرخ ، وتوفي سنة ٣٩٣هـ . قال الثعالبي : «هو من أشعر أهل العراق قولا بالاطلاق» . يتيمة الدهر ١٥٧/٢ ـ ١٨٨ ، (مط . الصاوي) . وفيات الاعيان ٣٥/٤

(٣) أبو القاسم نصر بن أحمد ، البصري ، الشاعر المشهور . كان أمياً ، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل بمربد البصرة . توفي سنة ٣١٧ (على قول) . يتيمة الدهر ٣٣٧/٢ (المط . الحفنية) . وفيات الأعيان ١٢/٥

(٤) الادب في ظل بني بويه ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ (٥) الشعر العربي ١٣١/٢ (٦) الخريدة ٢٥٩/١

وقول علاء الدين أبي الفتوح نصر بن منصور التيمي المؤدب ويعرف بالحكم المتوفى سنة ٥٨٨ هـ:

ولمّا رأى ورداً بخدَّيْـهِ يُجْتَنى ... ويُقطَفُ أحيانا بغير اخْتِيارِهِ
أقامَ عليهِ حارساً مِنْ جُفونِـهِ ... وسَلَّ عليهِ مُرْهَفاً مِنْ عِذارِهِ(١)

وقول محمد بن احمد بن فتح الدين البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٥٨١ هـ، في مليح عليه قباء، كمه مطرز:

ضَممتُ مُعذِّبي لمّا أتاني ... وَرقْمُ طِرازِهِ قَدْ راقَ عَيني
فيا طَرْزيهِ هَلْ يُدْني زَماني ... لَيالي وَصْلِنا بالرَّقمَتَيْنِ(٢)

ولعل من الصواب ان يلاحظ بان صفة التغزل بالمذكر تظرفا، تكون الصق بالنصوص الشعرية كلما قل عدد أبياتها، فلم تتجاوز البيتين او الثلاثة، وكذلك لا بد ان تكون خالية من عاطفة طاغية تدل على ميل فطري الى الغلمان، وبذلك تكون غزلا تقليديا نظم للتسلية او قضاء الوقت ومجاملة الاخوان في جلساتهم ومسامراتهم، اما اذا طال هذا الغزل، كما في قول ابن الاديب(٣):

قامَ بالعُذرِ في هَواكَ العِذارُ ... فسُلُوّي عن حُسْنِ وَجْهِكَ عارُ
أدَلاَلٌ هذا التَعتُّبُ أمْ أنـ ... ـتَ كما قيلَ خائنٌ غَدَّارُ؟
لم يُغيِّرْ تلكَ المَودَّةَ بُعْدٌ ... إنْ تَناءَتْ دارٌ وشَطَّ مَزارُ
ومُعينَني على فِراقِكَ عينٌ ... أفنتِ الدَّمعَ واصْطِبارٌ مُعارُ
كلَّ يومٍ لنا عِتابٌ جديدٌ ... في نواحيهِ يَخْلَقُ(٤) الإعتِذارُ
وانْتِظارٌ لليومِ والغَدِ يأتي ... أوَ كلُّ الزَّمانِ فيكَ انتِظارُ؟
إنْ أبتْ ساهِرَ الجفونِ ودمعُ الـ ... ـعينِ في الخدِّ واكِفٌ(٥) مِدْرارُ
فَبِما بِتُّ راقِداً وعلى جِسْـ(٦) ... ـمي يَمينٌ مَعْطوفةٌ ويَسارُ
نَتَساقى كأساً مِنَ العَتْبِ صِرْفاً ... ولِخَمرِ العِتابِ أيضاً خُمارُ(٧)

---

(١) تلخيص معجم الالقاب ق ٤ ج ٢ ص ١١٠٨

(٢) النجوم الزاهرة ١٠٠/٦، وانظر نماذج أخرى في الخريدة/نسخة ايران ٢٠١، عيون الأنباء ٢٦٤/٢، وفيات الأعيان ١٧٦/٥

(٣) انظر: الفصل الرابع ص ٢٩١ هامش ٥

(٤) يخلق: يبلى.

(٥) واكِف: سائل قليلا قليلا.

(٦) جسمي: بالأصل جسدي، ولا يستقيم بها الوزن.

(٧) الخمار: صداع الخمر.

... الخ[1].

فلست ادري هل هذا من التظرف؟ وكيف يكون الهيام والغرام اذن؟

كذلك ليس تظرفا شعر كبار رجال الدولة الذي تفوح منه رائحة الشهوة مثل قول الحسين ابن شبيب الطِّيبي، نديم الخليفة المستنجد المتوفى سنة ٥٨٠ هـ:

وأغيدُ لم تَسمحْ لنا بوصالِهِ ... يدُ الدَّهرِ حتّى دَبَّ في عاجهِ النَّملُ
تَمنّيت - لمّا اختُطَّ - فُقدانَ ناظري ... ولم أرَ إنسانا تَمنّى العَمى قَبْلُ
ليبقى على مرِّ الزَّمانِ خَيالُهُ ... جِيالي، وفي عَيني لِمَنْظَرِهِ شَكْلُ[2]

وكذلك قول ابي عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب السِّيبي[3] ناظر قُوْسان[4] المتوفى سنة ٥٦٥ هـ:

يا ناجِياً مِنْ عذابِ قلبي ... وسالما من رَسيسِ[5] وَجْدِي
لا تَتَقَرَّبْ الى ثِيابي ... فإنَّ داءَ الغَرامِ يُعْدِي
تَزعُمُ أنَّ الفُؤادَ عِندي ... لو كُنْتَ عِنْدِي لكانَ عِنْدِي
قَدْ غَيَّرَ الدَّهرُ كلَّ شيء ... غيرَ جَفاكُمْ وحُسْنَ عَهْدِي[6]

وهي ابيات برغم ان الخطاب فيها للمذكر، يا ناجيا ولا تتقرب.. فقد يقال انها في مؤنث. ولكن الطبقة العليا العباسية - ومنها صاحب الأبيات - كانت هي الرائدة في الغزل بالمذكر - كما تقدم - ولذلك لا يستبعد ان يبدو بعض غزلها في المذكر وكأنه قيل في مؤنث.

ان شعراء القرن السادس، وخاصة ابن التعاويذي والابله البغدادي، يميلون ميلا شديدا الى التذكير من ناحيتي الخطاب واستعمال الضمائر في مقدمات المدائح على وجه التخصيص، على الرغم من احتمال دلالة المعنى على انثى.

ان الحديث - في امثال هذه القصائد - يدور بخطاب المذكر، وكذلك الضمائر كلها للمذكر، ومع ذلك يترك الشاعر القارىء في حيرة لا يدري هل المتغزل به انثى أم ذكر، لان

---

(١) الخريدة/ نسخة ايران ١٤٣

(٢) المختصر المحتاج إليه ٢/ ٧، فوات الوفيات ١/ ٢٧٦

(٣) السيبي: نسبة إلى السِّيب، وهي اسم لاكثر من موضع - كما في معجم البلدان ٥/ ١٩٠ - فالسيب كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الاعلى والاسفل. والسيب نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة. والسيب أيضا بخوارزم. ولست أدري إلى أيها نسب صاحب الأبيات.

(٤) قُوسان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط (معجم البلدان ٧/ ١٨٢).

(٥) الرسيس: الثابت.

(٦) تلخيص معجم الالقاب ق ٤ ج ١ ص ١٣٧

الشاعر يتعمد عدم الاشارة الى الجنس فلا يذكر مثلا الشارب أو العذار، كما يفعل في قصائد اخرى تغزل فيها بالمذكر صراحة، ومن الامثلة على ما أقول، ابيات الابله :

وَرُبَّ مُرِّ الهَجْرِ حُلو العِتابْ   مُعْتَدِلٍ يَثنيهِ سكرُ الشَّبابْ
عاطيته صَهباءَ مَمْزوجةً   بدمعةِ الصَّبِّ ودَمعِ السَّحابْ
فانْتَقَبَتْ وَجْنَتُهُ حُمرةً   يا حُسنَها منْ وردةٍ في نِقابْ
وسُمْتُهُ في سُكْرِهِ قُبْلَةً   ودونَها في الصَّحوِ شَيبُ[1] الغُرابْ

... الخ[2].

وتستمر المقدمة على هذا المنوال حتى نهايتها، دون اية اشارة الى جنس المتغزل به، اللهم الا هذه الضمائر المذكرة: عاطيته، وجنته، وسمته... وتأمل قول ابن التعاويذي :

باتَ يَجْلوها على نَدْ   مانِها والّليلُ داجي
رَشأٌ[3] حَرَّكَ أشْجا   ني بطَرْفٍ منه ساجي[4]
وبثَغْرٍ طيِّبِ النَفْـ   حَةِ[5]، مَغْسولِ المُجاجِ[6]
قامَ مَعْصوبا بأكليـ   لٍ مِنَ الوردِ وتاجِ
بينَ غُصنٍ ذي اهتزازٍ   وقضيبٍ ذي ارْتجاجِ
قبلَ أصواتِ النَّواقيـ   سِ وتَغريدِ الدَّجاجِ

... الخ[7].

وهي لا تختلف عن مقدمة الابله السابقة، فالضمائر للمذكر ولكن الشاعر لم يشر صراحة الى ان المتغزل به ذكر.

وكما حدث في الغزل بالمذكر تطرفا، حدث ايضا في هذه الظاهرة التي اشرت اليها، فقد اكثر شعراء القرن السادس ـ قياسا الى سابقيهم ـ من اللجوء الى ضمير المذكر في غزلهم، فطالت المقدمات التي فيها هذا الغزل[8]، بعد ان كانت قصيرة، قليلة الابيات وربما لم تزد على ستة[9].

---

(١) شيب الغراب: مثل يضرب للامر الذي لن يحدث أبدا.
(٢) ديوان الابله و ٣٣، وانظر أيضا و ٧٨، ٩٨، ١٧٩، ١٦٧، ١٦٤
(٣) الرشأ: ولد الظبية.
(٤) الطرف الساجي: الساكن الفاتر.
(٥) طيب النفحة: عذب الرائحة زكيها.
(٦) المجاج: الريق ترمي به من فمك.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٧١ وانظر أيضا ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٢٥٤
(٨) نفسه.
(٩) الخريدة ١/ ١٢٥

ولعل مما يدل على قلة هذا اللون من الغزل في الفترة المتقدمة على الفترة التي ادرسها، ان نجد الدكتور الطاهر ـ وهو يدرس تلك المرحلة ـ يعجب من مدح الخليفة المستظهر بالله بأبيات كان فيها الضمير للمذكر، وقد عد الباحث الفاضل هذا الغزل من خروج العصر على قواعد الذوق[١]، فليت الاستاذ الكريم قرأ قول الابله في مدح اقضى القضاة[٢]:

أوجـوهُ غيـدٍ أمْ ريـاضُ ربيـعِ　　وكؤوسُ خمرٍ أمْ نجومُ هَزيعِ[٣]؟
والمـاءُ قَـدْ صقَـلَ النَّسيمُ مُتونَـهُ　　أمْ في جَـداولـهِ مُتـونُ دُروعِ؟
والـطَّلُّ يَـجْلوهُ الـشَّقيـقُ كَـلؤلـؤٍ　　أمْ وَجْنـةَ مَـطّلولـةً[٤] بِـدُمـوعِ؟
أوَ ما تَرى بَرْدَ النَّسيمِ وقدْ وَنَى[٥]　　سَحَراً وبردَ اللّيـلِ في تَوْشيـعِ[٦]
فـاربَعْ أُشـاطِرِكَ السُّـرورُ، وخلِّني　　مِنْ ذِكرِ أطلالٍ عَفَتْ[٧] وربُـوعِ
واقـطَعْ أقـاويـلَ الـوُشـاةِ، فـإنَّهـا　　سَببُ لِـوُصْلَةِ حِبلِنـا المَقْـطوعِ
واشرَبْ بكفِّ أغنَّ، مُقْتَبلِ الصِّبا　　خَنِثِ الشَّمـايلِ والـدَّلالِ بَـديـعِ
ساجي اللّحاظِ تُريكَ صَنْعـةُ عينهِ　　فَتكـاتِ مَسْنـونِ الغِرارِ[٨] خَليـعِ
مـا تمَّ مسـكُ عـذاره فـي خـدِّهِ　　إلا لـيـظهـر عـذر كـلِّ خـليـعِ

... الخ[٩].

ان الابيات التي اغضبت الدكتور الطاهر، يحتمل ان تكون في مؤنث، وغزلها خفيف لا يكاد يحس. اما مقدمة الابله هذه فان المتغزل به مذكر دون شك، وحديث الشاعر او وصفه لهذا الذكر، فيه وقاحة وجرأة على الاخلاق الكريمة لا سيما وهو يفتتح قصيدته في مدح «اقضى القضاة». ولعل من حسن حظ الابله ان غزله في غير مقدمات المدح لم يصل الينا.

ضربان من الغزل بالمذكر:

ان معظم الغزل بالمذكر في الفترة التي ادرسها، يمكن أن يحصر في لونين من الشعر:

١) مقدمات قصائد المدح.
٢) الغزل المستقل عن المدح.

---

(١) الشعر العربي ٢/١٣٧
(٢) أقضى القضاة: هي رتبة دون رتبة قاضي القضاة. تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ص ١٩٢
(٣) هزيع: بالاصل بالراء هريع. والهزيع: الطائفة من الليل أو نحو ثلثه أو ربعه.
(٤) مطلولة: من الطَّلِّ وهو المطر الخفيف.
(٥) ونى: فتر وضعف.
(٦) التوشيع: التفرق والانقسام.
(٧) عفت: درست.
(٨) الغرار: حد السيف.
(٩) ديوان الابله و ٢٢

هذا اذا اغفلنا ضربا ثالثا سبقت الاشارة اليه وهو الذي اسميته «الغزل الغامض» وهو الذي تعمد الشعراء فيه عدم الابانة عن جنس المتغزل به. ويبدو لي ان وجود هذا الضرب في مدائح ابن التعاويذي للخلفاء العباسيين[1]، يدل على ان نظرة القوم الى هذا اللون من الغزل، تختلف عن نظرتهم الى الغزل الصريح بالمذكر، لان هذا الاخير لم اجده في مدائح الخلفاء. وعلى ضوء هاتين الحقيقتين يمكن أن يكون الغزل الغامض قد اوجد دفعا لآراء وانتقادات رجال الدين والمحافظين عامة، الذين وقفوا في وجه تيار الغزل بالمذكر، وفي الوقت نفسه كان هذا الغزل الغامض، يرضي بعض الاذواق التي ملت الغزل بالمؤنث، وبدأت تضيق به.

مقدمات المدائح:

ان التقديم لقصائد المديح بالغزل بالمذكر، من الظواهر التي تلفت النظر وتستوقف الباحث، بسبب شيوعها وانتشارها من ناحية، وبسبب دلالة هذا النوع من المقدمات على اخلاق الناس، وخاصة الطبقة العليا، من ناحية اخرى.

وعلى الرغم من وجود هذا اللون من المقدمات في الفترات السابقة للفترة التي ادرسها[2]، فان احدا لم يشر الى وجود «ظاهرة» تستوقف الباحث، وهو مما يوحي بان النماذج قليلة جدا، لا توجب القلق ولا تثير الذعر، على عكس الحال في الفترة التي ادرسها. لقد احصيت في ديواني ابن التعاويذي والابله وحدهما تسع عشرة قصيدة مصدرة بهذا الغزل الشاذ، وكان من بين الممدوحين في هذه القصائد ابن هُبَيْرة الوزير الحنبلي الكبير[3]، ونائب الوزير ابن البُخاري[4]، واقضى القضاة[5]، وبعض امراء الاشراف[6]، والقاضي الفاضل[7].

ان الشاعر في امثال هذه المقدمات، يصف الذكر ويتغزل به وكأنه انثى لا فرق بين الاثنين سوى ان الشاعر هنا يشير صراحة الى ان المتغزل به ذكر بذكره العذار[8]، او الشارب[9]، او العارض[10]، او الكفل[11]، وكأنه يخشى ان يجهل محبوبه المقصود، فيظن انه انثى، ولذلك يقطع الشك باليقين.

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦، ٢٨١
(٢) اتجاهات الغزل ص ٩٤، الشعر العربي ٢/ ١٣١
(٣) ديوان الابله و ٦٢
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩
(٥) ديوان الابله و ٢٢، ٢٣
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢
(٧) نفسه ص ٣٣٣
(٨) ديوان الابله و ١١٧، ١١٨، ١٥٠، ١٥٤، ١٦٠
(٩) نفسه و ٦٢
(١٠) العارض: صفحة الخد. ديوان ابن التعاويذي ص ١٢٤، ١٥١
(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٤

وفي بعض هذه المقدمات عند ابن التعاويذي، يأبى هذا الشاعر الا أن يضيف الى صفات محبوبه صفة اخرى، فيها دلالة اكبر من الصفات السابقة على الرجولة والقوة، التي لم تدر ابدا ببال النساء، كقوله في قصيدة مطلعها:

جَدَّ بقلبي ومَزَحْ ظَبيٌ من التُّرْكِ سَنَحْ

قال فيها عن حبيبه:

فَزارَني، والسُّكْرُ[1] قد جارَ عليهِ وَطَفَحْ[2]
يَهُزُّ عِطْفَيْهِ الشَّبا بُ بالدَّلالِ والمَرَحْ
جاءَ، وفي يُسْراهُ قَو سٌ، وبِيُمْناهُ قَدَحْ
كأنَّهُ الشَّمسُ بَدا مِنْ حَوْلِها قَوْسُ قزَحْ
يا لائمي في حُبِّهِ ما كُلُّ مَنْ لامَ نَصَحْ

.. الخ[3].

ان ذكر القوس ها هنا قد يشير الى معنى خاص اراده الشاعر، وفيه دليل على ان هذا الغلام فارس من الفرسان.

ان وقوف شاعر ما في محفل حاشد يضم وجوه المجتمع واعيان الناس ليبدأ قصيدة مدح، واصفا محاسن غلام او شاكيا من صده ودله، وما يعانيه في حبه من ويلات.. اقول ان ظاهرة كهذه لا بد ان تثير فينا الاشمئزاز وتدلنا على الهاوية التي انحدر اليها اولئك القوم، حتى صارت الفواحش والرذائل تتلى على رؤوس الناس فيهتزون لها، وربما طلبوا الاعادة والمزيد.

لقد كانت المقدمات الغزلية وسيلة يلجأ اليها الشاعر من اجل لفت الانظار وشد الاسماع. ولذلك اعتاد الشعراء ان يختاروا لمقدمات شعرهم ارق الالفاظ واجمل الاخيلة والمعاني واعف الصور الدالة على الهيام والوجد والم الفراق والبعاد.. مما يناسب مقام الممدوح ويحرك كرمه وأريحيته.. ولكن الدنيا في آخر العصر العباسي تبدلت، وآذنت شمس الحضارة العربية بالأفول، فصارت العادات الغريبة الشاذة يفتن في عرضها وتتصدر مدائح الكبار ويبتغى من ورائها الجوائز والصلات. وقد صدق من قال: «ان هذا النوع من الشذوذ ينشأ في العصور التي تبلغ فيها الحضارة ذروتها، ولكنه لا يمثل قمة التحضر، وانما يمثل قمة الفساد المادي في هذه الحضارة وبداية السقوط والانحدار[4].

(١) والسكر: بالاصل بالشين: والشكر، تصحيف.
(٢) طفح السكران: ملأه الشراب.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩ ـ ١٠٠
(٤) اتجاهات الشعر ص ٥١٩.

ومهما يكن فقد تبارى الشاعران ابن التعاويذي والابله البغدادي في هذا النوع من المقدمات لقصائد المديح، وكان لكل منهما اسلوبه الخاص وطريقته المتميزة في كيفية تناول الموضوع والتدرج فيه ثم التخلص منه الى غرض القصيدة الاصلي.

ويلاحظ ان الشاعرين أدركا العلاقة الوثيقة بين الخمر والغزل بالمذكر، ولذلك اتفقا على ان هذه المقدمات لا يصح ان تخلو من افتنان في وصف الخمر واشادة بدورها في تضييق شقة الخلاف بين الشاعر ومن يحب، وكذلك اتفقا على ان وصف الساقي او التغزل به والاعجاب بشمائله من لوازم تلكم المقدمات.

اما في الجوانب الاخرى من مقدمات هذين الشاعرين، فكان الابله البغدادي اكثر ولعا وتعلقا بهذه المقدمات من زميله لانها بلغت في ديوانه ثلاث عشرة مقدمة، وقد يكون سبب هذا الولع ما عرف عن الشاعر من ميل للغلمان وتعلق بهم[1]. ولا يستبعد ان يكون ابن التعاويذي - وقد اشرف على جمع ديوانه ورتبه بنفسه[2] - قد تناول هذا الديوان بالتهذيب، فاسقط بعض الابيات اوغير في طائفة من القصائد. ولم يشر احد - بحسب علمي - الى ان الابله قد اشرف على جمع شعره.

وتتميز مقدمات ابن التعاويذي بصورة عامة بالطول، والغالب على الشاعر فيها حديثه عن حبيبه، والمبالغة في ذكر محاسنه، والشكوى مما يعاني ويقاسي من دلاله وصده. اما مقدمات الابله فاقل طولا من ناحية، ويغلب عليها وصف الطبيعة والهيام بها اكثر من الغزل وذكر صفات وشمائل من يحب، وهي صفة سبق ان اشرت اليها عند دراسة خمريات هذا الشاعر.

ومن امثلة مقدمات ابن التعاويذي، هذه المقدمة:

نـارُ جَـوىً في الضُّلوعِ تَتَّقِـدُ ... ومُهْجـةٌ قـد أذابَهـا الكَمَـدُ
في حُبِّ لَـدْنِ القَـوامِ تَملِكـهُ ... يَـدي، ومالي بـالهَجْرِ منهُ يدُ
مُنْفَـرِدٌ بـالجَمـالِ عـاشقـهُ ... في حُبِّـهِ بـالغـرامِ مُنفـرِدُ
عَـرَّضَني للسَّقـامِ عـارِضُـهُ[3] ... ومُـذْ وَهَى خَصْرُهُ وَهى الجَلَدُ
كيفَ اصْطِباري عنهُ وقدْ فَنِيَتْ ... ذَخـائـرُ الصَّبـرِ فيـهِ والعُـدَدُ؟
امْ كيفَ يَخبو للشَّوقِ في كَبِدي ... نـارٌ لهـا نـارُ خَـدِّهِ مَـدَدُ؟

---

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦

(٢) انظر مقدمة الديوان المطبوع.

(٣) العارض: صفحة الخد.

وهلْ على مِثْلِ ما أكابِدُهُ في الحُبِّ يَبْقى لعاشقٍ كَبِدُ؟
أنجزَ وَعدِي بِزَوْرةٍ طالَمَا كانَ غَريمُ الهَوَى بها يَعِدُ
فباتَ يَجلو حَمراءَ تحسبُها مِنْ وجنتيهِ في الكأسِ تَتَّقِدُ
وَسَّدْتهُ ساعِدي ووسَّدَني خَدّاً لهُ سَيفُ لَحظِهِ رَصَدُ
... الخ[1].

وهي مقدمة تعكس الصفات الغالبة على هذا النوع من مقدمات الشاعر وتدور غالبيتها على وصف ما يعانيه الشاعر ويقاسيه من حب هذا الغلام: ففي البيت الاول «نار في الضلوع. ومهجة ذابت»، وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن «هجر هذا الغلام، وفي الرابع يوازن الشاعر بين «جلده الواهي» وخصر الغلام الواهي ايضا، وفي الخامس حديث عن نفاد صبر الشاعر، وفي السادس يحدثنا عن «نار الشوق «التي يزيدها اشتعالا خد الغلام الذي يحاكي النار في الحمرة والاتقاد..

اما مقدمات الابله فمنها قوله:

نَبَّهني، والنَّجمُ قد غارا[2] والصُّبحُ ما اسْفَرَ[3] إسْفارا
مُهَفْهَفٌ[4] شَعْشَعَ مِنْ خَدِّهِ نوراً ومِنْ حُمْرتِهِ نارا
قد حَلَّ زرَّ النَّومِ عن جَفْنهِ وشَدَّ فوقَ الخَصْرِ زُنّارا
وقامَ مِنْ رَقْدَتِهِ سُحْرَةً[5] بطَرْفِهِ السّاحرِ سَحّارا
يُبْدي على غُصْنٍ لُجَينٍ نَدٍ وَجهاً لهُ يُحْسَبُ دِينارا
لهُ عِذارٌ مذْ بَدا نَبتُهُ اقامَ لي في الحُبِّ أعذارا
يُصْبِحني[6] عانِيَّةً[7] أنفَدَتْ دِنانُها في العُمْرِ[8] أعْمارا
في رَوْضَةٍ أضحكَ مِنْها الحَيا بدَمْعِهِ الهاطِلِ أزهارا
قد عانَقَ المُخضرُّ مِنْ نَبتِها جَداولا زُرْقا وأنهارا
وانحَلَّ خيطُ الطَّلِّ[9] فيها ضُحىً يَبُلُّ للزَّهرةِ نُوّارا
... الخ[10].

---

(١) ديوان التعاويذي ص ١٥١ - ١٥٢
(٢) غار النجم: غاب.
(٣) سفر الصبح: أضاء وأشرق.
(٤) مهفهف: ضامر البطن، دقيق الخصر.
(٥) السحرة: السحر الأعلى، وهو ما قبل انصداع الفجر.
(٦) يصبحني: يسقيني الصبوح، وهو شرب الصباح.
(٧) عانية: بالاصل غانية (بالغين)، وعانية منسوبة إلى مدينة عانة العراقية وقد يقال عانات أيضا.
(٨) العُمْر: البيعة والكنيسة.
(٩) الطل: المطر الخفيف.
(١٠) ديوان الابله و ١٥٤

غزل مستقل:

في كل عصر لا بد ان يوجد منحرفون، خارجون على قيم المجتمع وتقاليده، وهؤلاء لا يكونون الا اقلية ضئيلة نبذها الناس وخافوا من شرها، ولذلك اختار لهم المؤرخون نعوتا تدل عليهم وتشير الى شذوذهم، فقالوا انهم خلعاء حينا، أو أنهم ماجنون حينا آخر.

ولكن لا بد من الاحتياط والاحتراز في هذا المجال، فليس كل من وصف بالخلاعة او المجون، عرف عنه الميل الى الغلمان، اورويت له اشعار في هذا الموضوع. فمثلا جاء في وصف ابن السَّوادِي الواسطي انه كان: شاعرا فاضلا ظريفا خليعا[١]..، ولكنني لم اقف لهذا الشاعر على غزل بالغلمان في اوسع ترجمة له وصلت الينا[٢].

ومن ناحية اخرى وصلت الينا اشعار في الغلمان لشعراء لم يقل احد انهم منحرفو السلوك، ولا يمكن عد هذا الشعر من غزل الظرفاء، الذي مر ذكره، بسبب خلاعة معناه[٣].

ولعل الغريب حقا أن تتباين الاحكام تباينا كبيرا حول اشهر من تغزل بالغلمان في القرن السادس، وهو ابو المعالي سعد بن علي.. الوارق الحَظِيري ـ المعروف بدلّال الكتب المتوفى سنة ٥٦٨ هـ: ففي مرآة الزمان، قال سبط ابن الجوزي ما معناه ان الاشعار التي اوردها العماد في خريدته، تدل على انه كان خليعا[٤]. اما ابن الدبيثي فقد قال عنه: «.. واشتهر بين الناس بالدين والثقة والعلم وكان دكانه مجمع العلماء[٥]..».

ان نص الخريدة المطبوع[٦]، يؤيد ماذهب اليه صاحب مرآة الزمان، وفي الوقت نفسه لا يمكن الطعن في رواية مؤرخ ثقة كابن الدبيثي.

ان اكثر الذين رويت لهم اشعار في التغزل بالغلمان هم من علماء الفترة التي ادرسها، ومن هؤلاء سعد بن علي الحظيري، السالف الذكر وهبة الله بن الحسين بن احمد البغدادي، المعروف بالبَدِيع الاصطرلابي المتوفى سنة ٥٣٤ هـ[٧]، ومحمد بن سعد بن عبد الله.. ابوعبد الله البغدادي، توفي بحلب سنة ٥٦٠ هـ[٨]، وهبة الله بن صاعد بن هبة الله.. موفَّق الملك امين الدولة المعروف بابن التلميذ البغدادي المتوفي سنة ٥٦٠ هـ[٩]، والحكيم

---

(١) وفيات الاعيان ٣/ ١٥٠
(٢) الخريدة ٤/ ٣٦٩ وما بعدها.
(٣) الخريدة ٤/ ٤٨٨
(٤) مرآة الزمان: ٨/ ٢٩٧
(٥) المختصر المحتاج إليه ٢/ ٨١
(٦) انظر الخريدة ٤/ ٣٣ وما بعدها.
(٧) معجم الأدباء ٧/ ٢٤١ ط. مار كليوث الأولى، وفيات الأعيان ٥/ ١٠١
(٨) المحمدون ص ٣٦١ ـ ٣٦٢
(٩) معجم الأدباء ٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٧ ط. ماركليوث الأولى، وفيات الاعيان ٥/ ١١٩ ـ ١٢٦

ابو العلاء محفوظ بن المَسيحي بن عيسى النصراني النيلي[١] الطبيب المتوفى سنة ٥٦٩ هـ[٢].

واشتهار العلماء بالميل الى الغلمان والتغزل بهم، ظاهرة ليست من ابتكار القرن السادس، بل هي معروفة قبل هذا القرن، واستمرت بعده، وستأتي الاشارة الى اسباب ذلك قريبا.

ففي القرون التي سبقت القرن السادس، عرف ابوعُبَيدَة مَعْمَر بن المُثنَّى المتوفى في اوائل القرن الثالث بالميل الى الغلمان، وكان لا يقبل شهادته احد من الحكام بسبب ذلك[٣]. وفي القرن الثالث ايضا اشتهر الفقيه محمد بن داود الاصبهاني المعروف بالظّاهري[٤] المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، صاحب كتاب الزّهرة، بالميل الى الغلمان[٥].

وفي القرن الرابع عرف المُفجّع[٦] البصري، صاحب ابن دُرَيْد ونائبه في البصرة وله قصيدة اوردها صاحب اليتيمة[٧]، يصف فيها هذا العالم كيف كان يخدع الغلمان تحت ستار تدريسهم الدين والشعر في جامع البصرة

اما بعد الفترة التي ادرسها فقد اشتهر قاضي القضاة شمس الدين احمد بن خَلّكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ بالميل الى بعض اولاد الملوك، وله فيه اشعار رائعة، ويقال انه اول يوم زاره بسط له الطَّرحَة[٨]، وقال له: ما عندي اعز من هذه، طأ عليها... [٩].

وهكذا يتضح ان آفة الميل والتغزل بالغلمان، ليست مقصورة على علماء القرن السادس وانما هو داء قديم معروف

أسباب تورط بعض العلماء في الغزل بالمذكر:

(١) ان بعض العلماء يشتغلون في المهن التعليمية، اوكمؤدبين لابناء الاغنياء اوذوي النفوذ، ومن هنا يكثر اتصالهم بصغار الشبان، في البيوت الخاصة، او في المدارس

---

(١) النِّيلي: نسبة إلى بليدة بالنِّيل وكانت قريبة من حلة بني مزيد (معجم البلدان ٨/ ٣٦٠)

(٢) الخريدة ٤/ ٤٩٨ ـ ٥٠٥

(٣) وفيات الاعيان ٤/ ٣٢٩

(٤) الظاهري نسبة إلى مذهب الظّاهِريَّة المجافي للتأويل والرأي والقياس، وهومذهب انشأه والد محمد هذا المتوفى سنة ٢٧٠ هـ.

(٥) الوافي بالوفيات ٣/ ٥٩

(٦) المفجع البصري: أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عبيدالله، له مصنفات كثيرة، وشعره قليل كثير الحلاوة، يكاد يقطر منه ماء الظرف. سنة ٣٢٠ هـ. يتيمة الدهر ٢ / ٣٣٤، (مط. الصاوي)، الاعلام ٦ /١٩٨

(٧) يتيمه الدهر ٢/ ٣٣٥ (مط. الصاوي).

(٨) الطرحة: لباس القضاة.

(٩) فوات الوفيات ١/ ١٠٠ ـ ١٠١

والجوامع، فاذا كان العالم منحرف السلوك، رقيق الدين نشأت بينه وبين تلميذه هذه الفاحشة[١].

(٢) قد يكون بعض العلماء من الاغنياء ذوي اليسار، وفي العادة يكثر في بيوت هؤلاء او قصورهم اصناف من الغلمان يعملون في خدمة اهل البيت[٢]، وفي العادة ايضا يكون هؤلاء من الروم او الفرس، ممن دربوا للقيام باعمال معينة، ويشترط فيهم الجمال والوسامة، ولذلك قد تنشأ بسببهم علاقات شاذة.

(٣) ان مكانة العالم الخاصة عند الخليفة، كأن يكون طبيبه مثلا[٣]، تمكنه من دخول قصور الطبقة العليا من اوسع ابوابها، وهذه القصور تضج في العادة بصنوف من الغلمان من اجناس شتى، وكلهم من المشهود لهم بالجمال البارع والظرف الارستقراطي، فتنشأ بينهم وبين بعض العلماء علاقات قد تبدأ بريئة خالية من الدنس والشذوذ، ولكنها ربما تطورت بعد ذلك حين يضعف العالم، فلا يستطيع تحمل الاغراء لمدة طويلة.

واذا كان تورط بعض العلماء في الغزل الشاذ، ربما اساء الى سمعة اكثرية علماء هذه المرحلة ممن لم تعرف عنهم هذه الرذيلة، اقول اذا كان هذا صحيحا فان اشتراك بعض العلماء في هذا النوع من الغزل ـ وهو قليل عموما ـ قد يكون هو السبب في غلبة الوصف المعنوي عليه وابتعاده ـ بصورة عامة ـ عن الخلاعة وذكر المغامرات الجنسية او الدبيب على الغلمان. ان غزل العلماء هذا يكاد يكون ـ في بعض الاحيان ـ فلسفة وليس غزلا، وخاصة عند الحظيري، وهو اكثر هؤلاء العلماء غزلا. تأمل مثلا قوله:

يـا آمِـري بـالصبـر عَنْ رَشـأٍ   قـلبـي يَـحِـنُّ الـى مَـآربِـهِ
دَعني، فصادُ الصَّبرِ قد قُسِمَتْ   مـا بَيْنَ حـاجِبِـهِ وشـارِبِـهِ[٤]

وقولهِ في غلام اشقر الشعر:

ما اشْقَرَّ شعرُ حَبيبي، إنَّ وَجْنَتَهُ   سَقَتْهُ مِنْ خَمرِها صِبْغاً، ولا خَجلا
وإنّما لَفحتْ خدّيـهِ مِنْ كَبِدي   نارٌ، وَدَبَّتْ الى صُدْغَيْهِ فاشْتعَلا[٥]

وقوله:

بِـنَـفْـسـي مَـنْ غَـدا يَـعْـجِـ   ـزُعَـن إدراكِـهِ الـفَـهْـمُ

(١) المحمدون ص ٣٦١، اتجاهات الغزل ص ٢٠٦   (٢) اتجاهات الغزل س ٢٠٩
(٣) تنظر ترجمة ابن التلميذ في وفيات الأعيان ٥/ ١٢٠، ١٢٤
(٤) الخريدة ٤/ ٣٥   (٥) نفسه ٤/ ٣٦

غـزالٌ كـادَ لـلرِّقـ ـةِ أنْ يَـجْـرحَـهُ الـوَهْـمُ (١)

ان البحث عن غزل او عاطفة في هذه الابيات، جهد ضائع، لان قائلها ليس شاعرا ولا عاشقا، وانما هو مفكر او فيلسوف، اعجبته فكرة فحاول ان ينقلها شعرا.

ومن هذا الغزل الفلسفي، قول ابن التلميذ:

أبـصَـرهُ عـاذِلـي عـليـهِ ولـم يـكـنْ قَـبْـلَ ذا رآهُ
فقـالَ لي: لـو عَشِقْتَ هـذا مـا لامَـكَ النّـاسُ في هَـواهُ
قُـلْ لي: الى مَنْ عَدَلْتَ عنهُ ولـيسَ أهـلُ الـهـوى سِـواهُ
فَـظَلَّ مِنْ حيثُ ليس يَـدْري يـأمـرُ بـالعِشْق مَنْ نَهـاهُ(٢)

ان الفرق الشاسع بين غزل العلماء هذا وغزل الشعراء، قد يزداد وضوحا حين نقرأ ابيات ابن افلح وهو يتغزل بمذكر:

أخِي، لم تَزَلْ في كُلِّ لأواءَ(٣) مُنْعِشَي(٤) فخُـذْ لي بثاري مِنْ لِحـاظِ يَرَنْقُش
فـإنْ جَحَـدْتَ أجفـانُـهُ سَفْكَهـا دَمي فـلي شاهـدٌ مِنْ خَدِّهِ غيـرُ مُرْقِش(٥)
ومـالَ بعِـطْفَيَّ الغَـرامُ، وقـدْ بَـدا لِعَينَيَّ، حتّى ظَـنَّ أنّي مُـنْتَشي(٦)
بـرَيّـان(٧) مـا يَحْـويـهِ عَقْـدُ إزارهِ وَغَرْثان(٨) مِقْلاق الوشاحِ مُعطّش(٩)
ولـمـا تَـلاقَيْـنـا بقَـلبـى وطَـرْفـهِ عـلى حَـذَرٍ مِمّـنْ يَنَمُّ ومَنْ يَشي
ضَعُفْتُ، وأعطاهُ الهَوى فَضْلَ(١٠) قُوةٍ فـاوثَقَني أسْـراً، ومَنْ يَقـوَ يَبْطِش
ومَنْ يتحـرَّشْ، بالـرَّدى، وهو وادِعٌ قَريرٌ الرَّزايا، يَلْقَ غِبَّ التَّحـرُّش(١١)

وعندي ان ميل العلماء الى الاوصاف المجردة في غزلهم وابتعادهم عن الفحش والخلاعة، يتفق وسمعة العالم ومكانته كرجل وقور مهيب من ناحية، وكذلك يمثل هذا النوع من الغزل الحياة الجنسية الباقية لدى هؤلاء الشيوخ، لانهم غير قادرين في هذا المجال الا على اطلاق العنان لألسنتهم وعقولهم من ناحية ثانية.

(١) نفسه ٤/٤٠
(٢) معجم الأدباء ٧/٢٤٦ ط. ماركليوث الأولى.
(٣) اللأواء: ضيق المعيشة، وشدة المرض.
(٤) منعشي: معيني ومنجدي.
(٥) مرقش: من رقش كلامه: زوره وزخرفه، ولا يوجد أرقش.
(٦) منتشي: من الانتشاء وهو بدء السكر.
(٧) الريان: الممتلىء.
(٨) الغرثان: الجائع، وأراد به هنا الضامر.
(٩) معطش: ظمآن، وأراد به هنا ضامر الخصر.
(١٠) الفضل: الزيادة.
(١١) الخريدة: ٢/٦٤

اتجاهان في الغزل بالمذكر:

١ - التغزل بالسقاة:

هذا لون من الغزل شاع ذكره في مجالس الشراب، فهو يتردد في مقدمات المدائح، كما يذكر في القصائد والمقطوعات المستقلة عن المدح، واذا جاز لنا ان نستعير الفاظ اصحاب الرياضيات والحساب لقلنا: ان التغزل بالسقاة هو القاسم المشترك بين جميع ضروب الشعر الخمري والغزل بالمذكر.

ولعل هذه المنزلة الخاصة التي يحتلها الساقي هي التي حملت بعض شعراء المدح الكبار في القرن السادس على ان يفتتحوا بذكره قصائد مدحهم في كبار شخصيات العصر واقطابه، مثل سينية ابن التعاويذي في مدح الخليفة الناصر لدين الله:

طافَ يَسْعَى بها على الجُلّاسِ   كقَضيبِ الأراكَـةِ الـمَيّـاسِ (١)

وجيميته في مدح مجد الدين بن الصاحب:

بـاتَ يَـجْلوهـا عـلى نَـدْ   مـانِـهـا والـليـلُ داجِـي
رَشـأ حَـرَّكَ أشْـجـا   نـي بـطَرْفٍ منـه سـاجـي(٢)

ومن مدائح الابله:

أدِرِ المُـدامـةَ بيننـا يـا سـاقي   حَتّى تَكِلَّ يدي ويَضْعُفَ(٣) ساقي

وقوله:

بـاكَـرَ يَجْلو مُـدامـةً بِـكْـرا   مُعيـرُهـا مِنْ لِحـاظِـهِ السُّكْـرا
أحْـورُ سـاجي الجُفـونِ مُقْلَتُـهُ   تُخْلِقُ صَبْري وتَخْلُقُ السِّحْرا(٤)

وللساقي - كما يذكر صاحب حلبة(٥) الكميت - شروط وآداب يجب مراعاتها، وفي مقدمة الجميع: «ان يكون بديع الجمال، زائدا في الظرف والدلال، يفوق ببديع محاسنه الاتراب، ويدهش بلطف شمائله عقول اولي الالباب . . » ومن نص النَّواجي هذا، يبدو ان جمال الجسم وحده لا يكفي ليدخل الساقي البهجة والحبور الى قلوب السكارى، بل لا بد من جمال الروح ايضا او «الظرف والدلال» كما قال.

وعلى الرغم من اجماع شعراء القرن السادس على جمال الساقي وبهاء طلعته ولذلك

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦
(٢) نفسه ص ٧١
(٣) ديوان الابله و ٧٠
(٤) نفسه و ١٤٨
(٥) حلبة الكميت ص ١٤٥ وما بعدها.

افتنوا في تصويره واختاروا له اروع الصفات واجمل التشبيهات، فقالوا: انه بدر[١] حينا، او انه ظبي حينا آخر[٢]، وقال ابن حِكّينا:

يَـدورُ بهـا مُستـدِيـرُ العِـذا ... رِ أسلبَ منها لعقـلِ النَّـديمِ

يُضِـلُّ البَصيـرَ بـوجـهٍ مُنيـرٍ ... ويُبْري السَّقيمَ بطَرْفٍ سَقيمِ[٣]

ولكن بالرغم من هذا الميل الى وصف جمال الساقي عامة، فان اشعار القوم تدل على ان عيني الساقي هما اكثر اعضائه فتنة للشعراء، ولذلك قل أن يذكر الساقي دون اشارة الى سحر عينيه وسهامهما التي تشق القلوب قبل الجلود. قال الابله:

طـافَ علـينـا بكـأس راحٍ ... كـحيـلُ عَـينٍ خَضـيـبُ راحِ

أحـورُ تَـلْقـاهُ مـا تـثـنـى ... للدَّلِ نَشـوانُ وهـو صـاحي[٤]

وقال:

ساجي الَّلحاظِ تُريكَ صنعةُ عينهِ ... فَتكاتُ مَسْنونِ الغِرارِ[٥] رَضيعِ[٦]

وللامير حسام الدولة:

يُـديـرُ مِنْ طَـرْفِـهِ ومن يـدِهِ ... خَمرين يَنْحازُ عنهما الرَّشَـدُ[٧]

وقال العلاء الواسطي:

فَشَـرِبْتُها مِنْ كـأسِهِ، وشَـرِبتُهـا ... مِنْ لَحـظِهِ رَشْفاً بغيـر إنـاءِ[٨]

اما جمال الروح في السقاة، وهو الشرط الثاني اللازم لنجاح هذا النوع من الغلمان، فقد اشار اليه ابن التعاويذي:

حُـبُّـهُ قـد نـيط[٩] مِـنْ ... حَبَّـةِ قلـبي بـالـنِّيـاطِ[١٠]

قـابِـلُ حُـكْـمـي عـلى كَـثْـ ... رَةِ سَـوْمـي واشْـتِـطاطِـي

فـهـو مَـخـلوقٌ عـلى وَفْـ ... ـقِ اقْـتِـراحي واشْـتِـراطي[١١]

وقال الابله:

جـاءَ بـهِ الـحُسـنُ بَـدْرَ تـمٍّ ... حُلوَ الفُكـاهـاتِ والمُـزاحِ[١٢]

---

(١) الخريدة ٢/ ٢٥٨
(٢) نفسه ٢/ ١٨٥
(٣) نفسه ٢/ ٢٤٠
(٤) ديوان الابله و ٠٣
(٥) الغرار: حد السيف.
(٦) ديوان الابله و ٢٢
(٧) الخريدة: ٤/ ٧٢٠
(٨) نفسه ٤/ ٣٧٩
(٩) نيط: ربط وعلق.
(١٠) النياط: الفؤاد.
(١١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٥٩
(١٢) ديوان الابله و ١٠٣

ومن استعراض النصوص الشعرية المختلفة، يلوح لي ان جمال الوجه واعتدال القوام يأتي بالمرتبة الاولى عند شعراء القرن السادس، وان جمال الحديث وحلاوة الروح، تكاد تكون من الكماليات.

٢ - التغزل بالعذار:

ان الذين تغزلوا بالمذكر - مثل العشاق في الغزل بالمؤنث - يكثرون من ذكر الجوانب او الاعضاء التي فتنتهم في هذا الذكر، وكأنهم بذلك يلتمسون لانفسهم الاعذار، ويحاولون اقناع الناس بأن ليس في وسعهم الا الخضوع والطاعة لسلطان الجمال وتمثال الفتنة والاغراء.

لقد كان من بين صفات الذكور التي فتنت الشعراء: طول القامة ونحولها ولذلك شبهوا امثال هذا الغلام بالغصن حينا[١]، وبقضيب الاراكة المياس حينا آخر[٢]، وربما قالوا: ان امثال هذا الغلام قد اقام قيامة الشاعر[٣]، تعبيرا عن فرط الاعجاب وشدة الوله.

وكان للعيون نصيبها من هذا الغزل، فقالوا: انها كحيلة وحوراء[٤]، أو أنها تشبه عين الظبي:

يَحكي الغزالةَ جِيداً ومُقْلَةً ونِفارا[٥]

ومن الجديد في فتنة العيون هذه، غرام ابن التعاويذي بعيون الجند الاتراك وهو غرام لم يعرفه الشعر العربي قبل هذا الشاعر، اذ لم يسبق ان تغزل شاعر بجندي، لان هذا الاخير رمز القوة والخشونة، وخوض المعارك ومصاولة الفرسان، ولكن يبدو ان كثرة الجند التركي في الجيش العباسي، وما عرف به هؤلاء من جمال هو الذي فتن اهل بغداد، فتطوع شاعرهم للتعبير عن هذه الفتنة بمثل قوله:

مِنْ كلِّ رامٍ عَنْ قَوسِ حاجِبِهِ بمُصْمِياتٍ[٦] نِصالُها الحَوَرُ
مؤنّث الزّيِّ في لواحِظِهِ مِنْ غُنْجِ عَينيهِ صارِمٌ ذَكَرُ[٧]

وقوله:

وبِغِلْمَةٍ مِثْلِ الشُّموسِ عَوابسٍ خَلَطوا البَسالةَ بالجَمالِ الباهِرِ
فَلهمْ اذا اعتَقَلوا أنابيبَ القَنا نَظَرُ الضَّراغمِ مِنْ عُيونِ جآذِرِ

---

(١) نفسه و ١٨١، ١٠٣، ١٦٠
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٦
(٣) الخريدة ٤/ ٢٠٥
(٤) ديوان الابله و ١٠٣
(٥) نفسه و ١٥١
(٦) بمصميات: من أصمى: اصاب مقتلا.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١١٥٩

اصمى الكُماةَ بمَقْصَدٍ منْ كَفِّهِ ورَمَى القُلوبَ مِنَ اللَّحـاظِ بِعائِرِ[1]

وقوله:

مِنْ كلِّ مَنْ لو كانَ يُنْصِفُ لاكتفى بلحـاظِـهِ من ذابِـلٍ وحُسـامِ
يصمى الـرَّمِيَّةَ راشِقـاً مِنْ كَفِّـهِ طَـوراً، ومِنْ أجفـانِـهِ بِسهـامِ
غُلْبٌ، ولكنْ في المَغافِرِ[2] منهمُ حَدَقُ[3] المَهاوسَوالِفُ[4] الآرامِ[5]
هـذا يَكُـرُّ بـذابِـلٍ مِنْ قَـدِّهِ لَـدْنٍ، وهـذا بـاللَّواحِظِ رامِ[6]

ولعل اول ما ينبت من لحية الغلام او ما سمي بـ «العِذار» هو فتنة العصر الكبرى التي تبارى الشعراء في ذكرها، حتى تعدى الامر مقدمات المدائح والمقطوعات المستقلة عن المدح الى نظم أبيات أو مقطوعات خاصة في العذار ومعانيه كما فعل الحَظِيري في الابيات العِذاريّات[7].

ومن المرجح ان موجة العذار هذه، قد شملت الخاص والعام، والجاد والهازل هي التي أوحت لابن قزميّ[8] ان يختم بذكره احدى مقطوعاته الغنائية، وهي التي اولها:

مَـدامِـعُـهُ تُـغْـرِقُ وأنـفـاسُـهُ تُـحـرِقُ

قال في آخرها:

وكـاتِـبُ خَطِّ الـعِـذا رِ في خَـدِّهِ يَـمْـشُـقُ[9]

ويعد سبط ابن التعاويذي والابله البغدادي وابو المعالي الحظيري، اشهر من لهج بذكر العذار ونعته بين شعراء القرن السادس قاطبة.

اما الشاعران الاول والثاني، فقد رددا ذكر العذار والتغزل به في مقدمات قصائد المديح، وقد يكون لهذا الذكر علاقة برغبات بعض الممدوحين، واثر ذلك في جائزة الشاعر. وقد اتفق الشاعران في هذه المقدمات على القول بان عذار الغلام المتغزل به، هو سبب الفتنة وطليعة المصيبة.

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٩، العائر: السهم الذي لا يدري راميه.
(٢) المغافر: واحدها مِغْفَر وهو زرد يلبسه المحارب تحت القَلَنْسُوَة.
(٣) المها: واحدتها مَهاة وهي البقرة الوحشية.
(٤) السوالف: مفردها سالِفَة: صفحة العنق.
(٥) الارام: مفردها رِئْم: الظبي الأبيض.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٠
(٧) الخريدة ٤/ ٣٣
(٨) أنظر: الفصل الثالث (الغزل المغنى).
(٩) الخريدة ٢/ ٣٣٦

قال ابن التعاويذي:

يَغضَبُ إنْ شَبّهتُهُ بالبدرِ عِذارُهُ الى العذولِ عُذْري[1]

وقال:

أقولُ لمَنْ لامَني في هَواهُ رُوَيداً، فلي في عِذاريهِ عُذْرُ[2]

وقال الابله:

وخَطٍّ فوقَ الوردِ منْ خَدِّهِ آسَى عِذارِ أوضَحَ العُذْرا[3]

وقال ايضا:

لهُ عِذارٌ مُذْ بَدا نَبتهُ أقامَ لي في الحُبِّ أعْذارا[4]

ومن المرجح ان الجمع بين العذار في امثال هذه الابيات، يحقق هدف الشاعر في الوصول الى الجناس، وهو من محسنات البديع التي راجت وشاعت في هذه الفترة[5].

وفي مجال الموازنة بين ابن التعاويذي والابله في هذا الموضوع، يبدو الابله مندفعا جريئا اكثر من زميله، وربما غير مبال باصحاب الاخلاق، لانه يقول:

حاشَ لي لا أُري خَليعَ عِذارٍ في هَوى مَن له عِذارٌ جَديدُ[6]

ويقول:

لهُ جَديدُ عِذارٍ خَلَعتُ فيه العِذارا[7]

ومن الطبيعي بعد ان وجدنا ابن التعاويذي والابله يتفقان حينا في موضوع العذار، اقول من الطبيعي ان نجدهما يختلفان حينا آخر حول جوانب جديدة من الموضوع ذاته. اما الابله فقد انفرد عن زميله بالحاحه على تشبيه العذار بحرف اللام، وهو ما لم اعثر عليه في ديوان ابن التعاويذي.

قال الأبله:

وعِذارُكَ اللامُ الذي مُذْ لاحَ لاحَ وقامَ عُذْري[8]

وقال:

في مِثْلِ خَطِّ عِذارِه ذاكَ الذي كاللّامِ حُسناً تَعذِرُ اللّوّامُ[9]

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٢، وانظر أيضا ص ٣٣٣، ٩٩
(٣) ديوان الابله و ١٥٠
(٤) نفسه و ١٥٤، وانظر أيضا و ٢٢، ١٦٠، ١٧٣
(٥) انظر الدراسة الفنية في آخر هذه الرسالة.
(٦) ديوان الابله و ٢٣
(٧) نفسه و ١٥١
(٨) نفسه و ١١٧
(٩) نفسه و ١١٨

وقال ايضا:

عـــلى لامَـــيْ عِـــذارَيْـــهِ غـــدا الّـــلائـــمُ لـــي عـــاذِرْ[1]

اما ابن التعاويذي فقد اختلف عن زميله بافتتانه ـ كما سبق ان اشرت ـ بجمال الجند الاتراك، ولذلك راح يوجد للعذار عند هؤلاء الجند «تشبيهات عسكرية» اذا صح التعبير، كأن يقول: ان زرد الدروع عند هؤلاء الجنود تحته زرد آخر هو زرد العذار:

أغيـدُ[2] مَصْقـولـةٌ تَـرائبُـهُ[3] أينَ الكَمِيُّ الكَـرَّارُ والغَيَـدُ؟
يَحيـدُ تِيهـاً الى فَـريسَتِـهِ والّليثُ ما في صِفاتـهِ حَيَـدُ
مِـنْ زَرَدٍ مُـحْكَـمٍ بَـراقِعُـهُ وتَـحْتَـهـا مِـنْ عِـدارِهِ زَرَدُ[5]

وقال:

مِنْ لُيوثِ الشَّرى[6] اذا دارَتِ الحَرْ بُ، وفي السِّلْمِ مِنْ ظِباءِ الخُدورِ
فـالعِذارُ الـطَّرِيـرُ[7] في خَـدهِ أفْ تَـكُ مِنْ حَـدِّ سيفـهِ المَـطْرورِ[8]

وقال:

كالظَّبي مَصْقولِ العِذارِ لَهُ اذا اعـ تـركَ الفَوارسُ وَثْبةُ الضِّرغامِ[9]

ويبدو لي ان ابن التعاويذي ـ لفرط حرصه على الاشادة بجمال الجنود ـ لم يعد يأبه للكلمات العربية ودلالاتها، فقد صار همه ان يقول شيئا جميلا أو جديدا عن ظاهرة ملكت عليه حواسه، ولا يهمه بعد ذلك غضب اهل اللغة وصراخهم، اقول هذا لانني لا اعرف كيف يكون للعذار زرد؟ وكذلك لا احسب رجال اللغة يوافقون على وصف ابن التعاويذي للعذار بأنه «مصقول».

اما الحظيري فقد عبر عن سبعة معان للعذار لم ترد في شعر زميليه ابن التعاويذي والابله، وخصص بيتين أو ثلاثة للتعبير عن كل معنى، وبذلك اصبح مجموع ابياته العذاريات سبعة عشر بيتا.

ومن المألوف ان الغزل بالمذكر ـ مثل شعر الخمر ـ شديد العلاقة بالمجون والخروج

---

(١) نفسه و ١٨١
(٢) أغيد: من الغَيَد: النعومة.
(٣) الترائب: واحدتها تربية: أعلى الصدر.
(٤) يحيد: يميل.
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٥٤
(٦) الشرى: مأسدة.
(٧) الطرير: المحدد كالسنان.
(٨) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٥
(٩) نفسه ص ٣٨٠

على القيم والاعراف الاجتماعية، بل ان الغزل بالمذكر يكاد يكون هو المجون بعينه، ولذلك جاء معنيان من معاني العذار السبعة عند الحظيري ماجنين خليعين، وهما اللذان شبه فيهما العذار بالدجى مرة وبـ اللجام في المرة الثانية[1].

اما ابتعاد ابن التعاويذي والابله عن المجون في غزلهما بالمذكر، فسببه أن غزلهما كان في مقدمات قصائد المديح، وهو غرض شعري له تقاليد واعراف لا تسمح للشاعر بالانحراف. والحظيري لم يكن يمدح احدا حين نظم معانيه، ولذلك ارسل نفسه على سجيتها.

اما بقية معاني الحظيري ـ غير المعنيين الماجنين ـ فقد شبه فيها العذار بـ جسر من الشعر، وبالظلمات، وبالنمل، وبنقش فصوص الخواتم، وبنقطة من عثرة القلم[2].

قال مشبها العذار بالنمل:

قالوا: التحى فاصْبُ الى غيرهِ ... قلتُ لهم: لَستُ إذنْ أسلو
لو لمْ يكنْ مِنْ عَسَلٍ ريقُهُ، ... ما دَبَّ في عارضِهِ النَّمْلُ

وقال في التشبيه بـ نقش فصوص الخواتم:

ومُهَفْهَفٍ[3] شَبّهتُهُ شمسَ الضُّحى ... في حُسْنِ بَهجتِها وبُعْدِ مَكانِها
قد زادَهُ نَقشُ العِذارِ مَحبَّةً ... نَقشُ الفُصوصِ يَزيدُ في أثمانِها

المجون والسخف:

اذا زاد الشاعر في هجائه وغزله وفي شعر الخمر على الحدود المسموح بها خلقيا سمي هذا النوع من الشعر مجونا او فحشا أو إحماضا أو هَزْلا.

ولكن ملازمة المجون للهجاء والغزل بالمذكر والخمريات، لا تعني ان هذا الضرب من الشعر لا يوجد في سواها. فقد يعبر الشاعر عن معان ينفر منها الذوق السليم وتأباها الاخلاق الكريمة، فيكون شعر الشاعر ـ بسبب رداءة الموضوع مجونا، كقول ابن التعاويذي:

لم يَبقَ لي في هَوى الغَواني ... مُنذُ تَقَضّى الصبا طَماعَه
أعرضْنَ عَنّي، فكنتُ قِدْماً ... فيهنَّ ذا إمرَةٍ مُطاعَه

---

(١) الخريدة ٤/ ٣٣ ـ ٣٤
(٢) الخريدة ٤/ ٣٣ ـ ٣٥
(٣) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر.

خَلَعْتُ نَفْسي مِنَ التَّصابي ... ما لأخي الشَّيْب والخَلاعَهْ؟
أنكرْنَ مِنّي شَيْباً وعُدْماً ... ولا بِضاعٌ ولا بِضاعَهْ[1]

وقوله:

قَوّادَةٌ فارِهَةٌ ... لَطيفَةُ التَّوصُّلِ
تَهْوي[2] الى أغراضِها ... مِثْلَ هَوِيِّ الأجْدَلِ[3]
لو شَهِدَتْ صِفّينَ أو ... وَقْعَةَ يومِ الجَمَلِ
تَوَصَّلتْ في الصُّلْحِ ما ... بينَ ابنِ هِنْدٍ[4] وعَلي
وأصْبَحَتْ عائشةٌ ... عَنْ حَربِهِ بِمَعْزِلِ[5]

وأكاد أجزم ان موضوع هذه المقطوعة الأخيرة، لم يجروء شاعر في العصر العباسي على طرقه، على الرغم من ان شعراء هذا العصر هم السابقون الى ضروب من شعر السخف لم تخطر ببال سواهم[6]، واكاد اجزم ايضا ان شاعر القرن السادس تبع عمر بن ابي ربيعة في قوله:

وأتَتْها طَبَّةٌ مُحْتالَةٌ ... تَمْزُجُ الجد مِراراً بالّلعِبْ
تَرْفَعُ الصَّوْتَ اذا لانَتْ لَها، ... وتُراخِي عندَ سَوْراتِ الغَضَبْ
وهي، إذْ ذاكَ، عَليها مِئْزَرٌ ... ولَها بَيتُ جَوارٍ من لُعَبْ
لم تَزَلْ تصرفها عَنْ رأيها، ... وتأتّاها[7] بِرِفْقٍ وأدَبْ[8]

ان التعرض لموضوع كالمجون في القرن السادس، لا بد ان يحمل الباحث على الشك فيما اوردته مصادر الفترة الرئيسية ومنها خريدة القصر للعماد الاصبهاني ووفيات الاعيان لابن خلكان وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي، لان نعت شاعر ما بأنه ماجن أو خليع او انه عرف بشعر الهزل ـ كما فعلت تلك المصادر ـ يوحي للباحث بمجموعة من الافكار تغاير

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٦٩
(٢) تهوي: تنقضُّ.
(٣) الاجدل: الصقر.
(٤) ابن هند: معاوية بن أبي سفيان.
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٦٠، وانظر ايضا الخريدة ٢/٦٩
(٦) انظر: يتيمة الدهر عن ابن سُكَّرة وابن حَجّاج وغيرهما من شعراء القرن الرابع.
(٧) تأتاها: أي تأتيها مترفقة.
(٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٩

تماما ما يوحيه تجريد الشاعر من هذه الصفات والنعوت، لا سيما ونحن لا نملك مجموعات كاملة او حتى شبه كاملة لشعر اولئك الشعراء ـ باستثناء ابن التعاويذي والابله ـ ولذلك لا مفر من الاعتماد على ما يقوله المؤرخون.

١ ـ ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي، لم يشر احد اطلاقا الى انه خليع او ان له شعرا يضعه في مصاف الخلعاء وربما في طليعتهم، ولكن ديوان الشاعر ـ وهو مطبوع متداول ـ يوحي بان الرجل يختلف تماما عما صوره مؤرخونا سامحهم الله، ولا يتفق ابدا مع مكانته الجليلة في كتبهم.

ان التنقيب في زوايا ديوان الشاعر وتتبع تلك الاهاجي التي ضمها بين دفتيه[١]، لا بد أن يقنع الباحث باستحالة كون ابن التعاويذي صاحب الديوان هو نفسه الذي بالغ المؤرخون في الثناء عليه، وقال عنه ابن خلكان: ان شاعرا لم يظهر مثله منذ مئتي سنة[٢]. ولعل المستشرق مارجليوث، ناشر ديوان الشاعر وجامعه، قد تجاوز على اصول النشر والتحقيق حين اسقط «بعض ابيات» من مقطوعة[٣] له في هجاء ابن المعلم زميله، سبق ان نص صاحب وفيات الاعيان على بذاءتها[٤].

ولست اشك ان بعض المعاني والالفاظ التي اوردها ابن التعاويذي في أهاجيه لا يرددها الا السوقة من عامة اهل بغداد حين يشتم بعضهم بعضا.

ولعل السؤال المهم هنا هو: اذا كانت اهاجي الشاعر بهذا الشكل، وقد اشرف على جمع ديوانه بنفسه[٥]؟ فكيف كان هجاؤه قبل ان يعيد الشاعر النظر في ديوانه؟ وكم عدد المقطوعات والأبيات التي اسقطها أو غيرها؟

٢ ـ والشاعر الثاني الكبير الذي لم يلمح القدماء الى اتجاهه وجهة سخيفة في طائفة من شعره، هو الابله البغدادي. قال عنه صاحب الخريدة ـ بعد ان اثنى على جودة شعره ـ: وله مذهب في الهجو مطبوع، ومنهج في القلب مسلوك متبوع[٦]. وهي عبارة توحي بان الابله قد ابتكر طريقة في الهجاء طريفة، لا يملك المرء الا أن يعجب بها. وبالرجوع الى ديوان الشاعر، وجدت له (٢٠) مقطوعة، ليست من الهجاء، او بعبارة اخرى: ان معظمها من الكلام الفاحش البذيء، المشحون بذكر العورات والقذارات التي تزكم الانوف[٧]، فهل

---

(١) انظر الديوان ص ١٥، ٦٢، ٧٥، ٧٧، ٩٧، ١٤٢، ٢١٨، ٢٤٧، ٤٨٠
(٢) وفيات الأعيان ٤/ ٩٠
(٣) الديوان ص ٧٥
(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٩٨
(٥) انظر مقدمة الديوان المطبوع ص ١١
(٦) الخريدة/ نسخة ايران ١٦٠
(٧) ديوان الابله و ١٨٩، ١٩٠، ١٨٨، ٦٦، ٦٣، ٤٤، د، ٤٥

هذا المجون هو مذهب الابله «المطبوع» في الهجاء؟

وقد يقال ان صاحب الخريدة ربما اراد تلك المقطوعات الخالية من الاقذاع والفحش. والجواب ان امثال هذه المقطوعات، قليلة جدا، لا تكون مذهبا، من ناحية، وحظها من الشاعرية والفن قليل، من الناحية الثانية. ومن امثلتها قول الابله:

أقْسَمْتُ لو ماتَ مَحمودٌ، ولَمْ ... يَغْسِلْهُ إلّا بماءِ الوَرْدِ غاسِلُهُ
ومُنْكَرٌ وَنكيرٌ سائلانِ لهُ ... عَمّا جَنى، وهو قَبلَ الموتِ فاعِلُهُ
وأقعَداهُ وفاحَتْ ريحُ نَكْهَتِهِ ... وكيفَ يَبْقى، وذاكَ الدّاءُ قاتِلُهُ؟
عاذَى الى اللهِ بل عاذَى وقولُهما: ... إبعَثْ اليهِ سِوانا مَنْ يُسائلُهُ[1]

وقوله يهجو شريف الرَّحْبَة[2]:

لـه يَدٌ يابِسَةٌ في النَّدى ... ومُقْلَةٌ ـ لا نَظَرتْ ـ رَطْبَهْ
لا يأكُلُ اللّقمةَ مع عِرْسِهِ ... في الدّارِ حَتّى تَدْخُلَ القُبَّهْ
يقولُ: إنّي هاشِميٌّ، وهَلْ ... يَصدُقُ مَنْ لَيستْ له نِسْبَهْ؟
ومالَهُ ـ إنْ رُمْتَ تَعريفَهُ ـ ... أبٌ ولا أُمٌّ سِوى الرَّحْبَهْ
عَلِمْتُ في هَجْوي لـه أنَّهُ ... الى النَّبيِّ المُصطَفى قُرْبَهْ[3]

وبعد: فلعل الذين اهتموا بأدب القرن السادس لوقالوا: ان سبط ابن التعاويذي والابله البغدادي ليسا بعيدين كثيرا عن ابن الرومي في الهجاء، اقول لو ان مؤرخينا أضافوا هذه العبارة الى ما كتبوه، لا يقنت انهم منصفون، وانهم مطلعون فعلا على ديواني الشاعرين.

ان تيار السخف في الشعر العربي، وقد بلغ الغاية ايام بني بويه في القرن الرابع على يد ابن سُكَّرة وابن الحَجّاج[4]، هذا التيار استمر في القرن الخامس حتى قال الدكتورعلي جواد الطاهر: ان لديه من النصوص في هذا الموضوع ما يكفي لكتابة فصل[5]. وكان شيخ السخفاء في القرن الخامس ابن الهَبّاريّة، وقد سار على نهج ابن الحجاج «وسبك في قالبه، وسلك اسلوبه وفاقه في الخلاعة والمجون»[6].

---

(١) ديوان الابله و ٦٤

(٢) الرحبة: في معجم البلدان ٢٣٤/٤ انها اسم لاكثر من مكان، فهناك رحبة بحذاء القادسية ورحبة قريبة من صنعاء اليمن، ورحبة خالد بدمشق. ولست أدري أية رحبة أراد الشاعر.

(٣) ديوان الابله و ١٨٧

(٤) ينظر «الأدب في ظل بني بويه».

(٥) الشعر العربي ١٢٨/٢

(٦) الخريدة ٧٠/٢ ـ ٧١

اما في القرن السادس فقد اشتهر بالسخف كل من : ابي المعالي الحَظِيري الوراق[١] والحسن بن احمد بن حِكّينا،[٢] وعلى بن أفْلَح الكاتب[٣]، وابو الفرج العلاء بن علي الواسطي المعروف بابن السَّوادي[٤]، وابو الحسن علي بن الحسن المعروف بشُمَيْم الحِلّي المتوفي سنة ٦٠١ هـ[٥]، وانوشروان الضرير الشاعر المعروف بشيطان العراق[٦]، وابو القاسم هبة الله بن الحسين البديع الاسطرلابي[٧] .

ولكن هذه الوفرة في عدد الشعراء، تقابلها شحة في كمية النصوص التي وصلت الينا، وهكذا ليس بوسع الباحث الا ان يكتفي بسرد الاسماء.

اما اسباب هذه الظاهرة فقد ذكرتها في مكان آخر من هذه الدراسة[٨] .

---

(١) نفسه ٤/ ٣٧، ٥١

(٢) المختصر المحتاج إليه ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦

(٣) الخريدة ٢/ ٥٣

(٤) وفيات الاعيان ٣/ ١٥٠

(٥) نفسه ٣/ ٢٦

(٦) نكت الهميان ص ١٢٢

(٧) وفيات الأعيان ٥/ ١٠١

(٨) انظر: الفصل الثالث: الهجاء.

الفصل السادس
الدِرَاسَة الفنيــة

١ ـ اللفظ والمعنى:

مرت بنا فصول طوال ونماذج كثيرة من شعر العراق في القرن السادس شملت أغراضا مختلفة من مدح وهجاء وغزل ورثاء، وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن الصفة الغالبة على الفاظ الشعر ومعانيه هي الوضوح الشديد والبعد عن التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي[١]، فلا يحتاج القارىء المتوسط الثقافة الى اجهاد فكر أو مراجعة معجم او كتاب من كتب اللغة، ليدرك ما يعبر عنه الشعراء.

لقد هجر الشعراء الالفاظ الغريبة التي لا يعرفها الا خاصة العلماء ومالوا الى التعبير عن معانيهم باقرب الالفاظ واسهلها، كذلك ليس بين شعراء العصر الكبار من اولع بالفلسفة والمنطق او ما سمي بعلوم الاوائل، بل ان دراسة هذه العلوم والميل الى مصنفاتها واخبار رجالها، كان من المحرمات في الفترة التي ادرسها[٢]، ولذلك لا نعجب اذا رأينا معظم الشعراء ينظمون اشعارا خالية من المعاني والافكار التي لا يمكن التوصل اليها الا بعد جهد جهيد.

ومع طول الفترة، وكثرة الشعراء، وتبيان اساليبهم، لا بد من استثناءات:

أ ـ ان اساليب الشعراء ـ وخاصة الكبار منهم ـ تتباين تباينا شديدا بين غرض وآخر. انهم يبدون اهتماما ملحوظا، فيجودون اشعارهم ويختارون لها الالفاظ والمعاني والاساليب التي تليق بكبار الشخصيات الذين يمدحونهم طمعا في الحصول على اكبر الجوائز وأسخاها، ولكن هؤلاء الشعراء انفسهم يخفقون اخفاقا شديدا ويعجزون حتى عن النظم المتماسك لا الجيد حين يطرقون غرضا آخر. لا ينتظر منه جائزة، ولا يراد منه الحصول على اعجاب احد، كالغزل على سبيل المثال

---

(١) المثل السائر ص ١١٤ وما بعدها (المط. البهية).

(٢) انظر: الفصل الاول من هذه الرسالة ص ٣١.

ان ابن التعاويذي ـ مثلا ـ يتغزل في مقدمات المدائح، فيحسن ويجيد، ويشد اليه الاسماع والقلوب شدا، حتى اذا جئنا الى مقطوعاته في الغزل المستقل عن المدح، كدنا ننكره، فليست هناك من صلة بين هذا الغزل المتكلف الهزيل، وبين مقدمات المدائح، وما فيها من شاعرية تلفت النظر، وتأخذ بمجامع الافئدة. تأمل هذه المقطوعة من غزله:

لـو لانَ قلبُـكَ في الهَـوى[١] لَـرَثَيْتَ لي مِنْ لَوعَـةِ الحُبِّ
لكنْ قَسوتَ فما رَثَيْتَ لِذي كَمَـدٍ ولا تَحْنـو على صَبِّ
يـا مَـنْ أُواصِلُهُ على مَلَلٍ فيـه، ويَهْجُرُني بـلا ذَنْب
يُذكي ضِرامَ الشَّوقِ في كَبِدي وَيـذودُني عَنْ رِيْقـهِ العَذْب
كُنْ كيفَ شِئتَ، فَما أميلُ الى عَـذْلٍ، ولا أُصغي الى عَتْب
هَيْهـاتَ أطْمَـعُ في السُّلوِّ وقـدْ أخـذَ الهَـوى بِمَجـامِـعِ القَلْب
أو أنْ أنـالَ على البِعـادِ رِضَى مَنْ كانَ يَسْخَطُ بي على القُرْب[٢]

قارن هذا الغزل بأية مقدمة من مقدمات مدائحه، فستجد البون شاسعا والشعر متباينا من جميع النواحي: اللغة، والخيال، والعاطفة، والفكرة، حتى يحار المرء، ويتساءل: لم اثبت الشاعر امثال هذه المقطوعة في ديوانه، ما دام قد اشرف على جمعه بنفسه[٣]؟

ب ـ ان ميل الشعراء عموما الى الالفاظ الواضحة السهلة، يجب أن يستثنى منه المدرسة البدوية، اومدرسة الحيص بيص، فقد كان هؤلاء خارجين على طابع العصر العام، وصفاته الاسلوبية البارزة، كما سبق ان اوضحت[٤].

جـ ـ يمكن القول ان الشعراء كانوا يقسمون مدائحهم بحسب اقدار الممدوحين ومكانتهم الاجتماعية، فلا يصح ان يكون الاسلوب المتبع في مدح الخليفة هو نفسه الذي يصطنعه عند مدح السلطان السلجوقي او احد الوزراء ممن لا يكاد يعرف العربية.

كذلك يلاحظ ان مدائح الخلفاء تميل ـ بصورة عامة ـ الى الاسلوب البدوي القديم، فيكثر الشاعر من وصف حياة الاعراب، ويلجأ الى الالفاظ الجزلة، والمعاني البدوية، والخيال المشحون بروح الصحراء ورمالها وجمالها، وفي امثال هذه القصائد نفتقد الالفاظ

---

(١) ليس في هذا الشطر سوى تفعيلتين من تفعيلات الكامل الثلاث، ولعل الكلمة الساقطة هي (شغفا). ولم يشر محقق الديوان إلى هذا النقص.

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٥٢

(٣) انظر: مقدمة الديوان المطبوع.

(٤) انظر: الفصل الثاني، شيوخ المحافظين ص ٥٢ وما بعدها

السهلة اللينة، والمعاني الواضحة القريبة المأخذ، لان الشاعر يحسب الف حساب لعلماء اللغة والنحو، وكبار المثقفين المحيطين بالخليفة عادة، ولذلك لا بد من التمييز، من ناحية الالفاظ والمعاني، بين مدائح الخلفاء، ومدائح سواهم من كبار الشخصيات.

قال ابن التعاويذي يمدح المستضيء بأمر الله:

زَفراتُ وَجْدٍ ما يَبوخُ[1] ضِرامُها ... ومَدامعٌ مُتَناصِرٌ[2] تَسْجامُها
وهَوىً يُماطِلُ بالقَضاءِ غَريْمُهُ ... وَصَبابةٌ ما يَستَفيقُ غَرامُها
ليتَ البخَيلةَ يَهْتَدِي لي طَيفُها ... إنْ كانَ لا يُهْدَى إليَّ سَلامُها
بيضاءُ ما عَرَفَ الحِفاظَ ودادُها ... يوماً، ولا صَحِبَ الوَفاءَ ذِمامُها
يَنْضَى عن اللَّيلِ البَهيمِ[3] رداؤها ... ويُماطُ عَنْ فَلَقِ الصَّباحِ لِثامُها
تَثْني[4] تَثنِّيها عَزائمَ سَلْوَتي ... ويُقيمُ عُذْري في الغَرامِ قَوامُها

.. الى ان يقول:

أتَعودُ أيّامي بِرامةَ بَعْدَما ... سَكَنتْ بِجَرْعاءِ[5] الحِمى آرامُها
وأحلّها البَينُ المُشِتُّ مَحلَّةً ... بَعِدَتْ مَراميها وعَزَّ مَرامُها
سارَقْتُها نَظَرَ الوداعِ فما ارْتَوتْ ... نَفْسٌ يَزيدُ على الوُرودِ هُيامُها[6]

... الخ[7].

ان اللغة والاسلوب في هذه القصيدة، يختلفان اختلافا كبيرا عما يتخذه الشاعر عن لغة واسلوب عند مدح غير الخليفة، كقوله في مجد الدين ابن الصاحب:

جَدّ بقلبي وَمَزَحْ ... ظَبيٌ مِنَ التُّرْكِ سَنَحْ
مُعذَّر قد بانَ عُذْ ... ري في هَواهُ واتَّضَحْ
مُسلَّطٌ على القُلو ... ب ما يُبالي ما اجْتَرَحْ

---

(١) يبوخ: يبرد.
(٢) متناصر: ينصر بعضه بعضا، يريد أن المدامع لا تكاد تنقطع.
(٣) الليل البهيم: الذي لا ضوء فيه إلى الصباح.
(٤) كذا بالاصل، والصواب يثنى مطابقة للفاعل (تثنيها).
(٥) الجرعاء: رملة مستوية لا تنبت شيئاً.
(٦) الهيام: أشد العطش.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨

يُمْسي مُـطَلاً[1] مـا أرا قَ وجُبـاراً[2] مـا جَـرَحْ
كَـأيِّ عَـهْـدٍ ودمُ عـلى يَـديـهِ لم يُـطَحْ
ضَنَّ فمـا يَسْمَـحُ بـالـ وَصْلِ وَلَوْ شـاءَ سَـمَـحْ
. . الخ[3].

ان القارىء لا يحتاج الى ذكاء شديد ليدرك الفرق الشاسع بين المقطوعتين من ناحية اللغة، وكذلك من ناحية الاسلوب.

لقد اجاد الشاعر في تخير اللغة والاسلوب المناسب لكل ممدوح، فالخليفة تعمد ان يختار له الالفاظ الجزلة الفخمة ذات الجرس القوي: يبوخ، ضرام، تسجام، رامة، جرعاء الحمى. . كذلك تعمد الشاعر ان يختار وزنا موسيقيا فيه وقار وهيبة، وهو الكامل لقصيدة الخليفة، على حين اختار بحرا مرحا خفيفا هو الرجز للقصيدة الثانية، مع التأكيد على القافية التي تناسب كل حالة يريد الشاعر ان يعبر عنها: فالميم المضمومة تليها الهاء والالف هي التي تناسب مقام الخليفة ومنزلته، لان الشاعر او القارىء مضطر على تفخيم النطق وملء لفم بصوت الميم المضمومة، على حين جاءت الحاء الساكنة من القصيدة الثانية خير تعبير يوحي بالجو المرح المتحضر المترف الذي تعبر عنه القصيدة.

وقال ابن التعاويذي يمدح الناصر لدين الله.

يـا علْوَ أغْريْتِ السُّهـادَ بنـاظِري وَرَقَدْتِ عن ليلِ المُحبِّ السّاهِرِ
ماذا يَضُرُّكِ لو سَمحْتِ على النَّوى بمـرُورِ طَيفٍ مِنْ خَيالِـكِ زائـرِ؟
كم قَدْ رَكِبْتُ إليكِ أخطَارَ الهَوى أفمَـا يَمُرُّ لـكِ الوِصـالُ بخاطِـرِ؟
هـلْ أنتِ يـا لَميـاءُ ذاكِـرةٌ على شَحْطِ النَّوى عَهدَ الوفيِّ الذاكـرِ؟
أضللْتُ بعدَكم الرُّقـادَ، فما لأشـ جـاني ولَيلي بَعـدَكُمْ مِنْ آخِـرِ
واطلتـمْ سَهَـري، وكمْ مِنْ لَيلةٍ مرَّتْ بَوصْلِكُمْ كـظِلِّ[4] - الطّائـرِ
حِجْرٌ[5]على الأجفانِ أنْ تَردَ الكَرى مِنْ بَعـدِ أيَّامِ العَقيقِ وحـاجـرِ
. . . الخ[6].

---

(١) مُطَلّ: مهدر، لم يثار له أحد.
(٢) جبار: هدر، لم يؤخذ بثأره.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٩٩
(٤) كظل الطائر: مبالغة في قصر الليلة.
(٥) حجر على الاجفان: أي حرام عليها.
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٦ - ١٦٧، وانظر ايضا ص ٢٨٤

وهي قصيدة لا تكاد تختلف عن سابقتها، فالبحر هو الكامل نفسه، والاسماء البدوية التي يتعمدها الشاعر لتساعد على خلق الجو الصحراوي، لا زالت هي هي، فقد كانت في القصيدة السابقة «رامة»، فاستبدلها الشاعر في هذه القصيدة بـ «العقيق وحاجر»، مع المحافظة على الاسلوب الجزل المتين، واللغة البعيدة عن الليونة والسهولة، باختيار الفاظ ذات حروف جرسها الموسيقي شديد صاخب: كالجيم: حجر، الاجفان، حاجز، والطاء: شحط، أطلتم، الطائر، اخطار، خاطر...

وهكذا يبدو لي ان مدائح الخلفاء كانت تكتب بلغة واسلوب يختلف عن سواها، بسبب مكانة الخليفة وثقافته المحافظة من جهة، وكذلك بسبب حاشية الخليفة من علماء ونقاد كانوا يميلون الى القديم في العادة.

د ـ قال ابن رشيق في عمدته: «طبقات الشعراء اربع: جاهلي قديم، ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلام، واسلامي، ومحدث، ثم صار المحدثون طبقات: اولى وثانية على التدريج، وهكذا في الهبوط الى وقتنا هذا. فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر فيتصفح مقدار من قبله.. فاذا رأى انه ساقة الساقة، تحفظ على نفسه، وعلم من اين يؤتى، ولم تغرره حلاوة لفظه ولا رشاقة معناه[١]..»

ان قول ابن رشيق هذا، كان الدستور الذي تصرف على اساسه شعراء العربية حتى اواخر العصر العباسي، بل وحتى عصر النهضة. لقد آمن الشعراء بان الاسلاف هم السابقون الى كل حسنة، ولن تستطيع الاجيال التالية ان تكسر احتكار القدماء للشعر الجيد.

وشعراء القرن السادس آمنوا بتلك الحقيقة ووعوها، ولذلك حاولوا ان يطوروا صناعتهم عن طريق العناية الشديدة باللفظ، والمبالغة في دور الالفاظ في العمل الفني، لان القدماء لم يحابوا الالفاظ على حساب المعاني، بل نظروا الى الشعر على انه معنى بالدرجة الاولى. ولعل مقامات الحريري وما نالته من شهرة كانت السبب في كثير من الالعاب اللفظية التي حملت على الشعر في هذه الفترة[٢].

ان القارىء منا يدهش حين يجد العماد الاصفهاني يكيل الثناء كيلا لقطعة أدبية، لمجرد انها خالية من النقط، فيقول عنها: سلمت من التكلف وخلصت من التعسف، لا يتفق لاحد مثلها في فنها وسلامتها وحسنها، وهي:

---

(١) العمدة ١/ ١١٣

(٢) الابيوردي ص ١١٤

صارِمْ[1] مَلولاً كَدِراً وُدُّهُ وذُمْ لأهلِ الودِّ ما داموا
وأعطِ أموالَكَ سُؤالَها ولو لَحى الحُسّادُ او لاموا
وحَصِّلِ الحمدَ ألا كُلُّ ما حُصِّلَ - الآ الحمدَ - إعدامُ[2]
السُّؤدَدُ المالُ ولولاهُ ما رامَ أولو الأحوالِ ما راموا
أولادُ حَوّاءَ وهادٌ[3] ولو سادُوا، وأهلُ العلمِ أعلامُ[4]
ما أمدَحُ المَرءَ، ولم أدْرِ ما أسرارُهُ، والله عَلاّمُ
ما مَسّ حرَّ الأصلِ عارٌ ولو عَلاهُ أسمال وأهدامُ[5]
كما صارمٍ مَحملُهُ[6] دارسٌ[7] وهو حُسامُ الحدِّ صَمْصامُ
كم ورِعٍ، حسَّرَ أكمامَهُ للمكْرِ، وهو الصّادُ[8] واللامُ[9]

ولست ادري كيف يوصف شعر كهذا بأنه «سلم من التكلف، وخلص من التعسف»، ولكن القوم لهم احكامهم واذواقهم، وقد الفوا وآمنوا - على ما يبدو - بأن الشعر صار ضربا من الرياضة الذهنية، وامتحانا لقدرة الشاعر على رص الالفاظ ليس غير.

وليست الابيات الخالية من النقط، هي الرياضة الذهنية الوحيدة التي مارسها بعض المتشاعرين، وانما هناك نموذج ثان قال العماد ان ابياته فى غاية اللطف والرقة:

يا صاحِبَيَّ اسْعِداني على الُّليْلِ الطُّوَيِّلْ
وعَلّلاني بِبَرْدٍ مِنَ النَّسيمِ العُلَيِّلْ
ويا حُداةَ المَطايا[10] رِفْقاً عَليَّ قُلَيِّلْ
في هذهِ الدّارِ قلبي رَهْنٌ بِحُبِّ غُزَيِّلْ
أسالَ دَمعي وألْوى عَنّي بِخَدٍّ أُسَيِّلْ

... الخ[11]

---

(1) صارم: ابتعد عن.
(2) اعدام: أي لا خير فيه.
(3) الوهاد: المنخفضات.
(4) الأعلام: الجبال، واحدها عَلَم.
(5) الأسمال والأهدام: الثياب البالية.
(6) محمله: ظاهره.
(7) دارس: بالٍ.
(8) الصاد واللام: أي صِلّ، وهو جنس من الحيات خبيث جدا.
(9) الخريدة ٤/ ٢٩٩، وانظر ٢/ ٢٦٤ - ٦٥
(10) المطايا: الدواب التي تركب.
(11) الخريدة ٤/ ٩ - ١٠

وفي الخريدة نموذج ثالث، وهو قطعة نثرية لاحد القضاة، اذا عكست صارت شعرا[1].

ومهما يكن فان اشهر الذين اولعوا بنظم قصائد أو اشعار الحروف هذه اثنان هما ابو المعالي سعد بن علي الحَظِيري، وابو السمح سعيد بن سَمْرة الكاتب.

وقد نص العماد الكاتب على ان الثاني منهما «يحذو حذو الحريري في ترسله. وينسج على منواله.. وانه نظم رسائل على حروف المعجم كل كلمة منها فيها الحرف الذي بنى الرسالة عليه، كرسالتي الحريري الشينية[2] والسينية[3]..[4]»

وعلى الرغم من عدم اشارة احد الى ان الحظيري قد تأثر بالحريري واقتدى به، فقد لمح الصلاح الصفدي الى ذلك حين علق على ابيات اوردها للحظيري قائلا: واحسن منها قول الحريري في المقامة السادسة والاربعين:

أعْـدِدْ لِـحُسّـادِكَ حَـدَّ الـسِّـلاحْ وأورِدِ الآمِـلَ وِرْدَ الـسَّـمـاحْ[5]

وقد بذل الحظيري جهودا في اختراع العاب لفظية لم ترد في مقامات الحريري مثل الابيات التي وصفها الصفدي بأنها: تخرج الضمير من حروف المعجم وذلك ان كل بيت له عدد يخصه: فللاول واحد، وللثاني اثنان، وللثالث اربعة، وللرابع ثمانية، وللخامس ستة عشر.. والابيات المذكورة هي قوله:

قُـلْ لهذا الغَـزالِ إنْ ظَـلَّ يَجْنى انـا أضْـنَى إنْ خُـنْتَـني لِـشَـقـائي
خـابَ صَبٌّ أغراه عَتْبُـكَ في الحُبْـ ـب، ولـو ضَـرَّهُ بِـزُورٍ[6] بُـكـاءِ
صِـلْ خَليلي حُثَّ السُّـلافَ[7] الى كُـلِّ شَقيقٍ قَضَى لحيف[8] الجَفاءِ
وأدِمْ ذَمَّ مَـنْ يَـصُـدّ ومَـنْ يُـضْـ ـمِـرُ زُهْـداً مِـنْ سـايـرِ الأشيـاءِ
وأمِطْ عـنـكَ ظُـلْمَ كُـلِّ غَـنِـيٍّ عنكَ فيـهِ قِلىً[9] لإهْـلِ العَـلاءِ[10]

ومن مخترعات الحظيري ايضا: ابيات وصفت بأنها لا تنطبق فيها الشفتان:

---

(١) نفسه ٤/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧
(٢) الرسالة الشينية كتبها إلى الشاعر طلحة النعماني، لما قصد البصرة، الخريدة ٤/ ٦١٩
(٣) الرسالة السينية كتبها على لسان بعض أصدقائه، يعاتب صديقاً له، أخل به في دعوة، دعا غيره إليها. الخريدة ٤/ ٦١٦
(٤) الخريدة ٢/ ٢٦٣
(٥) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٥ «مصور».
(٦) الزور: الكذب.
(٧) السلاف: الخمر.
(٨) لحيف: كذا بالاصل، ولم اعرف المراد منها.
(٩) القلى: البغضاء.
(١٠) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٥ «مصور».

هـا أنـا ذا عـاري الـجَـلَدْ أسْـهـرَنـي الـذي رَقَـدْ
آهٍ لـعـيـنٍ نـظرَتْ الـى غـزالٍ ذي غَـيَـدْ[1]
أرَيْـتَـنـي يـا نـاظِـري صـيـدَ الـغَـزالِ لـلأسـدْ
إنَّ الـظَّـبـيَّ لِـهَـجْـرِهِ يـا عـاذِلي هَـدَّ[2] الجَسَـدْ
حَـشـا حَـشـايَ إذْ نَـأى نـارَ الـغَـضَـا حِـيـنَ شَـرَدْ
... الخ[3].

ومن اختراعه أيضاً ابيات تقرأ على اربعة اقسام، وتقرأ عرضا وطولا وهي :

إنَّ سُـؤْلـي، بَـدْرُ تـمٍّ، إنْ تَـبَـدَّا، وهـو حَـسْـبـي
يـا عَـذُولـي، حـيـنَ ولّـى، وَتَـجـنَّـى، لا لِـذَنـبِ
مـارَثَـى إذْ، رامَ هَـجْـري، وجَـفـانـي، بَـعـدَ حُـبٍّ
... الخ[4].

وقد يكون الحظيري من الذين حدثتهم انفسهم بالتفوق على نابغة البصرة[5]، ولذلك صنع طائفة من المقطوعات ـ وقد مرت نماذج منها ـ ليس لها مشابهات في مقامات الحريري، ولكن عمل الحظيري هذا، على خلاف ما اراد، ينم على تأثره بالحريري، لان هذا الاخير هو صاحب الشهرة في هذا المجال، اضف الى ذلك ان بعض نماذج الحظيري في مقامات الحريري لها اشباه، كأبياته التي فيها حرف معجم وحرف غير معجم، وكذلك تلك التي في كل كلمة منها همزة:

بـأبـي أغْـيَـدُ أذَابَ فُـؤادي إذْ تَـنـاءَى وأظْـهـرَ الإعْـراضَـا
رَشَـأٌ يـألَفُ الجَفـاءَ فـإنْ أقْـ بَـلَ أبْـدَى لآمِلِيـهِ انْقِبَـاضَـا[6]

واما ابو السمح سعيد بن سمرة الكاتب، فقد وصفه العماد بأنه : «سمح الخاطر، جواد القريحة، مجيب الروية، مصيب المعاني الرائقة، مجيد لنظم الكلم الفائقة[7]». وبعد هذه

---

(١) الغيد: النعومة.
(٢) هد: انحل وأنهك.
(٣) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٤
(٤) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٤ «مصور».
(٥) حاول القاضي الفاضل أيضا مصاولة الحريري، ولكنه أخفق. الغيث المسجم ١/ ٣٤٥
(٦) الوافي بالوفيات ٨/ ١٢٥
(٧) الخريدة ٢/ ٢٦٤

النعوت التي يتوقع الباحث ان يكون صاحبها عند حسن الظن، اذا بالعماد يورد لابي السمح، فيما اورد له، قوله:

وادِدْ دُوادا، وراعِ ذا وَرَعٍ ودارِ دارا إنْ زاغَ أو زارا
وزُرْ وَدُودا، وأذْنِ ذا أدبٍ وذَرْ ذاراهُ إنْ زارَ أو زارا

وقد نظمهما الشاعر لان بعض الصدور[1] سامه ان يعمل شيئا على نحو هذا البيت:

زارَ داودُ دارَ أرْوَى وأرْوَى ذاتُ دَلٍّ إذا رأتْ داوودا[2]

وبعد: فان النماذج المتقدمة انما تدل على الدرك الذي هبط اليه بعض الناظمين في القرن السادس، حتى صار شعرهم اشبه برقى العقارب، كما قال ابن الاثير[3]، اضف الى ذلك ان المرء لم يعد يدري اجاد صاحب الخريدة ام هازل في تلك الصفات والنعوت التي خلعها ـ بلا حساب ـ على امثال ابي المعالي الحظيري وابي السمح الكاتب؟

٢ ـ الفارسية:

ان قرب العراق ومجاورته لايران جعل العلاقات بين الفرس والعراقيين تختلف اختلافا كبيرا عن العلاقات بين ايران واي قطر عربي آخر، اضف الى ذلك ان الفرس شيعة منذ عهد بعيد[4]، ومراقد أئمة الشيعة تملأ المدن والقصبات العراقية، فصار الشيعة في العراق يشعرون بان الفرس اخوانهم في المذهب والعقيدة، ومن هنا صار كثير من العراقيين، ولا سيما سكان المناطق التي فيها مراقد الائمة، يجيدون اللغة الفارسية.

وفي القرن الرابع كان العراق اقليما تابعا للدولة البويهية التي كان مركزها في ايران، وقد طبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة «شاهنشاه» وهو لقب ملوك ايران قبل الاسلام[5].

ولا بد ان الشعور القومي لدى الفرس ظل ضعيفا اذا ما قورن بالشعور الديني الاسلامي الذي يجمعهم مع العرب، ولا سيما في فترات قوة السلطة العربية في بغداد قبل القرن السادس، على الرغم من اشارات بعض المؤرخين الى ان «الهبات القومية منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وجهت الى اللغة العربية وادبها نقدا مريرا جائرا في اكثر الاحيان، وكان ذلك حربا تشنها الشعوب الاسلامية غير العربية لاستعادة التقدير الذاتي

(١) الصدور: يريد بهم الأعيان أو الوجهاء.
(٢) الخريدة ٢/ ٢٦٦
(٣) المثل السائر ص ١١٦ (المط. البهية).
(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٩٨
(٥) نفسه ص ١٠٥

لنفسها عن طريق القيم الأدبية التي اخذت تنتجها او تنكرها[1].

ومن مظاهر الشعور القومي لدى الفرس، الفردوسي صاحب الشاهنامه ومساعيه لإعادة القومية الفارسية الى ما كانت عليه قبل الاسلام[2].

وقد اشار ابو الطيب المتنبي الى تعاظم نفوذ اللغة الفارسية في ايران حين قال من قصيدة:

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللِّسانِ[3]

بل ان المستشرق بارتولد يشير الى ازدهار الأدب الفارسي في القرن الرابع واوائل القرن الخامس في القسم الشرقي من ايران خاصة[4].

ويبدو لي ان الامور تطورت الى ما هو ابعد مما تقدم في القرن السادس، حين سيطر الاعاجم على الكثير من مرافق الحياة في عاصمة الخلافة بغداد، بحيث قل دور العنصر العربي في الادب والثقافة بصفة عامة[5].

وليس من المستبعد أن يكون العرب، أو بعض المثقفين منهم، قد شعر بهذا السيل الآعجمي واحس بان الامور تسير من سيىء الى اسوأ، فدعا الى ضرورة الوقوف بحزم في وجه هذا التيار الخطر عن طريق بذل جهود مضاعفة للعناية باللغة العربية، واحياء تراثها، وبيان فضائلها ومزاياها، وتحبيبها الى الجيل الجديد.

وقد يكون تأليف كتب مثل «أسرار العربية» لكمال الدين عبد الرحمن بن الانباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ[6]، و«المُعرَّب» لابي منصور موهوب بن احمد الجواليقي توفي سنة ٥٣٩ هـ[7]، الذي قال عنه ابن خلكان: «ولم يعمل في جنسه اكثر منه» اقول ربما كان صدور هذه الكتب من علماء العربية، يمثل مظهرا من مظاهر الاتجاه الذي اشير اليه.

وفي الشعر، وخاصة في مدح الخلفاء، نجد اشارات قد تدل على التعصب للغة العربية، وهي ابيات يزعم فيها اصحابها ـ وهم يمدحون الخلفاء ـ ان شعرهم بدوي اعرابي، على الرغم من حياتهم في الحضر، كقول ابن التعاويذي:

عُرُباً أنسابُها تَعْرِفُها مِنْ قَوافيها ومِنْ أوزانِها

---

(١) دراسات في الأدب العربي ص ٤٦ ـ ٤٧

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٣، حول الادب في العصر السلجوقي ص ١١٤

(٣) ديوان المتنبي/ شرح العكبري ٤/ ٢٥١

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٥) الادب في العصر الايوبي ص ٥٢

(٦) وفيات الاعيان ٢/ ٣٢٠

(٧) نفسه ٤/ ٤٢٦

بَـدَويّـاتٍ اذا حـاضَـرْتَـهـا　　فاحَ عَرْفُ الشِّيحِ[١] مِنْ أرْدانِها[٢]

وقوله:

بَـدَوِيَّةٌ حَضَـرِيّـةٌ، كـرُمَتْ منَـا　　سِبُها - اذا انْتَسَبتْ - عَنِ الإقرافِ[٣]

وقوله:

بَـدَويّةٌ، حَضَـريّةٌ، فـاحْكُمْ لها　　بفَصاحَةِ البادِي ولُطْفِ الحاضِرِ[٤]

وقال الابله البغدادي:

شعـرٌ يفوحُ الشِّيـحُ مِنْ أثنـائـهِ　　عَبِقـاً، وما جـاوزْتُـهُ بَغْـدادا[٥]

وقال:

كُـلُّ غَنّـاءِ القَـوافي تَجْـتَلَى　　فـي رِداءٍ مِـنْ أوزانِـهـا
تَحسَبُ الـزَّوراءَ[٦] نجداً كلَّـما　　فاحَ عَرْفُ الشِّيحِ مِنْ أردانِها[٧]

ويغلب على الظن ان مدرسة الحيص بيص الشعرية، بكل ما عُرفت به من ولع بالاساليب القديمة في الشعر، وشغفها بالمفردات التي لم يعد يعرفها الا خاصة العلماء في القرن السادس[٨]، وكذلك لجاجة الحيص بيص نفسه في الفخر بانتسابه الى تميم في قسم كبير من ديوانه، مثل قوله:

فـلا تَصـطَلُوهـا إنَّهـا دارِمِيَّـةٌ　　مَواقِدُهـا هامُ المُلوكِ الأغـالبِ
سأضرِمُها حمراءَ، ينزو[٩] شرارها　　على جَنَباتِ القاعِ نَزْوَ الجَنادِبِ
بكُـلِّ تَميمـيٍّ كـأَنَّ قَميصَـهُ　　يُلاثُ[١٠] بغُصنِ البانَةِ المتُعاقِبِ[١١]

وقوله:

وفتيانِ صِدْقٍ مِنْ تَميمٍ تَناثَلوا[١٢]　　دروعَهُمْ والليلُ ضافي الوَشائعِ[١٣].

---

(١) الشيح: نبات طيب الرائحة ترعاه الدواب.
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٤٨
(٣) نفسه ص ٢٨٧، والاقراف: أن يكون الأب غير ع ب، في النسب، وهو عيب.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧١، وانظر ص ٣٣٠ البي ٩
(٥) ديوان الابله و ٣٢
(٦) الزوراء: بغداد.
(٧) ديوان الابله و ١٥٤
(٨) انظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩
(٩) ينزو: يثب.
(١٠) يلاث: يلف ويعصب.
(١١) الديوان ١/ ٧٢ - ٧٣، المتعاقب: المتمايل.
(١٢) تناثلوا: القوا دروعهم عنهم، لفرط شجاعتهم.
(١٣) الوشائع: لفائف القطن أو الغزل وقد استعملت هنا مجازا.

وكنتُ اذا ما سَاوَرَتْني كَريهَةٌ   بَرزْتُ لَهافي جَحْفلٍ مِنْ مُجاشِعِ [1]

وقوله:

عَلِقتْـهُ والـصِّبـا غَضُّ الأدِيـمْ   مُهْمَـلَ الوَفْـرَةِ [2] مِنْ آلِ تَمِيمْ

يَحسُنُ التَّـاجُ عـلى مَفْـرِقِـهِ   نـاشِـراً في يـومِ بؤسٍ ونَعيمْ

يُنْهِـلُ [3] والصَّعْدَةَ [4] مِنَ أقْـرانِـهِ   ويُلَبِّي طـارِقَ الليـلِ البَهِيمْ [5]

ان الفخر بالانتساب الى العرب، ونظم الشعر بلغة واسلوب لا يمت الى القرن السادس بصلة، هاتان الصفتان تبدوان غريبتين في عصر اكتسحت فيه العجمة والاعاجم كل شيء في الحياة العربية العباسية، ولذلك فمن المحتمل ان تكون مدرسة الحيص بيص - وافرادها لا يزيدون على اربعة كما سبق ان اشرت [6] - قد نشأت كرد فعل عربي للتيار الاعجمي الوافد.

وبعد هذا الذي قدمت، يبدو منطقيا أن تقل الالفاظ الفارسية في الشعر العربي العراقي، وقد مرت قصيدة ابن القطان وما فيها من الفاظ فارسية، مع الاشارة الى اسباب ذلك [7].

ومن الالفاظ الفارسية ايضا «بسَي [8]» اي حسبي، في قول ابي الفتح [9] بن قِران:

بسَـي مِـنَ الـزُّهْـدِ بَسَـي   قـامت [10] مِنَ الزُّهـدِ نفسي [11]

ومنها كلمة «الدَّرْد» [12] أي الغم، في قول العلاء بن علي الواسطي، من ابيات:

اقْتَـرِحـوا النَّـارَ والخُلودَ بهـا   على النَّعيم الباقي، مِنَ الدَّرْدِ [13]

وكلمة «بِرْطِيل» [14] اي رشوة في قول خال مهذب [15] الدولة:

---

(١) ديوان الحيص بيص ٧٥/١

(٢) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، أو ما سال على الاذنين منه

(٣) ينهل: من النهل وهو الشرب الأول.

(٤) الصعدة: القناة المستوية.

(٥) ديوان الحيص بيص ٨٨/١، وانظر ٨٥/١، ٩٢، ٩٥، ٩٩، ١٠٢، ١٠٨، ١٣٥، ١٣٧

(٦) أنظر: الفصل الثاني - شيوخ المحافظين ص ٥٢

(٧) أنظر: الفصل الثالث: الهجاء ص ١٦٠، ١٦٢ - ١٦٣

(٨) شفاء الغليل ص ٤٥، الالفاظ الفارسية المعربة ص ٢٣

(٩) قال عنه العماد: «كان في أيام المقتفي شيخا مطبوعا، مربوعا يخضب..» الخريدة ٣٤٢/٢

(١٠) لعلها قاءت، كما قال محقق الخريدة.

(١١) الخريدة ٣٤٣/٢

(١٢) الالفاظ الفارسية ص ٦١

(١٣) الخريدة: ٣٨٤/٤

(١٤) شفاء الغليل ص ٥٠، الالفاظ الفارسية ص ٢٠

(١٥) أنظر: الفصل الأول ص ٥ هامش ٢

إنَّ الــذي يـكسِبُــهُ زوجُـهــا   تُعــطيـهِ للنــاكَــةِ بِــرْطيــلا[1]

وكلمة «نكريش»[2] اي لحية جيدة في قول البديع الاسطرلابي:

قــالَ قومٌ عَشِقْتَـهُ أمـردَ الخَـدْ   دِ، وقـدْ قيـلَ، إنَّــهُ نكـريشُ
قلتُ: فَرخُ الطاووسِ احسن ماكا   نَ اذا مـا علا عليـه الرِّيشُ[3]

وكذلك من الالفاظ الفارسية كلمة «البَخْت»[4] اي الحظ في قول ابن التعاويذي:

فــلعــلَّ اللهَ أنْ يَــرْ   زُقَــهــا بَـخْــتَ الـقِـبــاحِ[5]

٣ ـ اللغة:

ان الضعف الذي اصاب الدولة العربية العباسية في أواخر العصر العباسي، حين تقلصت مساحتها وانكمش نفوذها وسيطر الاعاجم والاجانب على كثير من جوانب الحياة فيها، حتى صار العنصر العربي كالغريب في دولة يفترض ان العرب هم المتغلبون فيها. ان تلك العوامل لا بد ان تترك اثرها على اللغة العربية، فلم يعد الاهتمام بها وحرص الناس على تعلمها ودراسة علومها المختلفة كما كان ايام قوة العباسيين، كذلك لم يعد التشبه بالاعراب مطمح المثقفين، ولا الخوف من اللحن والخطأ الاعرابي يؤرق احدا، وليس بين شعراء الفترة من يقارن بالمتنبي او البحتري او ابي تمام او سواهم ممن عرفوا بمتانة اللغة وسعة الاطلاع على اجود الاساليب وامتنها، لقد تبدل المجتمع وتبدل اولئك الذين كانوا يعدون الخطأ اللغوي مساويا للكفر والاشراك بالله تعالى.

ان اللغة كائن حي، تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره وهي تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيه، وتنحط بانحطاطه[6].

وحين لم يستطع الحريري صبرا في اواخر القرن الخامس فألف «درة الغواص في اوهام الخواص» مشيرا ومحذرا من الاخطاء اللغوية والانحرافات التي شاعت في لغة الطبقة الرفيعة،! بعد ان كثرت المؤلفات التي تعنى بالاخطاء اللغوية الجارية على السن الجماهير[7]، اقول ان هذا العالم، بسبب كتابه القيم السالف الذكر، تعرض لحملة شعواء من علماء القرن السادس، الذين «لم يعودوا يستطيعون ادراك الفروق الاساسية بين العربية

(١) الخريدة ٤/ ٥٤٤
(٢) شفاء الغليل ص ٢٢٤، الالفاظ الفارسية ص ١٥٤ (٣) وفيات الأعيان ٥/ ١٠١
(٤) شفاء الغليل ص ٤٢، الالفاظ الفارسية ص ١٧ (٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٢.
(٦) لحن العامة ص ٣٠، وانظر أيضا: اللغة والمجتمع ص ٦، ٨
(٧) لحن العامة ص ٩٧ ـ ١٠٠

الفصيحة والعربية المولدة، فاتجهوا الى الاعتراف بالفاظ وقوالب وتعبيرات مولدة، بل شعبية دارجة احيانا، على انها صحيحة في العربية الفصيحة، مادام قد ثبت ورودها في كتابة القرون الثلاثة الاسلامية الاولى»[1].

أ ـ ركة التعابير:

ان ولع الشعراء بتبسيط لغتهم وجعلها في متناول ادراك اوساط الناس، الذين ضعفت لغتهم ومداركهم اللغوية الى حد بعيد، اوقعهم في مزالق اسلوبية ولغوية، جعلت طائفة من شعرهم تبدو بلا طعم ولا لون ولا رائحة.

وغني عن البيان ان ركة التعبير هذه تبدو اكثر وضوحا عند الشعراء الذين وصلتنا دواوينهم كابن التعاويذي والابله، اما الشعراء الذين اورد العماد الاصفهاني مختارات من شعرهم في خريدته، فان الركيك من تلك القصائد اسقطه العماد في كثير من الاحيان[2].

ومن حق الحيص بيص ان يفخر لانني لم استطع ان اقف على شعر له يمكن ان يوصف بالركة، بالرغم من طول قصائده، وكثرة اشعاره التي وصلتنا.

ولعل تمكن الشاعر من لغة الضاد، وطول باعه في معرفة الاساليب المتينة القديمة، وكذلك ترفعه وعزة نفسه فلم يسف مثل معاصريه فيمدح كل من هب ودب، [3]، اقول لعل هذه العوامل كانت من اسباب هذا التماسك الواضح في اشعار الحيص بيص.

فمن ركة التعابير قول ابن التعاويذي:

لـم يَـزَلْ يُنْـذِرُ بـالـخِـصْـ ب رُبـا الحَزْنِ[4] الـظَّمـاءا[5]

وكان الصواب ان يقول «يُبشّر» بدل «يُنذر»، لان الانذار لا بد فيه من شر، والخصب كله خير.

وقال:

وأثـقـالٌ أهُــدُّ بهـنَّ ظَـهــري لقـد عَـرَّضتُ نفسي للبَـلاءِ[6]

ان عجز البيت ليس من الشعر في شيء، بل من الكلام المعتاد الذي يردده الناس كل

---

(١) العربية ص ٢١٢، ٢٢٢
(٢) الخريدة ٢/ ٢٣، ٢/ ٢٩٧، ٢/ ٣٢٢
(٣) أنظر: الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٥٨ ـ ٥٩، ص ٦٩
(٤) الحزن: ما غلظ من الارض، وقلما يكون إلّا مرتفعا.
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٩
(٦) نفسه ص ١٤

يوم حين تنزل بهم الكوارث، او حين يخشون ان تنزل بهم.

ومثل البيت المتقدم قوله يهجو:

وجهُ يحيى ابنِ بَخْتيارَ اذا فَكْـ كَرْتَ فيهِ مِنْ سائِرِ الأنحاءِ[1]

ان قوله: «اذا فكرت فيه من سائر الانحاء «يشبه» لقد عرضت نفسي للبلاء» ما كنت احسب ان شاعرا كبيرا كابن التعاويذي، يقول مثلهما.

وقال:

وجَـدٌّ يَخفِضُ الحُسّادَ عـالٍ وَنصرٍ يَقهَرُ الاعداءَ غالِبْ[2]

قوله «يخفض الحساد» من التعابير القلقة، لان يخفض في هذا المعنى تكاد تكون ذات دلالة نحوية، من الخفض اي الجر عند الكوفيين، وكان على الشاعر ان يستعمل بدلها «يغيظ». ولعل ابن التعاويذي اراد المطابقة بين «يخفض» و«عال» فخانه التعبير وخذلته الشاعرية.

وقال:

يـا مَلِكـاً ذَلَّـلَ الملوكَ بِتَـرْ غيبِ يَـدٍ تـارةً وَتَـرْهيبِ[3]

وواضح ان «يد» زائدة على البيت، اجتلبت للوزن.

وقال الابله البغدادي:

شَـأىٰ في رأيهِ قيساً وأزرى بِمَنْطِقِهِ على قُسِّ الأيادي[4]

قوله «قس الايادي» الشائع المشهور «قس اياد» وتعبير الابله ثقيل.

وقال:

مُـذْ قَـدَّحَ الـخـدُّ مـنـهُ فـللغـرامِ انـقِـداحُ[5]

فما معنى «انقداح الغرام»؟ ان سعي الشاعر وراء الجناس بين قدح وانقداح هو الذي اساء الى لغته.

ومن شعر ابن التعاويذي:

---

(١) نفسه ص ١٤
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧
(٣) ديوان الابله و ١٨٣
(٤) نفسه ص ٢١
(٥) نفسه و ١٨٥

وغَـدَوتُـمُ ذا قُـدْرَةٍ فَـفـتَـكْـتُـمُ، واللهُ أقـدَرْ[1]

والصواب: ذوي قدرة، ولكن الوزن لم يسعف الشاعر.

وقال طلحة النعماني:

وسَعـدُ القوافى من عـلاك قَبُولُهـا ... وقد رُبَّما يأتي على العَمَلِ الحَبْطُ[2]

قوله: «وقد ربما» من التعابير الركيكة جدا، لان حرف تقليل واحد يكفي.

وقال ايضا:

بـالجُـودِ طينـةُ راحتيـهِ كِليهمـا ... والتّـاجُ منه جَبينُـهُ والمَفْـرِقُ[3]

والصواب: كلتيهما.

وقال ابو نزار[4] عبد الله بن محمد الزيدي:

نَشَـدْتُـكِ يـا جـارةَ الجـامـعِ ... أهـلْ مِنْ قِرىً لفتى القـانعِ[5]؟

جمع بين الهمزة وهل من ادوات الاستفهام.

وقال الحسن[6] بن عبد الواحد الشهرباني[7]:

قَبَّـحَ اللهُ بـاخـلا، ليسَ فيـهِ ... طَمَـعٌ واقِـعٌ لِـمَنْ يَـرْتَـجيـهِ

سِفْلَةٌ، إنْ قَصَـدْتَـه يَتَـلقَّـا ... كَ - على فَرْسَخٍ - بِكِبْـرِوتِيـهِ

أحـمـقٌ، رأسُـهُ اذا فـتَّـشـوهُ ... وَجـدوهُ بـضِـدِّ اسْـمِ أبـيـهِ[8]

أ - قوله: سفلة: خطأ، لانه لا يطلق الا على الجمع[9].

ب - قطع الشاعر همزة «اسم»، وهي همـزة وصل.

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٢

(٢) الخريدة ٢/ ٢٤، وانظر هامش المحقق رقم «١»، والحبط: ذهاب العمل سدى.

(٣) الخريدة ٢/ ٣٩، وانظر هامش المحقق رقم ٩

(٤) قال العماد عنه: «الشريف الجليل الكامل أبونزار، عبدالله بن محمد، بن يحيي، بن عمر، الحسيني الكوفي..» الخريدة ٤/ ٢٥٨

(٥) الخريدة ٤/ ٢٦٥، وانظر الهامش.

(٦) كل الذكر الذي ذكره العماد في التعريف به هو قوله عنه: «المعروف بابن عجاجة المعلّم» الخريدة ٢/ ٣٢٥

(٧) نسبة إلى «شَهْرابان»، قال ياقوت إنها: «قرية كبيرة عظيمة، ذات نخل وبساتين، من نواحي الخالِص، في شرقي بغداد..» (معجم البلدان.. شهرابان).

(٨) الخريدة ٢/ ٣٢٥، وانظر الهامش.

(٩) أنظر اللسان والصحاح (سفل).

ولا شك ان الجانب الصرفي او الاشتقاقي من اللغة، له دور بارز في اظهار براعة الشاعر، اذا احسن الاستفادة من الصيغ المناسبة في المكان المناسب، كذلك قد يدل سوء اختيار بعض الصيغ على ان الشاعر قد خانه التوفيق فلم يحسن الاستفادة من كثرة المفردات التي تمده، بها لغة الضاد، وهكذا تبدو طائفة من المفردات قلقة نابية، عليها سيماء التكلف، فتطيح بشطر لا يستهان به من رونق الشعر وجماله.

فمثلا قال ابن التعاويذي:

فـإليكَ رائقـةَ المَعـاني جَـزْلَـةَ الـ　　الفاظِ تُسْهِلُ في عُـلاكَ وتُجْبِلُ[1]

ان اشتقاق آخر كلمة في البيت من الجبل، وهو جامد، اشتقاق غير معروف في اللغة العربية، ويسميه رجال اللغة «القياس الخاطيء»[2]، لان الشاعر قاس «يجبل» على «يسهل»، واشتقاق الفعل الثاني معروف متداول، بعكس يجبل.

وقال:

رَبُّ المَـذاكِي[3] الجِيادِ مُقْـرَبَةً[4]　　والنَّصْـلُ عُـرْيـانُ غَيـرُ مَقْـروبِ[5]

لقد صاغ الشاعر اسم مفعول من القراب أي غمد السيف، فقال: مقروب وكان من حق اللغة على الشاعر في هذا الموضع ان يقول: والنصل عريان غير مغمد، ولكن الوزن والقافية، وكذلك الجناس بين مقربة ومقروب، هي العوامل التي دفعت الشاعر وشجعته على ان يلجأ الى اسم مفعول كاد ينسى رغم وجوده في كتب اللغة. وقال:

وهَـلْ مَقَـلَتْ قَـبلَهُ مُـقـلَتـاكَ　　أدنـى وأسـقَطَ مِـنْ هِـمَّـتِـهْ[6]

مقلت. مقلتاك، اي نظرت او ابصرت عيناك، والمقلة: شحمة العين ولم يشع في العربية المألوفة الاستعمال مقل، بمعنى ابصر او نظر، على الرغم من وجود هذا الفعل في القواميس، لان المعول عليه في الادب ليس الجائز من الناحية اللغوية، بل الحسن المختار[7]، وكان الشاعر يستطيع ان يقول: وهل نظرت قبله مقلتاك. ولكن الشاعر ـ على الارجح ـ اراد الجناس: مقلت مقلتاك فسقط.

وقال:

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٣٠

(٢) لحن العامة ص ٤٢

(٣) المذاكي: الخيول.

(٤) مقربة: هي الخيول التي تقرّب مرابطها ومعالفها لكرامتها.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠

(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٢

(٧) المثل السائر ص ١١٢ (المط. البهية).

أودَى بجدَّتِهِ المَشيبُ، فأخلَقَتْ أثوابُهُ واستُرْجِعَتْ عاراتُهُ[1]

ان «عارات» التي ختم بها الشاعر بيته، جمع عارة، وهي بمعنى العارية[2]، وجمع عارة على عارات غير مشهور، وانما المشهور عَوارٍ وعواريّ، وكان يجب على الشاعر ان يختار من جموع الكلمة اقربها الى الشاعرية وأشهرها في التداول والاستعمال[3]، اذ ليس كل ما في كتب اللغة وقواميسها صالحا لنظم الشعر وحوك القصيد.

وفي شعر ابن التعاويذي نماذج اخرى من الاشتقاق غير المألوف او الصياغة التي كان على هذا الشاعر الكبير ان يتجنبها، وسأكتفي هنا بالاشارة اليها:

قال:

رَبُّ النَّدى وكاشِفُ الـ غمِّ، اذا الهَمُّ تَرَخْ[4]

وقال:

لـه المَوْرِدُ العِدُّ الغَزيرُ، وماؤهُ على كَثرةِ الوُرّادِ لا يَتَضَحْضَحُ[5]

وقال:

ذو شِيَمٍ قد فَخَرَ الدْ دَهْرُ بهنَّ وَبَجَحْ[6]

وقال:

شِعرٌ ولكنْ اذا أحْقَقْتَهُ حِكَمٌ نَظمٌ ولكنْ اذا أقوَمتَهُ دُرَرُ[7]

فاذا كان ابن التعاويذي، وهو شيخ شعراء القرن السادس، تصادفنا في ديوانه امثال الهفوات والسقطات التي سبقت الاشارة اليها، فكيف حال دواوين الشعراء الاخرين، ممن لم يخطر ببال أحدهم ابدا أن يذكر في يوم من الايام مع ابن التعلويذي؟ ان ضياع بعض الدواوين، قد ساعد دون شك على اطلاق اسم الشاعر علي قوم لا يستحقونه.

ب ـ العامية:

ان غزو العامية وتسللها الى اللغة العربية الفصحى يرجع الى زمن بعيد جدا عن القرن

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٦٣
(٢) انظر «عور» في كتب اللغة.
(٣) ال السائر ص ١١٢ ـ ١١٣ (المط. البهية).
(٤) ديوان ابن التعاويذى ص ١٠٠
(٥) نفسه ص ٨٠
(٦) نفسه ص ١٠٠
(٧) نفسه ص ٢٠١

السادس، اذ نجد اول كتاب يؤلف في لحن العامة من تأليف العالم اللغوي المشهور علي بن حمزة الكِسائي المتوفي سنة ١٨٩ هـ[١].

وفي القرن الثالث، وبسبب سيطرة عوام الاتراك على مقاليد الامور في قصر الخليفة، «وصل الامر اخيرا الى ان صار الوزير نفسه يتكلم اللغة الدارجة»[٢]، بل «ان النحويين انفسهم في ختام هذا القرن، لم يكونوا يستعملون اللغة الفصحى في مسامراتهم ومحاوراتهم»[٣].

وفي القرن الرابع كان من المظاهر البارزة، انتشار العامية الى جانب الفصحى، حتى اصبح اكثر الناس يتكلمون العامية «واقلهم الفصحى «وصار لكل بلد عاميته»[٤]، اما في القرن الخامس، فقد اشار الدكتور علي جواد الطاهر الى ان من شعراء هذا القرن، «من ابتعد عن المألوف الموروث في الشعر العربي، فلا يتقيد باختيار اللفظة، ولا يتقيد بفصاحتها، انما يعمد - بقصد - الى المبتذل والعامي وحتى الدخيل. . واكثر ما ترد هذه المفردات في شعر السخف حيث يستعملها الشاعر قاصدا عامدا، وكأنه يضيف الى اثره قوة جديدة، ويوفر عليه شرطا من شروطه التي اذاعها ابن الحَجّاج ووطد اركانها[٥]. .»

ويغلب على الظن ان العامية في القرن السادس، قد سيطرت على معظم النتاج الشعري، وخاصة في غرضي السخف والهجاء لهذه الفترة، وان يد الضياع لو لم تمتد الى معظم ما انتجه الشعراء في هذين الغرضين[٦]، لكان موقفنا قد تغير من شعر هذا القرن عامة، ولاطلعنا على الفاظ عامية، بغدادية، او عراقية، تفوق كثيرا ما وصل الينا فعلا.

وعندي ان مما يرجح الافتراض المتقدم، هو أن نجد العامية قد تسللت الى مدائح كبار شخصيات العصر، ومنهم الخلفاء وصلاّح الدين الايوبي والقاضي الفاضل وهي مدائح يفترض ان الشاعر كان حريصا على ان يتجنب فيها كل ما يثير حاشية الممدوح من علماء ونقاد، اعتادوا على مهاجمة الشعراء بسهام النقد.

اما مدائح الخلفاء، فمنها ان ابن التعاويذي قال في مقدمة قصيدة مدح بها الناصر لدين الله:

لَيـاليَ لي عندَ الغَـواني مَكانـةٌ　　　فألحاظُهـا تَرْنـو إليّ وَتَطْمَـحُ[٧]

(١) لحن العامة ص ١٠١
(٢) العربية ص ١٣٧
(٣) نفسه ص ١٤١
(٤) القاضي الجرجاني ص ٣٢
(٥) الشعر العربي ٢/١٦٩
(٦) انظر دراسة الهجاء ص ١٤٣، ودراسة السخف ص ٣٩٢
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٧٩

ان لفظة «مكانة» من العامي الذي لا يزال شائعا حتى اليوم في العراق، وتعني : منزلة رفيعة سامية.

وقال من قصيدة اخرى مدح بها الناصر ايضا:

ومُخطفٍ لوني اذا رأيتُهُ يَنْخَطِفُ[٢]

فلفظه «ينخطف» اي يصفّر ويمتقع، من العامي الذي يتردد حتى اليوم على السنة العوام. واللفظ مستعمل في اغنية عراقية غرامية (ليش منشوف اهواي ينخطف لوني). ومعناها: لماذا حين اشاهد حبيبي يصفرّ وجهي؟

وقال من قصيدة في مدح صلاح الدين:

فكم جَميلٍ لَهمْ وصُنْعٍ يَدٍ على جِباهِ الأنامِ مكْتوبِ[٤]

ان عجز البيت من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم في العراق ومصر.

ومن التعابير العامية التي لج بها ابن التعاويذي، تعبير «كَسَّرَ الحاجات في الصدر» ومعناه: رجع خائبا لم يحصل على ما تمناه. ومن اغنية عراقية شائعة اليوم: وانا الحسرات كلها مكسّرة بصندري:

قال يمدح القاضي الفاضل:

فَليتَ شِعْري يا زَماني مَتى أخرُجُ مِنْ دائرةِ الشِّعرِ؟
كنتَ تُداجِيني، فما لي أرى صَرْفَكَ قد صَرَّحَ بالشَّرِّ؟
فَرَدَّ آمالي مَقبوضةً وَكَسَّرَ الحاجات فيَ صَدري[٥]

وقال في قصيدة ثانية:

تُكسِّرُ الايامُ حاجاتي في صَدْرٍ بأدواءِ الخطوبِ واغِرِ[٦]

وقال في ثالثة:

وأنَّهُ كَذَّبَ آمَالَهُ وكَسَّرَ الحاجاتِ في صَدرِهِ[٧]

---

(١) مخطف: ضامر، خفيف لحم الجنب.
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٨
(٣) أنظر مادة «خ ط ف» في اللسان والتاج.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠
(٥) نفسه ص ١٩١
(٦) نفسه ص ٢٠٧، وصدر واغر: مُتّقِد من الغيظ.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٠

وفي ديوان ابن التعاويذي بيتان لا يمكن القطع حول معناهما: هل اخذه الشاعر من العامية، ام ان العوام هم الذين اخذوه من شعر ابن التعاويذي؟ فقد شاع ان شعراء العامية كثيرا ما يأخذون معانيهم من الاشعار الفصيحة، كما أن العكس هو الآخر معروف.

واشهر الامثلة على ما اقول بيت ابي العلاء المعري:

خَفِّفِ الوَطءَ ما أظُنُّ أديمَ الـ　　　الأرضِ ألاّ مِنْ هذهِ الأجسادِ[1]

اخذه المرحوم الشاعر الشعبي عبد الكريم العَلّاف، فقال:

والارضْ كلها ارواحْ خَفّفْ مَشيتكْ　　　حتّى على الميتينْ عَمّتْ أذيتكْ

وبيتا ابن التعاويذي هما قوله من قصيدة:

عَجَباً لـه يَشْتاقُهُ　　　قلبي وَمسْكَنُهُ الصَّميمُ[2]

وقال من قصيدة اخرى:

تَشْتاقُ عَيني أنْ تَرا　　　كَ، وأنتَ في سَوْدائِها[3]

والبيتان قريبان جدا من قول شاعر العامة الذائع:

بكَلبي وكَولْ ابعيدْ، جاوَيْنْ اضمك؟

والمعنى ان حبيبي في قلبي، وهو ـ مع ذلك ـ بعيد عني، فأين اخفيه ليكون اكثر قربا؟.

اما الغرضان اللذان تكاد العامية لا تفارقهما، وهما المجون والهجاء، فاحسب ان الشاعر في هذه الحالة يفقد شطرا كبيرا من قوة التأثير وبلاغة القول، اذا استعمل اللفظ الفَصيح، لان لكل مقام مقالا، وليس من المعقول ان يصيب الشاعر غرضه في المجون، بذكر العورات والسوءات، وهو يستعمل الالفاظ الفصيحة، كذلك لا يعقل ان يشتم الشاعر خصمه بالفصحى، لانه في هذه الحالة سيثير ضحك المهجو وتندره. فالمعاني السخيفة، والصور الخليعة البذيئة، والافكار التي تأباها الاخلاق الكريمة، لا بد لها من لغة تناسبها، والفاظ تليق بمستواها، واسلوب يجسم غرض الشاعر، ويبرز ما يرمي اليه بوضوح ودقة.

فمن اهاجي ابن التعاويذي، قوله في بخيل:

---

(١) شرح التنوير على سقط الزند ص ٢٠٩

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٨٦

(٣) نفسه ص ٤٧٢

مُستَثْقَلُ الرُّوحِ لـه راحَةٌ   الى طَبيخِ الزَّيتِ مُحْتاجَه
يَنْسَمِـرُ الدِّينـارُ فيها كَمـا   يَنسمرُ المِسْمارُ في السَّاجَهْ(1)

لان لفظة «ينسمر» اي يلتصق التصاقا شديدا، من العامي المستعمل حتى اليوم.

وقال يهجو ايضا:

مـا فيـهِ خَيْـرٌ ولا حَيـاءٌ   فـلا يُغَـدِّي ولا يُعَشِّى(2)

عجز البيت: لا زال حتى اليوم يستعمله العامة، حين ينعتون فردا بعدم الفائدة وقلة المنفعة.

وقال خال مُهذَّب الدولة:

لي ولدٌ ـ ولا وَلَدتْ أُمُّهُ ـ   أعذُلُهُ الدَّهرَ فما يَرْعَـوي
اللهُ قَـد صَيَّـرهُ أعـوَجـاً   يا ذَنَبَ الكَلْبِ أما تَسْتَوِي(3)؟

ذنب الكلب، من تعابير العامة الشائعة حتى اليوم، للدلالة على الشيء الذي لا سبيل الى ازالة اعوجاجه.

وقال الابله:

أنتَ مـا فَـرَّجْتَ كَـرْبـاً   قَطُّ، يـا ثـورَ الكَـراب(4)

ثور الكراب: اي ثور حراثة الارض، ولا زال الفلاحون حتى اليوم يضربون به المثل في الغباء والبلادة.

وقال ايضا:

ثُمَّ دَعْ ذا إنْ وَسَطَتْكَ الحَرامِيـ   ـيَةُ طُرقِ واسطٍ ما احْتِيالي(5)؟

الحرامية: واحدها حرامي، اي اللِّصّ، من الفاظ العامة الشائعة جدا. وتوجد نماذج اخرى من الفاظ العامة في غير الاغراض الشعرية المتقدمة.

ومن ذلك الفخر، في قول ابن القَطّان:

شِعري قد بَطَّ جُيوبَ الوَرى   فلو أردْتَ المَنعَ لم تَقْدِرِ(6)

(1) نفسه ص ٧٧
(2) نفسه ص ٢٤٦
(3) الخريدة ٤/ ٥٣٨
(4) ديوان الأبله و ١٨٨
(5) نفسه و ١٨٨
(6) الخريدة ٧/ ٢٧١

١ ـ بط: اي شق وفتح، من العامي الشائع اليوم في جنوب العراق، وخاصة في العمارة والبصرة.

٢ ـ جيب: واحد الجيوب، لم تعرفها العرب بهذا المعنى، لان الجيب عندهم هو فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس[١].

ومن الغزل قول احد الشعراء:

أذاقَني حُمـرَةَ المَنـايـا لما اكْتَسَى خُضرَةَ العِذار
وقـد تَبـدّى السُّـوادُ فيـهِ وكَارَتي بَعْدُ في العِيار[٢]

قال ابن خلكان: «وكارتي[٣] بعد في العيار، من اصطلاح البغاددة، ومعناها انه ناشب معه لم يتخلص منه».

ومن الغزل ايضا، قول ابن التعاويذي:

فَـتَـرتْ إذ فَـتَـرتْ ألْـ حـاظُها سـوقُ المِلاحِ[٤]

جانس الشاعر بين فتور الالحاظ وفتور السوق، وهذا المعنى الثاني من العامي الشائع حتى اليوم بين الباعة والتجار في الاسواق، اذ يقولون: ان السوق فاترة يريدون ان البيع والشراء قليل، وهو ما يعبر عنه احيانا بالكساد الاقتصادي، وقد كرر الشاعر استعمال «فتر» فقال:

كـالظَّبي مَصقـولِ التَّرائِبِ فـاتِـرِ الـ لَحَـظاتِ، ما وَجْـدِي عليهِ بِفـاتِـرِ[٥]

ومن العتاب قول ابن التعاويذي:

أنـت وَلّيـتَـنـيــهِ مـنــكَ ابـتِـداءً غـيـرَ مُـسـتَـكْـرَةٍ ولا مَـجْـبــورِ[٦]

كلمة مجبور، اي مضطر، عامية، كثيرة الدوران على الالسنة بين العامة في الوقت الحاضر.

ومن شعر احد عقلاء المجانين ببغداد، كما يقـول العماد:

---

(١) أنظر هامش الخريدة في الصفحة المشار إليها.
(٢) وفيات الأعيان ٥/ ١٠١
(٣) الكارة: الحزمة الكبيرة.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٨٣
(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ١٦٧، والنص: مصفود الترائب...
(٦) نفسه ص ٢١٤

لا يَـغُـرّنْـكَ الّلبـاسُ   ليسَ في الأثـوابِ نـاسُ
هُمْ ـ وإنْ نالوا الثُّريّا ـ   بُـخَـلاءُ وخِـسـاسُ
كم فتى يُـدعى رئـيسـاً   وهـو في الخِسَّـةِ راسُ
ويـدُ تَـصـلُحُ لـلقَطْـ   ـع، تُـغَـدِّي وتُـبـاسُ[1]

ان اسقاط الهمزة من كلمة «رأس» في البيت الثالث، من مظاهر العامية المعروفة[2]، ومثلها اسقاط همزة «انشأ» في بيت ابن المُعلم:

مِنْ جَـوهَـرِ العَلْيـاءِ أنشـاكَ الـذي   خـلقَ البـريّـة كـلّهـا مِنْ طـينِ[3]

ومثلهما قول الابله:

ومَـنـحـوسٍ يُـقـالُ لـه سعـيـدٌ   لـه راسٌ يَـلـينُ لـه الـحَـديـدُ[4]

وقوله:

بـغـا الـقَـفـا والـعِـرْسِ والـكُـوَّهْ   رخْـوٌ، بَـلـى فـي راسِـهِ قُـوّهْ[5]

وفي ابيات الخريدة ـ السالفة الذكر ـ كلمة «باس» بمعنى قَبَّلَ، وهي من العامي الذي اشار اليه صاحب شفاء الغليل[6].

والبيت الاخير من ابيات ذلك العاقل ـ المجنون، اخذه الشاعر العراقي المعاصر الدكتور احمد الوائلي، فقال من عينية معروفة:

ويـدٌ تُكبّـلُ، وهي مِمّـا يُـغْـتَـدى   ويـدٌ تُـقبّـلُ، وهـي مِمّـا يُـقْـطَعُ

٤ ـ وجوه البلاغة العربية:

ان دراسة اشهر النماذج من شعر القرن السادس، سواء تلك التي وصلتنا عن طريق دواوين الشعراء، ام التي اوردها صاحب الخريدة في كتابه، لا بد أن تقنع الباحث بحقيقتين تكمل احداهما الاخرى:

١ ـ ان مفهوم الشعر البليغ في اواخر الفترة العباسية، يختلف اختلافا بينا عما كانت عليه الحال في القرن الرابع والقرون التي سبقته، فلم يعد المثل السائر والاستعارة

(١) الخريدة ٢/ ٣٢٤، وانظر هامش المحقق.
(٢) لحن العامة ص ٤٥، العربية ص ١٨٤
(٣) ديوان ابن المعلم و ٥٩ (نسخة دار الكتب).
(٤) ديوان الابله و ١٨٨
(٥) نفسه.
(٦) ص ٤٦

الرائعة والتشبيه الواقع[1]، هي اهم ما يجب ان يشتمل عليه هذا اللون من الفن.

ان النماذج المتوفرة وآراء النقاد، واشهرهم العماد الاصفهاني، توحي بان أبلغ الشعر واجوده، في القرن السادس، هو الشعر الذي حرص صاحبه ان يجمع فيه اكبر قدر مستطاع من المحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق والترصيع، وكلما ازداد نصيب القصيدة او البيت من تلك المحسنات، ازداد اعجاب الناس بها، وهتاف النقاد وتصفيقهم لقائلها.

ويلاحظ في هذا الموضوع ان الجري وراء المحسنات البديعية، يكاد يكون الشغل الشاغل لجميع شعراء العصر، مع فارق واحد هو ان المحافظين من شعراء العصر وأشهرهم الحيص بيص، عرفوا كيف يخفون بديعهم، ويوارون تلك الالفاظ التي تعبوا في اصطيادها وجمعها، حتى بدت قصائدهم وكأنها خالية من بدعة العصر.

أما رواد التجديد وعشاق التطور، ومواكبة احدث الصيحات في عالم الشعر، واشهرهم الابله البغدادي، فقد تكدست المحسنات في شعرهم، فغطت على الشعر نفسه، حتى بدا وكأن الشاعر يطلب البديع لذاته، او انه نظم شعره ليعرض على السامعين احدث ما توصل اليه في هذا الباب.

وسلك ابن التعاويذي مذهبا وسطا، فكان اذا مدح الخلفاء، مال الى الاسلوب القديم، وتجنب البديع الا ما جاء عفوا، ولكن شاعرنا اذا مدح رجلاً عرف بغرامه بالبديع كالقاضي الفاضل[2]، خيل لك انه من كبار البديعيين، كما يتضح ـ على سبيل المثال ـ في قصيدته الرائية[3]، وكذلك قصيدته اللامية[4].

ومن الادلة على ان البديع صار مقياس جودة الشعر عامة، قول ابن التعاويذي يصف شعره:

شعـرٌ يُعلّمُ نـظمَ الشّعـرِ سـامِعَـهُ   فيـه طِبـاقٌ وَتجنيسٌ وَتَـرْصِيـعُ[5]

وقال يصف احدى قصائده:

جـاءَتْـكَ حـالِيةً تَـرائبُها مِنَ التْـ   تَجنيسِ والتَّـطبيقِ والـتَّـرْصيـعِ[6]

(١) العمدة ١/ ١٢٢

(٢) دراسات في الشعر في ظل الايوبيين ص ٢٢١، ٢٠٢

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٠

(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧٠

(٥) نفسه ص ٣٣٣

(٦) نفسه ص ٢٧٦

وواضح من هذين البيتين، ان الشاعر ينعت بالصفات التي اجمع معاصروه على انها مما يدل على بلاغة الشعر، وتمكن الشاعر من فنه.

وقال العماد الاصفهاني، يثني على ابيات فيها جناس: «انا استحلي هذا النوع من التجنيس واستعذ به، ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقة والصفاء، فيشربه ويتشربه»[1]، وقال عن قصيدة استولى الجناس على جميع الفاظها تقريبا: «هذه القصيدة من حقها أن تكتب بسويداء القلوب على بياض الاحداق، وقد احدقت بها حدائق من التجنيس والتطبيق والترصيع»[2]، وقال في الثناء على شاعر مغرم بالجناس مثل صاحب الخريدة: «كل شعر مجنس لا كشعر غيره بالركة والعجمة مدنس. .»[3] ومن هذا النص الاخير يبدو واضحا ان العماد يجعل تجنيس جميع ابيات القصيدة مما يبعدها عن الركة والعجمة.

ولعل مما يدل على اتساع موجة البديع هذه، ان الوعاظ وكبار العلماء اضطروا على مجاراة الذوق العام، فحشروا نماذج منها في وعظهم وشعرهم، والف بعضهم كتبا ليس فيها الا الشعر المجنس.

فأبو الفرج بن الجوزي، من علماء الحنابلة المشهورين بصناعة الوعظ، وكان مولعا بالتجنيس في لفظه والتأسيس وقد طرب اهل المجلس ـ: «فَهِمْتُم، فَهِمْتُم»[4]، وقال في قصة الذين عبدوا العجل: «لو أن الله خار لهم، ما خار لهم»[5]. ولا يعقل ان يلجأ ابن الجوزي الى الجناس، لو لم يعلم ان الجمهور مفتون به.

وحين تآمر عُمارة[6] اليمني على صلاح الدين الايوبي، وكاتب المتآمرون اعداء الدين من الصليبيين في فلسطين، والنورمنديين في صقلية لغزو مصر، صلب عمارة بسبب ذلك، فلم يجد العالم المشهور، تاج الدين الكِنْدي، المتوفى سنة ٦١٣ هـ، الا الجناس التام لقافية ابياته في عمارة:

---

(١) الخريدة ١/ ١٢٦

(٢) نفسه ٤/ ٢٣٣

(٣) نفسه ٤/ ٢٢٨

(٤) الخريدة/ نسخة ايران ١٢٨

(٥) ذيل الروضتين ص ٢٢، فهمتم: الأولى من الفَهْم، والثانية من الُهيام.

(٦) ذيل الروضتين ص ٢٢، خار لهم: الأولى من الاختيار، والثانية من الخُوار، وهو صوت العجل.

(٧) هو عمارة بن علي. . أبو محمد، نجم الدين: مؤرخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، من أهل اليمن، ولد في تهامة وقدم مصر برسالة من أمير مكة إلى الفائز الفاطمي سنة ٥٥٠ هـ، فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم. صلب سنة ٥٦٩ هـ. وفيات الأعيان ٣/ ١٠٧، صبح الأعشى ٣/ ٥٢٦، السلوك ١/ ٥٣، «عمارة اليمني المصري» للدكتور ذو النون المصري.

وامسى شَريكَ الشِّركِ في بُغضِ احمدٍ فـأصبحَ في حُبِّ الصَّليبِ صَليبـا
وكـانَ خبيثَ المُلْتَقى إنْ عَجَـمْتَـهُ تَجِـدْ منه عوداً في النِّفـاقِ صَليبـا
سَيَلقَى غـداً مـا كـانَ يَسْعى لأجلِهِ ويُسقى صَديداً في لَظى وصَليبا[1]

وقد الف ابو الحسن علي بن عنتر المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ كتابه «انيس الجليس في التجنيس في مدح صلاح الدين»[2]، كذلك الف سعد بن علي الحظيري كتابا في التجنيس سماه «لمح الملح»، اثنى عليه العماد الاصفهاني، ونعته بـ «الكتاب النفيس»[3].

٢ ـ كان من نتائج الاتجاه الى البديع، وحسبانه قمة ما يطمح اليه الشاعر البليغ ان صار الشعر صناعة وتكلفا، ولم يعد وجدانا وعاطفة. ان الشاعر لم يعد يعبر عن مشاعر وأحاسيس وعواطف ملكت عليه نفسه ففاضت على قلمه شعرا لا تملك ازاءه الا الطرب والاهتزاز.

لقد صار الشعر في القرن السادس صناعة يحكمها العقل، ولا صلة لها ـ الا في النادر ـ بالعاطفة والاحساس. حبس الشعراء انفسهم داخل قوالب وقيود سموها البديع، ثم راحوا يصبون افكارهم في تلك القوالب الجاهزة، ولذلك يشعر القارىء ان شعرهم غدا عبدا للبديع وانواعه، فهزلت الافكار وضحلت ومطت القصائد وطالت، ففقدت اللغة التركيز وغزارة المعنى، وجاءت الاخيلة كسيحة باهتة، والصور مكررة بالية لا تحرك شعورا ولا تدل على شعور.

فاذا استطاع الشاعر ان يثور على البديع ويخرج على سلطانه ـ وهي حالات قليلة ـ قدر لنا حينئذ ان نستمع الى شعر جيد، ومنه بعض اهاجي ابن التعاويذي كقوله:

ألا مُـنـصِـفٌ لـيَ مِـنْ ظـالِـمٍ تَـمـلّكـني جَـورُهُ واسْـتَـرقْ؟
واصـبـحـتُ مُـرتَـزقـاً راحَـتَـيْـهِ وبئسَ الـمَـعيشـةُ والـمُـرتَـزَقْ
قـلـيـلُ الـصَّـواب اذا مـا ارْتـأى بـذيء الـلّسـانِ اذا مـا نَـطَقْ
كَـثيـرُ الـتَّـحـيُّفِ فـي ظُـلْمِـهِ اذا اخـذَ الَّـلحمَ يـومـاً عَـرَقْ
يَـضِـنُّ عـلى الـنَّـاسِ مِـنْ بُـخْـلِهِ بـرُوحِ نَسيم الصَّبـا الـمُـنْتَشَقْ

---

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص١٧، الصليب الأولى، النصارى، والثانية: بمعنى مصلوب. والثالثة من الصلابة. والرابعة ودك العظام، وقيل هو الصديد.

(٢) معجم الأدباء ٥/ ١٣١ط. ماركليوث الثانية.   (٣) الخريدة ٤/ ٣٠

ولـو كـانَ يَـقْـدِرُ مِـنْ لـؤمـهِ حَمَى الطَّيرَ أنْ يَسْتـظِلَّ الـوَرَقْ
يُـظاهِـرُ لـلنّـاسِ يـومَ السَّـلامِ لِبـاساً جـديـداً وعِـرْضـاً خَلَقْ
وَيَـنْـعَـرُ فـي دَسْـتِـهِ مُـجْـلِبـاً فَـتُـقْـسِـمُ أنَّ حِـمـاراً نَـهَـقْ

. . . الخ[١].

التشبيه:

سبق ان اشرت عند دراسة اغراض الشعر ـ ومنها المدح والهجاء والغزل الى ان معظم المعاني والافكار التي طرقها شعراء القرن السادس، كانت مطروقة من قبل، فلم يزد هؤلاء الشعراء على اعادة افكار سابقيهم ولكن بالفاظ جديدة، ولذلك فمن البديهي ان تجد معظم التشبيهات التي ترد مكررة معادة لا جديد فيها، كتشبيه الكريم بالبحر في الجود، وتشبيه الفارس الشجاع بالاسد، ونعت الملك العظيم المكانة بالنجم في العلو والارتفاع، او بالشمس:

مُلوكُ البَرايا انجمٌ، انتَ شَمسُهـا اذا الشّمسُ ذَرّت غابت الانجمُ الزّهرُ[٢]

وهو قول النابغة الذبياني المشهور:

فـانّـك شـمسٌ والمـلوكُ كـواكـبٌ اذا طَلعتْ لم يبـدُ منهـنَّ كـوكبُ

وظل الشعراء مثل اسلافهم يشبهون الوجه الجميل بالبدر:

وأزهرَ مِثْلِ البدرِ، قدْ طافَ مَوْهِناً[٣] عليّ بمثْلِ الشَّمسِ منْ قَرْقَفِ الخَمرِ[٤]

كذلك بقيت العيون تشبه بالسيوف، فاذا كان المتغزل به ذكرا قيل: انه شاهر سيفين، اي سيفه وعينه:

شـاهِـر سيفينِ، مُشتَبِـهٌ منهمـا، سـاجٍ وَمَصْقـولُ
فـسلوهُ، يُـنْـبِ أيُّـهـمـا دَمُـهُ في الحيِّ مَـطلولُ[٥]
لـحظُهُ؟ أم مـا تَـقَـلّدَهُ؟ فَكِـلا العَضْبَيْنِ مَسلولُ[٦]

وقال الحظيري:

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣
(٢) ذرت الشمس: بزغت وأشرقت.
(٣) الخريدة ٢/١٤٦
(٤) مَوْهناً: من الوَهْن، وهو نحو منتصف الليل.
(٥) الخريدة ٢/١٦٢
(٦) دم مطلول: ذهب هدرا.

بَـدَتْ قَمـراً، وَرَنَتْ جُؤذراً   ومالَتْ قَضيباً، وولّتْ كَثيبا[1]

وهو قول المتنبي:

بَـدَتْ قمـرا، ومـالَتْ خُـوطَ بـانٍ   وفـاحَتْ عَنبـراً، ورَنَتْ غَـزالا[2]

ومن الطبيعي ان يكون الموغلـون في المحافظة، المفتونون بالقديم، وهم الجماعة التي يتزعمها الحيص بيص، هؤلاء من اكثر الشعراء اعادة وتكرارا للتشابيه والصور القديمة، كقول الحيص بيص:

على حين ماذُدْتُ الصِّبا عن صَبابةٍ   ذيادَ المَطايا عن عِذابِ المَشارب[3]

وقوله:

فسطاكَ مـوتٌ لـلأعـادي، قـاتِـلٌ   وَنَـداكَ للعـافِينَ غيثٌ صَيِّـبُ[4]

ومن التشابيه القديمة التي لج بها الحيص بيص تشبيه الكريم بالسكران من فرط نشوة الكرم والاريحية، فقال:

نَشـوانُ مِنْ ذِكـرِ العَـلاءِ كـأنّمـا   في كُـلِّ مَنقَبَةٍ مُـدامـةُ شـاربِ[5]

وقال ثانية:

نَشـوانُ منْ رَجْعِ المَـديحِ كـأنّما   في كُـلِّ قـافيـةٍ حُمَيّـا راح[6]

وقال في قصيدة ثالثة:

وَيهتَزُّ عِطْفاهُ لأحدوثةِ[7] العُلى   كما مالَ للكأسِ النّزيفُ[8] المُرنَّحُ[9]

ويلاحظ ان شعراء القرن السادس، وهم يكررون ويعيدون تشابيه اسلافهم من الشعراء المتقدمين، يختلفون في كيفية التصرف في تلك الصور المعادة كل بحسب شاعريته وقدرته، فمنهم من استطاع ان يعبر عن التشبيه القديم بلفظ فيه طرافة وحلاوة، فبدت الصورة القديمة بثوبها الجديد الانيق وكأنها بنت القرن السادس، ممتلئة شبابا وفتوة وجمالا، وهناك بعض التشابيه القديمة زادت قدما وتضاعفت سنوات عمرها، بسبب اخفاق شعراء القرن السادس في اختيار الالفاظ او الثياب التي تلائمها.

---

(1) الخريدة ٤/ ٤٠
(2) شرح ديوان المتنبي للعكبري ٣/ ٢٢٤
(3) الخريدة ١/ ٢١٠
(4) الخريدة ١/ ٢١٦
(5) الخريدة ١/ ٢١٧
(6) نفسه ١/٢٢٣
(7) الأحدوثة: الحديث.
(8) النزيف: المتمايل من فرط السكر.
(9) الخريدة ١/ ٢٢٤

فعلى سبيل التمثيل، يقول ابن التعاويذي مادحا:

وَمــزايــا مَــآثــرٍ كــالحَصــا يَـنْـ ... ـفَـدُ من دونِ عَـدِّهـا الإحصـاءُ[1]

وهو من بيت الفرزدق:

لنا العِزّةُ القَعساءُ[2] والعَددُ الـذي ... عليـه اذا عُـدَّ الحَصـا يُتحلّفُ[3]

وواضح ان كلمة «مزايا» في اول بيت ابن التعاويذي، زائدة لا موجب لها سوى اقامة الوزن، والمبالغة في بيت الفرزدق طريفة مقبولة «يتحلف الحصا اذا عدبنا»، اي يعقد الحصا حلفا مع غيره ليستطيع مواجهة عددنا. اما مبالغة ابن التعاويذي: «ينفد الاحصاء من دون مآثر الممدوح»، فليس فيها فن ولا طرافة.

وقال الحيص بيص:

حُمَّ القضــاءُ فكــالــدّنيّ مُمجَّـدٌ ... عندَ المَماتِ، وكالجبانِ مُصمِّمُ[4]

وهو من بيت ابي الطيب المتنبي:

وَصَلتْ إليـكَ يـدٌ سَـواءٌ عنـدَهـا ... البـازُ الاشْهبُ والغرابُ الأبقـعُ[5]

ان صياغة المتنبي لا تدانيها لغة الحيص بيص، فان لفظة «دنيء» يجب ان توضع بازائها لفظة شريف مثلا، ولكن شاعر القرن السادس تكلف واشتط، فجاء بكلمة «ممجد». وكذلك في عجز البيت، فان الشجاع هو الذي يقابل الجبان، اما كلمة «مصمم» فهي لا تعوض عن الشجاع الا عند علماء اللغة من أمثال الحيص بيص.

اضف الى ذلك ان الاستعارة في بيت المتنبي «وصلت اليك يد» منحت البيت سحرا، عرف به شعر ابي الطيب.

ومن التشابيه الجيدة، قول الحيص بيص يمدح:

خَــزائنُهمْ أيــدي العُـفــاةِ لأنّهـمْ ... رَأوْهـا على مر الـزّمانِ البَـواقِيا[6]

وهو قريب من معنى بيت ثان له، هو قوله:

فكُنْ حيثُ الـظُّنونُ، فكـلّ كَسبٍ ... سوى الذِّكْرِ الجميلِ الى نَفـادِ[7]

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٣
(٢) العزة القعساء: الثابتة.
(٣) شرح ديوان الفرزدق ص ٥٦٦
(٤) الخريدة ١/ ٣٤٧
(٥) شرح ديوان المتنبي للعكبري ٢/ ٢٧٤
(٦) الخريدة ١/ ٣٣٤
(٧) نفسه ١/ ٢٤١

ان المعنى قديم مشهور، ولكن تعبير الحيص بيص، هو الجديد الطريف «خزائنهم ايدي العفاة»، اذ يقول الشاعر: ان هذا الرجل الجواد، لا يبدد امواله بتفريقها على المحتاجين، ولكنه يحفظها ويخزنها، وهو تعبير يحسد عليه الحيص بيص.

وتأمل قول الحيص بيص نفسه في الفخر:

فـاتّـقـوا وثـبـةَ لـيـثٍ خـادِرٍ　　أكلُهُ الموتُ، اذا يُدْعى نَـزالِ[1]

فالتشبيه البليغ اكله الموت، ليس بليغا، لان لفظة «أكل» لا تناسب الموت، وقد اراد الشاعر المبالغة في وصف شجاعته واقدامه.

ومن التشابيه المضحكة السخيفة، قول ابن التعاويذي:

يَميلونَ مِنْ طولِ السُّرى فكأنّما　　على كُلِّ كُورٍ بـانَـةٌ تَتَـرَنَّـحُ[2]

ان تشبيه المسافرين المتعبين، وهم يترنحون على ظهور الجمال، بشجر البان المتمايل، من التشابيه التي يدهش المرء ان تصدر عن امثال ابن التعاويذي ان مجرد تصور بانة تترنح على ظهر بعير، يثير الضحك حقا، لان البان اعتاد الشعراء ان يشبهوا به قدود النساء في اللين والاستواء. اما المسافرون المتعبون على ظهور الجمال، فقد شبههم ابو تمام بالاشباح:

وَرَكْبٍ يُسـاقونَ الـرِّكابَ زُجاجـةً　　مِنَ السَّيرِ لم تَقْصِدْ لها كَفُّ قاطِبِ[3]
فقدْ أكَلوا منها الغَوارِبَ[4] بالسُّرى　　فصارتْ لها أشباحُهُمْ كالغَوارِبِ[5]

اما الحيص بيص فقد شبه المسافرين هؤلاء بالنشاوى السكارى:

أقـولُ لركْبٍ مُـدْلِجينَ[6] تَذارعـوا　　بُرودَ[7] الفَيافي[8] بالرَّسيمِ[9] المُردَّدِ
نَشاوَى مِنَ التَّهويمِ[10]، حتّى كأنّما　　سَقاهُمْ سُهادُ اللّيلِ خمرةَ صَرْخَدِ[11]
اذا سـاوَرَ الإعيـاءُ مِنهمْ غَـريمَـهُ　　نَفـاهُ مَقـالُ مِنْ فَصيـحٍ مُغـرِّدِ
وقد لَفَظوا عن عِيسِهِمْ كُلَّ مُثقلٍ　　من الـرَّحلِ حتّى بُلْغَةَ المُتـزوِّدِ

(١) نفسه ٦/ ٢٩٤
(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ٨١
(٣) القاطب: الذي يمزج الشراب.
(٤) الغوارب: أراد بها هنا اسنمة الجمال.
(٥) شرح الخطيب التبريزي لديوان أبي تمام ١/ ٢٠٩
(٦) مدلجين: من الادلاج، وهو السير ليلا.
(٧) البرود: واحدها ؟برْد: ثوب مخطط.
(٨) الفيافي: الصحارى.
(٩) الرسيم: ضرب من السير.
(١٠) التهويم: النوم القليل.
(١١) صرخد: بلد بالشام ينسب إليها الخمر.

خُذوا برقابِ العِيسِ إنْ رمتم الغنى | الى ذي الأيادِي طغرلِ بنِ مُحمدِ[١]

ان كلا من ابي تمام والحيص بيص، اجود تشبيها من ابن التعاويذي دون شك، لان الاصل في التشبيه وجود صفة أو اكثر تجمع بين المشبه والمشبه به وتجعل عملية التشبيه ممكنة مقبولة، لانها تعقد بين شيئين متقاربين في الصفات[٢]، وهو امر غير ملاحظ وغير معتاد بين المسافر المتعب الذي يكاد يسقط من فوق ظهر الجمل، والبانة المستقيمة العود اللينة المترنحة في بيت ابن التعاويذي.

وعلى عكس التشبيه المتقدم، وردت بعض التشابيه الرائعة من حيث دقتها وتعبيرها، كقول ابن افلح يهجو:

أبـوابُـهُ مُـغْلَقَـةٌ دائـبـا[٣] | مِـنْ دونِ وُفّـادٍ وَضِـيـفـانِ
قـد أيِسَ الطّارقُ من فتحِهـا | كـأنّـهـا أجفـانُ عُـمـيـانِ[٤]

وقول ابن المُعلّم:

شـامَـةُ البَيْـداءِ ركبٌ سـائـرٌ | حَبّذا الغادونَ إنْ أمّوا الشّآما[٥]

ويبدو ان هبوط المستوى الثقافي في القرن السادس، وميل الجمهور الى الشعر الواضح الذي لا تعقيد في الفاظه ومعانيه، اقول ان تلك الاسباب كانت وراء شيوع التشابيه التي لا تحتاج الى تفكير ولا اجهاد فكر لادراك العلاقة بين المشبه والمشبه به.

ان الشائع الملاحظ في هذه الفترة، هو عقد المقارنات او اجراء عملية التشبيه بين الاطراف المادية المشاهدة التي لا يمكن ان يختلف حولها اثنان، أما التعبير عن افكار دقيقة او اختيار تشبيهات يكون المشبه فيها خافيا غامضا ويجيء المشبه به مشهور الصفة معروفها فيزيل بذلك غموض المشبه ويحدد صفته، فان هذا الضرب من التشبيهات قليل بصورة عامة، كما سيأتي.

فمن نماذج التشبيهات الشديدة الوضوح، قول سعد بن علي الحَظِيري يهجو:

قـالَ: ألـمْ تَعلَمْ بلؤمـي؟ فَلِمْ | كَسوتَ عِرْضَى حُلَلَ المَـدْحِ؟
قلتُ: أربِّيـكَ لسيفِ الهِـجـا | كمـا يُـربّى الكَبْشُ للذّبْـحِ[٦]

---

(١) الخريدة ١/ ٢٣٢
(٢) كذا بالاصل، ولعل الصواب «دائما».
(٣) العمدة ١/ ٢٨٦
(٤) الخريدة ٢/ ٦٧ - ٦٨
(٥) ديوان ابن المعلم/ نسخة النجف و ٩٠
(٦) الخريدة ٤/ ٤٩

وقال في الهجاء ايضا:

هَجوتُكَ إذْ قَطعتَ البِرَّ عنّي ... وكنتُ أحوكُ فيكَ المدحَ حَوْكا
كَذاكَ الأرضُ: تَزرعُها فَتَزكو ... وَتقطَعُ زرعَها فَتجيء شَوْكا[1]

ان تربية الكباش وتسميها حين يراد ذبحها من البديهيات التي يعرفها حتى الاطفال وكذلك الامر في ترك الاراضي واهمالها فان الاشواك لا بد ان تحتلها.

ومن المألوف الشائع حتى اليوم قول الناس عن الذي لا يرحم ولا يرق بأن قلبه من صخر أو من حجر صوّان، ولذلك فان تشبيه ابن التعاويذي الاتي لا يحتاج الى شرح:

قاسٍ كأنَّ قلبَهُ مِنْ صَخْرِ ... في خَدِّهِ ماءُ الشَّباب يَجْري[2]

وقال يصف قصيدة:

تُشْرِقُ في سالِفَةٍ وَنَحْرِ ... يُضْحي بها عِرْضُ الكريمِ الحُرِّ
ذا أرَجٍ مِنْ طِيبِها وَنَشْرِ ... كأنَّهُ مُضمخٌ بِعِطْرِ[3]

ومن هذا الضرب قول الابله:

وعاوَدَني الغرامُ، فبت صَبّاً ... كأنَّ بِمَضْجعي شَوكَ القَتادِ[4]

وهناك بعض التشبيهات التي تعتمد في وضوحها على العرف الاجتماعي كقول ابن التعاويذي يهجو:

وأنتَ مِثْلُ اليهودِ خُبْثاً ... خُلِقْتَ مِنْ ريبَةٍ وفُحْشِ[5]

وقال يرثي طفلا:

كأنَّهُ الوَردُ أتى زائرا ... ثُمَّ انقَضَتْ أيّامُهُ عن كَثَبْ[6]

ففي هذا البيت الثاني ما فتيء الناس يقولون للقصير العمر انه مات في عمر الزهور، وقد اخذ الشاعر تشبيهه من تلك الحقيقة التي يرددها الناس جميعا.

وقال ابن المعلم:

---

(١) الخريدة ٤/ ٥٠

(٢) ديوان ابن التعاويذي ص ١٧٩ (٣) نفسه ص ٨١

(٤) ديوان الابله و ١٨٣، القتاد: شجر صلب له شوك كالابر.

(٥) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٤٦ (٦) نفسه ص ٥٨

مـا بـالُ مـالي مُستبـاحَ كـأنّني أحَدُ الخَوارجِ من بني حطّان[1]؟

اما التشبيهات التي تحتاج الى شرح، فانها قليلة، من ناحية، وقد انفرد باكثرها شعر الحيص بيص من ناحية ثانية، وهي دون شك جزء من شاعرية هذا الرجل الذي اولع بالاساليب اللغوية الغريبة عن القرن السادس، ولعل شرح العماد الاصفهاني لطائفة من ابيات الحيص بيص في خريدته، ممايدل على ان صاحب الخريدة على علم بان هذا الضرب من الكلام لا يفهمه كل الناس.

ومن تلك التشابيه قول الحيص بيص:

سَحبْنَ فُضولَ[2] الريط[3] صَوْناً كأنَّما خِفافُ المَطايا مِنْ شُعورِ المَغارِق[4]

قال العماد معلقا وشارحا: «يعني اضفين الملابس حتى سوين - من الصون - بين اخفاف إبلهن وبين شعور مفارقهن»:

وقال:

كـأنْ نعـامـاً صيحَ في أُخـريـاتـه حـوافُلهـا[5] لمّا مررنَ هـوافيـا[6]

قال العماد: «المراد بالصياح ها هنا الطرد والغارة، فإنه لما كان من ابين الطرد عبر عنه بالصياح».

وقال:

وأثيـرُ الـنَّـقْـعَ[7] مـن أنـديَـةٍ يَعْبَقُ المَنْـدَلُ[8] فيهـا بـالنَّسيمْ[9]

قال العماد: «من فرط طيبها، لنعم اهلها، يستفيد العود منها طيبا. ووجه آخر، وهوان النسيم يعبق بالمندل، فذكر المعنى مقلوبا، وهي عادة عربية».

ولعل من اطرف ما صنعه شعراء القرن السادس، انهم استفادوا من آيات القرآن الكريم حينا، اومن المعاني الدينية عامة حينا آخر، في ايجاد مجموعة نادرة من التشبيهات، لا يشك احد انها لولا الدين لما قدر لها ان تبدو بالشكل الذي بدت فيه، وهذا الصنيع يدل على ان هؤلاء الشعراء ادركوا ما في القرآن الكريم من كنوز وذخائر لم يحاول الاسلاف الاستفادة منها كما يجب.

---

(١) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٧

(٢) فضول: الواحد فضل، وهو الزيادة.

(٣) الريط: الواحدة رَيْطَة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة.

(٤) الخريدة ١/ ٢٨٠

(٥) الجوافل: الابل الشوارد.

(٦) الخريدة ١/ ٣٣٠، الهوافي: الابل الضالة، الواحدة هافية.

(٧) النقع: الغبار المتصاعد.

(٨) المندل: الغبار المتصاعد.

(٩) الخريدة ١/ ٣٠٧

كذلك لا يستبعد ان شعراء هذا القرن ربما استفادوا في هذه الناحية من الدراسات المتطورة لأساليب القرآن الكريم، والتي نهض بها معتنقو المذاهب الاسلامية المختلفة كالمعتزلة ومنهم جار الله الزَّمخْشري في كتابه المشهور «الكَشّاف» في التفسير، وقبله عرف الباقِلّاني ابو بكر محمد بن الطيب توفي سنة ٤٠٣ هـ، في كتابه «إعجاز القرآن».

ومهما يكن فان الاثر الديني، وخاصة اثر القرآن الكريم، واضح جدا في الناحية البلاغية من شعر القرن السادس، ومن الطبيعي ان يكون التشبيه له المقام الاول في هذا الموضوع.

ان دراسة التشبيهات المختلفة من الناحية الدينية، تثبت وجود نوعين من الاثر الديني فيها، وهما:

١ ـ ان الشاعر قد يستفيد من النص القرآني بتمامه في صوغ او ايجاد التشبيه المطلوب. وهذا النوع يشبه الاقتباس من القرآن الكريم والذي فشا في العصور المتأخرة، ولكنه قليل في تشبيهات القرن السادس بصورة عامة.

ومن الامثلة على هذا النوع من التشبيهات قول ابن التعاويذي يصف كتابة القاضي الفاضل، من قصيدة:

يَسيرُ في الآفاقِ أنباؤها كأنّها اللّيلُ اذا يَسْري[1]

فقد استفاد من قوله تعالى: «واللّيْلِ إذا يَسْرِ»[2]، في مكان المشبه به.

وقال ايضا:

لَوْمُكَ للصَّبِّ في مُعَذِّبِهِ سَوطُ عَذابٍ عليهِ مَصْبوب[3]

والمشبه به «سوط عذاب» من قوله تعالى[4]: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذاب».

وقال الابله البغدادي، يهجو:

خُشبٌ مُسنَّدةٌ، وإنْ راقَتْ لهم يومَ السَّلامِ مَسانِدٌ ومَطارِحُ[5]

واول البيت من قوله تعالى[6]: «وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَة».

وقال ايضا:

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٤

(٢) الآية الرابعة من سورة الفجر.

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨.

(٤) الآية ١٣ من سورة الفجر.

(٥) ديوان الابله و ٩٨

(٦) الآية الرابعة من سورة المنافقين.

وفُضولُ مُحْكَمَةِ القَتيرِ[1] كأنّها صَرْحُ على مَتْنِ الكَمِيّ مُمَرَّدُ[2]

قوله: صرح ممرد (وهو المشبه به)، من قوله تعالى[3]: «انّهُ صرْحٌ مُمَرّد».

٢ ـ ان الشاعر قد يستفيد من المعنى او الفكرة الدينية او القرآنية في صياغة التشبيه الذي يريد، دون ان يتقيد بالنص القرآني. وهذا الضرب من التشبيهات هو الذي يلفت النظر لكثرته، وخاصة عند ابن التعاويذي والابله وابن المعلم.

قال ابن التعاويذي:

كأنّني يعقوبُ في الحُزْنِ بَلْ ايّوبُ في البَأساءِ والضُّرِّ[4]

وهو من قصص القرآن الكريم عن حزن يعقوب على ابنه يوسف، وكذلك عن صبر النبي ايوب، حتى ضرب به المثل.

وقد تكررت الاشارة الى قصة يوسف ويعقوب في قول ابن المعلم:

فابنُ يعقوبَ كابنِ يعقوبَ في العَدْ لِ، وما مَوْصِلُ الشّآمِ كَمصْر
ذاكَ أوفَى كَيلاً لِمَنْ مسَّهُ الضُّرْ رُ، وهذا ما زالَ كاشِفَ ضُرِّ[5]

وقال ابن التعاويذي:

وَحَلَلْتَ زَوراءَ[6] العراقِ كَما حَلَّ الغَمامُ بماحِلِ القفْرِ
فكأنَّ طَلْعَتَكَ الهِلالُ تَرا ءَتْهُ النَّواظِرُ ليلةَ الفِطْرِ[7]

فهذا البيت الثاني، اخذه الشاعر من تطلع الصائمين وشوقهم الى رؤية هلال شوال الذي يدل على انتهاء شهر رمضان. وقد سبق ابو نواس الى ما يقارب بيت ابن التعاويذي، حين قال يهجو قوما بالبخل:

فاذا هُمُ رَأوا الرَّغيفَ تَطرَّبوا طَرَبَ الصِّيامِ الى أذانِ المَغْرِبِ[8]

وقال ابن التعاويذي من الشكوى:

كأنّني أُنقَلُ ما بينَهمْ مِنْ مَلَكِ الموتِ الى مُنْكَرِ[9]

---

(١) القتير: الدرع، أو رؤوس المسامير فيها.
(٢) الديوان و ١١٤، ممرد: أملس.
(٣) الآية ٤٤ من سورة النمل.
(٤) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٢
(٥) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ٦٢
(٦) زوراء العراق: بغداد.
(٧) ديوان ابن التعاويذي ص ١٨٦
(٨) ديوان أبي نواس (آصاف) ص ١٩٠
(٩) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٣٤

وقال يرثي ام الخليفة الناصر:

فَيا لَكَ مِنْ قَبرٍ بَرُدْتَ مَضاجِعاً وَقلّبْتَ أبناءَ القلوب على الجَمر
نَمُرُّ عليهِ خاشِعينَ كأنّنا مَرَرْنا على الرُّكْنِ المُقَبَّلِ والحِجْرِ[١]

اما الابله البغدادي فقد صاغ بعض تشبيهاته من افكار ومعان دينية غير تلك التي مرت عند ابن التعاويذي. ويلاحظ ان بعض الافكار الدينية ربما تكررت في اكثر من بيت عند هذا الشاعر، مما يدل على اعجابه بها واعتداده لها من النفائس التي لا بد من تكرارها، مع بعض الاضافات هنا وهناك. وظاهرة التكرار هذه لم اجدها عند ابن التعاويذي.

قال الأبله مادحا:

يا ابنَ أبي نَصرٍ، ومَنْ قَومُهُ لِدينِنا أوسٌ وأنصارُ[٢]

وقد كرر «الاوس والانصار» فقال:

ما أرتَجى أوساً سِواكَ على دَهري، ولا لي خَزرجٌ أُخَرُ[٣]

وقال متغزلا:

فخصره مِثلُ ديني ورِدْفُهُ أوزاري[٤]

اي ان دين الشاعر دقيق مثل خصر حبيبه، اما اوزاره وذنوبه فهي كبيرة لا تطاق مثل ردف الحبيب. والابله في بيته هذا يقلد بيت ابي نواس في نعت خمرته:

عُتّقتْ في الدَّنِّ حتّى هي في رِقّةِ ديني[٥]

ففداءُ الوزيرِ كلُّ بخيلٍ كاذبُ الوَعدِ ربُّهُ دينارُهْ[٦]

وقد كرره فقال:

هذا ورُبَّ قصائدٍ اعتَقْتُها عن قَصْدِ مُثرٍ ربُّهُ الدِّينارُ[٧]

---

(١) نفسه ص ٢٢٤
(٢) ديوان الابله و ١٠
(٣) نفسه و٥٠
(٤) ديوان الابله و ٤٢
(٥) ديوان أبي نواس (آصاف) ص ٣٣٩
(٦) ديوان الابله و ٣٤
(٧) نفسه و ١٣

وقريب من هذا المعنى قوله:

مَنْ يُرى مِنْ حُبِّ دِرْهمِه عاكِفاً منهُ على وثنِ[1]

ومن المعاني الاسلامية ان جنة الخلد هيّ المكان الذي يطمح المسلمون في سكناه، ولا يوجد ما يشبه الجنة او يقاربها في الطيب والحسن عند المسلمين، اما جهنم فهي اخوف ما يخافونه، وليس في ذهن المسلم ما هو اشد حرارة من نار جهنم، ولذلك قال الأبله:

جنّةٌ للعُفاةِ، وهو على الأعـ داءِ يومَ الهياجِ نارُ سَعيرِ[2]

وكرره فقال:

هي في حُسنِها كجنّةِ خُلدٍ لكَ فيها البَقاءُ والتَّخليدُ[3]

وقال ابن المعلم:

لِيمنَعَني وَصْلَ الحِمى، وهو جنّةٌ ويأمُرَني بالصَّدِّ، وهو جَهنّمُ[4]

وكرره فقال يمدح:

كانَ العراقُ مذْ هَجَرتَ جوَّهُ لَظى، وقدْ صارَ جِنانَ الخُلدِ[5]

الاستعارة:

وهي ضرب من التشبيه عند صاحب المثل السائر، كما يفهم من قوله: «والتشبيه ضربان، تشبيه تام، وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه والمشبه به، والتشبيه المحذوف ان يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام، والا فكلاهما يجوز ان يطلق عليه اسم التشبيه، ويجوز ان يطلق عليه اسم الاستعارة لاشتراكهما في المعنى»[6]. وبسبب هذه العلاقة الوثيقة بين التشبيه والاستعارة، فان جميع ما ذكرته عن التشبيه في الصفحات السابقة يصدق على الاستعارة ايضا، مع ملاحظة ان الاستعارة اصعب من التشبيه عموما وأدل على الشاعرية ورسوخ القدم في دنيا الفن والشعر، وخاصة النوع الجيد النادر من الاستعارات، ولذلك يقل هذا الضرب من القول حتى عند كبار الشعراء.

ان الشعر الجيد ضرب من التصوير، اي بعبارة اخرى ان الشعر الجيد يكاد يلازم

---

(١) نفسه و ١٣٧
(٢) نفسه و ١٦٠
(٣) نفسه و ٢٣
(٤) ديوان ابن المعلم/ نسخة دار الكتب و ١٤
(٥) نفسه و ٣٧
(٦) المثل السائر ص ٢١٤ (بولاق).

الاستعارات الجيدة، فهي دليل الشاعرية الذي لا يخطىء.

ومن هنا قلت الاستعارات وندرت في شعر القرن السادس، ولم نعد نعثر على الجيد منها الا في طائفة من شعر ابن التعاويذي، ونادرا ما يجيدها الحيص بيص، وهذان هما اكبر شعراء الفترة.

ومن الطبيعي ان كمية الشعر الهائلة التي خلفها لنا شعراء القرن السادس فيها كثير من الاستعارات، ولكنها استعارات لا تحرك مشاعر ولا توقظ احاسيس ولا تدل على شاعرية، على الرغم من الالقاب والنعوت التي اسبغها العماد الكاتب على اصحابها، وتلك الجناسات والسجعات التي رصها لهم رصا.

ان استعراض نماذج من استعارات الابله البغدادي، وهو شاعر من المشهورين بشهادة صاحب وفيات الاعيان[1]، يكفي لاعطاء فكرة او صورة من استعارات سواه من شعراء الفترة.

فمن استعارات الابله قوله متغزلا:

راحَ يهتز كغصن رَنَّحتْ عِطْفَيهِ ريحْ
تجرحُ الألحاظُ خَدَّيْهِ فَلِمْ قَلبي الجريحُ؟
واهُ، عاشَ المستبيحُ قتلَ مَنْ يَهَ مُستبيحا[2]

ففي البيتين الثاني والثالث استعارتان، فقد استعار الشاعر «الجرح» للتعبير عن الاثر الذي تتركه العيون في خد الحبيب في البيت الثاني، واستعار «القتل» للتعبير عن آلام الهوى والحب عند العشاق. ومن شروط الاستعارة ان يكون بين المشبه والمشبه به، او المستعار والمستعار له مناسبة «لان الاصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي ان يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الاشياء، ولا يقع ذلك الا من شخصين بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه..»[3]

واستنادا الى قول ابن الاثير هذا: هل نجح الابله في استعارتيه المتقدمتين؟ ان مقياس النجاح هو مقدار الاهتزاز والاعجاب الذي يثيره الشعر فينا، وما اظن احدا يعجب بتشبيه احمرار الخدود بالجراح، لان منظر الخد الاحمر المتورد يختلف تماما عن منظر الجرح، والاحساس النفسي في الحالتين متباين.

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٨٧

(٢) ديوان الابله و ١٨٦

(٣) المثل السائر ص ٢١٨ (بولاق).

وكذلك الامر في الاستعارة الثانية، لان صدود الحبيب ودلاله غير قريبين ابدا من القتل او الموت وما يتصل بهما من معان، ليس بينهما وبين الحب والعواطف اية صلة.

وقال الابله يمدح:

وفي بِحارِ مَساعِيْكَ، تَغْرَقُ السُّبّاحُ[1]

١ ـ شبه مساعي الممدوح بالبحار في الكبر والسعة، لان تقدير الكلام في البيت: وفي مساعيك التي تشبه البحار تغرق السباح.

٢ ـ السباح: جمع سابح، والمشهور في جمع هذه الكلمة «سابحون»، ولعل الابله هو الشاعر الوحيد في اللغة العربية الذي يجمع سابح على سباح.

٣ ـ السباح هؤلاء استعارهم الشاعر للتعبير عن الذين يحاولون اللحاق بالممدوح أو يتشبهون به في علو المنزلة ورفعة المقام.

والاستعارة ليست سوى ترديد لمعنى عامي لا يزال على السنة العامة حتى اليوم، اذا ارادوا الاستخفاف والسخرية ممن يحاول القيام بعمل كبير وهو ذو امكانية متواضعة اذ يقولون له: لا تغرق.

ومن استعارات الابله قوله متغزلا:

وعاوَدَني الغَرامُ، فَبِتُّ صَبّاً كأنّ بَمضْجِعي شوكَ القَتادِ[2]

ان «عاود» هذه تطلق عادة على نوبات الحمى او المرض، وفي استعارتها للغرام بعد واضح. وهذه الاستعارة تذكرني بأخت لها في شعر طلحة بن محمد النعماني، وهي قوله:

وَتَرى غُرابَ الجودِ في أموالِهِ بِسَماحِهِ في كُلِّ يومٍ يَنْعَقُ[3]

فالمشهور ان صوت الغراب اقترن بالخراب والموت، اما اضافته الى الجود «غراب الجود» فهو اشنع استعارة سمعت، كما قال محقق الخريدة منصفا.

وعندي ان شاعر القرن السادس حاول تقليد شاعر متقدم في بيته:

مالٌ كأنَّ غُرابَ الجُودِ يَرْصُدُهُ فكلّما قيلَ هذا مُجْتَدٍ نَعَبا

---

(١) ديوان الابله و ١٨٦
(٢) نفسه و ١٨٣
(٣) الخريدة ٢/ ٣٩

وهذا البيت فيه طرافة سببها «كأن» على ما اظن، اما بيت النعماني فثقيل الدم بسبب «ينعق» قاتلها الله.

ولست ارى فائدة في الاستمرار على عرض الاستعارات الرديئة لأنها بينة جدا في اكثرية قصائد الابله، وهي جميعا تدل على ان بعض شعراء القرن السادس «المعروفين» لم يعد يهمهم الا ان ينظموا شيئا.. أي شيء.

وبعد هذه الأمثلة «من الاستعارات الرديئة»، اظن ان من حق شعراء القرن السادس، او بعضهم على الاقل، ان نورد امثلة من استعاراتهم التي تدل على شاعرية فذة.

لقد كان لابن التعاويذي في هذا الميدان صولات وجولات، وكذلك الحيص بيص، ولكنه لا يقارن بابن التعاويذي في هذا المجال.

وقد وجدت ان نصيب الحيص بيص من الاستعارات الرديئة اقل بكثير من نصيب زميله ابن التعاويذي[1]، وهي ظاهرة اكتفي بالاشارة اليها، ولا اعرف لها سببا مقبولا.

ومهما يكن فان شاعرية ابن التعاويذي تبلغ الذروة حين يغضب فيهجو او يشكو، فتسمع منه حينئذ شعرا يذكرنا بفحول شعراء العربية كالمتنبي، وفي شعره هذا تنثال الاستعارات والصور انثيالا، فمثلا قصيدته التي مطلعها:

١ - أتَرضَونَ يا أهلَ بغداد لي وعنكمْ حديثُ النَّدى يُسْنَدُ[1]

ومن قوله فيها:

٢ - أرى البحرَ مُعتَرِضاً دونَكُمْ وما لي على سِيفِهِ[2] مَوْرِدُ
٣ - ويَبْعُدُ خَيرُكُمْ إنْ دَنوتُ عنيّ، والشَّرُّ لا يَبْعُدُ
٤ - وأشْهَدُ في الرَّوعِ[3] يَومَ اللّقاءِ وإنْ قُسِمَ الفَيءُ[4] لا أشْهَدُ
٥ - وأغرُسُ مَدْحِي، فلا أجتَني وأزرَعُ شُكري، ولا أحصُدُ
٦ - أبيعُ ثَنائي وكُتبي، ولا يَمدُّ إليّ بِرِفْدٍ يَدُ
٧ - ويُوسِعُني الدَّهْرُ ظُلْمًا ولا أُعانُ عَليهِ ولا أُنْجَدُ

الى ان يقول:

---

(١) أنظر ديوان ابن التعاويذي ص ٢٠: اوجه يسجد الجمال لها، ص ٧١: تغريد الدجاج..
(٢) سيف البحر. ساحله.
(٣) الروع: الفزع، الحرب.
(٤) الفيء: الغنيمة.

٨ ـ لَحى اللهُ بغدادَ مِنْ مَوْطِنٍ   بِهِ كُلُّ مَكْرُمَةٍ تُفْقَدُ
٩ـ هيَ الدَّارُ لا ظِلُّ عيشي بها   ظَليلٌ ولا زَمَني أغْيَدُ
١٠ـ نَسيمُ الهَويِّ بِها باردٌ   وسوقُ القَريضِ بِها أبْرَدُ
١١ـ وأخلاقُ سُكَّانِها كالزُّلالِ   ولكنَّ أيدِيَهُمْ جَمْلَدُ
١٢ـ فكَفُّ العَوارِفِ[١] مَقْبوضَةُ الـ   بَنانِ ووَجْهُ النَّدَى أرْبَدُ
١٣ـ وسُحْبُ المَكارِمِ لا تَسْتَهِلُّ[٢]   ونارُ المَظالِمِ لا تَخْمُدُ
. . . الخ[٣].

ومن الواضح ان الابيات لا يكاد يخلو بيت منها من استعارة تروع وتدهش، وصورة قد بلغت حد الكمال من حيث دقة التعبير وبلاغته.

ففي البيت الثاني استعار البحر للتعبير عن كثرة الخيرات ببغداد، وهي استعارة معبرة تماما عما يريده الشاعر من الكثرة الزائدة عن الحاجة، لان كلمة «بحر» في العربية توحي بذلك وتدل عليه. فلما اراد الشاعر ان يعبر عما يصيبه او يصل اليه ـ وهو نزر ضئيل ـ من هذا البحر، استعار «المورد» على شاطىء البحر مسبوقا بقوله «مالي» اي حتى هذا المورد لا يحصل عليه، وهي صورة تدل على ان الشاعر مظلوم، فليس من الانصاف ان يبخل اهل بغداد ـ وعندهم البحر ـ على شاعرهم بـ «مورد» على ضفافه.

وفي البيتين الثالث والرابع يقول الشاعر انه لم يحصل من اهل بغداد الا على الكوارث والشرور، اما نصيبه من الربح والخيرات فلا يصل اليه، فكأنه من اهل بغداد حين يحل بهم أذى فحسب، أما في اوقات الخير والسعادة او كما قال «الفيء» فهو ليس بغداديا. وقد استعار «الروع» للتعبير عن ايام الشدائد، والفيء اي الغنائم للتعبير ان ايام السرور والفرح، وهما استعارتان ناجحتان دون شك، وقد اخذ الشاعر بيته هذا من بيت الشاعر القديم:

واذا تَكونُ شَديدَةٌ، أُدْعَى لها   واذا يُحاسُ[٤] الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ[٥]

وعلى هذا المنوال يستمر الشاعر الغاضب يعاتب اهل بغداد على اعراضهم وصدهم

---

(١) العوارف: الواحدة عارفة، وهي الاحسان.
(٢) تستهل: تمطر.
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١٤٠
(٤) يحاس الحيس: يعمل ويعد، والحيس: طعام مركب من تمر وسمن وسويق.
(٥) بخلاء الجاحظ ص ٢٥٤

عنه، وتتوالى استعاراته المعبرة المصيبة، فهو «يغرس» مدحه و«يزرع» شكره، ولكن لا يحصل على ما ينتظره الفلاح حين يشقى ويكدح من «حصاد» في آخر الموسم، بل ان الشاعر يضطر على بيع كتبه ليعيش، وهي نكبة ما بعدها من نكبة.

وفي البيت العاشر يلاحظ قول ابن التعاويذي: وسوق القريض بها ابرد استعار السوق للتعبير عن عدم تقدير البغداديين لاهل الادب والشعر.

ويبدو ان ابن التعاويذي مفتون بالبيع والشراء وما يدور في الاسواق، ولذلك يكثر من ترديد لفظة سوق في شعره، ففي القصيدة التي ادرسها ذكر الشاعر السوق مرتين، في البيت العاشر، كما مر، وفي بيت آخر هو قوله:

وإنْ كَسَدتْ سوقُ مَدْحي لكُمْ فسوقُ الدَّفاترِ لا تَكْسُدُ

وقال يمدح من قصيدة:

بكَ قامَتْ سوقُ المَديحِ ولَوْلا كَ غدَتْ وهيَ أكسَدُ الأسواقِ[1]

وقال متغزلا:

فَترتْ إذْ فَترتْ ألْـ حاظُها سوقُ المِلاحِ[2]

وقال:

ويُنْصِفُ جائرُ دَهْرٍ يُبا عُ في سوقِهِ الدُّرُّ بالمخْشلبْ[3]

اما الحيص بيص فان صوره الشعرية او استعاراته موزعة مبعثرة بين قصائده المختلفة، ولم اجد له مقطوعة او قصيدة تزدحم او تضج بالاستعارات كما في ديوان ابن التعاويذي واذا كانت صور هذا الاخير تكثر وتغزر حين يهجو او يشكو - في معظم الاحيان - فان شاعرية الحيص بيص تتدفق وتبدو على اشدها وفي ذروة عنفوانها حين يفتخر ويذكر مآثر قومه ومفاخرهم، ولذلك ما ان يبدأ الشاعر قصيدته - وهو يبدؤ ها بالفخر في كثير من الاحيان - حتى تبدأ شاعريته بالظهور، وتطل علينا استعاراته من خلال ذكره لتميم قبيلته.

فمن استعارات الحيص بيص قوله مفتخرا:

فَكيفَ التَّسلّي بعدَ عَشْرٍ وأرْبعٍ؟ أبى لي وَفاءٌ لا تُذَبُّ جَحافِلُهْ[4]

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ٤٨٨
(٢) نفسه ص ٨٣
(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧
(٤) الخريدة ١/ ٢٩٦

والاستعارة في عجز البيت «لا تذب جحافل الوفاء»، فقد استعار «الجحافل» للتعبير عن وفائه الشديد الذي لا سبيل الى نسيانه او نكرانه،وهي استعارة جيدة وتصوير بارع لهذا الوفاء.

وقال:

فَعَلى الدُّروع غلائلٌ مِنْ عِثْيَرٍ[1] وعلى مِجَنِّ[2] الشَّمسِ فَضْلُ نِقابِ[3]

لقد استعار «الغلائل» للتعبير عن الغبار المتراكم على الدروع، كذلك قال «فضل نقاب»، واراد ما يغطي ضوء الشمس من غبار المعارك المتصاعد.

فَإنَّ القُرى والمُدنَ حيزَتْ لأعبُدٍ وما سَلِمَتْ أُفْحوصَةٌ[4] لِفتىً حُرٍّ[5]

لقد استعار الشاعر «افحوصة» للدلالة على ضيق وصغر ما خلفه العبيد للاحرار في القرن السادس، وهي استعارة رائعة وتعبير مبتكر حقا.

وقال يصف موقعة:

أعمى القَتامُ[6] به الكُماةَ فخيلُهُ لولا بَريقُ حَديدِهِ لم تَنْظُرِ[7]

وهي صورة تدل على خبرة الشاعر في سوح القتال، فالابطال يهتدون ـ لفرط الغبار المتصاعد ـ ببريق الحديد حتى كأنهم عميان.

ومن استعاراته في الرثاء قوله يرثي دُبيساً:

صُرِعَتْ لِمَصْرَعِهِ المَقاصِدُ والمُنى فالنّاسُ كلّهُمُ بغيرِ رَجاءِ[8]

وقال يصف الموتى:

رَقَدُوا ـ على غير الكَرى ـ وتَوسَّدوا بَعْدَ الرِّحالِ نَمارقَ[9] الدَّهْناءِ[10]

ألوان من البديع:

اشرت قبل صفحات الى ان القرن السادس فتن بالبديع، حتى صار مقياسا يعول عليه

---

(1) العِثْيَر: الغبار.

(2) المجن: التُّرس.

(3) الخريدة ١/ ٢١٧

(4) الافحوصة: الموضع الذي تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه.

(5) الخريدة ١/٢٤٦

(6) القتام: غبار الحرب.

(7) الخريدة ١/ ٢٥٠

(8) الخريدة ١/ ٣٣٧

(9) النمارق: الواحدة نمرقة، وهي الوسادة.

(10) الخريدة ١/ ٣٣٨، الدهناء: الصحراء.

في تحديد بلاغة الكتاب والشعراء.

ويعد الجناس اكبر الوان البديع حظوة عند شعراء الفترة، وخاصة الابله البغدادي، فقد اكثر منه اكثارا جعل طائفة من شعره تبدو وكأنها معارض لصنوف من الجناس يغلب عليها التكلف ومجرد الجمع دون ان يستطيع الشاعر التحكم فيها، فبدت فجة ليس بينها وبين البلاغة والفصاحة اية صلة.

ان القسم الاكبر من جناس الابله هو جناس ناقص مثل قوله:

تَبدّى يَملأُ النّاظِرْ ... بمِثْلِ الغُصُنِ النّاضِرْ
بشَعرٍ فاحم اللونِ ... أثيث يُفحِمُ الشّاعرْ
يَضوعُ العَنْبرُ الوَرْدُ ... اذا مرَّ بِنا عابِرْ
بنَفسي قَمَراً راحَ ... لِلُبّي في الهَوى قامِرْ
ومذ أخّرَ عنّي الوَصْـ ... ـلَ لي لَيلٌ بلا آخِرْ
على لامَي عِذارَيْهِ ... غدا اللائمُ لي عاذِرْ
ألا يا طَرْفَهُ السّاحِرْ ... ناصِفْ طَرفيَ السّاهِرْ

... الخ[1].

ان الابيات المتقدمة ملئت جميعها بالجناس الناقص، دون مراعاة لأية اعتبارات معنوية او بلاغية، ودون ان يقنعنا الشاعر بفائدة هذا الحشد من الجناس: الناظر والناضر. شعر وشاعر. فاحم ويفحم. العنبر وعابر. قمر وقامر. أخر وآخر. عذار وعاذر. الساحر والساهر.

وقال في قصيدة ثانية يمدح:

ذو النّائلِ المُعا ... دِ العِدِّ والرِّفْدِ المُكَرّرْ
دَمثُ الخِلالِ، وما انتَشى ... عَطرْ الجَمالِ، وما تَعَطّرْ
يا مَنْ رأينا أمْرَهْ ... أمضَى مِنَ القَدَرِ المقَدَّرْ
يا فاعِلَ الفِعْلِ الجَميـ ... ـلِ وقائلَ القَوْلِ المُحرّرْ
يا مَنْ نَصيبُ عُفاتِهِ ... مِنْ وَفْرِهِ أبَداً مُوفَّرْ

---

(١) ديوان الابله و ١٨١

يـا مَـنْ اذا اسْـتـولـى نَـدا ... هُ عـلى أخـي عُـدْمٍ وأمـطَرْ
صـاحَ الـغَـريـقُ ولـو غَـدا ... في ألْـفِ لُـبّـادٍ ومِـمْـطَرْ[1]
لا زِلْـتَ تُـلْـفَـى ظـافِـراً ... أبـداً، وتَعْـفـو حينَ تَـظْفَـرْ[2]

فأية شاعرية في هذه الالفاظ المرصوصة : عطر وتعطر. القدر المقدر. فاعل الفعل. قائل القول. وفر وموفر. ظافر وتظفر. . ؟

ومن البديهي ان الجناس الناقص عند اكثرية شعراء القرن السادس يختلف اختلافا بينا عن جناس الابله البغدادي.

فمثلا يقول الطبيب امين الدولة ابن التلميذ يشكو ابنه:

أشكـو الى اللهِ صاحبا شَكِساً ... تُسْعِفُـهُ النَفسُ، وهـو يَعْسِفُهـا
فَنحنُ كـالشَّمس والهِلالِ مَعـاً ... تُكْسِبُـهُ النّورَ، وهـو يَكْسِفُها[3]

ففي قوله: تسعفه ويعسفها وتكسبه ويكسفها، جناسان ناقصان، وهما غير متكلفين، او على الاقل للمعنى اثر في هذا الجناس، حتى بدا وكأنه غير متكلف.

ومن شعر ابن شُعَيْبان[4]:

وَعَـلَيّ أيـمـانٌ مُـغَـلْـ ... ـلَظَةٌ أُجِـلُّكَ أنْ تَـمـيـنـا[5]
أنْ لا أعُدَّ سِوَى مَعيـ ... ـنِ[6] الدّمْعِ بَعْدَكَ لِي مُعِينا[7]

ففي البيت الثاني جناس ناقص بين مَعين (بفتح الميم)، ومُعين (بضم الميم) وهو جناس استدعاه المعنى، فبدا وكأنه غير مجتلب.

ومن شعر ابن التعاويذي:

ولـيـلةٍ بـاتَ سَـمـيـري بـهـا ... بَيضـاءَ تُحْمى بـالقَنـا السُّمْـرِ
واهـاً لهـا مِنْ خَصْـرٍ[8] ريقُهـا ... واهِيَـةِ الـمـيـثـاق والـخَـصْـر
مالَ بها سُكْر الهوى والصِّبا[9] ... مَيلَ الصَّبا[10] بالغُصُن النَّضر

(1) المطر: الواقي من المطر.
(2) ديوان الابله و ١٨٣
(3) عيون الأنباء ٢/ ٢٧٤
(4) أنظر: الفصل الخامس ص ٣٥٤ هامش ٣
(5) تمين: تكذب.
(6) المعين (بفتح الميم): الماء الجاري.
(7) الخريدة ٢/ ٢٢٥
(8) ريق خصِر: بارد.
(9) الصبا: الصغر.
(10) الصَّبا: ريح باردة تهب من الشرق.

بـاتَـتْ تُعـاطيـنـي جَـنـارِيـقَـةٍ رَقَّـتْ فـأغـنـتْـنـي عـن الـخَـمْـرِ

... الخ[1]

ففي كل بيت من هذه الابيات جناس ناقص، حرص الشاعر على الاتيان به لان القصيدة في مدح القاضي الفاضل، وهو صاحب مدرسة في الكتابة تقوم على البديع وضروبه، ولذلك لا بد ان يراعي الشاعر هذه الناحية فيقدم الى ممدوحه ما يحب[2].

اما الجناس التام فان احتفال الشعراء به قليل، ونماذجه الجيدة نادرة في شعر الفترة، منها قول ابن شُعَيْبان متغزلا:

مِـنْ كُـلِّ ذاتِ رَوادِفٍ كـالـرَّمـلِ رَجْـرَجَـةً ولِـيـنـا

مَـنْـطَقْـنَ بـالـنُّحـفِ الـخُـصـو رَ وصُـنَّ بـالـتَّـرفِ الـبُـطونـا

وأقـمْـنَ مِـنْ تِـلـكَ الـعُـيـو نِ على خَـواطِـرِنـا عُـيـونـا[3]

ففي البيت الاخير جناس تام بين العيون التي يبصر بها، والعيون جمع عين بمعنى الرقيب او الجاسوس.

قـد كنتُ في أرغَـدِ مـا عيشـةٍ بـمَـعْـزِلٍ عـنْ كُـلِّ بَـلـبـالِ

تَـيَّـمَـنـي خـالٌ عـلى خَـدِّهِ الـوَيـلُ للخـالي مِنَ الخـالِ[4]

في البيت الثاني جناس تام بين الخالي، اي الذي لا يشغله شاغل، والخال وهي الشامة.

ومن ابيات لابن المعلّم الواسطي:

سَقـاهُ الحَيا قَبْلي وجِئتُ متمّماً فلو مـالكٌ فيـه. دُعيتُ متمّماً[5]

جانس جناسا تاما بين متمم اي الذي يلي السابق، ومتمم شقيق مالك بن نويرة الشاعر الاسلامي المعروف.

ومن الجناس التام غير الجيد قول محمود بن محمد الشّروطي البغدادي:

أعنِ العَقيقِ سألتَ برقاً أوْ مَضا؟ أأقـامَ حـادٍ بـالـرّكـائب أوْ مَضى؟

إنْ جـاوزَ العَلَمَيْنِ مِنْ سِقْطِ اللِّوى بالعِيسِ لا أفضى الى ذاكَ الفَضا[6]

---

(١) ديوان ابن التعاويذي ص ١٩٠
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر ص ٣١٦
(٣) نفسه ٢/ ٢٣١، وانظر ايضا ٢/ ٢٣٩، ٢٤٦
(٤) الخريدة ٢/ ٢٢٤
(٥) وفيات الأعيان ٥/ ٧٣
(٦) الخريدة ٢/ ٢٩٧

ومثلهما ابيات محمد[1] بن سعد الله ابن الدَّجاجي:

تَقولُ عيسى حينَ أدمَيْتُها بالسَّير: رِفْقاً بي يا هاشِمي
إنْ شئتَ أنْ تَلقى الغِنَى والمُنَى عُجْ بإمامٍ مِنْ بَني هاشِمِ
فقلتُ - إذْ لاحَ سَنَى قَصْرِهِ - : يا نوقُ هذا نورُهُ، هاشِمِي[2].

وهكذا يبدو واضحا من النصوص المتقدمة، ان شغف بعض الشعراء الشديد بالجناس وحرصهم على الاتيان به وتكديسه، على حساب المعنى وجودة النص، لم يمنع الشعراء الآخرين من السير في الطريق المضاد، فكان الجناس عندهم تابعا للمعنى وخادما له. وفي احيان اخرى كان الشاعر يقدم للممدوح ما يحب من شعر مجنس او غير مجنس، فقد صار الشعر بضاعة، لا بد فيها من مراعاة ذوق من تقدم اليه.

ويأتي الطباق أو المطابقة في المرتبة الثانية بعد الجناس.

ان هذا الفن يكاد يلازم الجناس، اذ يندر ان يستطيع الشاعر التفريق بينهما.

فالقصائد التي يكثر فيها الجناس، لا بد أن تضم مقدارا كبيرا من الطباق كذلك، وهذه الظاهرة شديدة الوضوح في قصائد الابله البغدادي وابن التعاويذي بصورة خاصة.

يقول الابله:

مُذْ قَدَحَ الخدُّ منه فللغَرامِ انقِداحُ
نَأى فللوَجْدِ قُرْبٌ وللسّلوِّ انتِزاحُ
وبالِّلوى مِنْ رُماحٍ ظَبيٌ حَمتهُ الرِّماحُ
مِنْ دونِ صَفْحَةِ خَدَّيْهِ مُرْهَفاتٌ صِفاحُ
وادٍ تَشوقُ فُؤادي تِلاعُهُ والبِطاحُ
يَروقُني منهُ خُلْقٌ سَبْطٌ[3] وخَلْقٌ رَداحُ[4]
الفَرْعُ منهُ مَساءٌ والوجهُ منهُ صَباحُ

... الخ[5].

---

(١) تقدم ذكر والده في الفصل الأول ص ١٧ هامش ٧، وقد توفي محمد سنة ٦٠١هـ. تاريخ ابن الدبيثي (المطبوع) ١/٢٨٥

(٢) ابن الدبيثي (المطبوع) ١/٢٨٧، هاشمي: الأولى بمعنى محطمي، والثالثة ها للاشارة وشِمي بمعنى أنظري.

(٣) خلق سبط: معتدل القوام، حسن القد.

(٤) جارية رداح: ضخمة العجيزة.

(٥) ديوان الابله و ١٨٥

ففي هذه الابيات كثر الجناس والطباق معا حتى غدت المقطوعة وقفا عليهما: قدَّحَ وانقداح. رُماح ورماح. صفحة خديه ومرهفات صفاح. خُلُق وخَلْق: هذه كلها من الجناس. أما الطباق فبين: وَجْد وسلوّ. قرب وانتزاح. التلاع والبطاح سبط ورداح. مساء وصباح.

اما في شعر ابن التعاويذي فان ظاهرة اختلاط الجناس بالطباق يمكن ملاحظتها في قصائد الشاعر التي مدح بها القاضي الفاضل(١).

وعلى الرغم من عدم ظهور البديع ـ ومنه الطباق ـ كظاهرة بارزة في شعر الحيص بيص(٢)، فان دراسة شعره وقراءة ما بين ابياته تثبت ان البديع قد تسلل الى ابياته. وربما قام الشاعر بجهد شخصي في هذا المجال، ولكنه عرف كيف يتصرف بحذر وحكمة في هذا السبيل، حتى بدت مظاهر البديع في شعره وكأنها طبيعية غير متكلفة اقتضتها المعاني.

فمن طباق الحيص بيص قوله:

وإنْ ضاقَ قلبٌ بالصَّغيرةِ لامرىءٍ   فقلب عَليّ بالكَبيرةِ أسْمَحُ(٣)

طابق بين الصغيرة والكبيرة، وهو طباق لا يشك احد انه غير متكلف، وقد وقع في محله تماما.

وقال مفتخرا:

ما لِفَضْلي يُذالُ بينَ أُناسٍ   جُودُهمْ مَوعِدٌ وشِعْري نَقْدُ(٤)؟

الطباق بين موعد ونقد، وهو مثل الاول في الجودة وعدم الاجتلاب.

وقال يمدح:

لهُ دونَ المَعاب وقوفُ وانٍ   وفي طَلَب العُلى عَنَق(٥) حَثيثُ(٦)

الطباق بين وقوف وعَنق، وكذلك بين وانٍ وحثيث، وبين المعاب والعلى، ولذلك يكون البيت من المقابلة، لوجود اكثر من طباق(٧).

وفي الخريدة طباقات اخرى أكتفي بالاشارة الى مواضعها(٨).

---

(١) أنظر الفصل الرابع ص ٢٠٠ ـ ٢٢٢
(٢) أنظر الفصل الثاني: شيوخ المحافظين ص ٦٩ ـ ٧٠
(٣) الخريدة ١/ ٢٢٤
(٤) نفسه ١/ ٢٣٤
(٥) العَنَق: ضرب من السير سريع.
(٦) الخريدة ١/ ٢٢١
(٧) العمدة ٢/ ١٥
(٨) الخريدة ١/ ٢٣٥، ٢٤٣، ٢١٣، ٢١٩

ومن الوان البديع الاخرى: الترصيع.

قال ابن الاثير: «وهو مأخوذ من ترصيع العقد وذاك ان يكون في احد جانبي العقد من اللآلى مثل ما في الجانب الآخر[1]..».

فمن الترصيع قول الحيص بيص:

عقائلُ عَزْمٍ لا تُباحُ لِضارِعٍ ... وأسرار حَزْمٍ لا تُذاعُ لِلاعِبِ[2]

والترصيع بين: عزم وحزم، لا تباح ولا تذاع، لضارع، للاعب، لان كل كلمتين على وزن واحد.

وقال:

سَليمٌ منَ الأشواقِ شيبَ بكاذبٍ ... وأمنٌ منَ الإلمامِ ريعَ بهاجِرِ[3]

الترصيع بين: شيب وريع، كاذب وهاجر.

وقال:

بمَيامينَ صِباحٍ كشموسٍ ... وخناذيذَ[4] جيادٍ كنجومْ[5]

والترصيع بين: ميامين وخناذيذ، وكذلك بين صباح وجياد.

ومن شعر ابن التعاويذي:

فظنُّوا خُشوعي لهمْ ذِلّةً ... وتحتَ سُكوتي صِلٌّ يثِبْ
.. هو الغيثُ، إن عمّ جَدْبٌ أثابَ ... واللّيثُ، إنْ عنّ خطبٌ وَثَبْ
.. إذا قال ابدَعَ فيما يقولُ ... وإنْ جادَ أجزلَ فيما يَهَبْ
.. فيا نَجمَ سَعْدِي الذي لا يَغيبُ ... ويا غَيثَ أرضي الذي لا يَغِبْ
.. فأضحَتْ بهِنَّ صُدورُ الرُّواةِ ... مملوءةً، وبُطونُ الكُتبْ[6]

ومن ضروب البديع التضمين.

وهو قليل جدا في شعر الفترة، على الرغم من كثرته في القرن الخامس اذ ينص الدكتور علي جواد الطاهر على ان في ديوان الطُغرائي وحده كثيرا من التضمين «حتى ليخشى على صاحبه ان يتهم بالسرق ـ بقصد او بغير قصد ـ من المتنبي او من غيره»[7].

(١) المثل السائر ص ١٦١ (بولاق).
(٢) الخريدة ١/ ٢١٠
(٣) نفسه ١/ ٢٤٣
(٤) خناذيذ: الواحد خِنْذيذ وهو الطويل الصلب.
(٥) الخريدة ١/ ٣٠٨
(٦) ديوان ابن التعاويذي ص ٢٧ ـ ٣٠
(٧) الشعر العربي ٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧

وكثرة التضمين معروفة ايضا في القرون التي تلت القرن السادس، حتى قال احد الشعراء:

أُضَمِّنُ كلَّ بيتٍ فيه مَعْنى ... فشِعْري نِصفُه منْ شعرِ غَيري

ومن تضمين القرن السادس قول الحظيري:

قيلَ لي: قد صارَ مُبتَذلاً ... مَنْ حَماهُ الصَّونُ في صِغرهْ
كُفَّ عنه النّاسَ. قلتُ لهم ... قولَ مَنْ يَجري على أثرهْ
(لا أذودُ الطَّيرَ عَنْ شجرٍ ... قد بَلَوْتُ المُرَّ مِنْ ثمرهْ)[1]

وهذا البيت الاخير المضمن لأبي نواس[2].

وقال طلحة بن محمد النُعماني:

لَولاكَ لم أُزْجِ[3] الرِّكابَ على الوَجى[4] ... (والرَّكْبُ يَطْفو في السَّراب وَيغْرَقُ)[5]

وعجز البيت للشَّريف الرَّضي، من مطلع قصيدة له مشهورة[6].

وقد اشرت في مكان آخر من هذه الرسالة[7] الى هجاء الحيص بيص في تضمين اعجب به ابن خلكان.

ومن ضروب البديع التورية.

ومنها قول مُؤيد الدين التكريتي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ من أبيات سبق[8] ايرادها:

وعمّا قليلٍ انتَ ـ لا شكَّ ـ صائرٌ ... الى «مالكٍ» فافهمُ لِما أنا قائلُ[9]

التورية في قوله «مالك، لان الكلمة تحتمل معنيين: احدهما الامام مالك، وهو غير مراد، والآخر مالك خازن النار، وهو المراد.

ومن التورية ايضا قول ابن حِكّينا، يخاطب ابن التلميذ الطبيب، واراد ان يصالحه بعد خصومة، من ابيات؛

واذا شِئتَ أنْ تُصالِحَ بشّا ... رَ بن بُردٍ، فاطْرَحْ عليهِ أباهُ[10]

---

(١) الخريدة ٤/٤٢
(٢) ديوان أبي نواس (آصاف) ص ٦٦
(٣) ازجي: أسوق.
(٤) الوجى: رقّة القدم.
(٥) الخريدة ٢/٤١
(٦) ديوان الشريف الرضي ٢/٥٤١
(٧) أنظر: الفصل الثالث، الهجاء ص ١٥٩
(٨) ابن الدبيثي (المطبوع) ١/١٣٧، الوافي بالوفيات ٢/١١٥
(٩) أنظر: الفصل الأول ص ٤٠
(١٠) الخريدة ٢/٢٣٥، وفيات الأعيان ٥/١٢٢

والتورية في عجز البيت «فاطرح عليه اباه»، لان عادة اهل بغداد اذا اراد الانسان ان يصالح خصمه، والخصم ممتنع، ان يقال له: اطرح عليه فلانا، اي ادخل عليه به، فكلمة «اب» لها معنيان، الاول والد الشاعر المعروف، وهو غير مراد، والثاني «البُرْد» الذي اراده الشاعر. قال صاحب الخريدة: «فما الطف طلبه منه بردا بهذا البيت المطبوع».

ومن البديع حسن التعليل.

كقول ابي منصور المبارك[1] بن سلامة:

بأنامِلٍ أصْمَتْ[2] مَقاتِلَنا فروؤسُها بِدمائِنا حُمْرُ[3]

لقد زعم الشاعر ان اطراف انامل النساء ليست مخضوبة بالحنّاء، وانما تلك الحمرة سببها دماء الرجال الذين فتكت بهم حواء.

ومن حسن التعليل ايضا قول الحظيري:

يَقولُ لي حينَ وافى قد نِلْتَ ما ترتَجيهِ
فما لِقَلْبِكَ أضْحى بِخَفْقَةٍ تَعْتَريهِ؟
فقلتُ: وَصْلُكَ عُرْسٌ والقلبُ يَرقُصُ فيهِ[4]

ومن البديع حسن التخلص.

قال ابن الاثير: «وهو ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه اذ اخذ في معنى آخر غيره، وجعل الاول سببا اليه، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كانما افرغ افراغا، وذلك ما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرفه من اجل ان نطاق الكلام يضيق عليه ويكون متبعاً الوزن والقافية فلا تواتيه الالفاظ على حسب ارادته[5]».

ومن المعروفين بحسن التخلص في القرن السادس: الابله البغدادي، قال ابن خلكان: «ومخالصه من الغزل الى المدح في نهاية الحسن وقل من يلحقه فيها: فمن ذلك قوله من قصيدة اولها:

---

(١) قال العماد عنه: «علم الفضل أبو منصور المبارك بن سلامة المُخلّطي البغدادي، من أهل الجانب الغربي، من مادحي الوزير جلال الدين بن صدقة». الخريدة ٢/ ٢٨٩

(٢) اصمت: أصابت مقتلا.

(٣) الخريدة ٢/ ٢٩١.

(٤) الخريدة ٤/ ٤١، الغيث المسجم ١/ ٣٧٦، نصرة الثائر ص ٢٢٠

(٥) المثل السائر ص ٤١٨ (ط. بولاق).

جَنيتُ جَنِيَّ الـوردِ منْ ذلـكَ الخـدِّ		وعـانَقتُ غُصنَ البانِ مِنْ ذلـكَ القَدِّ

فلما انتهى الى مخلصها قال:

لَئِنْ وَقَــرتْ يـومــاً بسَمْعي مَـلامَــةٌ		لِهنْـدٍ، فلا عِفْتُ المَـلامةَ في هنـدِ
ولا وجَدَتْ عَيني السَّبيلَ الى البُكى		ولا بِتُّ في أسْـرِ الصَّبابـةِ والـوَجْـدِ
وبُحْتُ بمــا ألقى ورُحْتُ مُقــابِــلاً		سَماحةَ مجدِ الدِّينِ بـالكُفرِ والجَحْـدِ

وقوله من قصيدة اخرى:

فــلا وَجْــدٌ سِــوى وَجْــدِي بِـلَيْلَى		ولا مَجــدٌ كَـمـجـدِ ابنِ الــدَّوامِـي

وقوله في قصيدة اخرى:

فــأُقسِمْ أنِّي في الصَّبــابــةِ واحــدٌ		وأنَّ كمال الدين في الجُودِ واحدُ[١]

---

(١) وفيات الأعيان ٤/ ٨٨ ـ ٨٩

الخاتمة

يمثل القرن السادس الهجري مرحلة وسطا بين عصور ازدهار الشعر العربي وعصور الانحطاط والضعف، ولعل اكثرية شعر العصر اميل الى الضعف منها الى القوة والتماسك، ولكن بعض القصائد التي تصادف الباحث بين هذا الركام الشعري الهائل، وخاصة عند ابن التعاويذي والحيص بيص، تشير الى ان الشعر المتين لما تزل منه بقايا تتردد في القرن السادس.

لقد حاولت في فصول رسالتي هذه، وبالقدر الذي تسمح به المصادر التي اطلعت عليها، ان اجمع واحقق وادرس كمية كبيرة من شعر القرن السادس لاول مرة، كذلك بذلت جهودا من اجل كشف وايضاح ودراسة فترة من تاريخنا الادبي يعز على المخلصين ان تظل مجهولة مدة طويلة.

انِ اهم النتائج التي كشفت عنها فصول الرسالة يمكن ان تكون:

١ - القاء الاضواء على حياة الشعر في العراق خلال القرن السادس عن طريق دراسة اهم الاتجاهات الشعرية والاشارة الى مجموعة كبيرة من الشعراء مع ذكر جوانب من حياتهم ونماذج من اشعارهم.

٢ - اثبات تحيز مستشرق كبير هو ماكِليوث والتدليل على ان بعض اعماله لم يقم بها لوجه العلم، كذلك برهنت على ان جمعه وتحقيقه لديوان ابن التعاويذي ليس دقيقا وعليه مآخذ كثيرة ارجو ان تتاح لي الفرصة لدراستها ونشرها بالتفصيل.

٣ - اظهرت الرسالة - الفصل الرابع - ان عقائد الفاطميين التي حاربهم من اجلها العباسيون قد تسربت الى شعر ابن التعاويذي شاعر البلاط العباسي، وهو جديد لم يقله احد قبل هذه الدراسة.

٤ - كشفت فصول الرسالة عمق واتساع الاثر الديني في شعر القرن السادس وهو شيء جديد

يساعد على ازالة الغموض الذي يحيط بنشأة المدائح النبوية وكثرتها في القرن السابع وما بعده .

٥ ـ يوضح الفصل الخامس من هذه الدراسة ان فنا شعريا عريقا ، وهو شعر الخمر ، قد ضعف وانكمش على الرغم مما يشاع بأن فترات الحروب والأزمات تدفع الناس إلى المواخير دفعا .

٦ ـ ان التغزل بالعذار وغرام ابن التعاويذي بوصف جمال الجند الاتراك الذي اشرت اليه في الفصل الخامس يساعد على معرفة الاصول التي استقى منها شعراء العصور التالية كعصر المماليك حين تغزلوا بالجنود وفتنوا بضيق عيون النسوة خلافا للذوق العربي في هذا الموضوع.

٧ ـ نبهت الرسالة الى خطورة الاعتماد المطلق على ما يقوله المؤرخون القدامى عن معاصريهم او سابقيهم من الشعراء ، لان البعض من هؤلاء المؤرخين ليس محايدا في آرائه واحكامه ، كما ان البعض الآخر ينقل المعلومات او يتلقفها عمن سبقوه دون نقد أو تمحيص .

وبعد : فقد بذلت ما استطيع ولم ادخر وسعا في التدقيق والبحث والتنقيب ومع ذلك فانا واثق انه قد فاتني الكثير ، ومعترف بأنه فوق كل ذي علم عليم ، وما أنا الا طالب علم ، أسأل المولى القدير أن يأخذ بيدي انه نعم المولى ونعم النصير .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ ـ المصادر المخطوطة:

الأبله البغدادي: محمد بن بختيار (المتوفى ٥٧٩)

١ ـ ديوان الابله البغدادي

مصورة الاستاذ عبد الكريم الدجيلي عن الاصل المخطوط في مكتبة ناصر شاه بإيران.

ابن جماعة: عز الدين عبد العزيز بن محمد

٢ ـ تعليقة الشعراء والادباء

مصورة الاستاذ عبد الكريم توفيق عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس.

الحظيري: سعد بن علي (المتوفى ٥٦٨)

٣ ـ الاعجاز في الالغاز

مخطوطة الدكتور حسين علي محفوظ.

الحيص بيص: سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)

٤ ـ جزء من ديوانه

مصورة معهد المخطوطات العربية برقم ٣٠٤٦، ومنها نسخة في خزانة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

ابن الدبيثي: محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧).

٥ ـ ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

مصورة مكتبة الدراسات العليا بكلية آداب بغداد رقم ٥٧٤م عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٥٩٢١ عربي، ونسخة ثانية رقمها ١٢٤٠ في مكتبة الدراسات العليا ببغداد ايضا.

الدمياطي: احمد بن أيبك الحسامي (المتوفى ٧٤٩)

٦ - المستفاد من ذيل تاريخ بغداد
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد رقم ٢٥ م عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٩٦.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤)
٧ - اجزاء من كتابه «الوافي بالوفيات»
مصورة المكتبة المركزية لجامعة بغداد.

ابن عذيبة: احمد بن محمد المقدسي (المتوفى ٨٥٦)
٨ - انسان العيون في مشاهير سادس القرون
النسخة المصورة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ٢٩٥

العماد الاصفهاني: محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧)
٩ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي
نسخة ايران المصورة في خزانة المجمع العلمي العراقي ببغداد رقم ٩٣/م

١٠ - نصرة الفترة وعصرة القطرة
مصورة الدكتور علي جواد الطاهر عن الاصل المخطوط في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢١٤٦

ابن المعلم الواسطي: محمد بن علي (المتوفى ٥٩٢)
١١ - ديوان ابن المعلم
نسختان: نسخة النجف (مكتبة الامام الحكيم)، ومنها نسخة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد. ونسخة دار الكتب المصرية رقم ٩٦٠٣ أدب، ومنها نسخة في معهد المخطوطات العربية رقم ٢٦٥ أدب.

ب - المصادر المطبوعة:

ابن الاثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد (المتوفى ٦٣٧)
١٢ - المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

ابن الاثير: عز الدين علي بن محمد (المتوفى ٦٣٠)
١٣ - الكامل في التاريخ
طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ اعتمدت في الفصول: الاول والثاني والثالث، وطبعة الاستقامة في الفصل الرابع.

الامام احمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١)
١٤ ـ مسند احمد بن حنبل
ط . دار المعارف ١٩٤٧

ابن ابي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله.. المدائني (المتوفى ٦٥٥)
١٥ ـ شرح نهج البلاغة
ط . البابي الحلبي.

اخوان الصفاء وخلان الوفاء: جمعية سرية
١٦ ـ رسائل اخوان الصفاء
ط . دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٧

ابن ابي اصيبعة: احمد بن القاسم الخزرجي (المتوفى ٦٦٨)
١٧ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء
ط . دار الفكر، بيروت.

ابن الانباري: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٥٧٧)
١٨ ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء
ط . دار نهضة مصر.

الايوبي: محمد بن تقي الدين.. صاحب حماه (المتوفى ٦١٧)
١٩ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق
تحقيق الدكتور حسن حبشي، ط. عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨.

ابن تغري بردي: جمال الدين ابو المحاسن يوسف (المتوفى ٨٧٤)
٢٠ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦.

تميم بن المعز: ابو علي بن المعز.. العبيدي (المتوفى ٣٧٤)
٢١ ـ ديوانه
تحقيق محمد حسن الاعظمي، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠

الثعالبي: ابو منصور عبد الملك بن محمد (المتوفى ٤٢٩)
٢٢ ـ يتمة الدهر
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

الجاحظ: ابو عثمان عمرو بن بحر (المتوفى ٢٥٥)
٢٣ ـ البخلاء
باعتناء فان فلوتن، ط . ليدن سنة ١٩٠٠

ابن جبير: ابو الحسين محمد بن احمد (المتوفى ٦١٤)
٢٤ ـ الرحلة
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

الجرجاني: القاضي علي بن عبد العزيز (المتوفى ٣٦٦)
٢٥ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه
ط . البابي الحلبي الرابعة ١٩٦٦

ابن الجزري: شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد (المتوفى ٨٣٣)
٢٦ ـ غاية النهاية في طبقات القراء
نشر ج. برجستراسر ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥.

ابو الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (المتوفى ٥٩٧)
٢٧ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم
ط . حيدر آباد ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩ هـ.
٢٨ ـ تلبيس ابليس
مطبعة النهضة، مصر ١٩٢٨

الجوهري: اسماعيل بن حماد (المتوفى ٣٩٣)
٢٩ ـ تاج اللغة وصحاح العربية
تحقيق احمد عبد الغفور، القاهرة ١٩٥٦.

ابن حجر: احمد بن علي العسقلاني (المتوفى ٨٥٢)
٣٠ ـ الاصابة في تمييز الصحابة
المطبعة الشرقية ١٩٠٧

٣١ ـ الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة
ط . حيدر آباد سنة ١٣٥٠ هـ.

الحريري: ابو محمد القاسم بن علي البصري (المتوفى ٥١٥)
٣٢ ـ مقامات الحريري

ط . دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة ١٣٦٢ هـ.

الحسيني: صدر الدين ابو الحسن علي بن ناصر (القرن السابع الهجري)
٣٣ ـ اخبار الدولة السلجوقية
نشر محمد اقبال، لاهور ١٩٣٣.

الحيص بيص: سعد بن محمد (المتوفى ٥٧٤)
٣٤ ـ ديوان حيص بيص
جزءان (صدرا حتى الان) سلسلة كتب التراث سنة ١٩٧٤، بتحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، من مطبوعات وزارة الاعلام العراقية.

الخطيب البغدادي: ابو بكر احمد بن علي (المتوفى ٤٦٣)
٣٥ ـ تاريخ بغداد
مطبعة السعادة، مصر ١٩٣١

الخطيب التبريزي: ابو زكريا يحي بن علي (المتوفى ٥٠٢)
٣٦ ـ شرح ديوان ابي تمام
تحقيق محمد عبده عزام، ط . دار المعارف.
٣٧ ـ شرح القصائد العشر
مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٢

الخفاجي: شهاب الدين احمد بن محمد (المتوفى ١٠٦٩)
٣٨ ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل
المطبعة الوهبية ١٢٨٢ هـ.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (المتوفى ٨٠٨)
٣٩ ـ تاريخ ابن خلدون
ط . دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن خلكان: ابو العباس احمد بن محمد (المتوفى ٦٨١)
٤٠ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان
مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ م.

داعي الدعاة: هبة الله بن موسى: الشيرازي (المتوفى ٤٧٠)
٤١ ـ ديوان داعي الدعاة
تحقيق الدكتور محمد كامل حسين، ط. دار الكاتب العربي ١٩٤٩.

ابن الدبيثي : ابو عبد الله محمد بن سعيد (المتوفى ٦٣٧)
٤٢ ـ ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد
الجزء الاول، تحقيق بشار عواد معروف، منشورات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (٣٦) سنة ١٩٧٤ .

الذهبي : ابو عبد الله محمد بن احمد (المتوفى ٧٤٨)
٤٣ ـ تاريخ الاسلام وطبقات مشاهير الاعلام
مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٨ هـ.

٤٤ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال
• ط . السعادة الاولى ١٣٢٥ هـ.

٤٥ ـ المختصر المحتاج اليه
جزءان، تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥١ .

ابن رجب: ابو الفرج عبد الرحمن بن شهاب (المتوفى ٧٩٥)
٤٦ ـ الذيل على طبقات الحنابلة
مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ م .

ابن رشيق: ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني (المتوفى ٤٥٦)
٤٧ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده
ط . السعادة الثالثة، مصر ١٩٦٤

الزبيدي : السيد محمد مرتضى (المتوفى ١٢٠٥)
٤٨ ـ تاج العروس من شرح جواهر القاموس
الطبعة الاولى، مصر ١٣٠٦ هـ.

الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (المتوفى ٥٣٨)
٤٩ ـ الكشاف
ط . بولاق ١٣٨١ هـ.

ابن الساعي : تاج الدين ابو طالب علي بن انجب (المتوفى ٦٧٤)
٥٠ ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير
تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة السريانية، بغداد ١٩٣٤ .

٥١ ـ نساء الخلفاء (المسمى بجهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء)

تحقيق الدكتور مصطفى جواد، ط . دار المعارف بمصر.

سبط ابن التعاويذي: ابو الفتح محمد بن عبيد الله (المتوفى ٥٨٣)
٥٢ ـ ديوانه
تحقيق د . س. ماركليوث، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٩٠٣.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين ابو المظفر يوسف (المتوفى ٦٥٤)
٥٣ ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان
مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي (المتوفى ٧٧١)
٥٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى
المطبعة الحسينيـة، القاهرة

ابن سعد: محمد كاتب الواقدي (المتوفى ٢٣٠)
٥٥ ـ الطبقات الكبير
ط . دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٨

السمرقندي: النظامي العروضي (كان حيا سنة ٥٥٢)
٥٦ ـ جهار مقالة
نقله الى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (المتوفى ٩١١)
٥٧ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
ط . السعادة الاولى.
٥٨ ـ نزهة الجلساء في اشعار النساء
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط . دار المكشوف، بيروت ١٩٥٨.

الشابشتي: ابو الحسن علي بن محمد (المتوفى ٣٨٨)
٥٩ ـ الديارات
تحقيق كوركيس عواد، الطبعة الثانية. مطبعة المعارف. بغداد ١٩٦٦م.

ابن شاكر: محمد بن شاكر بن احمد (المتوفى ٧٦٤)
٦٠ ـ فوات الوفيات
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . السعادة، مصر ١٩٥١ م.

ابو شامة: عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (المتوفى ٦٦٥)

٦١ ـ الروضتين في اخبار الدولتين

مطبعة وادي النيل، القاهرة ١٢٨٨ هـ.

٦٢ ـ ذيل الروضتين

نشر عزة العطار ١٩٤٧ م.

الشريف الرضي: ابو الحسين محمد (المتوفى ٤٠٦)

٦٢ ـ ديوان الشريف الرضي

المطبعة الادبية، بيروت ١٣٠٧ هـ.

ابن شهر اشوب: محمد بن علي (المتوفى ٥٨٨)

٦٤ ـ مناقب آل أبي طالب

المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٦.

ابو الصابوني: جمال الدين ابو حامد بن علي المحمودي (المتوفى ٦٨٠)

٦٥ ـ تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب

تحقيق الدكتور مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٧.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤)

٦٦ ـ الوافي بالوفيات

صدرت منه ثمانية أجزاء طبعت في فيسبادن واستانبول ودمشق بتحقيق جماعة من الفضلاء.

٦٧ ـ نكت الهميان في نكت العميان

تحقيق احمد زكي، المطبعة الجمالية، مصر ١٩١١م.

٦٨ ـ الغيث المسجم في شرح لامية العجم

المطبعة الوطنية، الاسكندرية ١٢٩٠ هـ.

٦٠ ـ نصرة الثائر على المثل السائر

ط. المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٢، تحقيق محمد علي سلطاني.

٧٠ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون

مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٩.

ابن الطقطقى: محمد بن علي بن طباطبا (المتوفى ٧٠٩)

٧١ـ الفخري في الاداب السلطانية والدولة الاسلامية عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

ابن عساكر: ابو القاسم علي بن الحسن (المتوفى٥٧١)
٧٢ ـ تأريخ دمشق
تهذيب وترتيب عبد القادر بن احمد بن بدران
مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ.

العكبري: ابو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى ٦١٦)
٧٣ ـ شرح ديوان المتنبي (ينسب له)
ط. البابي الحلبي الثانية ١٩٥٦.

ابن العماد: ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي (المتوفى ١٠٨٩)
٧٤ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب
ط. مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

العماد الاصفهاني: ابو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى ٥٩٧)
٧٥ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ القسم العراقي
الجزء الاول والثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤، الجزء الرابع (في مجلدين) مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، بغداد ١٩٧٣، تحقيق محمد بهجة الاثري.
٧٦ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم بلاد الشام.
تحقيق الدكتور شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٩.

عمر بن ابي ربيعة (المتوفى ٩٣)
٧٧ ـ ديوانه
ط. دار صادر ـ دار بيروت ١٩٦١

ابو الفرج الاصفهاني: علي بن الحسين (المتوفى ٣٥٦)
٧٨ ـ الاغاني
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.
الفرزدق: همام بن غالب (المتوفى ١١٠)
٧٩ ـ شرح ديوانه
مطبعة الصاوي ١٩٣٦.

ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرزاق بن احمد (المتوفى ٧٢٣)
٨٠ ـ تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب
الجزء الرابع: ق ١، ٢، ٣، ٤ تحقيق الدكتور مصطفى جواد، المطبعة الهاشمية. دمشق ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧.
الجزء الخامس ط. لاهور ١٩٤٠ باعتناء الحافظ محمد عبد القدوس القاسمي

ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى ٢٧٦)
٨١ ـ الشعر والشعراء
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

القرشي: محيى الدين ابو محمد عبد القادر (المتوفى ٧٧٥)
٨٢ ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٧٢ هـ.

القشيري: ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن (المتوفى ٤٦٥)
٨٣ ـ الرسالة القشيرية
ط. بولاق ١٢٨٤ هـ.

القفطي: جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (المتوفى ٦٤٦)
٨٤ ـ انباه الرواة على أنباء النحاة
ط. دار الكتب المصرية ١٩٥٠

٨٥ ـ المحمدون من الشعراء واشعارهم
منشورات دار اليمامة، الرياض ١٩٧٠.

٨٦ ـ تاريخ الحكماء
ط. السعادة، القاهرة ١٣٢٦ هـ.

القلقشندي: ابو العباس احمد (المتوفى ٨٢١)
٨٧ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا
ط. دار الكتب المصرية.

ابن كثير: عماد الدين ابو الفداء اسماعيل (المتوفى ٧٧٤)
٨٨ ـ البداية والنهاية
مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٥٨ هـ.

المرزباني: ابو عبيد الله محمد (المتوفى ٣٨٤)

٨٩ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء
المطبعة السلفية، مصر ١٣٤٣ هـ.

المرزوقي: ابو علي احمد بن محمد (المتوفى ٤٢١)
٩٠ ـ شرح ديوان الحماسة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١.

السعودي: ابو الحسن علي (المتوفى ٣٤٦)
٩١ ـ مروج الذهب
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. السعادة الثانية ١٩٤٨.

ابن المعتز: ابو العباس عبد الله (المتوفى ٢٩٦)
٩٢ ـ طبقات الشعراء المحدثين
ط. دار المعارف ١٩٥٦.

ابن معد يكرب: عمرو الزبيدي (المتوفى ٢٢١)
٩٣ ـ ديوانه
تحقيق هاشم الطعان، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية، سلسلة كتب التراث (١٤).

المعري: ابو العلاء احمد بن عبد الله (المتوفى ٤٤٩)
٩٤ ـ شرح التنوير على سقط الزند
ط. بولاق، ١٢٨٦ هـ.

المقريزي: تقي الدين احمد بن علي (المتوفى ٨٤٥)
٩٥ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك
ط. دار الكتب ١٩٣٤.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (المتوفى ٧١١)
٩٦ ـ لسان العرب
ط. دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٥.

مهيار: ابو الحسن مهيار بن مرزويه (المتوفى ٤٢٨)
٩٧ ـ ديوانه
ط. دار الكتب ١٩٣٠.

الميداني: احمد بن محمد (المتوفى ٥١٨)

٩٨ ـ مجمع الامثال
المطبعة الخيرية ١٣١٥ هـ.

ابن النبيه: كمال الدين علي بن محمد (المتوفى ٦١٩)
٩٩ ـ ديوانه
المطبعة العلمية، القاهرة ١٣١٣ هـ.

ابن النديم: محمد بن اسحاق (المتوفى ٣٨٥)
١٠٠ ـ الفهرست
عدة طبعات اشير اليها في هوامش الرسالة.

النواجي: شمس الدين محمد (المتوفى ٨٥٩)
١٠١ ـ حلبة الكميت
ط . المكتبة الاعلامية ١٩٣٨.

ابو نواس: الحسن بن هاني (المتوفى ١٩٩)
١٠٢ ـ ديوانه
الطبعة المعتمدة هي طبعة اسكندر آصاف الا مرة واحدة في الفصل الخامس، وقد اشرت الى الطبعة الاخرى في الهامش.

النويري: شهاب الدين احمد (المتوفى ٧٣٣)
١٠٣ ـ نهاية الارب في فنون الادب
ط . دار الكتب المصرية.

ابن هاني: محمد بن هاني الاندلسي (المتوفى ٣٦٢)
١٠٤ ـ شرح ديوانه
تحقيق الدكتور زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر ١٣٥٢ هـ.

ياقوت الحموي: ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله (المتوفى ٦٢٦)
١٠٥ ـ معجم الادباء
عدة طبعات اشير اليهافي الهوامش.
١٠٦ ـ معجم البلدان.
ط . السعادة، القاهرة ١٩٠٦.

ج ـ المراجع الحديثة:

ابراهيم انيس:
١٠٧ ـ دلالة الالفاظ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣.

ادي شير:
١٠٨ ـ الالفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.

الآلوسي: السيد محمود شكري
١٠٩ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط. بولاق ١٣٠١ هـ.

امين: الدكتور حسين
١١٠ ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٥

باشا: الدكتور عمر موسى
١١١ ـ الادب في بلاد الشام
الطبعة الثانية، دمشق ١٩٧٢.

بدري محمد فهد: الدكتور
١١٢ ـ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٧.

١١٣ ـ تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٣.

بكار: يوسف حسين
١١٤ ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ط. دار المعارف، مصر ١٩٧١.

التونجي: الدكتور محمد
١١٥ ـ حول الادب في العصر السلجوقي، ط. مكتبة قورينا، بنغازي ١٩٧٤.

جب: سير هاملتون
١١٧ ـ المدخل في الادب العربي، ترجمة كاظم سعد الدين، مطبعة دار الجاحظ، بغداد ١٩٦٩.

جميل سعيد: الدكتور
١١٧ ـ تطور الخمريات في الشعر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٥.

جواد: الدكتور مصطفى بالاشتراك مع الدكتور احمد سوسة
١١٨ ـ دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٨.

حسين: الدكتور محمد كامل
١١٩ ـ دراسات في الشعر في عصر الايوبيين، ط. دار الفكر العربي، مصر.
١٢٠ ـ في ادب مصر الفاطمية، سلسلة الالف كتاب ١٩٦٣.

حقي : الدكتور ممدوح
١٢١ ـ الابيوردي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية ، سلسلة عيون التراث العربي (٢).

حمزة : الدكتور عبد اللطيف
١٢٢ ـ ادب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩٤٨ .

خلوصي : الدكتور صفاء
١٢٣ ـ فن التقطيع الشعري والقافية ، الثالثة ، بيروت ١٩٦٦

خليف : الدكتور يوسف
١٢٤ ـ حياة الشعر في الكوفة ، ط . دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .

الزركلي : خير الدين
١٢٥ ـ الاعلام الطبعة الثانية .

الزهيري : الدكتور محمود غناوي
١٢٦ ـ الادب في ظل بني بويه ، مطبعة الامانة ، القاهرة ١٩٤٩ .

سرور : الدكتور محمد جمال الدين
١٢٧ ـ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر العربي ١٩٦٤

سلام : الدكتور محمد زغلول
١٢٨ ـ الادب في العصر الايوبي ، ط . دار المعارف ١٩٦٨ .

السمرة : الدكتور محمود
١٢٩ ـ القاضي الجرجاني ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٦ .

السوداني : مزهر عبد
١٣٠ ـ جحظة البرمكي الاديب الشاعر ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ١٩٦٨ .

شلش : محمد جميل
١٣١ ـ الحماسة في شعر الشريف الرضي ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ١٩٧٤ .

الشيبي : الدكتور كامل

١٣٢ - ديوان الدوبيت في الشعر العربي، ط . دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢ .

١٣٣ - الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، منشورات مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٦ .

صلاح الدين محمد الهادي: الدكتور

١٣٤ - اثر الصراع المذهبي بين العباسيين والفاطميين على الادب، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية دار العلوم، مكتوبة على الآلة الكاتبة، مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٦ رسائل جامعية.

ضيف: الدكتور شوقي

١٣٥ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، الطبعة السابعة ١٩٦٩ .

١٣٦ - العصر العباسي الاول، ط . دار المعارف.

الطاهر: الدكتوز علي جواد

١٣٧ - الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، جزءان: الجزء الاول، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٨ . الجزء الثاني: مطبعة العاني، بغداد ١٩٦١ .

طه ابراهيم:

١٣٨ - تاريخ النقد الادبي عند العرب، منشورات دار الحكمة، بيروت.

العاملي: السيد محسن الامين

١٣٩ - اعيان الشيعة، ج ٣٤، مطبعة الانصاف، بيروت ١٩٥٠ .

عبد الباقي: محمد فؤاد

١٤٠ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب، القاهرة ١٩٥٨ .

عبد التواب: الدكتور رمضان

١٤١ - لحن العامة، الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

العقاد: عباس محمود

١٤٢ - ابن الرومي حياته من شعره، الطبعة الخامسة ١٩٦٣ .

١٤٣ -: غرونباوم: دراسات في الادب العربي، ترجمة احسان عباس وآخرين. بيروت ١٩٥٩، منشورات دار مكتبة الحياة.

غوستان فون غياض: الدكتور محسن

١٤٤ - التشيع واثره في شعر العصر العباسي الاول، مطبعة النعمان، النجف ١٩٧٣ .

فارمر: هنري جورج
١٤٥ ـ تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، سلسلة الالف كتاب (٧).
ف بارتولد:
١٤٦ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط. دار المعارف ١٩٦٦، الطبعة الرابعة.
فك : يوهان
١٤٧ ـ العربية، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مصر ١٩٥١.
كحالة: عمر رضا
١٤٨ ـ معجم قبائل العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٩.
١٤٩ ـ معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٧.
مبارك: الدكتور زكي
١٥٠ ـ المدائح النبوية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.
مجمع اللغة العربية
١٥١ ـ معجم الفاظ القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٩٧٠.
المصري: الدكتور ذو النون
١٥٢ ـ عمارة اليمني المصري، ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦.
معروف: الدكتور ناجي
١٥٣ ـ نشأة المدارس المستقلة في الاسلام، مطبعة الازهر، بغداد ١٩٦٦.
١٥٤ ـ مدارس واسط، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٦٦.
النشار: الدكتور علي سامي
١٥٥ ـ نشأة التشيع وتطوره، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٦٩.
وافى : الدكتور علي عبد الواحد
١٥٦ ـ اللغة والمجتمع، ط. عيسى البابي الحلبي ١٩٤٥.
هدارة: الدكتور محمد مصطفى
١٥٧ ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري
ط. دار المعارف ١٩٦٣.

د ـ المجلات :

سومر (تصدرها مديرية الآثار العامة ببغداد)، العدد ٩٠ سنة ١٩٥٤، مقال للدكتور مصطفى جواد عن الربط البغدادية.

العري (كانت تصدر في النجف)، السنة السابعة، مقالات الدكتور مصطفى جواد عن أدب القرن الخامس ـ السادس.

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٤٣، مقالات الاستاذ عبد الله كنون عن ادب الفقهاء.

(الفهرست)

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
« ١١٠٤٦ لسنة ١٩٨٠ »

تصميم الغلاف : سلسبيل ناجي

دَارُ الطَّلِيعَة للطِّبَاعَة وَالنشر
بيروت

الجمهورية العراقية

وزارة الثقافة والاعلام
دار الرشيد للنشر
١٩٨٠

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والإعلان

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

السعر: ٤٥٠ فلسًا